سلسلة وثائق الإسلام - ٥

وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي

الدكتور
محمد ماهر حمادة
أستاذ في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مؤسسة الرسالة
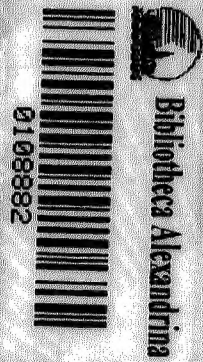
Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثائق الحروب الصليبية
والغزو المغولي
للعالم الاسلامي

سلسلة وثائق الإسلام - ٤

وثائق
الحروب الصليبية والغزو المغولي
للعالم الإسلامي

٤٨٩ - ٦١٢٠٦ هـ ، ١٠٩٦ - ١٤٠٤ م

« دراسة ونصوص »

تأليف
الدكتور محمد ماهر حمادة
أستاذ في جامعة محمد بن سعود الإسلامية

منشورات مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

الحمد لله الذي خلق فسوّى ، والصلاة والسلام على خير من اهتدى وهدى ، سيدنا محمد إمام. المرسلين وأهل التقوى ، وعلى من تبع هديه بإحسان إلى يوم العرض الأكبر . وبعد :

فيسرنا أن نقدم إلى القراء الأعزاء عامة والمختصين بالموضوع بشكل خاص العدد الخامس من سلسلة وثائق الإسلام الموسوم باسم « وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي : دراسة ونصوص » وهو يكمل سابقاته ، وخطته كخطتها ، هدفنا أن نجمع بين دفتيه أغلب الوثائق العائدة لذينك العصرين المهمين من تاريخ الإسلام ، وذلك بعد أن أخذناها من مختلف المظان ، ورتبناها وصنفناها حسب الموضوعات ، وقدمنا لهذه الوثائق بفصل تمهيدي درسنا العصر كله ، كما بدا لنا من خلال الوثائق . والله تعالى نسأل أن يفيد من هذه الدراسة وهذا الجهد . ويشكر المؤلف الله عزّ وجلّت قدرته الذي أمدّه بالعمر والصحة والنشاط اللازم لإنجاز هذا العمل ، ويرجوه جلّت قدرته أن يمدّه بسبب من عنده حتى يتمكن من إكمال حلقات هذه السلسلة من وثائق التاريخ الإسلامي حتى يصل بها إلى نهايتها المحتومة ، وهو المسؤول ، وهو القادر على كل شيء .

كما وأن المؤلف يشكر كل من ساعده ويساعد في إخراج هـذه السلسلة بشكل من الأشكال ، ويرجو الباحثين أن يمدوه بآرائهم وتوجيهاتهم وانتقاداتهم عله يستفيد منها في سبيل تصحيح منهجه وتقويم دراسته وفي الختام نشكره تعالى على ما أنعم، ونسأله المزيد من فضله، وهو المسؤول أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، وما ذلك على الله بعزيز .

٢١ ذو القعدة ١٣٩٧ هـ

٢ تشرين الثاني ١٩٧٧ م

المؤلف

محمد ماهر حمادة

فصل تمهيدي

المدخل إلى الوثائق – دراسة ونقد

تمر في حياة الأمم والشعوب أوقات حرجة، وأزمات مستعصية يكونون فيها قاب قوسين أو أدنى من الهلاك، ويشعرون وكأن القيامة توشك أن يحل أجلها، وتأخذ الأزمات بخناقهم حتى لنهم لا يستطيعون فكاكاً من قبضتها. كما وأن أغلب الأمم والشعوب هاجمها الأعداء والطامعون، وبلغوا منها، ونالوا منها إيلاماً وجرحاً ونقضاً وانتقاصاً. كما وأن اغلب الأمم والشعوب مرت ولا تزال تمر بأوقات سعيدة افتر فيها ثغر الحياة عن ابتسامة وضاءة أنارت معالم الطريق أمام هذه الشعوب وازدهرت أحوالها الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والأخلاقية. وترقى في معارج التقدم والحضارة، وتساهم أجل وأجمل مساهمة في خدمة حضارتها الذاتية أولاً، ومن ثم في بناء صرح الحضارة العالمية، والشعوب الإسلامية لم تشذ عن هذه القاعدة، فقد تعاور عليها النقيضان: من بؤس ونعيم، وخير وشر، ورفعة وخفضة، وساهمت في الحضارة العالمية مساهمة رفيعة، وأفاضت على العالمين خيراً عميماً. ثم داهمتها المصائب والأوزار من كل حدب وصوب، فتحيفتها وانتقصتها، وأعمل فيها أعداؤها معاول الهدم والتخريب مما جعلها تترنح تحت ثقل وطأة هذه الضربات، وتضطر للتقهقر الحضاري، وأن تعيش على هامش الحضارة العالمية فترة طويلة من الزمن، وعلى الرغم من أن أغلب الأمم تعرضت

وتعرض للأعداء وهجومهم عليها ، إلا أن التاريخ لم يشاهد أمة من الأمم تكالب عليها الأعداء وهاجموها بمثل الشراسة والقسوة التي هاجم بها أعداء الأمة الاسلامية هذه الأمة . ذلك أن بلاد الاسلام شاهدت ما يمكن أن يكون أشرس هجوم حضاري تتعرض له أمة من الأمم ، وذلك خلال أكثر من قرنين من الزمان ، وأعني بذلك الهجوم الصليبي الذي شنته أوربا تحت اسم الصليب على غربي البلاد الاسلامية خلال قرنين من الزمان (الخامس والسادس الهجريين / الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) ، وهجوم المغول على شرقي البلاد الإسلامية خلال أكثر من قرنين آخرين (السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) . ولقد كان الهدف من هذا الهجوم المزدوج القضا على الاسلام كدين وكحضارة ، واستئصال الدين الإسلامي من جذوره ومنابته ، وتدمير الحضارة الاسلامية المزدهرة ، وتدمير بلاد المسلمين والقضاء على المسلمين كمجتمعات وكأفراد .

ولسوء الحظ فإن البؤر الحضارية بما تحويه من ثروات ، وبما تنعم به من رخاء ، وبما تشعر به من تفوق ، وبما يتخللها بعض الأحايين من تحلل أو ضعف ناجم عن الإغراق في الحضارة ، تجذب لمهاجمتها جيرانها الهمج الأقل تحضراً ، وتغريهم بالنفوذ إلى داخلها وتدميرها ، وكأن لسان حالهم يقول لهم : هلموا إلى حيث المدنية والحضارة والرخاء والنعمة ، وكأن جميع هذه الأشياء نقم توجب أن يعاقبوا عليها أشد العقاب . وللهمج وغير المتحضرين عقلية تخالف عقلية المتحضرين : فهم يشعرون بصغارهم الحضاري أمام تفوق الآخرين في هذا المضمار ، فينقمون عليهم هذا التفوق ، ويحاولون جهدهم النفوذ إلى هذا الكيان الحضاري وتدميره للانتقام لقصورهم هم في هذا المضمار ، ولتغطية عقدة النقص

المستعصية هذه . وهذا يعلل ، إلى حد كبير ، محاولات البدو المتكررة النفوذ إلى الأماكن الأكثر تحضراً ومحاولاتهم تدميرها وهذا ما حدث في بلاد الإسلام خلال حقبة من الدهر امتدت أكثر من ثلاثة قرون، إذ هاجمتها أقوام أقل تحضراً ، وحاولوا القضاء على شعوب تلك المنطقة وعلى حضاراتها ومعتقداتها ومنجزاتها ؛ ولسوء الحظ نجحوا في ذلك إلى حد ما ، وكان نجاح المغول في القسم الشرقي من الامبراطورية الإسلامية أكبر من نجاح الصليبيين في القسم الغربي ، على الرغم من أن هدف الهجومين واحد .

ولكن حدث أن المسلمين في غربي البلاد الإسلامية كانوا أكثر تماسكاً فتمكنوا من طرد الغزاة والحفاظ على ما تبقى من تراثهم الحضاري ، على حين عجز المسلمون في شرقي البلاد الإسلامية عن الوقوف بوجه المغول ، بسبب عنف الهجوم المغولي وقسوته وتفرق المسلمين وتخاذلهم ، وعدم وجود قيادة موحدة تضم شملهم . فأصبحت بلادهم خراباً يباباً وقتل وشرد أهلها ، ودمرت معالم حضارتهم . ولم تعد الحياة إلى تلك المناطق إلا تدريجياً وبعد فترة طويلة نسبياً من الزمن ، ولما عادت الحياة ثانية إلى تلك الأصقاع كانت ضعيفة رخوة وفقدت تلك الحيوية والابداع السابقين اللذين أنتجا الحضارة الإسلامية . ولا يزال يوجد في شمالي بلاد الشام خرائب مدن كانت زاهرة قبل الغزو المغولي ودمرها المغول ، وهي الآن خربة من أمثال الرها ونصيبين وحران وغيرها من المدن ، بله خرائب المدن الكثيرة التي تركها الغزو المغولي في خراسان وإيران والعراق.

مصادر المعلومات عن الغزوين الصليبي والمغولي :

إن مصادر معلوماتنا عن الغزوات الصليبية والمغولية للبلاد الإسلامية،

هي في نفسها ، بالأعم الأغلب ، المصادر التاريخية والأدبية ، التي تحدثنا عنها في كتابنا عن الوثائق الفاطمية والأتابكية والأيوبية ، يضاف إليها الكتب التاريخية العامة ، ولذلك لن نحتاج هنا إلى دراستها بتفصيل وإنما نكتفي ببعض الإشارات . فمثلا كتاب «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسي مهم كل الأهمية ومصدر أساسي لدراسة الدولة النورية في دمشق وحياة نور الدين الشهيد في مراحلها الأولى . كما وأنه مصدر لايستغنى عنه مطلقاً لدراسة الحروب الصليبية في أولها . وكذلك الحال مع كتب مثل كتب «زبدة الحلب» لابن العديم ، وكتاب «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» لأبي شامة ، وسيرة صلاح الدين» لابن شداد وغيرها . كما وان الكتب الأدبية أو كتب الثقافة الأدبية مهمة أهمية فائقة ، ولا يفوقها شيء في هذا المضمار مثل كتاب «صبح الأعشى» للقلقشندي ، وكتاب «نهاية الأرب» للنويري ، فقد حوى هذان الكتابان ، ولا سيما الأول منهما ، نصوصاً لوثائق عائدة للحروب الصليبية والغزو المغولي ، غاية في الأهمية ، إلى جانب الدقة والضبط والشمول التي يمتاز بها كتاب القلقشندي .

أما كتب التاريخ الإسلامي العامة ، فقد يكون بعضها أكثر أهمية . لدراسة بعض النواحي من الكتب السابقة ، فكتاب ابن الاثير «الكامل في التاريخ» يعتبر أساسياً لدراسة الحروب الصليبية والغزو المغولي في أوله ؛ ذلك لأن المؤلف عاصر الحركتين ، وتأثر بها كل التأثير ، وهو في وضع يمكنه من تسجيل أحداث عصره بأمانة ودقة ، فقد كان عالماً ناقداً بصيراً ذا ذهن نيِّر منفتح وغوص على بواطن الأمور ، وكان يحاول النفوذ إلى ما تحت السطح وسبر الأغوار كما كان حيادياً وقادراً على الرؤية الواضحة والبعد عن الهوى . وكان مدركاً لأبعاد

الهجوم الشامل الذي شنه اعداء الإسلام عليه ومن الطرفين ، ونجد صدى لذلك وانعكاساً له في كتابه . ولذلك اعتبر المؤرخون كتابه هذا حجر أساس في دراسة تلك الفترة الحرجة من تاريخ الإسلام ، ويمكن أن نضيف إلى كتاب ابن الأثير هذا الكتب التي ألفها كل من المقريزي والسيوطي وابن كثير وابن تغري بردي وابن الفرات . فكتاب «السلوك» للمقريزي يحوي معلومات ووثائق تكمل معلومات كتاب «الكامل» لابن الأثير ، والمؤلف نفسه شبيه بابن الاثير من حيث بعد نظره ، وفهمه للأشياء وإدراكه لحقيقة الصراع . كذلك يمكن اعتبار كتاب ابن كثير «البداية والنهاية» ذيلاً لكتاب ابن الاثير ، وابن كثير نفسه تلميذاً لابن الأثير ، وكتاب ابن الفرات المسمى «بتاريخ ابن الفرات» إكمال وذيل للكتابين السابقين ويحوي وثائق مهمة جداً ، ونفس الحكم ينطبق على عدد من الكتب التي تقص سيرة مصر والقاهرة مثل كتاب ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» والسيوطي «حسن المحاضرة» .

على أن هناك عدداً من الكتب الأساسية المعاصرة لفترة من فترات الحروب الصليبية لابد من التنويه بها هنا .

فقد ذكرنا سابقاً ابن القلانسي وكتابه «ذيل تاريخ دمشق» ، كذلك لابد من ذكر الكتب التالية : كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» لأبي شامة ، وكتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» ، لابن شداد وكتاب «الفتح القسي في الفتح القدسي» للعماد الأصفهاني ، وكتاب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» ، لابن واصل ، وكتاب «تشريف الأنام والعصور في سيرة الملك المنصور» ، لابن عبد الظاهر ، وكتاب «مضمار الحقائق» ، لمحمد بن تقي الدين عمر الايوبي ، وكتاب «جامع التواريخ للهمذاني» .

سبق أن تكلمنا عن أغلب هذه الكتب في كتابنـا الذي ذكرناه أيضاً وهو كتاب الوثائق الفاطمية والأتابكية والايوبية . ونحب أن نضيف هنا أن هذه الكتب تحوي فيضاً من الوثائق ، وبعضها مفرد، ولاسيا كتاب الروضتين لأبي شامة الذي حوى عدداً لايستهان بـــه من الوثائق الصليبية زمن كل من نور الدين الشهيد وصلاح الدين الأيوبي. مما يلقي ضوءاً ساطعاً على الأحداث . هذا مع الدقة والضبط والصحة والتجـــرد .

أما ابن واصل ، فيورد في كتابه مفرج الكروب ، في الأعـــم الأغلب ، مقتطفات يعتقد أنها مهمة جداً فيوردها بعد أن يكون أتى بملخص عن الوثيقة ، وهو يتجاوز عصر نور الدين ليغطي جميع عهود الأيوبيين حتى بعيد سقوطهم ، فهو مهم من هذه الناحية إذ أنه يكمل عمل الروضتين .

أما كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، فقد ألفه قاضي صلاح الدين ابن شداد ليكون سجلاً لحياة هذا السلطان المجاهد ، وهو يقص سيرة صلاح الدين وحروبه ، ولكنه مهتم بذكر الأشياء الطريفة النادرة التي تبرز - في رأيه - عظمة صلاح الدين وجهاده وشخصيتـه أكثر من اهتمامه بالوثائق .

أما كتاب مضمار الحقائق ، فقد ألفه أحـد أمـراء آل أيوب ليكون سجلاً حافلاً لبطولة من انجبتهم هذه الأسرة . وإن مكانة هـذا الأمير ، الذي يكون صلاح الدين عم والده ، واطلاعه على الأحـداث والوثائق الأصلية ، تضفي على معلوماته وعلى ماينقله من وثائق أهميـــة خاصة ، ونجد فيه عدداً من الوثائق لانجدها في مكان آخر .

ولقد ألف العماد الاصفهاني كاتب صلاح الدين كتابه الموسوم باسم الفتح القسي في الفتح القدسي ليكون سجلاً جليلاً جداً وعزيزاً على قلب كل عربي ومسلم وهو استرجاع السلطان صلاح الدين لبيت المقدس وماسبق ذلك من أحداث ومارافقه وتبعه من مساجلات ومعارك ، وإن أهمية هذا الكتاب تنبع من عدد من الحقائق أهمها أن المؤلف عاصر بنفسه الأحداث التي يقص سيرتها ، ذلك أنه كان كاتباً لصلاح الدين ، وشارك عن كثب الأحداث، وشارك فيها ودبج الرسائل بقلمه ، وأرسلها للآخرين حول هذه المعركة أو تلك الحركة . وكتابه ألفه بالأساس لتمجيد صلاح الدين وتحريره البيت المقدس ، وكيف أن هذا الحادث فتق لديه ولدى الآخرين أكام البلاغة في رسائلهم ، تلك البلاغة التي تذكر ببلاغة قس بن ساعدة الإيادي المشهور ولذلك أسماه الفتح القسي في الفتح القدسي . وإن المؤلف هو الذي دبج نصوص أغلب الوثائق التي اشتمل عليها كتابه ، وكتابه مليء بهذه الوثائق . وقد أراد أن يظهر فصاحته وبلاغته تجاه هذا الحادث المهم كل الاهمية في حياة المسلمين فأثبتت نصوص كثير من الرسائل التي ألفها هو حول هذا الموضوع . والكتاب يقص سيرة الأحداث التي سبقت ورافقت وأعقبت تحرير المسلمين القدس . فهو بالحقيقة يقص سيرة فترة قصيرة نسبياً ، ولكنها فترة مهمة كل الأهمية وحافلة بالأحداث ، بل وحاسمة في تاريخ علاقاتنا بالصليبيين . ولكن الذي يشوه هذا العمل العظيم هو هذا السجع المتعمد الذي يتبعه العماد في تأليف كتابه ورسائله . قد يكون له عذر في ذلك ، إذ أن روح عصره تملي عليه هذا الأسلوب . ولكن هذا السجع يبدو ثقيلاً على أسماعنا نحن أبناء القرن العشرين الذين لم نعتد على مثل ذلك . وعلى كل فإن هذا الأسلوب لا يقلل من قيمة الكتاب الوثقية ،

ويبقى من أعظم الوثائق وأجدرها بالثقة والاعتماد التي وصلتنا عن تلك الفترة ومنها .

وهناك كتاب آخر يقص سيرة أحد ملوك المماليك ، وهو الملك المنصور قلاوون الذي عاصر أواخر الحروب الصليبية ، وكان له باع طويل في الحرب ضد الصليبيين وضد المغول ، وهو الذي حرر قسماً من الساحل السوري من أيدي الصليبيين ، وهزم الجيش المغولي في معركة من أروع المعارك التي خاضها المسلمون ضد المغول قرب حمص . ومؤلف الكتاب هو ابن عبد الظاهر كاتب الإنشاء لدى الملك المنصور ، وألفه تمجيداً لبطولات وأعمال هذا السلطان العظيم وحروبه المظفرة ضد المغول والصليبيين وأسماه « **تشريف الأنام والعصور في سيرة الملك المنصور** » . ويحوي الكتاب عدداً ممتازاً من الوثائق الصليبية والمغولية ليست موجودة في غيره ، ولا سيما نصوص معاهدات وهدن ورسائل بين الأطراف المعنية ، فهو بهذه الكيفية كنز لا يثمن .

وليس لدينا سوى كتاب واحد ، أو بالأحرى ، جزء صغير من كتاب واحد ، وصل إلينا سالماً ، خصص كله لدراسة تاريخ المغول والحركة المغولية ألفه مؤلف استخدمه المغول ليقص سيرتهم من وجهة نظرهم الخاصة بهم . هذا الكتاب هو **جامع التواريخ في تاريخ المغول** لرشيد الدين بن فضل الله الهمذاني الذي كان مؤرخ البلاط المغولي الرسمي استخدمه أبناء وأحفاد هولاكو في بلاد فارس لهذه الغاية . والمؤلف فارسي وألف كتابه بالفارسية ، ولم يصل لنا سوى جزء صغير من هذا الكتاب . ويدل أسلوب الكتاب على روح علمي ، ومحاولة يائسة للتخفيف من جرائم المغول وقسوتهم وهمجيتهم . وحوى كتابه عدداً كبيراً من

ألوثائق التي لا وجود لها في غيره ، إلى جانب معلومات وتفاصيل كثيرة لا يعلمها إلا من اضطلع بمثل مهمته وشغل مثل منصبه . وهو في كتابه يلقي الضوء على كثير من الأحداث والأمور التي جرت في المنطقـــة ، وتلقي وثائقه كثيراً من الأنوار الكشافة ، وهو بهـذا يكمل المصـادر العربية ويتناغم معها ، ولا يعارضها البتة ، ونحن نأسف كل الأسف لعدم تمكننا من الحصول إلا على هذا الجزء الصغير من هـذا الكتاب النفيس . وهناك كتاب أخير كان بودنا لو حصلنا على نسخة منه ، واطلعنا على مايحويه من وثائق إن وجد ، وهو كتاب ابن عربشاه «عجائب المقدور في حملات الأمير تيمور » الذي ألفه المؤلف عن حياة تيمورلنك وحروبه وأعماله ، وكان معاصراً له وموظفاً لديه . ولكن المؤلف لم يتمكن من الاطلاع عليه ولم تصل إلى يده نسخة منه ، ولذلك يأسف كل الأسف لذلك ، ويرجو أن يتمكن من تدارك ذلك في المستقبل بإذن الله .

هذه هي مصادر معلوماتنا ومصادر وثائقنا عن الحروب الصليبيـــة والغزوات المغولية للعالم الإسلامي بشكل عام . ولا بد أنه شذ عنا أسماء عدد من المصادر ، قد يكون بعضها مهماً ، والبعض الآخر أقل أهمية، ولكننا نعتقد اننا أتينا على ذكر الجمهرة الكبرى والأكثر أهميـة من هذه المصادر .

وهناك مصدر أخير وهو كتب الفرنج والفرس واللاتين الذين عاصروا الحروب الصليبية والغزوات المغولية ، وحضر بعضهم إلى بلادنا إبان الاحتلال الصليبي . وكذلك كتب بعض الرحالة الغربيين الذين زاروا بلاطات خانات المغول كاركوبولو وغيره من الرحالة ، وكسفير اسبانيا لدى تيمورلنك الذي ألف كتاباً عن رحلته ومقامه وسفارتـــه لدى تيمورلنك . ولكن ذلك يخرج عن نطاق بحثنا ، لأنا أخـذنا أنفسنا بالبحث عن الوثائق التاريخية في المصادر العربية أو المعربة . ثم إن جهل

المؤلف لغة تلك المؤلفات وصعوبة الحصول على نسخ منها عائق آخر دون تحقيق ذلك ، فنكتفي بذكر ذلك والتنويه به .

خطة الكتاب :

ويتألف كتابنا هذا من قسمين رئيسيين متكافئين : فقد درسنا في هذا الفصل التمهيدي العصر الذي تغطيه الوثائق من خلال الوثائق نفسها، وحاولنا إعطاء الملامح العامة لكل من الحروب الصليبية والغزو المغولي كما تبدو من خلال نصوص الوثائق المتوفرة لدينا ، ثم بعد ذلك ترد الوثائق مرتبة ترتيباً زمنياً في قسمين كبيرين : قسم الحروب الصليبية وقسم الغزو المغولي . وقد أثبتنا من أجل كل وثيقة المصدر الذي استقيناها منه مع ذكر الجزء والصفحة ، وإذا ورد ذكر لهذه الوثيقة في مصدر آخر أو أكثر من مصدر ، أشرنا إلى ذلك في أسفل الصفحة مع ذكر أسماء المصادر وأماكن وجود الوثائق ، كما وإنا أعطينا قبل إيراد نصوص الوثائق لمحة توضح الجو ، والمناسبة التي صدرت بها هذه الوثيقة أو تلك ونوعها ومن وجهها ولمن وجهت . هذا وإن أغلب الوثائق مواد مكتوبة : مراسلات رسمية بشكل خاص ، ونصوص معاهدات وهدن وما ماثل ذلك . وأما الخطب والمناظرات والحوار فنادرة كل الندرة ، وهذا شيء نابع من صميم روح العصر الذي نجمع وثائقه وندرسه ودليل عليه . وعند وجود أكثر من نص للوثيقة الواحدة أوردنا النص الذي نعتقد أنه أقرب إلى الصحة وأكمل وأدل من غيره على الأمر موضوع البحث . ولم نحاول التصدي لعملية نقد الوثائق ، فهذه عملية تخرج عن نطاق كتابنا هذا وتدخل في نطاق مهام البحاثة والدارسين والمؤلفين الذين يستعينون بهذه الوثائق لدراسة العهد الذي

تمثله ، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وادارياً وبلاغياً ولغوياً ونفسياً .
ونحب أن نعيد هنا القول: إن هذه الوثائق لا تمثل وجهة نظرنا نحن ، فإذا أوردنا وثيقة صليبية ، فهذا لا يعني أننا نتبنى وجهة النظر الصليبية في الموضوع ، وإنما جمعنا الوثائق من هنا وهناك ، بصرف النظر عن وجهات النظر التي تمثلها ، وبصرف النظر عن القطع بصحتها ، أو عدم صحتها ، وإنما كل عملنا انا جمعنا هذه الوثائق ورتبناها وصنفناها ، وبينا مصادرها ، وعلقنا على بعضها ، وقدمنا لها بفصل تمهيدي ، أومدخل للوثائق ، ووضعناها تحت تصرف الباحثين ليدرسوها ، ويقرروا فيها وتجاهها ماشاؤوا وشاءت لهم أساليب البحث وطرقه .

الحروب الصليبية ومفهومها :

للحروب الصليبية مفهومان مختلفان : الأول مفهوم واسع فضفاض ، والثاني مفهوم اصطلاحي ضيق . فالحروب الصليبية بمعناها الواسع هي الحروب التي شنتها أوربا والمسيحية بعامة ضد مخالفيها من جميع الأديان والملل والنحل والمذاهب باسم الصليب وتحت رايته لحماية الديانة الحقيقية من أرباب الديانات الأخرى ، ومن المخالفين والزنادقة والمنشقين من المسيحيين أنفسهم . وهي بهذا المعنى قديمة جداً . ولعل أول من استغل الروح الدينية وأعلنها حرباً صليبية ضد أعداء الدولة وأعداء الكنيسة هو هرقل امبراطور الامبراطورية البيزنطية بين سنتي ٦١٠ و ٦٤١ م . ذلك أن هذا الامبراطور حارب الفرس وطردهم من البلاد التي احتلوها في آسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر واستعاد الصليب المقدس وبيت المقدس منهم ، وكان يضطرم بروح دينية عالية جداً للقضاء على أعداء الدين ، وكانت الكنيسة تساعده وتسانده ، وقد

أعلنها حرباً صليبية حقيقية ونجح فيها ، ولذلك لقب هرقل بلقب أول الصليبيين . ثم توالت الحروب الصليبية ضد المخالفين ، وضد معتنقي الديانات الأخرى وخاصة الإسلام .

فالحروب التي دارت رحاها بين المسلمين وأعدائهم في شبه الجزيرة الايبرية كانت حروباً صليبية حقيقية وساهمت بها البابوية أكبر مساهمة. كذلك كانت حروب البيزنطيين المستمرة في بلاد الشام ضد الحمدانيين والسلاجقة من هذا النوع ، وكان القوم يضطرمون حماساً دينياً في حربهم المقدسة ضد أعدائهم المسلمين . ولما بدأت الحروب الصليبية المعروفة بالمعنى الاصطلاحي الضيق كانت الكنيسة هي التي دعت لها ، وغذتها وأعدت لها وسارت الجيوش كلها تحت لواء الصليب لنصرة الدين الحقيقي واسترجاع قبر السيد المسيح ، وقتل واستئصال الكفرة ، وظلت هذه الحروب مستمرة أكثر من قرنين . ولما عجزت البابوية عن تحقيق غايتها ظنّ الناس أن فكرة الحروب الصليبية قد ماتت وانفضت واصبحت كأمس الدابر ، ولكنهم كانوا واهمين . ذلك أن أوربا تمتاز أكثر ما تمتاز بتعصبها ، فقد شنت الكنيسة الكاثوليكية حروباً صليبية كثيرة ضد مخالفيها من المسيحيين والمنشقين ، وفعلت بهم الأفاعيل . ولما أتى الإصلاح الديني في أوربا أوائل القرن السادس عشر ، وانشقت الكنيسة على نفسها إلى شيع وأحزاب حاربت هذه الفرق المتناحرة بعضها بعضاً تحت لواء الصليب ، وكانت كل فرقة تغلي حماساً دينياً وتتعصب كل التعصب لمذهبها وضد الآخرين ، وخضبت صفحات التاريخ بدماء ضحاياها وسودتها بأفعالها التي اقترفتها باسم الدين والمسيح ، والدين والمسيح من ذلك كله برآء .

ولما تأسست الامبراطوريات الكبرى في الغرب ، وبدأ عهد الاستعمار الأوربي للعالم الجديد وللشرق انضافت إلى فكرة الحروب الصليبية أفكار أخرى منها القومي ومنها الاقتصادي ومنها التسلطي ومنها التجاري ، ولكن لم تختف فكرة الحروب الصليبية، وإنما غلفت ببعض الشعارات الأخرى البراقة . ولقد حاربت أوربا بعضها بعضاً خلال الحربين العالميتين الماضيتين حروباً صليبية ، ولكن اختلفت الشعارات فقط . أما الروح فظلت كما هي روحاً حاقدة تقتل الآخرين بمنتهى القسوة تحت شعارات ومبادىء القومية والوطنية والمجال الحيوي والدفاع عن الوطن وإيجاد المستعمرات والفاشية والنازية والشيوعية والدفاع عن العالم الحر وما إلى ذلك .

أما المعنى الاصطلاحي الاختصاصي الضيق للحروب الصليبية فيقصد به تلك الحروب التي شنتها أوربا ضد الإسلام بخاصة في بلاد الشام والأناضول ومصر وتونس لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين ، والقضاء عليهم ، واسترجاع البيت المقدس وقبر السيد المسيح ، وذلك خلال الفترة بين عامي ١٠٩٦ و ١٢٩١ م .وقد أتت هذه التسمية من صليب صغير أحمر مصنوع من القماش كان يلصق على كتف الفارس المزمع السفر إلى بلاد الإسلام للحرب . ولقد كانت الكنيسة الكاثوليكية تتقد حقداً على الإسلام والمسلمين وبغضاً له ولهم ، وكانت آنذاك في دور من أدوار قوتها ونهضتها ، فقررت أن تحقق حلمها الذهبي بالقضاء على الإسلام في عقر داره . هذا مع العلم أن جهود أوربا وبيزنطة للقضاء على الإسلام سابقة على الحروب الصليبية . فقد بدأت أوربا كلها تغذي الأسبان وتمدهم بالمساعدات ليتمكنوا من القضاء على الإسلام في شبه الجزيرة الإيبرية . وكانت بيزنطة في حالة حرب متواصلة ضد المسلمين منذ عهود

حروب التحرير الأولى التي حدثت زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، والتي أدت إلى تحرير بلاد الشام ومصر وشمالي افريقيا من الاحتـــلال البيزنطي . ولقد حدث بعد عهـد الأمويين وأوائل العباسيين أن ضعفت البلاد الإسلامية ، وتقسمت إلى عدد كبير من الدويلات المتفرقـــة ، فاستغلت بيزنطة هذه الفرصة ، وشنت هجوماً عنيفاً على البلاد الإسلامية استمر فترة تزيد على القرنين ، واسترجعت عدداً من مراكز الحدود في شمالي العراق وبلاد الشام . وكذلك لما ضعف المسلمون في الأندلس وانقسمت بلادهم إلى دويلات كثيرة تعرف باسم دول الطوائف ، استغلت الكنيسـة هذه الفرصة ، وشنت حرباً مقدسة ضد الإسلام كدين وضـد المسلمين في الأندلس ، واستطاعت أن تحقق كثيراً من المكاسب . ولكن حدث في تلك الآونة حدثان لم يكونا في حسبان الكنيسة ، وكانا السبب في قلب خططها رأساً على عقب فقد حدث أن نبمت في شمالي إفريقيا دولة المرابطين القـوية تحت زعامة يوسف بن تاشفين ، واستنجد مسلمو الأندلس بهذه الدولة وزعيمها ، فأنجـدهم وأبحر بقواته إلى الأندلس ، وهناك اصطدم مع الاسبانيين بقيادة ملكهم الفونسو السادس في معركة الزلاقة الشهيرة سنة ١٠٨٦ م ، فكسرهم شر كسرة وأوقف زحفهم في الأندلس ولو إلى حين . وأما الحدث الثاني ، فقد تم بشكل هجرة قبائل بدوية تركية مقاتلة ، هاجرت من موطنهـا الأصلي في تركستان واتجهت غرباً إلى العالم الإسلامي ، وهناك اعتنقت هذه القبائل الإسلام وأصبحت من أشد المتحمسين لهذا الدين ، ونفذت إلى العـالم الإسلامي واستلمت الزعامة في بغداد ، تحت ظل الخلافـة العباسية ، في القرن الحادي عشر الميلادي ، وأصبح زعيمها طغرلبك حاكـماً وسلطاناً في

بغداد ، يدعى له على المنابر إلى جانب الخليفة العباسي ، وكان ذلك سنة ٤٤٧ هـ ، وتبع ذلك تدفق الجيوش السلجوقيـة على بلاد الشام ومصر ، وبدأت زحفها وهجومها على الأناضول . وهناك اصطدمت مع الجيوش البيزنطية بمعركة منزيكيرت (ويقـــال لها ملاذ كرد) شرقي الأناضول سنة ١٠٧١ م . وكان الب أرسلان قـائد السلاجقة ، وروما‌ن ديوجين قائد البيزنطيين ، وكانت نتيجة هذه المعركة نصراً مؤزراً للسلاجقة على البيزنطيين . وبهـــذه المعركة زال الخطر البيزنطي عن بلاد الشام وحبط مخطط الإطباق على العالم الإسلامي من الشرق والغرب . كما وأن هذه المعركة فتحت أبواب الأناضول أمام هجرة القبائل التركية ، بحيث لم تمض سوى حقبة من الزمن حتى أصبح الأناضول بأغلبه تركيا .

وأمام هذه المعوقات لم يكن أمام أوربا والكنيسة الكاثوليكية إلا أن تغير خططها لتدمير الإسـلام ، فاتجهت الآن لتوجيه الهجوم إلى القلب بدلاً من الإطباق على الإسلام من جناحيه . ولسوء الحظ نجحت أوربا والكنيسة الكاثوليكية في مخططاتها هذه لفترة من الوقت ، وذلك بسبب ضعف المسلمين ، وانقسامهم على أنفسهم ، بعـد موت ملكشاه السلجوقي وانقسام امبراطوريته بين أولاده الثلاثة ، والحروب الطاحنة الدامية التي دارت بينهم ، وبسبب ضعف الدولة الفاطمية في مصر وعدائها للسلاجقة ، وبسبب وجود عدد من دويلات المدن في بلاد الشام كدولة البوريين في دمشق ، ودولة آل عمار في طرابلس الشام وغيرهمـا . كل ذلك ساعد على النصر السريع الذي حققه أوائل الصليـبيين ، وعلى تحقيق حلم من أعز وأغلى أحلام الكنيسة الكاثوليكية ، وهو استرجاع بيت المقدس من المسلمين ، وتأسيس أربع إمارات صليبية في بلاد الشام تدين بالولاء للبابوية ، مما جعل الملاحظ السطحي للأحـداث يعتقـد أن

مشروع البابوية الكبير في القضاء على الإسلام قد أصبح قـاب قوسين أو أدنى . ولكنهم كانوا واهمين ، فللإسلام أصالته وقوته ، وهـو قوة يخشى بأسها ، ويحمل في ثناياه بذور قوته واستمراره بإذن الله ، ولم يكن من الممكن أن يستمر الوضع بهذا الشكل وأن يقبل المسلمـون بهذا الأمر ، ولذلك ظهرت ردود فعل مختلفة ، وظهر أبطال عظماء حملوا راية الجهاد عالية خفاقة ضد الغزاة والمعتدين من أمثال عز الدين الزنكي ، ونور الدين الشهيد ، وصلاح الدين الأيوبي ، والظاهر بيبرس ، وتمكنوا بعد معارك بطولية وملاحم أشبه بالأساطير من تحطيم أسطورة التفوق الصليبي ، وردوا الصليبيين إلى بلادهم يجرون أذيال الخيبة والخذلان .

ولقد تعلمت أوربا درساً رهيباً من الحروب الصليبية : وهـو أن لاتشن بعـد الآن على الإسلام حرباً جبهية باسم الدين ، وإنما عليها أن تعمد إلى وسائل أخرى ، وشعارات أخرى من أجل تحقيـق الغاية الرئيسية الرامية إلى القضاء على الإسلام . ولذلك نجد أن الحروب الصليبية قد استمرت موجهة من أوربا ، ولاتزال ، ضد الدين الاسلامي وضد العرب والمسلمين ، والغاية الرئيسية إزالة الاسلام كدين وكقوة عالمية بحسب حسابها ، ليسهل للقوم التحكم في هذه البقعة من العالم ، واستعباد شعوبها وامتصاص خيراتها .

وإن أوربا تعلم حق العلم أن الإسلام قوة عظمى . وقـد جربت الصدام المباشر فلم تحقق ماكانت تصبو إليه . وانضافت إلى الدوافع القديمة دوافع جديدة من سيطرة ، واستعمار ، ومجال حيوي ، ومناطق نفوذ واستثمار ، وإيجاد أسواق ، وماشاكل ذلك . وحـدث في نفس الوقت الذي ارتقت فيه أوربا أن انحط المسلمون فأتاح ذلـك لأوربا فرصتها الثمينة لتحقيق أحلامها القديمة ، ولم ينقض القرن التاسع عشر

حتى كان القسم الأعظم من العالم الإسلامي قد سقط بين براثن الاستعمار الأوربي ، وأفلح القوم في القضاء على الخلافة الإسلامية في أوائل هذا القرن ، وخيل للناظر أن أوربا حققت حلمها القديم في القضاء على الإسلام . ولكن فترة مابين الحربين شاهدت نضالاً بطولياً خاضته الشعوب الاسلامية ضد المستعمرين ، وتمكنت بعد الحرب العالمية الثانية أن تسترد شخصيتها ، وأن تحقق استقلالها وتطرد المستعمرين . ولقد أحدث هذا الأمر ردة لدى أوربا التي لم تغير روحها الصليبية القديمة ، ولذلك فقد غيرت أوربا بشقيها الغربي والشرقي ، مخططاتها ، وقررت أن تحاول القضاء على الدين الإسلامي والعقيدة الإسلامية على اعتبار أنها قوة ديناميكية خلاقة ، من الداخل وبأيدي أبنائه . ولذلك بدأت المرحلة الثالثة من مراحل الحروب الصليبية ، ومجالها الفكر والعقيدة والغزو الفكري والتشكيك بطريقة غير مباشرة وبأيدي فئة منتحلة للإسلام ظاهراً ولكنها انسلخت منه وبدأت تعمل على هدمه باسم التمدن والتجديد وملاءمة العصر ، ذلك أن التجربة علمت أوربا عدم جدوى الهجوم المباشر ، كما علمتها أن الوسائل القديمة كالتبشير وفتح المدارس لم تعد تعطي ثمارها المرجوة بعد أن تنبه القوم لخطرها . ولذلك لجأت إلى هذه الطريقة وهي تؤمل بواسطتها أن تحقق ماعجزت عنه جهود مئات السنين من الاستعمار والحروب والتبشير أن يحققها . ولكنا على ثقة أن الله تعالى الذي تكفل لهذا الدين بالبقاء والنصر ، لن يتخلى عن أتباعه المخلصين ، وأن النصر لهذا الدين بإذن الله ، ولاسيما وأن الصيرورة الحضارية تقتضي ذلك . ذلك أن الشرق له شخصيته المميزة له ، وأن العمود الفقري للشرق كله ، بمعناه الواسع ، هو الإسلام الذي هو صلب الشرق . ولنا في الجزائر وانتصارها على الاستعمار

الفرنسي أكبر دليل على ذلك . ذلك أن الفرنسة سارت في الجزائر شوطاً بعيداً في أوائل هذا القرن حتى خيل للفرنسيين أن الجـــزائر أصبحت فرنسية ، ولكن ذلك كان وهماً فإن تمسك الجزائر بإسلامها حفظ عليها شخصيتها المميزة لها ، وحفظ لها بالتالي عروبتها ، ومكنها أن تقف في وجه أقسى استعمار عرفته العصور الحديثة ، وأن تنتصر عليه.
وقد وجه كثير من المؤرخين الغربيين إلى المسلمين بعامة ، وإلى المؤرخين المسلمين بخاصة ، تهمة عجزهم عن التمييز بين الحروب التي سبقت الحروب الصليبية بمعناها الإختصاصي الاصطلاحي الضيق ، وبين تلك الحملات والحروب ، ذلك أنهم يطلقون على جميع من حاربهم اسم الفرنج أو الفرنجة وهذا التعميم في التسمية دليل عندهم على قصور المؤرخ المسلم وعجزه عن استيعاب التغيرات التي حدثت وتحدث على مسرح التاريخ .
ولكن الحقيقة هي خلاف ذلك . إذ الملاحظ أن المؤرخـين المسلمين كانوا منتبهين كل الانتباه إلى هذه الغزوات التي أتتهم من بـلاد ماوراء البحر حسب تعبيرهم ، وهم يعرفون شعوب الألمان والفرنجة والانكلتار والارذمانيين وغيرهم ، وهم يعرفون أنهم شعوب مختلفة تسكن أماكن مختلفة ، ولكل عادات وتقاليد مختلفات ، ولهم حكام متنوعون ، ولكن يجمعهم شيء واحد هو بغضهم للإسلام وأهله . ولكن نظـرة المؤرخين المسلمين أرحب وأعمق من نظرة من يتهمهم بالعجز عن إدراك السمات الكثيرة المميزة للحركة الصليبية ، ذلك أن القوم أدركـوا أن العدو واحد على مدى الأزمان والأماكن ، وإن تعددت الأسمـاء والشعارات ، كما أدركوا أن هدف هؤلاء الأعـداء واحد ، وهو القضاء على الإسلام . فلا يهم المؤرخ المسلم أن يعلم أن فريدريك الثاني يختلف عن ريمون دوسانجيل مثلاً ، وإنما يعلم المؤرخ المسلم أن هدف

فريدريك الثاني وهدف ريمون دوسانجيل واحد على الرغم من بعد الزمان والمكان . وهدف البيزنطيين الشرقيين هو نفسه هدف أوربا الكاثوليكية على الرغم من الخلاف بين الطرفين . وهكذا عالج القوم الحركة الصليبية على أنها امتداد للعداء الذي يكنه الغرب للاسلام ، وحلقة من سلسلة المحاولات التي قام بها أعداء الإسلام ولايزالون يقومون بها لإنزاله عن مكان الصدارة وتدميره والقضاء عليه كدين وكعقيدة وكحضارة .

وهنا نحب أن ننوه أننا سنستعمل تعابير الحروب الصليبية أو الحركة الصليبية أو الصليبيين بمعناها الاختصاصي الاصطلاحي الضيق إلا إذا نبهنا على العكس .

مراحل الحروب الصليبية :

ولقد استمرت الحروب الصليبية فترة تقارب القرنين من الزمان ، وتعددت ساحاتها ، وتراوحت بين مد وجزر ، ولذلك نقسم مراحل هذه الحروب إلى ثلاث مراحل تسهيلاً للبحث والدرس ، وإن كنا لانعتقد بجدية هذا التقسيم : فهناك دور التفوق الصليبي ، وهناك دور توازن القوى ، ويأتي أخيراً دور الانهيار الصليبي .

دور التفوق الصليبي :

قلنا - فيا سبق - إن معركة ملاذكرد التي وقعت في آسيا الصغرى بين السلاجقة والبيزنطيين كانت من الأسباب المباشرة في توجيه الصليبيين إلى بلاد الشام . والواقع ، لقد هال حكام بيزنطة زحف السلاجقة في قلب آسيا الصغرى واستيطانهم بها ، فأرسلوا يستنجدون بأوربا من

أجل دفع هذا الخطر الداهم ، كما تدل على ذلك رسالة الامبراطـور البيزنطي الكسيس كومنين الأول إلى روبرت الأول أمـير الاراضي الواطئة حوالي عام ١٠٨٨ م . فقد رسم هذا الامبراطور في خطابـه صورة قاتمة جداً للوضع في بلاده نتيجة زحـف السلاجقة في آسيا الصغرى ، وعدّد أسماء الأماكن التي احتلوها ، وأوهم الغرب أن القسطنطينية على وشك السقوط بيدهم إن لم يبادروا لنجدتها وإنقاذها وهو يعدهم ويمنيهم المجد في السماء والذهب في الارض ... فكنـائس القسطنطينية ملأى بكنوز من الفضة والذهب والحلي والأحجار الكريمة والمنسوجات الحريرية التي تستخدم في صنع الأردية والملابس التي تكفي جميع كنائس العالم [١] .

كذلك نجد نفس الصورة في خطاب البابا أوربان الثاني الذي ألقاه في كليرمونت داعياً إلى الحروب الصليبية . فهو يصف السلاجقـة : إنهم شعب لعين وأبعد ما يكون عن الله تعالى ، ويخلط الحقائق مع الخيال ، فيذكر احتلالهم بعض أراضي الامبراطورية البيزنطية ، وينسب إليهم أعمال السلب والنهب والسرقة والقتل وما ماثل ذلك . ثم يبـدأ بإثارة عواطف الكبرياء لدى الفرنسيين [الفرنجة] ويذكرهم بماضيـهم المجيد زمن شارلمان وغيره من الملوك : وأنهم أقوى البشر وأجـدرهم وأكثرهم أهلية للانتقام من ذلك الجنس الملعون وإنقاذ قـبر السيـد المسيح ، ويعدهم أن يرثوا خيرات بلاد الشام والأرض الـتي تفيض لبناً وعسلاً ، ويعدهم النصر على الأعداء والدخول في ملكوت السموات[٢]

---

(١) يوسف ، جوزيف نسيم . العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية الأولى . الطبعة الثانية . القاهرة . دار المعارف ، ١٩٦٧ م . ص ٣٠٧-٣٠٩ .

(٢) ديورانت ، و ل . قصة الحضارة . تعريب محمد بدران . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠م ج ١٥ ، ١٥-١٦ .

ولكن الطريف في هذا الخطاب هو ما أبداه البابا من أن القدس تقع في وسط العالم [1] وهو اعتقاد ظلت تعتقده الكنيسة فترة طويلة من الزمن ولاندري من أين أتاها .

ولقد أدهش إمبراطور بيزنطة الكسيس كومنين ، بكياسته وذكائه ولباقته وثرائه وحضارة بلاده أنصاف الهمج الصليبيين الذين احتكوا به أثناء اجتياز جموعهم بلاده في طريقها إلى بلاد الشام ، ذلك أن هذا الامبراطور ، لدوافع كثيرة ، استقبل جيش الصليبيين استقبالاً عظيماً وغمرهم بالتحف والهدايا ، وأطعم الفقراء منهم ، وخص الرؤساء بالمزيد من بره وعطفه حتى انطلقت ألسنتهم بمدحه والتغني بكرمه كما فعل الكونت أتين في خطابه الذي أرسله إلى زوجته من المعسكر الصليبي قرب نيقية عام ١٠٩٧ [2] .

ولقد ساعد التشتت الاسلامي واختلاف الكلمة وتفرق الأهواء ، والحروب الداخلية بين الحكام والأمراء ، ومحاولة كل حاكم وأمير أن يدفع الخطر عن نفسه ولو على حساب جاره ـ الصليبيين أن يحتـــلوا الساحل السوري ، أو بالأحرى القسم الأكبر منه بدءاً من أنطاكية في الشمال حتى حدود مصر ، وأن يؤسسوا أربع إمارات هي مملكة القبر المقدس ، وإمارة طرابلس ، وإمارة أنطاكية ، وإمارة الرُّها . وكانت هذه الإمارات تابعة ، إقطاعياً ، إلى مملكة القبر المقدس وملكها ومما مكن للصليبيين في بلاد الشام ، عدا العوامل الكثيرة التي ذكرناها سابقاً ، وجود عدد من الخونة كانت تساعد الصليبيين الغزاة ضد أبنـــاء

---

(١) نفس المصدر .

(٢) يوسف ، جوزيف نسيم . المصدر المذكور آنفاً : ٣٢٩-٣٣٠ .

البلاد ، كما فعل الزراد لما سلم أحد أبراج أنطاكية لتانكرد لقاء جعل معين [1] كما وأنهم استفادوا من الخلافات بين الحكام المحليين ، فكانوا يتحالفون مع هذا ضد ذاك حتى يربحوا من الطرفين . ولقد وقفت بقية البلاد الاسلامية موقف المتفرج من هذا الهجوم المحموم ، ولم يصطل بناره إلا أهل بلاد الشام ومصر . بل إن طغتكين حاكم دمشق خاف أن يثير إنجاده صور ضد الصليبين غضب وعداء الملك الأفضل حاكم مصر الفعلي ووزير الخليفة الفاطمي ، لأن البلد تابعة له ، فأرسل له رسالة يعتذر ويعد بتسليمها لمن يرسله الأفضل لاستلامها [2]. كذلك نلاحظ أن الخلافة العباسية وقفت موقفاً سلبياً من هذه الحركة الهائلة ، ولم يكن لها دور فعال في الصراع ضد الغزاة ، ولم يتمكن ملوك السلاجقة من القيام بعمل إيجابي فعال لإنجاد الشام وأهله باستثناء بعض المحاولات البسيطة ، وباستثناء عماد الدين زنكي وابنه نور الدين، اللذين نبعا أولاً في شمالي العراق ، ثم وحدا شمالي العراق مع القسم الشمالي من بلاد الشام فإن بلاد الشام ومصر اعتمدت على قواها الذاتية في صد هذه الغارات الوحشية البربرية . ولقد كان للأعمال الإرهابية البربرية التي قام بها الصليبيون في كل مكان حلوا فيه ، أنطاكية ، معرة النعمان، القدس ، طرابلس .. الخ أثر كبير على نفسية السكان ، ولكن غلب حب الانتقام والرغبة في أخذ الثأر على الخوف واليأس . ولكن

(١) ابن العديم . كمال الدين عمر بن أحمد . زبدة الحلب من تاريخ حلب . تحقيق سامي الدهان . دمشق ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٥١-١٩٦٨ م ، جـ ٢ - ١٣٤ .

(٢) ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة . ذيل تاريخ دمشق ، تتلوه نخب من تواريخ ابن الأزرق الفارقي وسبط ابن الجوزي والحافظ الذهبي . تحقيق آمدروز . بيروت . مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٨ م . ص ١٨٢ .

هناك حادثاً واحداً فت في عضد السكان وأصابهم باليأس ، لفترة وجيزة ، وهو اغتيال مودود حاكم الموصل الذي جمع جيشاً قوياً من الموصل وحضر إلى دمشق ليتوجه منها إلى قتال الصليبيين ، ولكن حدث أن اغتاله باطني في جامع بني أمية يوم العيد ، وأدى ذلك إلى تفرق الجيش وتبدد الآمال التي عقدها المسلمون وأهل دمشق بخاصة عليه وعلى جيشه . ونجد هذا اليأس الموقت مجسداً في رسالة يذكر ابن الأثير وغيره من المؤرخين أن ملك الفرنج في القدس أرسلها إلى طغتكين حاكم دمشق يقول له فيها لما سمع ماحدث لمودود : إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها [1] . وطبعاً هذه رسالة خيالية إذ لايمكن أن يرسل ملك القدس مثل هذه الرسالة لأن موت مودود أنقذه وأنقذ مملكته ، وكل وهن يصيب المسلمين في صالحه . ولكن هذه الرسالة تعكس الشعور العام الذي أصاب المسلمين وسكان دمشق لما رأوا أحلامهم وآمالهم تتبخر هكذا وبمنتهى السهولة .

ولقد منع تعدد الحكام في كل مكان ، وحرصهم على مراكزهم ، وخوفهم من الآخرين أن يزيحوهم عن أماكنهم ويحلوا محلهم ، وفقدان الثقة بين الجميع ، إلى جانب الأنانية المفرطة ، وسوء الظن المتبادل ، من أن يتحد الجميع في جبهة واحدة متماسكة تقف في وجه العدو حتى في أوقات أشد الأزمات عنفاً . فهذا حاكم دمشق أنر حاصره الفرنج في دمشق بجيش قوي جداً ، وذلك إبان الحملة الصليبية الثانية ، واستنجد بعدد من ملوك الإسلام ليمدوه بالعساكر . وقد حضر إلى

---

(١) ابن الأثير ، أبو الحسن عز الدين علي . الكامل في التاريخ . القاهرة ، دار الطباعة المنيرية ، ١٣٥٦ هـ . جـ ١٠ - ٤٩٧ .

لنصرته سيف الدين بن عز الدين زنكي ملك الموصل ، وطلب منه أن يسلمه دمشق حتى يكون بمأمن من الغدر ، وفي حال الهزيمة يجد مكاناً هو وجيشه يعتصم به : فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي ... وكانت الهزيمة علينا لايسلم منا أحد لبعد بلادنا.. وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها . وإن أردت أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلم البلد إلى من أثق به . وأنا أحلف لك ، إن كانت النصرة لنا على الفرنج أني لا آخذ دمشق ولا أقيم فيها إلا بمقدار ما يرحل العدو عنها وأعود إلى بلادي [1] .

ولكن أنر لم يطمئن إلى ذلك وظل على خوفه وحذره ، ولذلك لجأ إلى المراوغة ، واتخذ من قدوم ملك الموصل ورقة رابحة يلعب بها ، وراسل الفرنج الذين قدموا من أوربا في هذه الحرب ، وخوفهم من قوة ملك المشرق وهددهم بتسليم دمشق إليه إن لم يرحلوا . كذلك راسل الفرنج المقيمين في بلاد الشام وخوفهم وحذرهم ومناهم ووعدهم ، وتمكن بهذا الأسلوب من شق جبهة الفرنج وإنقاذ دمشق وإبعاد الخطر الصليبي عنها ، ولم يسمح لملك الموصل بدخول دمشق [2] .

ولم يكن حال الفاطميين في مصر أفضل من حال حكام بلاد الشام . فقد هاجم الصليبيون مصر وهددوا القاهرة نفسها ، واستعان بهم الوزير الفاطمي شاور ضد أخصامه ودفع لهم الجزية . ولكن الصليبيين لم يكن يقنعهم هذا الوضع ، وحاولوا احتلال مصر جملة واحدة ، مما اضطر شاور والخليفة العاضد إلى الاستنجاد بنور الدين

---

(١) ابن الأثير ، أبو الحسن عز الدين علي التاريخ الباهر في تاريخ أتابكة الموصل . ص ٨٩ .

(٢) نفس المصدر .

الشهيد ، الذي لبى النداء وأنجد الفاطميين بجيش قـوي على رأسه أسد الدين شيركوه أقوى قواده . ولقد كان لأسد الدين مطامـع واسعـة أراد تحقيقها في مصر ، ولم يكن شاور ممن يؤمن بمبـدأ سوى مبـدأ مصلحته الذاتية الأنانية ، ولو تم ذلك على حساب بلاده ودينه وربه ، ذلك أنه بعد أن حضر أسد الدين إلى مصر وأبعد الصليبيين عنهـا طلب منه شاور الرحيل عن مصر ، ولكنه ماطل في ذلك ، فالتجأ شاور إلى ملك القدس يستنصره ضد أسد الدين ويخوفه مغبة بقائه في مصر ، مما جعل ملك القدس يتحالف مع شاور ضد أسد الدين ويحاربه حتى تمكنا من إخراجه من مصر [1] .

ولقد تكرر هجوم الصليبيين على مصر ، وتكرر استنجـاد شاور والعاضد بنور الدين ، وإرسال أسد الدين إلى مصر وإبعاد الخطـر الصليبي عنها ، ثم يلجأ شاور ، من جديد ، إلى الاستنجاد بالصليبيـين أنفسهم في سبيل إبعاد أسد الدين عنها ، حتى اضطر نور الدين أن يرسل أسد الدين ومعه ابن أخيه صلاح الدين بجيش قـوي إلى مصر بقصـد البقاء فيها ، وإنقاذها نهائياً من يد الأعداء الخارجيين والحكام المحليين. وقد تم ذلك بنجاح إذ قتل شاور وألغيت الخلافة الفاطمية ، وتوحدت بلاد الشام ومصر في جبهة واحدة ضد العدو المشترك .

دور توازن القوى :

لم يكن لهذا الوضع أن يبقى ويستمر في العالم الاسلامي . ذلك

---

(١) أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل . كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية . تحقيق محمد حلمي محمد أحمد . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٦ م ج ١ ، ق ٢ - ٤٢١

أن القوم شعروا بالخطر الذي يتهددهم ، وظهر بعض الزعماء الأقوياء الذين أدركوا الخطر على حقيقته ، وأدركوا أن العلاج الوحيد للوقوف في وجه هذا الخطر ، ومن ثم للقضاء عليه يكمن في الوحدة . ولذلك بدأ أول هؤلاء الزعماء عمله بأن وحد بين الموصل وحلب وتمكن أن يدق المسمار الأول في نعش الصليبيين في بلاد الشام . ذلك أن زنكي أسس سلالة حاكمة في الموصل وتلقب بلقب عماد الدين ، وشنها حرباً حرباً لاهوادة فيها ضد الصليبيين ، وفي نفس الوقت بدأ عملية التوحيد التي أتمها من بعده ابنه نور الدين ومن بعدهما صلاح الدين الأيوبي . ويعتبر استرجاع الرها الذي أنجزه عماد الدين بداية عصر توازن القوى بين الطرفين . ولقد حارب عماد الدين الصليبيين والروم وحلفاءهم عدداً كبيراً من المرات ، وكسرهم في أكثر من معركة ، وترك لابنه نور الدين أن يتم معركته المزدوجة وهي إتمام الوحدة ، والقضاء على الصليبيين .

عصر نور الدين الشهيد :

يعتبر عصر نور الدين الشهيد وعهده مهماً كل الأهمية لأنه أكمل عمل والده ، وتمكن أن يستخلص دمشق ويضمها إلى ملكه ، كما أنه تمكن أن يلغي الخلافة الفاطمية ويضم مصر إلى ممتلكاته . وفي نفس الوقت تابع حروبه ضد الصليبيين ، وصب عليهم الهزائم واسترجع منهم عدداً كبيراً من البلدان في بلاد الشام مثل حارم ومعرة النعمان في الشمال ، وبانياس في الجنوب . وعلى الرغم من أن الوفاة النورية أحدثت هزة كبرى وأصابت عمليتي الوحدة والتحرير بنكسة كبيرة ، إلا أن العمليتين قيض لهما من يستأنفهما بنفس الهمة والنشاط الذي أبداه نور الدين . ذلك أن صلاح الدين الذي أصبح حاكم مصر الفعلي بعد وفاة

عمه أسد الدين شيركوه ، استقل بحكم مصر لما توفى نور الدين وخلف ولداً قاصراً التف حوله عدد من الأمراء العاجزين المتحاسدين زينوا له عداء صلاح الدين وتقاعسوا في حروبهم ضد الفرنج ، حتى لقد بلغ بهم الأمر أن راسلوا الفرنج الذين حاصروا حصن بانياس (في جنوبي دمشق) بعد وفاة نور الدين ولم يحاربوهم ، وإنما لجأوا إلى تهديدهم بصلاح الدين وسيف الدين صاحب الموصل ... ونطلب بلادكم من جهاتها كلها فلا تقومون لنا . وأنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين . والآن فقد زال ذلك الخوف ، وإذا طلبناه إلى بلادكم لايمتنع [1]... ولقد كان ذلك كافياً ليجعل الصليبيين ينسحبون عن الحصن ، ولكن بعد أن حصلوا على مقدار من المال وأطلق لهم المسلمون سراح عدد من الأسرى .

ولقد أغضب هذا الاتفاق المهين صلاح الدين غضباً شديداً ، وأرسل إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون رسالة يوبخه على الاتفاق السابق ، كما أرسل إلى عدد من الأمراء حول الملك الصالح بن نور الدين كتباً مماثلة ، ويخبر أحدهم في إحدى هذه الرسائل أنه لما سمع بحصار الفرنج الحصن سار بجيشه من مصر قاصداً نجدة الحصن ، ولكنه سمع بنبأ الهدنة المؤذنة بذل الاسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى..[2] وبقية بلاد المسلمين مادخلت في العقد ولا انتظمت في سلك هذا القصد ، والعدو لها واحد ... فرأينا أن سيرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي وإخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك ،

---

(١) ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم . مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي جـ ٢ / ٧ .

(٢) أبو شامة ، المصدر المذكور آنفاً جـ١ ، ق ٢ - ٥٨٩ .

وأنه ربما عجز عن الاستدراك ، وأن العدو طالب لايغفل ، وجاد لاينكل ، وليث لايضيع الفرصة ، مجد لايميل إلى الرخصة [1] .

عصر صلاح الدين الأيوبي :

ورث صلاح الدين تركة مثقلة ، ولكنه تمكن بعد حروب طاحنة ومعارك رهيبة وجهود مضنية أن يعيد توحيد مملكة نور الدين تحت قيادته ، كما تمكن أن يحقق أحلام المسلمين باسترجاع بيت المقدس وأن يقف بصلابة في وجه أشرس هجمة قامت بها أوربا ضد البلاد الإسلامية حتى ذلك الوقت ، وحطم جيوش أوربا وكبرياء ملوكها ، وخصوصاً ريشارد قلب الأسد ملك انكلترة كما سيورد تفصيلاً .

ولقد لاقى صلاح الدين صعاباً جمة أثناء عملية التوحيد هذه ، وتحالف خصومه المسلمون مع الصليبيين ليمنعوه من تحقيق ذلك ، ولكن ذلك كله كان عبثاً . فقد تحالف الحلبيون مع قومص طرابلس ضد عساكر السلطان سنة ٥٧٠ هـ ، ولكنهم ما إن علموا بقدومه حتى تفرقوا وهرب الفرنج ملتجئين إلى حصن الأكراد وانفرط عقد هذا التحالف الغريب [2] .

ولقد حدث أن توفي ملك بيت المقدس الصليبي سنة ٥٦٩ هـ وحلّ محله في الملك ملك جديد اسمه بردويل ، وكان ذلك عند بداية استقلال صلاح الدين بالأمور بعيد وفاة نور الدين .. ويزعم القلقشندي أن صلاح الدين أرسل رسالة إلى الملك الجديد يهنئه فيها بالملك ، ويعزيه بوفاة والده الملك السابق .

---

(١) نفس المصدر . جـ ١ ، ق ٢ ٥٩٤ - ٥٩٥

(٢) نفس المصدر . جـ ١ ، ق ٢ - ٦١٤ .

وقد حوى الخطاب من عبارات التهنئة والتعزية والمدح ما لايمكن أن يصدر عن أي ملك من ملوك الإسلام ، إلى ملك صليبي مغتصب سيفه يجري من دماء المسلمين ، بله صلاح الدين . وصلاح الدين الذي غضب وهاجم أنصار الملك الصالح لمجرد عقدهم هدنة بسيطة مع ملك القدس ، لايعقل أن يكيل المدح كيلا لهذا الملك الذي يعتبره قاتلا سفاكا" مغتصباً دمه حلال : ... خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد والسعد الساعد والحظ الزائد والتوفيق الوارد ... فإن كتابنا صادر إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق ، والنعي الذي وددنا أن قائله غير صادق ، بالملك الأعز الذي لقاه الله خير مالقّى مثله . . وسقياً لقبر والده الذي حق له الفدا لو جاز .. "[1] كما أن صلاح الدين يصف ملك القدس المتوفى بالصديق في نفس الرسالة. ولو أنه فعل ذلك لزود خصومه ، وما أكثرهم ، بسلاح ماض لمهاجمته أشد هجوم وأقساه . وكيف يعزي بملك القدس وهو الذي أرسل إلى بعض أنصاره لما بلغه وفاة ملك القدس السابق نفسه رسالة يذكر ذلك ويقول : ورد كتاب من الدارم يذكر أنه لما كان عشية الخميس تاسع ذي الحجة هلك مرى ملك الفرنجة لعنه الله ونقله إلى عذاب كاسمه مشتقاً ، وأقدمه على نار تلظى لايصلاها إلا الأشقى [2] .

ولم تكن معارك صلاح الدين ، في مرحلته الأولى ، كلها مظفرة ضد الفرنج ، فقد تخللها نكسات كبيرة وهذا شيء طبيعي ومتوقع في ذلك الطور . والقائد العظيم الشجاع هو الذي لايترك المصائب تؤثر

---

(١) القلقشندي ، أبو العباس احمد . صبح الأعشى في صناعة الإنشا . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩١٤-١٩١٩ م ١٤ ج ج ٧ ص ١١٥-١١٦ .

(٢) أبو شامة . المصدر المذكور آنفاً . ج ١ ، ق ٢ - ٥٦٦ .

فيه أو تفل عزمه ، فقد هزم قبله نور الدين الشهيد رحمه الله ، ولكنه نهض من كبوته بسرعة أذهلت أنصاره قبل أعدائه . وصلاح الدين ، الذي صب الهزائم على رؤوس الصليبيين فرادى ومجتمعين ، لم يشذ عن هذه القاعدة . فقد فاجأ جيش صليبي ضخم صلاح الدين في نفر من أصحابه قرب الرملة من أرض فلسطين سنة ٥٩٣ هـ ، ودارت بين الطرفين معركة رهيبة أبلى فيها صلاح الدين وجيشه بلاءاً عظيماً ، ثم اضطر صلاح الدين إلى الانسحاب والذهاب إلى مصر ، ولقي في الطريق مشقة كبرى حتى سلمه الله تعالى . ونجد ذلك واضحاً في رسالته التي وجهها إلى أخيه تورانشاه في دمشق في نفس السنة عن تلك المعركة : .. ولقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الله سبحانه إلا لأمر يريده، وماثبتت إلا وفي نفسها أمر[1] ... ولكن صلاح الدين لم يسمح لهذه المعركة أن تفت في عضده ، لذلك نجده يتابع استعداداته الفورية للحرب ضد العدو ، ولم يمض على تلك الحادثة شهران حتى هاجم بنفسه معاقل الصليبيين في الشام وانتسفها نسفاً : ... وأما نوبة العدو في الرملة فقد كانت عثرة علينا ظاهرها ، وعلى العدو باطنها ، ولزمنا مانسي من اسمها ، ولزمهم ما بقي من غرمها . لادليل أدل على القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشام لخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة والحشود الكثيرة والحريم المستور والمال العظيم الموفور[2]. كما ورد في رسالة أرسلها السلطان من مصر إلى القاضي الفاضل .

---

(١) ابن خلدون ، عبد الرحمن . كتاب العبر. بيروت ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ١٩٧١ م . جـ ٥ - ٦٤١ .

(٢) ابن واصل . المصدر المذكور آنفاً . جـ ٢ - ٦٥ .

ولقد اعتاد صلاح الدين أن يرسل للآخرين ، ولاسيما للخليفة العباسي ، رسائل يصف فيها غاراته ومعاركه وماحققه من نجاح ، وماسقط بيده من حصون ، وماحصل معه من نكسات . ورسائله هذه قطع أدبية فنية . ذلك أن عصر صلاح الدين امتاز بوجود كاتبين من ألمع كتاب النثر العربي في عصور الدول المتتابعة وهما القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني الكاتب ، وكل منهما صاحب مدرسة خاصة به في النثر والكتابة الديوانية . وقد امتازت رسائل القاضي الفاضل بالأصالة والمتانة والجودة والفحولة ، والجمل الطويلة والنفس الطويل والاستطراد ، وإيراد المترادفات لنفس المعنى ، والسجع الذي يبدو لدى القاضي الفاضل مقبولاً إلى حد كبير ، بل مستساغاً لطيفاً . هذا وإن أهمية القاضي الفاضل تبرز كل البروز أثناء حكم صلاح الدين حتى ان دوره تجاوز كل التجاوز دور الكاتب ليصبح دور الوزير والمشير ونائب السلطان في حكم قطر من الأقطار ، إذا غاب السلطان في إحدى حروبه – وما أكثرها حتى لقد قيل بحق : إن دور قلم القاضي الفاضل لايقل عن دور سيف صلاح الدين نفسه في إحراز الانتصارات التي حققها المسلمون زمن صلاح الدين . وقد أثبتت الأيام والوقائع صحة أحكامه ونضوج آرائه وامتيازها على آراء غيره من حملة السيوف حتى كان صلاح الدين يأخذ بآرائه ويهمل آراءهم .

أما عماد الدين الأصفهاني فقد كان أقل أهمية من القاضي الفاضل، وشهرته ككاتب ديواني أقل من شهرة القاضي الفاضل ، وإن يكن العماد برز كمؤلف لعدد من الكتب الهامة . وهو إمام مدرسة في السجع تختلف ، إلى حد ما ، عن مدرسة القاضي الفاضل ، وهو يبدو أكثر تكلفاً للسجع من القاضي الفاضل كما يبدو أسلوبه ثقيلاً مملاً إلى حد كبير ، لأنه يتكلف ما لايطيق وما لاتطيقه اللغة والأسلوب نفسه بكثرة السجع

والترصيع والمحسنات البديعية واللفظية . ولقد كان القدماء يعجبون به كل الإعجاب ويقلدون أسلوبه ويعتبرونه مثلاً يحتذى في الكتابة النثرية . ولكن نظرة المحدثين إليه تختلف كل الاختلاف عن نظرة القدامى، ونزل العماد عن عرشه إلى مكان متواضع الآن .

ولقد تتلمذ على يد صلاح الدين عدد من أبطال الحرب والسياسة تعلموا على يديه وتخرجوا في مدرسته ، وفي نفس الوقت ساعدوه مساعدات جلى وكانوا له أجل الأعوان ، ونخص بالذكر من هؤلاء أخاه الملك العادل وابن أخيه الملك المظفر اللذين لعبا دوراً ممتازاً في حروب صلاح الدين وسياساته وتخرجا في مدرسته وساهما في تحقيق الانتصارات العظيمة التي أحرزها على الصليبيين .

معركة حطين وماسبقها وماتبعها :

ولقد تمكن صلاح الدين ، بعد أن أعاد توحيد بلاد الشام ومصر تحت حكمه ، وبعد أن قضى على الأعداء الداخليين والمنافسين المناوئين، وبعد أن حشد القوى الاسلامية لمواجهة الصليبيين ، أن ينزل بالفرنجة ضربات قاصمات كانت مفتتحها معركة حطين التاريخية ، التي أعادت للمسلمين كرامتهم وأحيت فيهم الآمال ، وأعادت للإسلام نضارته ووجهه الأبيض المشرق ، وأدت إلى تحرير القدس واسترجاع قسم كبير من الأراضي المحتلة ونحن، العرب الأحياء في هذه الأيام ، نستطيع أن نتخيل وقع أنباء معركة حطين على نفوس أسلافنا الذين ذاقوا مرارة الهزيمة قبلها ، وما أثارت فيهم من كرامة وما أحيت من آمال وماألهبت فيهم من عزائم .

ولقد أعد صلاح الدين نفسه وجيشه أفضل إعداد للحرب

ضد العدو . والملاحظ أن الصليبيين ، خلال إقامتهم المديدة في ربوع بلادنا ، لم تهدأ الحرب بينهم وبين المسلمين مطلقاً ، منذ وطئت أقدامهم هذه الأرض حتى ارتحالهم عنها ، إلا في فترات قليلة جداً وفي أواخر أيامهم . صحيح أنهم كانوا يجدون حلفاء من المسلمين ، ولكن ذلك كان استثناء ، وإذا تحالفوا أو عقدوا هدنة مع هذا الحاكم ، فانهم يظلون بحالة حرب مستمرة مع بقية الحكام . وقد سبقت معركة حطين عدة معارك أبدى فيها صلاح الدين تفوقه واقتلع عدداً من المعاقل من العدو وأرسل الرسائل إلى هنا وهناك يحشد الجنود ويستدعي القواد ليخوض مع العدو معركة فاصلة . وقد أدرك أنصار صلاح الدين أن تحركه بجيشه هذا عشية معركة حطين لم يكن لأمر اعتيادي ، وأن هناك آمالاً جسيمة معقودة على هذا الجيش ، كما يظهر ذلك من رسالة أرسلها أحد أفراد حاشيته إلى صديق يخبره بذلك : قد نهضت [بالسلطان] به همة لا يرجى غير الله لإنهاضها ، وحجبت به عزمة ، الله المسؤول في حسم عوارض اعتراضها ... وأرجو أن تتمخض عن زبدة وتستريح الأيدي من المخض (١) ...

ولقد أثارت أحداث معركة حطين وما تلاها أدباً كثيراً غزيرا عبر فيها القوم عن عواطفهم تجاه هذا الحدث الذي أعاد شباب الأمة غضاً وأشعرهم بالكرامة تسري في عروقهم . وتلاحقت الرسائل من هنا وهنا تقص هذا الحدث الهام وتتبارى في وصفه والإطناب في وقعه . ولعل أبرز نتائج معركة حطين هو تحرير القدس والقسم الأكبر من الساحل السوري . وقد سقط ملك القدس وكبار قواد الصليبيين أسرى

(١) أبو شامة . المصدر المذكور آنفاً ج ٢ - ٧٥ .

بيـد صلاح الدين فأكرمهم ، ولكنه استثنى من هذه القاعدة أرناط [آرنولد] حاكم حصن الكرك ، وهو الذي يرد اسمه في إحدى الرسائل بالابرنس : وقتل صلاح الدين الأبرنس بيده لأنه كان قد غدر وأخذ قافلة من طريق مصر [1] ...

وإذا كان نصر حطين قد حطم طواغيت الفرنج،فإن أعظم ثمرة لذلك هو تحرير البيت المقدس واسترجاع المقدسات التي بذلت الدماء رخيصة من أجلها وفي سبيل تحريرها . ونستطيع أن ندرك شعور القوم آنذاك عند عـودة القدس إلى أحضانهم ، نحن الذين رأينا بأم أعيننا ذهاب القدس إلى العدو ، وما رافق ذلك من مآس ومساع لاستردادها . لقد ملأ هذا الحادث القوم فخاراً وسروراً ، واعتقدوا أن يد الله معهـم تؤيـدهم وتشد من أزرهم . ونجد فيضاً من الوثائق [رسائل وخطب] تصف هذا الحادث العظيم الذي هز البلاد الاسلامية من أقصاها إلى أقصاها ، وذهبت الرسائل إلى بغداد ومصر واليمن وغيرها تصف تحرير البيت الأسير وقد وجد كل من القاضي والعماد الكاتب مادة دسمة جداً يظهران عبقريتها وأدبهما في تحرير الرسائل التي تصف ماحدث ، وأطلقا لقلميهما العنان وأتيا بفنون من الآداب والبلاغة والبيان والسجع حتى لم يتركا مزيداً لمستزيد . ولاشك أن الخطبة الأولى التي ألقيت في المسجـد الأقصى بعد تحريره قطعة أدبية بلاغية بيانية بديعة تذكر فضـل الله العظيم وكرمه العميم أن جعل تحرير القدس يتم على يد صـلاح الدين ، مع ذكر فضائل بيت المقدس وماورد فيه من آثار وبيان أهميته عند المسلمين ، ثم عرج الخطيب بعد ذلك إلى التحريض : تحريض المسلـين

---

(١) نفس المصدر . جـ ٢ ص ٨١-٨٢ .

على متابعة الجهاد حتى تتطهر جميع البقاع الاسلامية من الرجس الفرنجي وإبعاد احتلالهم البغيض عن هذه البلاد التي هي مهبط الأنبياء ومجمع الأولياء [1] . وقد زاد الخطيب في الدعاء لصلاح الدين لقباً جديـداً يستحقه بكل جدارة وهو لقب مطهر البيت المقدس . فمتى ندعو نحن لأحد زعمائنا وندعوه محرر بيت المقدس ؟!

الحروب الصليبية الثالثة :

ولكن هناك نتيجة ثانية ظهرت بعد انقضاء فترة على معركة حطين وتحرير القدس وما تلى ذلك من معارك وتحرير أراض ، وأعني بذلك ما عرف باسم الحرب الصليبية الثالثة . وهذا « بالحقيقة » ردة فعل أوربا ضد الاسلام والمسلمين لما وصلتها من أنباء تحطم أحلامها وتبخر آمالها في القضاء على الاسلام وأهله . ذلك أن الكنيسة التي حرضت على الحروب الصليبية وتبنتها ودعت لها وكانت الروح المحرك لها ، جن جنونها وثار ثائرها ، وأصيب رجالها بالهيستيريا نتيجة لحروب صلاح الدين وانتصاراته وتحرير بيت المقدس . ولذلك انطلقت الصيحات عالية في أوربا مجدداً تطالب بالقضاء على صلاح الدين واسترجاع البيت المقدس وتحطيم المشركين الوثنيين الكفرة . ولقد لبى ملوك أوربا هذا النداء وعلى رأسهم ريشارد ملك انكلترة ، وفريدريك بربروس ملك ألمانيـا وفيليب أوغست ملك فرنسة ، إلى جانب عدد كبير من الأمـراء والدوقات والكونتات والبارونات ، وتقاطروا زرافات ووحداناً ، براً

---

(١) ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ م ج ٢ ص ٣٦٥-٣٧١ .

وبحراً ، إلى بلاد الشام تحدوهم رغبة واحدة ، على الرغم من الخلافات المميتة بينهم ، هذه الرغبة هي القضاء على الاسلام والمسلمين واسترجاع البيت المقدس . كما لبى النداء جمهور عظيم جداً من طغام الناس ورعاعها في أوربا . واختلطت الدوافع الدينية مع الدوافع الدنيوية في جعل القوم يستميتون في محاولتهم القضاء على الاسلام واستعمار أراضيه وإبادة أهله. ولقد توقع صلاح الدين مثل ردة الفعل هذه ، ولكن قواه المحدودة ، بالمقايسة مع قوى أوربا ، لم تمكنه من الاستعداد لصدهم ومنعهم عن الوصول إلى البلاد الاسلامية . كما وأنه كان على علم بمجريات الأمور وأن ملك الألمان سلك طريق البر عن طريق القسطنطينية بجيش لجب قاصداً البلاد الإسلامية . ولما لم يكن يملك إمكانات عسكرية أو اقتصادية تمكنه من صد هذه الغزوة ، لذلك لجأ إلى خليفة بغداد، الذي يدين له بالولاء ، يخبره بما حدث ويطلب منه المدد : قد وصل الخبر بالداهية الدهياء ، والغمة الغماء ، والنكبة النكباء ، والشدة الدهماء والليلة الليلاء ، وهي أن ملك الألمان ، ومعه ملوك الفرنجية وحشودها وقوامصها وكنودها ... وصل جاراً على السماء ذيول قتامه ، مجرياً في الأرض سيول لهامه (١) ... وبعد أن يطنب في وصفه ووصف جيشه يذكر أن سلاجقة الروم متعاطفون مع صلاح الدين ضد هذا الخطر الماحق . ولكن بعد فترة انقطعت الأخبار ليعلم صلاح الدين أن القوم صانعوا ملك الألمان وتركوه يعبر بلادهم ويصل إلى بلاد الشام ، ثم يقول : وقد تعين الجهاد على كل مسلم ... والاهتمام بدفعه من أفرض المهام وأهم الفروض . والخادم منفرد في حمل عبء هذا

---

(١) العماد الأصفهاني ، محمد بن محمد . الفتح القسي في الفتح القدسي . تحقيق محمد محمود صبيح . القاهرة . الدار القومية للطباعة والنشر ص ٣٩٧-٣٩٨ .

القادح الباهظ بالنهوض ، وهو واثق بأن بركات الدار العزيزة تدركه ولاتتركه [1]...

والواقع ، لقد أثار ملك الألمان بسلوكه المتغطرس وسلوك جيشه الأشبه بالعصابات ، عداء جميع من مر في أراضيهم . فقد أرسل ملك الروم وامبراطورها رسالة إلى صلاح الدين ، يخبره بخبر ملك الألمان وكيف أنه اجتاز بلاده بالعنف، وكيف آذى فلاحي بلاده ، وكيف أن الحرب دارت بين الطرفين ، وكيف أن الجيش الألماني تأذى وتعب أكثر مما آذوا فلاحي بلادي ، وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرحل والرجال ، ومات منهم كثير وقتلوا وتلفوا ... وقد ضعفوا بحيث أنهم لايصلون إلى بلادك ، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثيرة ، لايقدرون ينفعون جنسهم ولايضرون نسبتك [2] .

كذلك أرسل ملك الأرمن صاحب قلعة الروم على أطراف الفرات كاغيكوس ، رسالة إلى صلاح الدين يخبره خبر ملك الألمان وكيف أنه اجتاز الأناضول ، وكيف اضطر ملك الألمان امبراطور بيزنطة على مصانعته، وكيف حاربه سلاجقة الروم ، ولكنهم هزموا أمامه واضطرهم لمساعدته . ثم يقص علينا نبأ غرق ملك الألمان في مياه نهر من أنهار آسيا الصغرى[3] ويهول في عدد جيشه والأجناس التي يضمها ، ولكنه يذكر في رسالة تالية ضعفهم وعجزهم . والطريف في الأمر هو أنهم حرموا على أنفسهم الملاذ حزناً على بيت المقدس : وقد صح عن جمع

---

(١) نفس المصدر .

(٢) ابن شداد ، بهاء الدين . كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية . تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة . ١٣٢ - ١٣٣ .

(٣) نفس المصدر . ص ١٢٤-١٢٦ .

منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة ، وحرموا ماحل ولم يلبسوا إلا الحديد .../وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب في حال عظيم[1].

ولكن الله تعالى أراح صلاح الدين من الألمان وملكهم فقد تفرق القوم أيدي سبأ بعد موت ملكهم وضعفوا وتخطفوا ، ولم يتمكنوا أن يجدوا لهم ملجأ في كل من أنطاكيـة وطرابلس إلا بشق النفس .

والواقع كان رد فعل أوربا على ذهاب القدس عنيفاً كل العنف ، عارماً . فقد تعاقد القوم على أن يجعلوها وقعة الانفصال مع الاسلام، وبذلت الكنيسة أقصى جهودها المادية والمعنوية ، واستجاب القوم - ملوكاً وحكاماً وأفراداً - لنداء البابوية ، وانثالوا انثيالاً على البـلاد الإسلامية ، وبدأوا هجوماً كاسحاً يسندهم تفوق عددي رهيب ، وإمداد بحري متصل،تحمله من أوربا بشكل مستمر أساطيل دول المدن الإيطالية ، وخاصة البندقية وجنوى وبيزا . ولم يكـن لدى صـلاح الدين سوى قواه الذاتية ، وهي لاتوازن بقوى الصليبيين ، ولاسيما وأنهـم سادة البحر ، والبحر يمدهم بسيل لاينقطع من المال والعتاد والرجال . والشيء المؤلم في الموضوع ، أن خليفة بغداد الناصر لدين الله ، الذي أرسل له صلاح الدين الرسائل تلو الرسائل يشرح الوضع ويستنجد ويستغيث ، لم يمده إلا ببركاته المعنوية ودعواته الروحية ، وهي ، في المجـال العسكري ، لاتفيد إلا قليلاً جداً . ولم يتقدم أحد ، إلا بعض الأمراء المحليين مثل ملك الموصل ، لمساعدته ، في هذا الموقف البالغ الحـرج الذي استمر أكثر من أربع سنوات حول عكا . قد يعترض البعـض أن خليفة بغداد كان آنذاك ضعيف الحيلة ليس له سلطان على أحـد .

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٢٧ .

وعلى الرغم من ضعف وسائل الخليفة إلا أنه كان بإمكانه ، أن يساعد بالمال والعتاد والذخيرة والمواد الغذائية ، إن لم يستطع أن يساعـــد بالرجال . كما كان بإمكانه أن يوجه نداء إلى ملوك المسلمين يدعوهم الى مد يد العون إلى صلاح الدين ، بل كان بإمكانه أن يجند القادرين على حمل السلاح في العراق الخاضع لسلطته ليساعد صلاح الدين في معاركه ، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك واكتفى بالبركات الصالحات . ورسائل صلاح الدين له تفيض بالشكوى المرة والتحذير من خطورة الوضـع والاستنجاد وطلب المدد ولكن دون جدوى .

والذي يطلع على رسائل صلاح الدين ورسائل أنصاره عن وضع المسلمين في تلك الفترة الحرجة يحصل على انطباع رهيب عن الوضع المتأزم الذي وُجد فيه المسلمون . فقد تتابعت إمدادات أوربا وتدفقت على بلاد الشام بشكل ليس له مثيل . وكان القوم يضطرمون بغضاً للإسلام وحماساً . وقد بدأوا أعمالهم بحصار عكا ورد صلاح الدين على ذلك بأن حاصر المحاصرين لعكا بنفسه وجيشه . وظل هذا الوضع غير الطبيعي فترة دامت أكثر من أربع سنوات ، وعندنا عن تلك الفترة وثائق غاية في الأهمية تشرح الوضع شرحاً كافياً .

فقد فاضت إحدى رسائله إلى الخليفة بشكواه من تحمله ثقل الحرب ، ووطأتها وحده لامساعد له ولامعين إلا الله ، ويصف ما يعانيه : ومن خبر الكفار أنهم إلى الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ، ويخرج للمسلمين منهم أمرّ من أجاجه ... فإذا قتل المسلمون واحداً في البر بعث البحر عوضه ألفاً ... فالزرع أكثر من الجداد .. وهذا العدو المقاتل ـ قاتله الله ـ قد زر عليه من الخنادق أدراعـــاً

متينة ، واستجن من الجنويات بحصون حصينة ... وكم من ساعة فضوا فيها أقفال الخنادق فأفضى بهم البلاء عند فض أقفالها . إلا أن عددهم الجم قد كاثر القتلى ، ورقابهم الغلب قد قطعت النصل لشدة ماقطعها النصل . ومَنْ قِبَل الخادم من الأولياء قد أثرت المدة الطويلة والكلف الثقيلة في استطاعتهم لاطاعتهم ، وفي أحوالهم لاشجاعتهم ... يناشد الله المناشدة النبوية في الصيحة البدرية في : اللهم إن تهلك هذه العصابة . ويخلص في الدعاء ويرجو على يد أمير المؤمنين الإجابة ... ولولا أن في التصريح ما يعود على عـــدالته [الضمير هنا عائد إلى الخليفـة] بالتجريح لقال [أي صلاح الدين] ما يبكي العين ، وينكي القلوب ، وتنشق له المـرائر وتشق الجيوب . ولكنه صابر محتسب منتظـر لنصر الله مرتقب ... رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ... وولدي ، ولقد أبرزت لعدوهم صفحات وجوههم ، وهان عليّ محبوبك بمكروهي فيهم ومكروههم . ونقف عند هذا الحد ، ولله الأمر من قبل ومن بعد . وإن لم يشتك الدين إلى « ناصره » والحق إلى من قام بأوله ... فـإلى من يشتكي البث (١) !! .

ولكن هذه النفثة المصدورة ذهبت أدراج الرياح كما ذهبت صرخات قبلها وبعدها .

كذلك حاول صلاح الدين الاستنجاد بأخيه سيف الاسلام ملك اليمن وشرح له الوضع الخطير حول عكا وما يعانيه من قلة العدد والعُدد وتفوق الصليبيين العددي ، ولكن دون طائل (٢) .

---

(١) القلقشندي . المصدر المذكور آنفاً . جـ ٧ ص ١٢٧–١٣٠ .

(٢) نفس المصدر . جـ ٧ ص ٢٣–٢٧ .

ولقد حاول الصليبيون ، في تلك الأثناء ، غزو الحجاز والوصول إلى المدينة المنورة ، فجهزوا أسطولاً في البحر الأحمر نزل في سواحل الحجاز ، وتقدم الجيش الذي حمله الأسطول حتى وصل رابغ ، ولكن وصل الخبر إلى الملك العادل نائب صلاح الدين في مصر فأرسل رجاله وأسطوله وتمكن من تدمير الاسطول الصليبي والقضاء على الجيش الصليبي، نجد ذلك واضحاً في عدد من الرسائل وجهها صلاح الدين إلى العادل يبدي سروره بما تم . كما وأرسل عدداً من الرسائل إلى الخليفة حول نفس الموضوع .

ولقد أدى تدفق المدد على الصليبيين حول عكا وإمكانات صلاح الدين المحدودة إلى ضيق الخناق على المسلمين المحصورين في عكا ، ولكن لم تهن عزائمهم وأرسلوا إلى السلطان يقولون : إنا قد تبايعنا على الموت ونحن لانزال نقاتل حتى نقتل ، ولانسلم هذا البلد ونحن أحياء، فابصروا كيف تصنعون في شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا ، فهذه عزائمنا ، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو أو تلينوا له ، فإنما نحن قد فات أمرنا[1].

ولقد بذل المسلمون حول عكا فوق طاقتهم في سبيل إنقاذ البلد من الوقوع بيد الصليبين ، وظهر أبطال مجهولون قاموا بخوارق الأعمال في هذا المجال ، كالفتى الدمشقي الذي اخترع محلولاً كيماوياً كان السبب في تدمير الأبراج الثلاثة التي أقامها الصليبيون لإحكام الحصار حول عكا ، ورفض أن يتقاضى أية مكافأة على ذلك ، قائلاً : إنه فعل هذا في سبيل الله . وكعيسى العوام الذي كان يتقن العوم والغوص وكان رسول صلاح الدين إلى أهل عكا يحمل لهم الرسائل والنقود ، حتى

(١) ابن شداد . المصدر المذكور آنفاً ص ١٦٩ - ١٧٠ .

غرق وهو يحمل الذهب الوفير إلى أهل عكا واكتشفت جثته بعد ذلك ومعها النقود .

وأخيراً ، وبعد ملاحم بطولية استمرت أكثر من أربع سنوات ، وبعد أن دفعت أوربا إلى عكا أفلاذ أكبادها ، وبعد أن ضحت بأكثر من خمسين ألف قتيل سقطت عكا ، لا كما يسقط الجبان ، بل كما يسقط الشجاع الشهيد الذي أبلى في الحرب أعظم البلاء ، ولكن الكثرة ، كثرة العدد هي التي أردته . وكالعادة أظهر الصليبيون إنسانيتهم وشجاعتهم بالسكان العزل ، ورافق احتلالهم القتل والذبح والنهب والسلب . ولكن لم يسمح صلاح الدين لهذا الحادث أن يفت في عضده ، أو ينال من إيمانه وإيمان أتباعه وشجاعته ، بل نراه يزداد تصميماً على التصدي للغزاة المعتدين ، ويزداد إيماناً بالله تعالى وبنصره وبقدرة المسلمين على التغلب على هؤلاء الأعداء .

يدل على ذلك رسائله التي وجهها إلى عدد من الملوك يخبرهم بسقوط عكا ... وأخذوا البلد على سلم كالحرب ، ودخله العدو ، ولو لم يدخله من الباب دخله من النقب : وما وهنا لما أصابنا في سبيل الله وماضعفنا وما رجعنا وراءنا ولا انصرفنا ، بل نحن مكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم أو يخرجوا فنناجزهم [1] ... لقد تجاوزت عدة من قتل على عكا - يعني من الفرنج - الخمسين ألفاً ، قولاً لايطلقه التسمح ، بل يجوزه التصفح [2] . كما يقول في رسالة ثانية بعد أن وصف

---

(١) ابن الفرات ، ناصر الدين محمد . تاريخ ابن الفرات . تحقيق الشماع . البصرة . ج ٤ ، ق ٢ ص ٢٤-٢٥ .

(٢) نفس المصدر .

سقوط عكا الفجع : ... وقد عزمنا على المصاف ، وصد صدمة الكافر بالجد الكافي الكاف . والله كافل دينه بالنصر ، والمردي بكفره أهل المكر ، وماهذا أوان الونى ، بل هو زمانُ استنجاح المنى ، فإن العدو الغادر قد آن أوان أن يصحر ، وليل الهدى قد قرب أن يسفر[1].

ولقد طمع الفرنج ، بعد سقوط عكا ، باسترجاع القــدس ، وأسرع صلاح الدين إليها يريد حمايتها وتحصينها ، وهناك عقد مؤتمراً من قواده ومستشاريه وعرض عليهم الوضع الصعب وقال : اعلمــوا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم في ذممكم معلقة ، والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم . وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه عن العباد والبلاد غيركم . فإن وليتم – والعياذ بالله – طوى البلاد وأهلك العباد وأخذ الأموال والأطفال والنساء ... وكان ذلك كله في ذممكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله وأكلتم بيت مال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم وتنصروا ضعيفهم ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم ، والسلام . ولقد كان جواب هؤلاء القــواد الذي ورد على لسان كبيرهم ابن المشطوب أجمل جواب وأجله ويفصح عن الحب العظيم والولاء الكبير والثقة المطلقة والطاعة العمياء التي يكنها أفراد الجيش لقائدهم العظيم : يامولانا : نحن عبيدك وأنت الذي أعطيتنا وكبرتنا وعظمتنا ، وليس لنا إلا رقابنا ، ونحن بين يديك ، والله مايرجع أحد منا عن نصرك حتى يموت[2] .

ولكن الله تعالى سلم ، واختلف الصليبيون بين بعضهم وأصابهـــم

---

(١) العماد الأصفهاني . المصدر المذكور آنفاً ص ٥٢٠ .

(٢) ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل . البداية والنهاية . القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٥١ هـ ، ١٤ جـ ١٢ ص ٣٤٨-٣٤٩ .

الوهن والخذلان والخيبة ، فرجعوا أدراجهم يجرون أذيال الهزيمة .

هذا وإن جهاد صلاح الدين وإيمانه وصبره وتسامحه وبعد نظره ، ونظرته الرحبة قد كوفئت خير مكافأة وأجلها ؛ ذلك أن ملك الإنكليز الذي كان أكبر ملوك الحملة الصليبية الثالثة ، والذي حضر إلى المشرق لنصرة الصليبيين وتدمير الإسلام ، حارب صلاح الدين حول عكا وأدرك استحالة ماكان يحلم به ، وأراد الرجوع إلى بلاده ، فبـدأ يفاوض السلطان من أجل الصلح وتحقيق أطماعه بالسياسة والمفاوضة ، وهـي ماعجز عن تحقيقه بالحرب .

ولقد دارت بين الطرفين مفاوضات طويلة معقدة ، أظهر فيها صلاح الدين كياسة وأدباً وحنكة ودراية ، وتمكن أن يحطم أحلام الصليبيين باسترجاع القدس واحتلال كامل الساحل السوري . ولقد حاول ريشارد ملك الإنكليز أن يجتمع بالسلطان صلاح الدين بعد أن تحارب الملكان حول عكا ، ولكن صلاح الدين علمه درساً في الدبلوماسية ومايجب أن تكون عليه علاقات الملوك ، فقد رفض الاجتماع به إلا بموجب قاعدة ثابتة يتفق عليها الطرفان : الملوك لايجتمعون إلا عن قاعدة ، وما يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمواكلة . وإذا أراد الملك ذلك فلابد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة ، ولا بد من ترجمان نثق فيه في الوسط ... فإذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى (١) .

ولذلك لجأ ريشارد إلى الملك العادل يوسطه بالصلح بينه وبين أخيه صلاح الدين ، وطلب منـه أن يتوسط لدى السلطان حـتى يصطلح السلطان مع فرنج الساحل الشامي ويرجع ملوك أوربا إلى بلادهم . وقد

(١) ابن شداد . المصدر المذكور آنفاً ص ١٦٣ .

سأله الملك العادل على أي شيء يكون الصلح ؟ فأجابه ملك الإنكليز على أساس إرجاع الأراضي المحررة لهم فأجابه العادل : إن دون ذلك قتل كل فارس وراجل [1] .

وعلى الرغم من إلحاح ريشارد على استرجاع القدس والبلاد الساحلية كشرط للصلح ، إلا أن السلطان رفض ذلك رفضاً قاطعاً ، وأفهمه أن القدس هي للمسلمين كما هي للمسيحيين : وهو عندنا أعظم مما عندكم . . . فلا يتصور أن ننزل عنه ولانقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين . وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل واستيلاؤكم كان طارئاً عليها [2] . . .

كذلك اقترح ملك الإنكليز على السلطان أن يزوج أخته [أي أخت ملك الإنكليز] إلى الملك العادل ، ولكن رجال الدين المسيحي عارضوا في ذلك، وأراد بذلك أن يبرهن على حبه ووده لصلاح الدين ورغبته الجادة في الصلح . وبعد مراسلات كثيرة أبدى فيها ملك الإنكليز كل مودة وصداقة ، وتنازل عن أشياء كثيرة من طلباته ، بل أبدى فيها خضوعاً وتذللاً وتضرعاً ، عقدت بين الطرفين هدنة عامة ؛ أخذ الصليبيون بموجبها ما في أيديهم فقط ، ولم ينالوا من القدس شيئاً ، وتمكن السلطان المظيم المجاهد أن يحتل يافا وينتزعها من الصليبيين أثناء المفاوضات، وأن يهدم عسقلان وسورها .

بعد أن أعلنت الهدنة العامة أرسل السلطان إلى الخليفة رسائل يشرح له ماحدث من الهدنة العامة ، ويفصل له فيما أحرزه من انتصارات

---

(١) ابن الفرات . المصدر المذكور آنفاً ج ٤ ، ق٢ – ٣٣ .

(٢) ابن شداد . المصدر المذكور آنفاً . ص ١٩٤ .

ويذكر له المميزات التي حصل عليها المسلمون ، ويعلن ولاءه الصريح للخليفة ويلتمس رضاه وبركاته .

وبعد أن أنجز صلاح الدين هذه المهمة بفترة وجيزة رجع إلى دمشق، وكان قد غاب عنها فترة طويلة ، فاستقبل أروع استقبال وأحفله . وبعد هنيهة وافاه الأجل المحتوم ، فانتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً ودخل في سجل الخالدين .

هذا وإن شخصية صلاح الدين تبدو عملاقة من خلال ماحققه ومن خلال نصوص الوثائق التي بين أيدينا . فهو بطل الوحدة وهو عسكري وقائد من الطراز الممتاز ، فهو قائد غزا القلوب قبل القلاع ، وهو داهية وسياسي من الطراز الرفيع جداً ، فقد استغل رغبة ملك الانكليز لعقد الصلح، وأدرك تلهفه على ذلك، فماطله حتى جعله يقبل التنازل عن قسم كبير جداً من طلباته . كما وأنه استغل فرصة مرض ملك إنكلترا فأرسل له الهدايا والأطباء ، وذلك من أجل التجسس والكشف عن مناحي الضعف في المعسكر الصليبي . كذلك امتاز بسرعة حركته أثناء الحرب ، ولعل أفضل مثال على ذلك مهاجمته يافا وأخذه لها بشكل مفاجىء أثناء المفاوضات التي دارت بينه وبين ملك الإنكليز . وهذا شيء لم يتوقعه ولم يتصوره الملك الصليبي . كما وأن تقاه وتفانيه في الدفاع عن الإسلام وأهله وأرضه ومقدساته وحرصه على مصلحة المسلمين وراحتهم وسلامتهم أنصع وأوضح من الشمس الساطعة . هذا إلى جانب بعد نظره وحنكته الإدارية وبراعته في القيادة وفهمه نفسية أتباعه ، وتقشفه وزهده في حطام الدنيا وعدله وشفقته على رعيته ورغبته في تخفيف الأعباء عنهم ، وصبره وتحمله المشاق التي يعجز عنها الرجال الذين

هم في ريعان الشباب . ولكن لنا عليه ملاحظتان : الأولى تسامحه مع الصليبيين . وقد أثبتت الحوادث اللاحقة أن الصليبين قوم لاينفع ولاينجع معهم التسامح ولم يزدهم التسامح إلا إيغالا في الوحشية ونقض العهود والعودة إلى الإجرام والكذب والخداع بنفس السهولة التي أقسموا بها على احترام العهود . فقد ارتكب الصليبيون قبل عهد صلاح الدين ، وفي زمانه وبعده من الجرائم ضد المسلمين ما لم يسمع بمثله وحشية وقسوة ، فقد ارتكبوا ذلك عن سابق تصور وتصميم ، وكانوا يتباهون بذلك . وهو وإن بدا مثلاً أعلى وسط دياجير القرون الوسطى الأوربية بتسامحه وأخلاقه النبيلة ، وإن أصبح معلم أوربا التسامح في وقت ران فيه التعصب القبيح على الغرب بأبشع صورة ، إلا أنه في سلوكه كان متبعاً أجمل وأرقى مافي تعاليم الإسلام من قيم ، ومعلماً أوربا نفسها أجمل ما في دينها من مثل وأخلاق كانت فوق مستوى القوم الديني والأخلاقي .

وأما الملاحظة الثانية ، فهي حرصه الشديد على كسب رضى خليفة المسلمين في بغداد ، علماً أن هذا الخليفة لم يقدم من العون لصلاح الدين في صراعه المرير ضد الصليبيين إلا البركات والعواطف الكلامية التي لم تسمن ولم تغن من جوع . هذا مع العلم أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله كان شخصاً صعب المراس ، وقد اعترض على صلاح الدين أكثر من مرة واضطر صلاح الدين لاسترضائه في أكثر من مناسبة .

دور الانهيار الصليبي :

على الرغم من أن الهدنة العامة التي عقدها صلاح الدين مع الصليبيين أعطتهم فرصة للبقاء في هذه البلاد ، وعلى الرغم من أن بقاءهم استمر حوالي مئة سنة أخرى بعد وفاة صلاح الدين ، وعلى الرغم من استمرار

حملاتهم على مصر بخاصة ، إلا أن حروب صلاح الدين سجلت بداية دور الانهيار الصليبي في العالم الإسلامي .

والملاحظ في هذا الدور الذي استمر حوالي تسعين سنة ، أن مركز الثقل في الحروب الصليبية قد انتقل من بلاد الشام إلى مصر ؛ ذلك أن أوربا أدركت أن مركز الثقل في هذا الصراع هي مصر لمواردها الطبيعية والبشرية والاقتصادية ، فقرروا إنهاء الحروب الصليبية لصالحهم في مصر . ولكن مصر أثبتت أنها حصن للعروبة والإسلام ، وتكسرت جميع محاولات وغزوات الصليبيين لمصر على صخرة المقاومة البطولية التي أبداها المصريون وأعقب المدّ جزر . وبعد فترة أخذت مصر وبلاد الشام المتحدتان في دولة واحدة تحت حكم المماليك زمام المبادرة في الحروب الصليبية وأوصلاها إلى نتيجتها الطبيعية وهي تحرير بلاد الشام من الحكم الصليبي وطرد آخر جندي صليبي عن هذه البلاد سنة ٦٩٠ هـ الموافقة لسنة ١٢٩١ م .

بقايا الأيوبيين :

يعتبر عهد الملك العادل امتداداً لعهد أخيه صلاح الدين ، فقد استمرت الهدنة وقتاً ما ، ثم تحارب مع الفرنج المقيمين في بلاد الشام، وكانت له اليد الطولى عليهم . ولكن حدث في أواخر أيامه أن تحرك الملك الزنديق فريدريك الثاني إمبراطور ألمانية وملك صقلية نحو بلاد الشام وهدفه القدس . وحصلت حركة عامة وذعر شديد بين السكان ، وفي تلك الآونة توفي العادل وحل محله ابنه الكامل . ولما لم يكن مستعداً للقتال، فقد تفاوض مع الإمبراطور الذي كان طلبه القدس ليرتفع رأسه بين الملوك وأمام البابا : وقد علم البابا والملوك باهتمامي ،

فإن رجعت خائباً ، انكسرت بحرمتي ، وهذه القدس فهي أصل دين النصرانية ، وأنتم قد خربتموها وليس لها طائل ، فإن رأيت أن تنعم عليَّ بقصبة البلد ليرتفع رأسي بين الملوك ، وأنا التزم بحمل دخلها إليك[1].

وقد حصلت زمن السلطان الكامل وإخوته في مصر وسورية حادثة مهمة جداً . ذلك أن الصليبيين وجهوا كامل قوام إلى مصر لاحتلالها وقد تمكنوا من أخذ دمياط ، ورفضوا جميع العروض التي عرضها عليهم السلطان الكامل ليرجعوا عن احتلال مصر وأبوا إلا إكمال مخططهم القاضي بالقضاء التام على قوة مصر . ولقد كان لسقوط دمياط صدى عظيم في بلاد الشام ، فقد أصدر الملك المعظم عيسى حاكم بلاد الشام أوامره إلى نائبه على دمشق أن يحرض الناس على الجهاد : وأريد أن تحرض الناس على الجهاد وتعرفهم ماجرى على إخوانهم أهل دمياط من الكفرة أهل العناد[2]... ولقد لبى أهل بلاد الشام النداء ونفروا خفافاً وثقالاً وحاربوا الفرنج فكانت النتيجة هزيمة ماحقة حلت بالصليبيين واستسلموا ورجعت دمياط إلى المسلمين وقتل الفرنج قتلاً ذريعاً وأسروا ، واضطرت البقية الباقية أن تعقد صلحاً مذلاً مع الملك الكامل تسلم بموجبه دمياط وجميع البلدان ، وتنسحب إلى بلادها تجر أذيال الهزيمة . والطريف في الأمر أن هؤلاء الفرنج كسروا منبر جامع دمياط قطعاً قطعاً وأهدوا كل قطعة منه إلى ملك من ملوكهم ، فلما استسلموا كان في المدينة صوارٍ عظام جداً وأراد الفرنج أخذها ، فمنعهم من ذلك نائب السلطان

(١) الذهبي ، محمد بن أحمد . كتاب العبر في خبر من غبر . تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد . الكويت ، دائرة المطبوعات والنشر ، ١٩٦٠ م جـ ٥ – ١٠٢ .

(٢) ابن تغري بردي . النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة . القاهرة، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩ م . جـ ٦ – ٢٣٩ .

شجاع الدين ، فلجأ الفرنج إلى السلطان يطلبون منه أن يسلمهم هذه الصواري ، ولكن شجاع الدين طلب من السلطان أن يطالب الفرنج أن يعيدوا المنبر حتى يعيد لهم الصواري . ولما عجزوا عن ذلك رفض تلبية طلبهم [1] .

ولم يتعلم الصليبيون من تجاربهم شيئاً ذا غناء ، ولم يفهموا الدرس الذي تلقوه في مصر ودمياط وكانوا بحاجة إلى درس آخر حتى يستيقظوا على الحقيقة المرة ، وهي أنهم أعجز من أن يحققوا ما يصبون إليه ، وأن زمن تفوقهم قد انقضى ، وأن عليهم أن ينتظروا زمناً طويلاً جداً حتى يستطيعوا أن يعيدوا الكرة على بلاد الإسلام .

فقد استأنف الهجوم على مصر الصليبيون بقيادة الملك الفرنسي المهووس ببغض الإسلام وخدمة الكنيسة لويس التاسع الذي أعاد الكرة ونزل بثغر دمياط . وهنا نجد الملك الفرنسي يغير خطة الصليبيين ويرسل إلى الملك الأيوبي في مصر الملك الصالح نجم الدين رسالة يعرض عليه فيها التسليم . وهي رسالة سقيمة لاتعني شيئاً سوى التفاخر والتبجح الكاذب، والتباهي بعدد العساكر التي أحضرها معه، وأنه سيقتل الملك الصالح . ويدعي لويس التاسع في تلك الرسالة أنه أمين الأمة العيسوية وهذا ادعاء لانعتقد أن بقية ملوك أوربا توافق عليه [2] . ويدل جواب الملك الصالح له على نفس واثقة بالله تعالى وبعدالة القضية التي يدافع

---

(١) ابن واصل المصدر المذكور آنفاً . جـ ٤ ص ٩٩-١٠٠ .

(٢) المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي . كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق محمد مصطفى زيادة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٤م ، جـ ١ ، ق ٢ ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

عنها ، وعلى أن العدوان الصليبي لابد وأن ينتهي بتدمير المعتدين ، واستشهد في كتابه بآيات من الذكر الحكيم تناسب المقام[1] .

وقد صدق الله وعده جنده المؤمن به ، وهزم المعتدون شر هزيمة في معركة المنصورة الشهيرة عام ٦٤٨ هـ وأسر ملك فرنسا نفسه مع قواده وثقاته ، وتحطم غروره ، وتمزق جيشه ، وتفرق أيدي سبا .

ولقد أثار ظفر المنصورة العزة في النفوس ، وأعاد المسلمين ثقتهم بربهم وبأنفسهم ، وعاد الدين جديداً كما كان ، ولبست البلاد ثوباً قشيباً هو ثوب الظفر الذي أتى بعد أن يئس العباد من البلاد والأهل والأولاد ، فنودوا : ألا تيأسوا من روح الله[2] .

عهد المماليك :

يعتبر عهد المماليك - في أوله على الأقل - امتداداً للعهد الأيوبي ، ولاسيما فيما يتعلق بالحرب ضد الصليبيين . ذلك أن أوائل ملوك المماليك أوصلوا الحرب ضد الصليبيين إلى نهايتها المحتومة : وهي تطهير بلاد الشام من أرجاسهم . ذلك أن أوربا الصليبية لم تعد قادرة - بعد هزيمة المنصورة المذكورة آنفاً - أن تعيد الكرة على مصر وبأعداد غفيرة ، كما وأن أوائل ملوك المماليك كالظاهر بيبرس والملك المنصور قلاوون كانوا محاربين من نوع نادر ، فهم الذين أعادوا وحدة مصر وبلاد الشام ، وهم الذين حطموا أسطورة الجيش المغولي الذي لايقهر فقهروه أكثر من مرة ، وصبوا الهزائم المتوالية على رؤوس أباطرة

---

(١) نفس المصدر .

(٢) المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي الخطط المقريزية . الشياح ، لبنان ، مكتبة إحياء العلوم . جـ ١ - ٣٩١ .

المغول . وحاربوا الصليبيين في بلاد الشام وانتزعوا معاقلهم واحداً بعد واحد حتى أجلوهم عن سورية سنة ١٢٩١ م كما حاربوا الثوار وقضوا عليهم ، إلى جانب حربهم لسلاجقة الروم وللبيزنطيين وهزيمتهم إياهم أكثر من مرة .

والواقع أثبت الملك الظاهر بيبرس أنه قائد محارب من أرفع طراز . وقد ميز نفسه عندما كان ضابطاً وقائداً للفرسان زمن أواخر الأيوبيين . وأما في زمن السلطان قطز فقد كان هو الروح المحركة والعقل المفكر وراء كل ماتم إنجازه ضد المغول بخاصة ، ولاسيما في معركة عين جالوت الحاسمة . ولما أصبح الظاهر بيبرس سلطاناً ، انضاف إلى خلاله السابقة صفة الحكم والقيادة ، وهي خلال كان هو من أجدر الناس بها ، وهو الذي يعود له الفضل الأكبر ، في زمن المماليك ، في تحطيم القوة الصليبية في سورية . وعلى الرغم من أن بقاء الصليبيين استمر في بلاد الشام فترة ليست بقصيرة بعد وفاته ، إلا أن شرف إنهاء الحكم الصليبي يعود له ولحروبه البطولية التي حطمت معاقل الفرنج معقلاً معقلاً . وقد بلغ من عجز حكام سورية الفرنج وضعفهم أنهم أصبحوا يطلبون عقد الهدن مع الظاهر بيبرس ، بل وقد أصبح هو نفسه حكماً بينهم كما حدث لما احتال ملك قبرص وحاكم عكا على صاحبة بيروت وجعلاها تترك مملكتها وتذهب إلى قبرص ، فبقيت بيروت بدون حاكم ، فأرسل السلطان إلى صاحب عكا يقول : هذه الملكة بيني وبينها هدنة ، وما سافر زوجها حتى أودعها عند جاهي ، وعادتها إذا سافرت تستودعني بلادها . وفي هذه المرة ماسيرت لي رسولاً ، ولابد من حضورها وأن تتوجه رسلي وتشاهدها ، وإلا أنا أحق ببلادها [1] .

---

(١) ابن الفرات . المصدر المذكور آنفاً . جـ ٧ - ٣٥ .

ولكي يتمكن السلطان من تنفيذ خططه في تطهير بلاد الشام من الفرنج لم يكتف بالاستعداد الحربي وحده ، وإنما لجأ إلى الدبلوماسية فحالف بعض الصليبيين إلى فترة ، ليأمن جانبهم ، وتفرغ للآخرين ، كما فعل لما عقد عدة هدن مع بيروت ، ومع الأستبارية في حصن الأكراد ومع غيرهما ، وهاجم عندئذ بقية المعاقل واحتلها كما فعل لما هاجم صفد والشقيف واللاذقية ويافا وانطاكية وفتحها كلها .

وقد كان من حسن حظ الملك الظاهر وابنه من بعده الملك بركة ومن بعدهما السلطان قلاوون أن وجد عندهم كاتب للإنشاء من ألمع كتاب الإنشاء الذين حفل بهم التاريخ الإسلامي وأرشقهم أسلوبا وأفصحهم بياناً وهو محي الدين بن عبد الظاهر . وأن أسلوبه الرشيق وعباراته الرضية وسهولة كتابته وامتناعها ، ولصوقها بالقلب ، وإثارتها للاعجاب ، وتدفق فصاحته وبلاغته وفصاحته ، لتذكرنا بالقاضي الفاضل وماأنجزه في عصر صلاح الدين الأيوبي . وهو على الرغم من استعماله السجع والمحسنات البديعية والبيانية بكثرة ، وعلى الرغم من أن رسائله معرض لمدح السلطان بحساب وبغير حساب ، ومعرض لإظهار بلاغته وقدرته الكتابية والبيانية والبديعية ، وقدرته على الإتيان بالمترادفات والسجع والترصيع ، إلا أن كل ذلك لايحجب أسلوبه الرصين وشخصيته المتميزة بحيث يستطيع الإنسان المطلع على أسلوبه أن يحكم على رسالة ألفها هو ولكن جهل مؤلفها من أسلوبها أنها من تأليفه . وقد ترك لنا قطعاً فريدة من نوعها تعود إلى ذلك العصر وكلها شواهد حية تدل على ذوق ذلك العصر الرفيع وعلى ما وصل إليه النثر العربي تحت اشراف هذا الكاتب العظيم وبهمته وسعيه .

والطريف في الموضوع الروح المرحة التهكمية التي كانت تحكم الملك الظاهر . ذلك أنه بعد أن احتل انطاكية أرسل إلى صاحبها بوهيموند السادس ، وكان يحكم أنطاكية وطرابلس معاً وكان يلقب بالبرنس ، يخبره بفتحه أنطاكية ويخاطبه بالقومص . ذلك أنَّ سقوط أنطاكية بيد السلطان جعلت رتبة بوهيموند تنحط من الإمارة الى الكونتية ، كما وأن فتحها دليل حي على عبقرية السلطان العسكرية والسياسية . فقد هاجم أولاً طرابلس وحارب ضواحيها وفعل بها الأفاعيل ، ودافع عنها بوهيموند بشدة ، ثم انسحب السلطان من ضواحي طرابلس ، فاعتقد بوهيموند أن دفاعه كان السبب في رحيل السلطان وإحباط الهجوم على طرابلس ، ولذلك ركن إلى الراحة . ولكن ذلك كان جزءاً من خطة اتبعها السلطان ، فقد أوهم خصمه أن الهجوم الرئيسي هو على طرابلس ، على حين أن هدف الهجوم الرئيسي أنطاكية . ووصل السلطان إلى أنطاكية في غضون خمسة عشر يوماً من تركه طرابلس. وهناك حاصرها وتمكن خلال فترة وجيزة من أخذها . ومن هناك أرسل إلى بوهيموند تلك الرسالة يخبره بخبر أنطاكية وكيف أخذها وهي رسالة تقطر تهكماً وسخرية لاذعة إلى جانب احتوائها على الحقائق الناصعة من أخذ البلد وماحل بها من الدمار . فهو يفتتح رسالته بتحية بوهيموند .. المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية منه من البرنسية إلى القومصية [1] . ثم يعلمه بما تم من قتل خيالته ورجالته في أنطاكية وماحل بالبلد : فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ؛ ودیارك والنهابة

---

(١) المقريزي ، تقي الدين . كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق محمد مصطفى زيادة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٩٣٤ م . جـ١ ، ق ٣ ص ٩٦٦-٩٦٩

فيها تصول والكسابة فيها تجول ... ودماماتك وكل أربع منهن تباع فتشترى من مالك بدينار ... ولوشاهدت النيران وهي في قصورك تحترق ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق ... لكنت تقول : ياليتني كنت تراباً ! وياليتني لم أوت بهذا الخبر كتاباً ، ولكادت نفسك تذهب من حسرتك ... ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ماكنت أخذته من حصون الإسلام ... وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر بكونك لم يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة ، وكونك ماكنت فيها فتكون إما قتيلاً وإما أسيراً وإما جريحاً وإما كسيراً . وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي إذا شاهد الأموات ... وبعد هذه المكاتبة لاينبغي لك أن تكذب لنا خبراً ، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب ألا تسأل غيرها مخبراً .

ويعلق المقريزي على ذلك بقوله : ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتد غضبه ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب [(1)] .

كما وأن السلطان دأب على نفس الأسلوب مع بوهيموند من إرسال الرسائل له بعد أن يقتطع من أملاكه بلداً من البلدان ، كما فعل لما احتل حصن عكار من أملاك طرابلس . فقد أرسل له رسالة ثانية تفيض تهكماً وسخرية وتهديداً ووعيداً ، وهي بمثابة إنذار بالتسليم أو الرحيل ، وإلا فإن اللقاء قريب بين الطرفين وسيحل بالكونت وأهل طرابلس الصليبيين ماحل بأهل عكار . واللطيف في الموضوع هو أن السلطان يعطينا لون علمه ولون علم بوهيموند السادس فيقول :

---

(١) نفس المصدر .

وكتابنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر...[1]

ولقد توفي السلطان وهو في أوج مجده وعزه بعد أن حطم المغول وبعد أن أنهى القسم الاكبر من الاحتلال الصليبي لبلاد الشام، وبعد أن رفع سمعته وسمعة بلاده عالية خفاقة في أرجاء العالم، وترك للسلطان الملك المنصور ان يتم ما بدأه. وعلى الرغم أن السلطان بركة هو الذي خلف والده الملك الظاهر في العرش، إلا أن حكمه قصير وشخصيته مرجوحة مما مكن لقلاوون من خلعه والحلول محله.

وقد تمكن قلاوون أن يحرر مابقي من معاقل الصليبيين في بلاد الشام باستثناء صور التي جرى تحريرها زمن ابنه الملك الأشرف. وقد سار قلاوون على سياسة الملك الظاهر، فعقد المدن مع بعض الأطراف ليتفرغ للأطراف الأخرى كما فعل لما عقد هدنة مع مملكة عكا ليتفرغ لفتح وتحرير طرابلس. ولما حرر طرابلس رجع إلى عكا واحتلها وهكذا. وأخيراً شاهدت هذه البلاد خاتمة العدوان الصليبي، بمعناه الاصطلاحي الاختصاصي الضيق، على يد الملك الأشرف خليل الذي طهر صور ١٢٩١ م. ولم يعد الصليبيون إلى هذه البلاد، أو بالأحرى جيوشهم، إلا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

وقد انتهت الحروب الصليبية، كما عرفناها في أول هذا الفصل، في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، ولكنها خلفت في البلاد آثاراً رهيبة، وكان لها نتائج بعيدة المدى. فقد ساهمت أكبر مساهمة في تغيير عقلية الفاتحين الصليبيين البرابرة، وجعلتهم يطلعون على حضارة أرقى من حضارتهم، وصححت كثيراً من مفاهيمهم عن الشرق بعامة، وعن الإسلام والمسلمين، كما وأنها جعلتهم يغيرون أساليبهم في مهاجمة

---

(١) نفس المصدر جـ ١ ق ٣ . ٩٧٢-٩٧٣ .

الإسلام والبلاد الإسلامية ، ولكنها لم تؤثر فيهم بحيث يتخلون عن بغضهم أو حقدهم أو أطماعهم ، فهذه أشياء مغروسة في نفوسهم يتوارثونها كابراً عن كابر . كما وأنها علمتهم أهمية التبادل الاقتصادي وإمكانية ذلك في ظل سلم بين الطرفين ، وإيجاد سبل آمنة برية وبحرية بين الطرفين . كما وأن هذه الحروب ساهمت أكبر مساهمة في إضعاف نفوذ البابوية في الغرب ، وبالتالي الكنيسة ، وفي إضعاف نظام الإقطاع الذي كان سائداً في أوربا ، مما ساعد على تأسيس الملكيات المطلقة كدول فرنسا وإنكلترا وإسبانيا ، وكان له أثر فعال في إنهاء العصور الوسطى وبداية عصر النهضة الأوربية .

وأما تأثير هذه الحروب على الشرق فيختلف كل الاختلاف ، ذلك أن الشرق فقد قواه الذاتية في صراعه ضد الصليبين والمغول ، واعتقد أن البحر مصدر الشر ، لأنه حمل له أمواج الصليبيين ، فأهمل القوم البحر ولم يلتفتوا إليه ، حتى إنهم دمروا أكثر الموانىء المطلة على البحر الأبيض المتوسط خوفاً من أن يستعملها الغزاة في العودة ثانية إلى البلاد . كما وأنهم أهملوا الأسطول وتركوا الزيادة في هذا المجال لدول إيطاليا كالبندقية وجنوا . كما وأن تدمير قسم كبير من البلاد ومصرع عدد كبير من السكان أثر على الحضارة الإسلامية وأفقدها أصالتها ، فجعلها ، مع عوامل أخرى كثيرة أهمها الغزو المغولي ، تلجأ إلى التقليد الحرفي مما كان له أكبر الأثر في الجمود الفكري والحضاري الذي ران على البلاد والعباد فترة طويلة من الزمن . كما وأن هذا العدوان الأوربي ضد المسلمين جعلهم يقفون موقفاً عدائياً تجاه أوربا وكل ما يصدر عنها ، ولوكان هذا الذي يصدر شيئاً جيداً يمكن أخذه والاستفادة منه ، إلى جانب أنهم انطووا على أنفسهم قدر

الاستطاعة وحاولوا الابتعاد عن مجرى الأحداث العالمية ، ممـــا كان له أكبر الأثر على عقليتهم ومعارفهم . أضف إلى ذلك أن أغلب ملوك المماليك ، بعد الملك المنصور قلاوون وابنه الملك الناصر محمد كانوا ملوكاً ضعافاً هزيلين ، ولم يكن عندهم تصور واضح عن مفهوم الحكم والدولة فانخرطوا في منازعات محلية استنزفت قواهم وقوى شعبهم . وإذا تذكرنا العاصفة المغولية الكبرى التي اجتاحت الشرق حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط بقيادة السفاك تيمورلنك أواخر القرن الرابـع عشر الميلادي ، وما أحدثته من دمار وأنزلته بالبلاد والعباد من ضروب البـــلاء والقتل والتدمـــير ، فإننا نكون قد رسمنا صورة شبه كاملة لأسباب التدهور والتأخر الحضاري الذي سيطر على الشرق فترة طويلة من الزمن .

ولم يحاول العثمانيون ، ولم يكن بإمكانهم ، أن يغيروا هذه الصورة ، بل لعلهم ثبتوها ورسخوها وزادوها استقراراً ، وذلك بسبب قصورهم وبسبب طبيعة تكوينهم وتكوين نظام الحكم لديهم . ولكن ذلـك خارج عن نطاق كتابنا هذا . وإنما نكتفي بالإشارة إليه .

ولقد تعاصر مع الغزو الصليبي لهذه البلاد ، الغزو المغولي لهـــا الذي كان له آثار قاتلة على كل ناحية من نواحي الحياة في العالم الإسلامي والحضارة ككل ولعل هذه الآثار أشد من الآثار التي خلفها الغزو الصليبي .

وعلى الرغم من أن المسلمين خرجوا منتصرين في كلتا الحالتين ، إلا أنهم فقدوا قواهم الذاتيه في هذا الصراع الرهيب ، وأصبحوا عرضة لمختلف أنواع الآفات والمصائب ، مثلهم في ذلك مثل جسد أصيب بأمراض خطيرة جداً وتمكن هذا الجسد من التغلب على تلك الأمراض ، بعـد صراع رهيب ، وخلال فترة طويلة ، ولكن هذا الصراع أضعف ذلك الجسد كل الإضعاف فأصبح هدفاً لأبسط الأمراض وأنواع الجراثيم تهاجمه وتفتك به .

الغزو المغولي :

يعتبر المغول من العنصر الأصفر ، ومكانهم الأصلي منغوليا ، وهي التي أعطتهم اسمها على ما يبدو . وقد استمروا فترة طويلة في ذلك المكان ، ولكن حدث أن ظهر فيهم زعيم قوي في أوائل القرن الثاني عشر هو جنكيزخان الذي تمكن أن يمد سلطانه على بقاع شاسعة من الأرض ، وأن يوجد أوسع إمبراطورية وجدت حتى عهده . وكان العالم الإسلامي هدفاً دسماً وسهلاً للمغول . ذلك أن العالم الإسلامي كان أكثر حضارة وتحضراً من المغول ، ويزخر بالثروات والخيرات والمدنية ، إلى جانب ضعف سياسي وانقسام وتنافس طاحن بين مختلف الفرقاء . ودائماً تجذب البؤر الأكثر تحضراً ، والضعيفة عسكرياً وسياسياً ، البرابرة الأقل تحضراً لاحتلال تلك البؤر والتمتع بما تحويه من خيرات . وهذا ماحدث في عالمنا الإسلامي . ولم يكن لدى المغول قيم روحية أو أخلاقية رفيعة ، فقد كانوا وثنيين أو لادين لهم ، ومستواهم الأخلاقي ومفاهيمهم الأخلاقية منخفضة كل الانخفاض ، إلى جانب أعداد غفيرة ومتزايدة ، وتنظيم عسكري دقيق، وقيادة سياسية وعسكرية حازمة وحاذقة . كل ذلك أدى إلى جعلهم يحققون مايصبون إليه من تدمير واحتلال وقتل وسيطرة . ولايحسبن أحد أنهم كانوا غير منظمين ، بل لعلهم كانوا أكثر تنظيماً وأدق من أعدائهم ، وهذا أحد عناصر تفوقهم . ذلك أنهم كانوا منظمين كل التنظيم ويعرفون ما يريدون ، ويعرفون الطريق لتحقيق مايريدون . ويمكن تقسيم أدوار الغزو المغولي للعالم الإسلامي ، تسهيلاً للبحث إلى ثلاثة أقسام كبرى :

الدور الأول : وينتهي بسقوط بغداد بيد المغول سنة ٦٥٦هـ .

الدور الثاني : الذي يمتد حتى ظهور تيمورلنك أواسط القرن الرابع عشر الميلادي .

الدور الثالث والأخير : دور العاصفة التيمورية التي استمرت حتى وفاة تيمورلنك أوائل القرن الخامس عشر الميلادي .

الدور الأول من أدوار الغزو المغولي :

لقد سبق المغول في الإغارة على العالم الاسلامي أقوام آخرون من جنسهم هم الخطا والتتار ، ولكن المسلمين كانوا قادرين على الخلاص منهم ، ومن حسن الحظ وجد ملك في شرقي البلاد الإسلامية في خوارزم هو خوارزمشاه الذي كان محارباً قديراً ودبلوماسياً بارعاً ، فتمكن أن يحارب الخطا وأن يكسرهم ، كما حارب التتار وتخلص منهم ، وأبدى خلال هذه المعارك مقدرة عسكرية لابأس بها ومهارة سياسية ، ولكن الحظ خانه أمام المغول فلم يتمكن من الوقوف في وجه جحافل جنكيزخان الذي اتخذ ذريعة للهجوم عليه قتل نائب خوارزمشاه تجاراً أرسلهم جنكيزخان إلى خراسان باسم التجارة ظاهراً ، ولكن للتجسس وتقصي الحقائق باطناً ، فأرسل جنكيزخان إلى خوارزمشاه رسالة يعتب عليه فيها ويطلب منه مجازاة نائبه لفعله ، ولكن خوارزمشاه قتل رسول جنكيزخان الذي غضب لهذه الإهانة ، وأرسل يهدد ويزمجر ويقول : تقتلون أصحابي وتأخذون مالي منهم ! استعدوا للحرب فإني واصل إليكم بجمع لاقبل لكم به [1] .

وقد وصل جنكيزخان وحارب خوارزمشاه وهزمه واحتل قسماً

---

(١) ابن الأثير المصدر المذكور آنفاً . ج ١٢ - ٣٦٣ .

كبيراً من شرقي البلاد الإسلامية . ولقد تابع خلفاؤه سياسته ، وبشكل خاص منكوقاآن الذي أرسل أخاه هولاكو لتحقيق حلم جدهم جنكيزخان باحتلال البلاد الواقعة بين جيحون وأقاصي بلاد مصر [1] .

وتبدو في وصيته لأخيه هولاكو الشخصية المغولية واضحة كل الوضوح : من اعتزاز بجنكيزخان وحض على التمسك بقوانينه في الكليات والجزئيات ، إلى تحريض على تحطيم كل من يقف في طريقه : أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلـــق به ... فإذا فرغت من هذه المهمة ، فتوجه إلى العراق ... وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة ، فلاتتعرض له مطلقاً ، أما اذا تكبر وعصى ، فألحقه بالآخرين من الهالكين [1] .

ولقد أدرك المسلمون الخطر الماحق الذي يتهددهم من هؤلاء المغول ، ولكن الانقسام السياسي وضعف الحكام وتخاذلهم وخياناتهم ، والخوف الذي استولى على النفوس ، كل أولئك عوامل لم تساعد على إيجـــاد جبهة إسلامية موحدة تقف في وجه المغول ، بل ساعدت على اتساع هوة الخلاف وعلى تسهيل عملية الغزو المغولي للعالم الإسلامي . فقد فرض بدر الدين لؤلؤ على أهل الشام ضريبة أسماها ضريبة التتر [2] ، ولكن عبثاً . كما كان المسلمون يعلمون أن هدف المغول احتـلال جميع البـلاد الاسلامية بما فيها مصر . فقد ورد في رسالة أرسلها تاجر مجهول مـــن الري إلى أصحابه في الموصل سنة ٦٢٧ هـ يعلمهم عن هذا الغزو ما يدل

---

(١) الهمذاني ، رشيد الدين بن فضل الله . جامع التواريخ في تاريخ المغول . تعريب محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد القاهرة ، الإدارة العامة للثقافة ، ١٩٦٠ م . جـ ٢ ، ق ١ ٢٣٦-٢٣٧ .

(٢) المقريزي . المصدر المذكور آنفاً . جـ ١ ، ق ٢ — ٣١٥ .

على ذلك . إن الكافر - لعنه الله - ما نقدر أن نصفه ... حتى لاتنقطع قلوب المسلمين ... ولاتظنوا أن هذه الطوائف التي وصلت إلى نصيبين والخابور ... كان قصدهم النهب ، إنما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردهم أم لا ؟ فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع ... فقوي طمعهم ، وهم في الربيع يقصدونكم ومايبقى عندكم مقام ، إلا إن كان في بلاد المغرب ، فإن عزمهم على قصد البلاد جميعها فانظروا لأنفسكم [١] ،

ولقد افتتح هولاكو حملاته على البلاد الإسلامية بتوجيه نداء إلى جميع حكام البلاد الاسلامية الشرقية - وما أكثرهم - ومن جملتهم خليفة بغداد المستعصم بالله ، أن يساعدوه بالمال والرجال والسلاح من أجل إخضاع واحتلال قلاع الملاحدة المنتشرة في شمالي إيران الحالية ... فإذا أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم وستحمد لكم مواقفكم . أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر أو أهملتم ، فإننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة ، فإننا لانقبل عذركم ونتوجه إليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم [٢] ..

ولقد ثبت أن قليلاً من الحكام المسلمين لبوا نداء هولاكو وساهموا في حملته المشهورة هذه . ولذلك امتلأ غضباً عليهم ، وبعد أن انتهى من أمر الملاحدة وقلاعهم ، وجه سهام نقده وصب جام غضبه على الخليفة باعتباره أكبر الحكام المسلمين في العراق مقاماً وقوة ، ولسلطته الروحية

---

(١) ابن الأثير . المصدر المذكور آنفاً . ج ١٢ - ٥٠٣ .

(٢) الهمذاني . المصدر المذكور آنفاً ، ج ٢ ، ق ١ - ٢٤٠ .

ومكانته المقدسة لدى المسلمين ، فأرسل له رسالة يعاتبه على عدم إرسال الجنود للمساعدة في فتح قلاع الملاحدة ، ويذكر له أنه مهما تكن أسرتك عريقة وبيتك ذا مجد تليد ، فإن لمعان القمر قد يبلغ درجة يختفي معها نور الشمس الساطعة [1] . وفي هذا اعتراف صريح بتفوق وسمو أسرة آل العباس على أسرة جنكيز خان ، مع إمكانية أن يلمع هولاكو أو أحد أفراد أسرته أكثر من لمعان أحد أفراد أسرة آل العباس . ثم بعد ذلك ينتقل معه إلى التهديد ، ويذكر له ان كثيراً من السلالات حكمت إلى جانب الخليفة في بغداد بعد أن احتلتها من أمثال السلاجقة والديالمة والأتابكة ، فكيف تغلق بغداد في وجه المغول وهم أقوى من كل أولئك ؟! بعد ذلك يطلب من الخليفة الخضوع والطاعة ، وآية الطاعة هدم الحصون وطم الخنادق وإرسال وفد مؤلف من ثلاثة موظفين لمقابلة هولاكو ، وتقديم الخضوع والولاء له . وإذا رفض الخليفة ذلك فالحرب بين الطرفين ، والويل للخليفة وشعبه [2] .

ولقد كانت هذه الرسالة فاتحة تراسل بين الخليفة وهولاكو ، وأظهر الخليفة جهلاً بالقوى التي يواجهها ويحاربها ، كما أظهر غروراً وعجزاً كبيرين . فقد لبس ثوب النمر في رسالته الجوابية إلى هولاكو ، وهو عاجز عن أن يلبس ثوب الهر . فقد وصف الخليفة هولاكو بالشاب الحدث المتمني قصر العمر ... ثم بعد ذلك يقول : إن عنده من السلطة والاستطاعة ما يمكنه من جمع الشتات وحسم الأمور في إيران . ثم بعد ذلك يتوجه إلى توران ويضع كل إنسان موضعه ، وعندئذ سيصير

---

(١) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ق ١ - ٢٦٨ .

(٢) نفس المصدر .

وجه الأرض جميعه مملوءاً بالقلق والاضطراب ؛ غير أني لا أريـــد الحقد والخصام ...[1]

ولقد رد هولاكو رداً عنيفاً على رسالة الخليفة هذه وعاقبه بشدة وأخبره أنه زاحف على بغداد بجيش لاقبل له به . ولقد امتـاز رد الخليفة الثاني على رسالة هولاكو الأخيرة باستشهاده بحوادث التاريـــخ ليثبت لهولاكو أن بني العباس مكلوؤن بالعناية الإلهية ، وأن كل من قصدهم بأذية لابد أن يقصم ، وقد استشهد الخليفة بأعمال يعقوب بن الليث الصفّار وأخيه وبفتنة البساسيري ومحاولته خلع الخليفة ونقـــل الخلافة إلى الفاطميين في مصر ، وبأعمال السلطان السلجوقي محمـــود ومحاربته الخليفة وكيف أراد احتلال بغداد وعجز عن ذلك . كذلـك ذكر الخليفة محاولة خوارزمشاه احتلال بغداد وخذلانه وخيبته ، ليصل إلى تقرير حقيقة ثابتة في رأيه : وهي أن العناية الإلهية تحرسه وتحرس اسرة العباس : فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصـــد أسرة العباسيين ، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر[2] .

ويبدو أن الخليفة كان معتقداً حقاً بحماية إلهية له ولأسرته ، ولذلك تصرف بهذا الشكل الاعتباطي ، ولكنه كان واهماً في ذلك ، ودفـع ثمن هذا الوهم حياته وعرشه وسلالته كلها .

كما وأن هناك أخطاء في الأحداث التي سردها الخليفة ولاسيما فيما يتعلق بفتنة البساسيري التي حدثت في العراق وبغداد في حدود ٤٤٠ – ٤٤٧ هـ . ذلك أن الخليفة ذكر أن البساسيري نجاه بجيش عظيم من مصر

---

(١) نفس المصدر ، ج ٢ ، ق ١ ص ٢٦٩ – ٢٧٠ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ق ١ ص ٢٧٥ – ٢٧٦ .

إلى بغداد وقبض على الخليفة وسجنه في الحديقة وجعل السكة والخطبة في بغداد للمستنصر الفاطمي ، ثم أتى طغرلبك السلجوقي إلى بغداد وأنهى حركة البساسيري [1] . ولكن الحقيقة خلاف ذلك . ذلك أن البساسيري لم يذهب إلى مصر قط ولم يأت بجيش منها ، وإنما تحالف مع أمير بدوي محلي هو قريش ، كما وأنه لم يعتقل الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وإنما لجأ هذا إلى مدينة الحديثة وهناك استقر في إحدى قلاعها بحماية أمير بدوي اسمه مهارش بن مجلى أضف إلى ذلك أن البساسيري خطب للخليفة الفاطمي في بغداد مدة تقرب من السنة .

ولقد أدرك الخليفة ، بعد فوات الوقت ، أن تهديدات هولاكو في محلها ، وأن لاشيء ينقذه من مخالبه ، فحاول الصلح وتلبية قسم من طلبات هولاكو ، ولكن هذا رفض وشن الحرب على بغداد والخليفة حتى أوصلها إلى نتيجتها الحتمية وهي احتلال بغداد وتدميرها ، ودفع الخليفة حياته ثمناً لما حدث .

- في العصر المملوكي بعد سقوط بغداد :

تمكن المماليك الذين حكموا بعد الأيوبيين في سورية ومصر أن يطردوا الصليبيين من بلاد ، الشام وأن يصدوا تيار الغزو المغولي الجارف وأن يستنقذوا من براثنهم بلاد الشام ، وأن يحيلوا مدهم إلى جزر ولقد استمر الغزو المغولي لبلاد الشام فترة طويلة وعلى شكل موجات متتابعة تفصلها فترات زمنية . ولقد اندفع المغول بشكل شلال متدفق من الحمم، قذفها على سطح الأرض بركان ثائر ، وهاجموا بلاد الشام التي

---

(١) نفس المصدر .

كانت ضعيفة ومتقسمة بين عدد كبير من الحكام . ولقد رافق الهجوم المغولي على بلاد الشام انقضاء الحكم الأيوبي في مصر ، وقيام الحكم المملوكي ولقد رافق هذا التغيير في الحكام اضطراب ساعد في تقدم الغزاة في بلاد الشام . ولم يكن بين حكام بلاد الشام من هو قادر على الوقوف في وجههم . فصاحب حلب الأيوبي الملك الناصر كان قصبة مرضوضة ولم يكن أهلاً للوقوف في وجه المغول ، ولاسيما بعد أن شاعت وذاعت في الخافقين أعمالهم الإرهابية : ذلك أن المغول أسروا النفوس وزرعوها خوفاً وهلعاً ، واعتقد معاصروهم أنه لايمكن الوقوف بوجههم بحال من الأحوال - بله التغلب عليهم - ولقد زحف المغول على بلاد الشام والناس يعتقدون هذا الاعتقاد . وتدل الرسائل التي أرسلها هولاكو إلى الناصر الأيوبي صاحب حلب على شخصية متغطرسة متعطشة للحكم والاستبداد، وأن جزاء المخالفين هو جزاء أهل بغداد وحكامها ، وأن ما أحلّوه ببغداد وأهلها وحكامها إن هو إلا انتقام إلهي لسوء سلوكهم وطغيانهم وجبروتهم ، ويحذره ويحذر أهل حلب مغبة المقاومة اللاجدية ويطلب إليهم الاستسلام ، وذلك بعد أن صور لهم ما حل بالعصاة ومافعلوه بالأنفس والأموال والأولاد والبلاد والعباد فأغلب رسائل المغول من هذا الطراز : الغاية منها تحطيم روح المقاومة لدى الخصم ، وفتح النفوس قبل فتح البلاد والأجساد .

ولم يتمكن الملك الناصر من الوقوف في وجه جيوش هولاكو وكانت النتيجة احتلال المغول بلاد الشام بأغلبها ، وفعلوا بها الأفاعيل . وبدأوا يتهيؤون للزحف على مصر . وقد حدث آنذاك أن انقضى الحكم الأيوبي في مصر وافتتح العهد المملوكي فيها السلطان الملك المظفر قطز رحمه الله . وكان حكمه بداية عهد جديد في تاريخ الشرق ، وبشكل

خاص في تاريخ الغزو المغولي للعالم الإسلامي . ذلك أن في عهد هـذا السلطان القصير تحول المد المغولي إلى جزر وهزم المغول لأول مرة في تاريخهم ، وأدرك الناس أن هؤلاء الهمج يمكن قهرهم ، وأنهم قهروا بالفعل وقتلوا وشردوا ، واسترجع المماليك منهم بلاد الشام بأسرها ، وزال ذلك الوهم الذي ركب النفوس ، وتمكن الملك قطز وأنصاره أن يحرروا نفوس البشر من الخوف من المغول قبل أن يحرروا البلاد ، وكان انتصارهم العظيم في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ فاتحـــة سلسلة من المعارك خاضوها ضد المغول وحطموا أسطورتهم وكبرياءهم وقـوام ، وطهروا بلاد الشام منهم ، وأنقذوا الإسلام والمسلمين من شر وبـــلاء عظيم . وعاد دين الإسلام غض الإهاب ، ولذلك حق اعتبارهـا من المعارك الفاصلة في التاريخ ، وحق تقدير الأبطال الذين خاضوها وتمكنوا أن ينزلوا الهزيمة بأوحش جيش عرفه التاريخ يغزو هذه البلاد .

ولقد افتتح هولاكو ، كالعادة ، حروبه ضد سلطان مصر قطز برسالة حملها رسله لاتحوي إلا الوعيد والتخويف والترهيـب وتطلب الاستسلام ، ويضرب لهم الأمثال بمن عصى وماحل بهم نتيجة لعصيانهم ، ثم يطلب إليهم التسليم لأمره والخضوع لحكمه ، وإلا فالويل لهم : فمن طلب حربنا ، ندم ، ومن قصد أماننا ، سلم ، فإن أنتم بشرطنا ولأمــــرنا أطعتم ، فلكم مالنا وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ... فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغير الإهانة مالملوككم عندنا سبيل ...[1]

ولكن هذا الخطاب الشديد المملوء بالترهيب والوعيد لم يـؤثر في

---

(١) المقريزي . المصدر المذكور آنفاً . جـ ١ ، ق ٢ ، ٤٢٧-٤٢٩ .

أعصاب السلطان قطز وأتباعه . ذلك أنهم أدركوا أنهم هم حماة الإسلام والحضارة ، وأن على قرارهم يتوقف مصير أمة ومدنية . ولذلك بحثوا الأمر من كل وجوهه ، وتوصلوا بالإجماع إلى ضرورة حرب المغول ، فذلك أفضل من التسليم والخضوع إلى حكم حاكم مخادع غادر لايفي بالعهد مثل هولاكو . ذلك أن السلطان قطز جمع أمراءه وقواده وتشاور معهم فيما يجب أن يفعل . ولقد كان من الممكن أن يطمئن القوم إلى هولاكو ويدخلوا تحت حكمه لوكان إنساناً وفياً بالعهد : إنه [أي هولاكو] ليس بالإنسان الذي يطمأن إليه ، فهو لايتورع عن احتزاز الرؤوس ، وهو لايفي بعهده وميثاقه ؛ فإنه قتل فجأة خورشاه والخليفة وحسام الدين عكه وصاحب إربل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق . فإذا ماسرنا إليه فسيكون مصيرنا هذا السبيل [١] .

ويقول السلطان قطز لأتباعه بعد سماع العبارة التالية من أحدهم : والحالة هذه فإن كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع ، وأصبحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً يباباً ... وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحداً من ثلاثة : الصلح ، أو القتال ، أو الجلاء عن الوطن . أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ، ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا مقراً إلا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة .

فأجاب نصر الدين قيمري :

وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم إذ أنه لايوثق بعهودهم .

---

(١) الهمذاني . المصدر المذكور آنفاً . جـ ٢ ، ق ١ ، ٣١١-٣١٣ .

عندئذٍ قال قطز : إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال ، فإذا ظفرنا فهو المراد ، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق .
واتفق الأمراء على ذلك[1] .

ولقد لجأ قطز إلى تدبير حكيم رفع به روح شعبه وقواده المعنوية، ذلك أنه أمر بصلب رسل المغول الذي أرسلهم هولاكو فصلبوا بالليل[2]

ولقد تقدم الجيش المملوكي إلى حرب الجيش المغولي ، وجعلوا شعارهم في حربهم هذه : واإسلاماه ، ودارت المعركة الفاصلة في عين جالوت في فلسطين . وهناك قدر الله أن تنتصر الحضارة على الهمجية، والإسلام على الوثنية ، والإنسانية على البربرية . وذاق جيش المغول الذي كان بقيادة كيتوبوقا لأول مرة كأس الهزيمة المرة ، وشربوا من الكأس التي أسقوها مراراً للآخرين ، وسقط كتيبوقا نفسه قتيلاً في المعركة . وحررت هذه المعركة نفوس البشر من الخوف القاتل الذي سيطر عليها ، ومن الوهم الكبير الذي اعتراها ، وهُزِم الجيش المغولي الذي لايقهر ، ودفع المغول ثمن غرورهم وجبروتهم ولاإنسانيتهم غالياً جداً ، وكانت نتائج هذه المعركة أن حفظت لمصر وبلاد الشام وحدتها وأعادت للإسلام وجهه الأبيض ، وأحيت الآمال وحررت البلاد والعباد، وأعادت الثقة بالنفس لحكام مصر وبلاد الشام ، وكانت الأساس في تدعيم حكم المماليك في مصر وسورية . ونجد صدى هذا الانتصار العظيم في الرسالة التي وجهها قطز إلى صاحب اليمن الملك المنصور يخبره بماحدث في ذلك اليوم الأغر : فصدرت هذه التهنئة إليه رواية للصدق .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

عن اليوم المحجل الأغر [١] ... وقتل من المشركين كل جبار عنيد . ذلك بما قدمت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد [٢] .

ولقد استمرت المعارك بين المغول والمسلمين في بلاد الشام زمن خلفاء قطز ولاسيما الملك الظاهر بيبرس والملك المنصور قلاوون . ولقد بلغ من شهرة الملك الظاهر بيبرس وقوته وهيبته أن لجأ إلى مساعدته بركة خان ليساعده ضد أخيه هولاكو في صراعه معه [٣] .

ولقد دار الزمان دورته ، وأصبح ملوك الإسلام يصبون الهزائم على رؤوس المغول وملوكهم ، كما فعل الظاهر بيبرس لما حارب المغول وهزمهم هزيمة منكرة في بلاد الروم ، وأراد ملكهم أباقاخان أن يثأر لهذه الإهانة التي لحقت به فأرسل رسالة تهديد وسباب إلى الملك الظاهر [٤] . ولكن السلطان أجابه أنه سيظل محارباً لهم حتى يستعيد جميع بلاد الخليفة التي احتلها المغول وسائر أقطار الأرض [٥] .

كما وأن السلطان الملك المنصور قلاوون انتصر انتصاراً مؤزراً على الجيش المغولي الذي غزا سورية سنة ٦٨٠ هـ ، فتصدى له السلطان ونشبت بين الطرفين معركة كانت غرة في جبين الدهر، وحقت الهزيمة على الجيش المغولي وجرح قائده وقتل قواده وأفراده ، وكانت المعركة ظاهر حمص . وكانت معركة رهيبة حقاً قادها السلطان المملوكي بنفسه ،

---

(١) القلقشندي . المصدر المذكور آنفاً . جـ ٧ ، ٣٦٠-٣٦٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) ابن كثير . المصدر المذكور آنفاً . جـ ١٣ - ٢٣٨ .

(٤) الهمذاني المصدر المذكور آنفاً . جـ ٢ ، ق١ ص ٦٣-٦٤ .

(٥) ابن كثير . المصدر المذكور آنفاً . جـ١٣ - ٢٥٤ .

وحول بشجاعته وثباته وحسن قيادته وهيبته الهزيمة إلى نصر مؤزر ، وحرر البلاد الواقعة غربي الفرات تحريراً كاملاً من المغول وجيوشهم . ونجد صدىً طيباً لهذه المعركة في رسالتين الأولى : أرسلها السلطان نفسه إلى نائبه في دمشق يبشره بهذا النصر العظيم ، والرسالة آية في البلاغة والفصاحة والإيجاز : نعلمه أنا ضربنا مصافاً مع العدو المخذول... وكان العدو المخذول على ظاهر حمص في مائة ألف فارس أويزيدون والتحم النهار من ضحوة النهار إلى غروب الشمس ففتح الله ونصر ، وساعدنا بمساعفة القدر ونصرنا ، والحمد لله على أن أذل الأعـــداء وكسرهم ، وظفر المسلمون ونصرهم ، وكتابنا هذا والنصر قد ضربت بشائره وحلق طائره وامتلأت القلوب سروراً . وأولى الله الإسلام من تفضله علينا وعليهم خيراً كثيراً [1] .

أما الرسالة الثانية : فهـــي رسالة مطولة من إنشاء كاتب الإنشاء محيي الدين بن عبد الظاهر أرسلها ولي عهد قلاوون الملك الصالح باسمه واسم والده إلى ملك اليمن الملك المظفر جواب رسالة أرسلها هـــذا لقلاوون مهنئاً بهذا النصر العظيم . وهي قطعة أدبية رائعة بماحوت من بلاغة وفصاحة وتشبيهات واستعارات وسجع وبيان وترصيع ومحسنـات بديعية ، كل ذلك بأسلوب متين جزل يذكرنا بأسلوب القاضي الفاضل : ويستفتح بذكر نعمى أصبـح لطف الله بها على كل مؤمن في أقاصي الأرض يمتن ، وهي النعمة التي عاد بها عمر الإسلام فتياً وكوكب سعده مضيأ ويوم نصره بدرياً [2].. وذلك بأن التتار المخذولين جمعوا كل من

(١) اليونيني ، قطب الدين . ذيل مرآة الزمان جـ ٤ ص ٩٥-٩٦ .

(٢) ابن الفرات . المصدر المذكور آنفاً . جـ ٧ ص ٢٢٣-٢٢٤ .

اعتقدوا في ظنهم أنه يهزم الجمع بمفرده ، وانتخبوا كل شجاع لايألف غير ظهور الخيل الجياد من يوم مولده [١] .. فلما قربوا من حماة المحروسة واستدنتهم حمص لقراها وثب لهم مولانا السلطان وثبة شيبت منهم الوليد، وأقدم عليهم إقداماً كان مساوقه فيه مصنفه خالد بن الوليد ، وأردفته الملائكة بنجدها ، وكاثرته الملوك بعـــددها وعددها ... [٢] وثبت مولانا السلطان ثبوتاً ما سمع أن سلطاناً ثبته ، واطلع الله على ما نواه من نصر الدين ، فتقبله بقبول حسن وأنبته . وكان العدو في مائة ألف مقابل مقاتل .. فصبروا على حر العلاقم ، ورأوا الموت خيراً لهم من الهزائم ، فلم يفلت منهم إلا من استمهل السيف ساعة من نهار ، وفر بعضهم والموت يقول لهم : قل لن ينفعكم الفرار ... [٣] ولم يفلت منهم إلا من تخطفته طيور الخيول في كل ممبر وطريق ، ومن هوت به الريح في مكان سحيق ... [٤] وثـــنى مولانا السلطان العنان وملوك المغل الأسرى يساقون بين يديه سكارى وماهم بسكارى ... ووصلت الأخبار السارة بذلك فعمت بالتهاني الوجود ، وضربت البشائر في كل صوب ، وحلقت الملائكة حتى الأفق حلق بالبرود والسماء ضربت فيها البشائر بالرعود ... [٥]

---

(١) نفس المصدر .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .
(٤) نفس المصدر .
(٥) نفس المصدر .

- المغول المسلمون

ولقد حدثت حادثة مهمة في الربع الأخير من القرن السابع الهجري ألا وهي اهتداء المغول ، أو القسم الأكبر منهم إلى الإسلام . ولقد كان لهذا الحدث أهميته ، إذ كان من المفروض أن يصبح المغول أنصاراً لهذا الدين وأن يدافعوا عنه بعد أن كانوا يهاجمونه . ولكن الذي حدث ان المغول ، الذين أنزلوا بالإسلام والحضارة الإسلامية والمسلمين ضربات قاصمة ، ودمروا بلادهم وحضارتهم وأزالوا سلطانهم من على مساحة واسعة من ديار الإسلام ، اعتنقوا الإسلام وقد فقد المسلمون قوامهم ، وقد تقوض بنيان الحضارة الإسلامية ، وفقدت تألقها وأصالتها وبدأت في الانحدار . فلم تكن الحضارة الإسلامية ولا الدعوة الإسلامية في حالة تمكنها أن تبعث في نفوس هؤلاء المعتنقين الجدد النواحي الإيجابية التي تقود إلى الأصالة وإلى المساهمة في رفع شأن الإسلام كدين والمساهمة في بناء صرح الحضارة الإسلامية . وذلك لأنهم اعتنقوا الإسلام وتبنوا المؤسسات الإسلامية التي وجدوها ، وتابعوا الخط الحضاري الذي وجدوه ، وقد اصاب جميع هذه المؤسسات الخراب والتدمير والوهن والجمود والانحراف . ولما لم يكن عند المغول أصالة ذاتية ، تمكنهم من سد الثغرات الواسعة التي أحدثها هجومهم المدمر على العالم الإسلامي ، لذلك لم يكن بمكنتهم أن يحرفوا الخط الحضاري عن مسيرته ، وتابعت الحضارة الاسلامية تدهورها ، ولم يفعل المغول المسلمون شيئاً لإيقاف هذا التدهور ، بل لعلهم زادوا فيه وكانوا عاملاً مهماً في زيادة سرعته .

ولقد أثبت المغول ، سواء أكانوا وثنيين كهولاكو وجنكيزخان وأولادهما ، ام مسلمين كغازان وتيمورلنك ، انهم أعداء ألداء للحضارة وللإنسانية وللعمران وللجنس البشري . وان أفعال غازان وتيمورلنك

في بلاد الشام تذكرنا بأعمال هولاكو ، بل تفوقها وحشية ولا إنسانية . وإذا كان المغول الوثنيون ، قبل تيمورلنك المغولي المسلم ، يدمرون المدن ويقتلون السكان ، فإن تيمورلنك كان يمحو المدن محواً ويستأصل المسلمين استئصالاً ، لذلك لم يؤثر تحول المغول إلى الإسلام تأثيراً يذكر في تغيير نفسية الفاتحين أو عقليتهم ، وظلوا على عدائهم القديم للحضارة والإنسانية . نستثني من هذا الحكم مغول الهند الذين أسسوا امبراطورية المغول الكبرى في الهند ، وتبنوا الحضارة ، وأسسوا مدنية رائعة ظلت مزدهرة حتى القرن التاسع عشر .

وحتى تتضح الصورة تماماً نوازن بين اعتناق السلاجقة الإسلام واعتناق المغول الإسلام . فكلا الشعبين أتى من أواسط آسيا ، وكلاهما كان شعباً بدوياً لم تصقله الحضارة ، وكلاهما اعتنق الإسلام . ولكن شتان بين تأثير الاسلام في نفوس السلاجقة وتأثيره في نفوس المغول . فقد تفاعل الإسلام في نفوس السلاجقة، وأصبحوا من حماة الإسلام والحضارة الإسلامية وقدموا للدين الاسلامي والمدنية الاسلامية أجل الخدمات ، على حين لم يكن لهذا الدين وهذه الحضارة إلا أثر سلبي في نفوس هؤلاء الهمج من المغول، وأثبتوا أنهم أعداء ألداء لكل القيم الإنسانية سواء أكانوا وثنيين أم مسلمين .

وأول من اهتدى من ملوك المغول إلى الإسلام وأعلن ذلك هو السلطان احمد بن هولاكو الذي اعلن ذلك في منشور أصدره لما جلس على العرش سنة ٦٨٠ هـ ووجهه إلى اهل بغداد خاصة[1] . كما وأنه ارسل رسالة شهيرة في هذا المعنى إلى السلطان الملك المنصور قلاوون سلطان مصر وسورية المملوكي يعلن اهتداءه إلى دين الاسلام ، ويدعو إلى السلم ونبذ الحرب ويطلب منه

---

(١) ابن عبد الظاهر ، محي الدين تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل . القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٦١ م . ص ٤ .

فتح أبواب الطاعة والاتحاد ، وبذل الإخلاص بحيث تنعمر تلك الممالك والبلاد ، وللبرهنة على حسن نيته وسلوكه وجنوحه للسلم يخبر سلطان مصر أن جنوده أمسكوا جاسوساً من جواسيس السلطان بزي الفقراء فأطلق سراحه مبرهناً بذلك على خلوص نيته وهو يخاطب سلطان مصر بضمير الغائب الجمع . . . وأعدناه اليهم . . . ولايخفى عليهم[1] كما وأنه يذكر أنه أصدر أمره إلى حرس الحدود أن يكفوا عن الهجوم على أملاك السلطان . والملاحظ في خطاب السلطان أحمد إلى قلاوون لهجة الاستعلاء الناتجة عن شعوره بالتفوق . وكتابه هذا يحمل طابع الوثنية المغولية على الرغم من اسلوبه الإسلامي وورود عدد من الآيات القرآنية فيه . ولقد كان رد ملك مصر مثلاً بليغاً عالياً على الدبلوماسية والفهم والعزة والكرامة . وقد رد في رسالته على جميع بنود رسالة السلطان المغولي فهو يعلن سروره لإسلام الملك . ويذكر له أن الله تعالى أراد به الخير إذ هداه للإسلام . وهو يخاطبه بضمير الغائب المفرد : وأن ينبت حَبَّ حُبّ هذا الدين في قلبه . .[2] بعد ذلك يغمزه غمزة ذكي معلم معود على أمثال هذه الغمزات ذلك أن الملك المغولي يخبر قلاوون أن مجلس المغول الأعلى قرر إرسال الجيش المغولي العظيم إلى بلاد الشام لحرب قلاوون وإزالة سلطانه ، ولكنه ، أي أحمد ، باعتباره مسلماً ولا يجوز للمسلم أن يحارب أخاه المسلم أوقف هذا القرار وارسل يخبر بذلك قلاوون ممتناً عليه . ولكن جواب قلاوون كان حاسماً في هذا الباب ! ..: وأنه (أي أحمد) أطفأ هذه النائرة وسكن تلك الثائرة ،

---

(١) نفس المصدر . ٦-١٦ .

(٢) نفس المصدر .

فهذا فعل الملك المتقي المشفق من قومه على من بقي ، المفكر في العواقب بالرأي الصائب . وإلا فلو تركوا وآراءهم حتى تحملهم العزة لـكانت تكون هذه الكرة هي الكرة [١] . . . ثم يرد عليه قوله : إنه لايجب المسارعة إلى المقارعة إلا بعد إيضاح الحجة وتركيب الحجة ، فبانتظامه في سلك الإيمان صارت حجتنا وحجته المتركبة وعلى من غدت طواعيته عن سلوك هذه الحجة متنكبة . . . [٢] وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول فقد ذهبت الأحقاد وزالت الذحول [٣] . . . ثم يعتب عليه فخره بإقامة شعائر الاسلام من العدل والإحسان وإصلاح الأوقاف والمساجد وتسبيل سبل الحج ... ويخبره أن هذه أوجب واجبات الملك المسلم : بل تفخر الملوك الأكابر برد ممالك على ملوكها ، ونظمها على ماكانت عليه في سلوكها [٤] . ثم يخبره أنه أصدر أمره إلى قواته في بلاد الشام بألا يتعرضوا لحرس الحدود المغوليين طالما أن هؤلاء لايتعرضون لهم وأنه سمح بحرية الانتقال بين البلدين . بعد ذلك يتعرض لذكر الجاسوس الذي اعتقل في بلاد السلطان أحمد ويخبره أن المغول هم الذين بدؤوا إرسال الجواسيس إلى بلاد الشام ومصر . ويعتب قلاوون على أحمد استشهاده بقوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) ويقول له : فما على هذا السبيل ينهج ... [٥] كذلك يخبره أن رئيس الوفد الذي حمل الخطاب إلى السلطان أخبره مشافهة برغبة السلطان أحمد في الاتفاق ورضاه

---

(١) نفس المصدر .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .
(٤) نفس المصدر .
(٥) نفس المصدر .

بما في يده وبكف الأذى عن الرعية وعدم الإغارة من الطرفين ، وإذا أصر قلاوون على الإغارة فيطلب منه السلطان أحمد تعيين مكان اللقاء ويعطي الله النصر لمن يشاء . ويرد عليه قلاوون مذكراً بالهزائم التي صبها هو وبيبرس على رؤوس أسلافه وأن المغول يخافون لقاءه وأن موعد ومكان اللقاء علمه عند الله تعالى[1] كذلك يعود أحمد في رسالة ثانية إلى قلاوون ، يفتخر بأسلافه المغول الوثنيين من عهد جده جنكيز خان حتى عهده هو[2] .

ولم تتبدل نفسية ولاسلوك من أتى بعد السلطان أحمد من سلاطين المغول ، بل ظلوا يتطاولون على بلاد الشام ومصر ويحاولون التوسع في تلك البلاد ، فقد أرسل ملك المغول كيختوا إلى السلطان الأشرف خليل رسالة يطلب منه أن يعيد له حلب لأنها مما فتحه هولاكو وهو يريد الإقامة فيها ويقول له : إن رفض ذلك فسيأخذ الشام كله منه . ولقد أجابه السلطان على أن ذلك وافق ما في نفسه . . . فإني كنت على عزم من أخذ بغداد وقتل رجاله، فإني أرجو أن أردها دار إسلام كما كانت ... [3]

- غازان -

ولقد كان سلوك القان قازان أو غازان كما يسمى أحياناً ، وهو المدعي للإسلام ، كسلوك أسلافه الوثنيين ، أو هو أسوأ بكثير ، لأن أولئك كانوا وثنيين ، أما هذا فقد ادعى الإسلام واعتنقه واعتقده ، ومع ذلك فعل بالمسلمين في بلادهم ما لم يفعله إلا أسلافه الوثنيون . فقد هاجم بلاد الشام

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر . ٦٩-٧١ .

(٣) المقريزي . المصدر المذكور آنفاً ، جـ ١ ، ق ٣ - ٧٨٦ .

واجتاحها ووصل في زحفه إلى دمشق واحتلها ، وفعل بها القبائح ، وأرسل رسالة إلى السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون يشرح ما حصل ويعلن أنه هو المؤمن المسلم حقاً وأنه احتل بلاد الشام لدفع عدوان المماليك . ثم بعد ذلك لايخجل أن يقول : والآن فإننا وإياكم لم نزل على كلمة الإسلام مجتمعين ، وما بيننا ما يفرق كلمتنا ، إلا ما كان من فعلكم بأهل ماردين ، وقد أخذنا منكم القصاص ، وهو جزاء كل عاص ، فنرجع الآن إلى إصلاح الرعايا ، ونجتهد نحن وإياكم على العدل في سائر القضايا.. .»[1] وقد غفل هذا السلطان عن أنه يخاطب بهذه اللهجة التي لايخاطب بها رئيس عصابة ملكاً عظيماً ومحارباً ممتازاً من ملوك المماليك. ولقد كان رد السلطان ناصر حاسماً في الموضوع. فقد أخبره أنه يعرف جميع حركات وسكنات الملك المغولي لأن أقرب ثقاته هم عيون السلطان ناصر عليه . ويخبره أنه لم ينتصر على جيوشه إلا لامتناعهم عن حربه لما سمعوا كذباً ، أنه وجنده مسلمون ، ثم يذكره بالمعارك الطاحنة التي دارت بين المماليك وبين المغول من عهد السلطان قطز حتى عهده هو ، والهزائم القاصمة التي ألحقوها بهم وبجيوشهم . ثم يرد عليه ادعاءه أنه اعتقد الاسلام قولاً وفعلاً ويقول له : إن ما اقترفته يداك ويدا جيوشك في دمشق وبيت المقدس ينقض دعواك من أساسها ... وحرم بيت المقدس تشرب فيه الخمور وتهتك الستور وتفتض البكور ... ثم على رأس خليل الرحمن تعلق الصلبان ... فإن كان هذا من علمك ورضاك فواخيبتك في دنياك وأخراك ... وأن كنت لم تعلم ذلك فقد أعلمناك ، فاستدرك ما فات فليس مطلوباً به سواك ... [2]

---

(١) ابن تغري بردي . المصدر المذكور آنفاً . ج ٨ ص ١٤٢-١٤٦ .
(٢) نفس المصدر .

ولقد تتابعت الرسائل بين الطرفين وكلها تدور حول نفس المعنى والموضوع : تهديد من غازان واستعداد للحرب واتهام للسلطان ناصر وللمماليك وجيوشهم بالكفر ومخالفة الإسلام ، وأن المغول وملكهم هم المدافعون الحقيقيون عن الاسلام ، وأن ما فعلوه في بلاد الشام نتيجة طبيعية لعدوان بعض عساكر الملك الناصر على حدود بلاد الملك قازان ..[1] ولقد رد الملك الناصر التحية بأفضل منها ورد على الملك غازان تهجمه واتهمه بالمروق من الدين وذكره بأمجاد المماليك السابقه وحذره وأنذره[2] .

ويدل المرسوم الذي أصدره قازان لما احتل دمشق على رغبة في تحسين أوضاعه مع الشعب عن طريق إعلان أن المماليك كفرة فجرة ، وأن المغول وهو بالذات ، قد نور الله تعالى قلوبهم بنور الإيمان والإسلام ، وانهم هم أنصار الإسلام الحقيقيون ومنفذو تعاليمه السمحة ، مع استشهاد بالآيات القرآنيه والأحاديث النبوية ثم يعلن تأمين السكان على أموالهم وأنفسهم وأملاكهم وأهليهم وأعراضهم . ويحرم على العساكر الهجوم عليهم أو التعرض لهم بأذى . كما وأنه يعلن حماية الأقليات الدينية حماية تامة كالنصارى واليهود والصابئة ، ثم يطلب من جميع الرعايا الاستبشار بهذا النصر الهني والفتح السني .. مقبلين على الدعاء لهذه الدولة القاهرة والمملكة الظاهرة آناء الليل وأطراف النهار[3]

---

(١) القلقشندي . المصدر المذكور آنفاً ، جـ ٨ ص ٦٩-٧١ .

(٢) نفس المصدر . جـ ٧ ص ٢٤٣-٢٥٠ .

(٣) الدواداري . أبو بكر بن عبد الله بن أيبك . كنز الدرر وجامع الغرر وهو الدر الفاخر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق هانس روبرت رويمر . القاهرة ١٩٦٠ م ٢٠-٢٢ .

ولقد ظن غازان أن الشام طاب له فتحه ، ولكنه كان واهماً ، فقد عجز عن احتلال قلعة دمشق ، وأساء جنده وحكامه السيرة ، وثار الشعب ضده ، ورفض كثير من حكام المماليك في سورية التعاون معه ، ثم أتته الضربة القاصمة على يد جيش المماليك الذي حارب جيش غزان المغولي وانتصر عليه بقيادة الملك الناصر في معركتين هما من أكبر المعارك التي خاضها المماليك ضد المغول : الأولى معركة مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ والثانية معركة شقحب سنة ٧٠٣ هـ . ولقد أرسل الملك الناصر إلى غازان رسالة تهكمية تقريعية بعد انتصاره المظيم على جيوشه وبعد تحطيمها وتحرير الشام منها . وهو يذكره في رسالته ببغيه وخداعه ونفاقه وادعائه ماليس به : فهو يرسل الرسل من أجل تقرير قواعد الصلح ، وفي نفس الوقت يحشد الجنود للحرب والهجوم. ولكن الله تعالى نصر السلطان المملوكي عليه لبغيه وكذبه وتدليسه. وبعد أن يذكر له سير المعركة يخاطبه بقوله : فلو رأيت ، أيها الملك ، عساكرك ، إما ذليلاً أسيراً ، أو جريحاً عقيراً . وكان يوماً على الكافرين عسيراً ... وعاد أصحابك طعاماً للذئاب ، لعضضت على يديك وقلت : ياليتني كنت تراباً ...[1] فبادر ، أيها الملك ، إلى حمد الله العادل الذي لم ير عينك هذه المحافل ، ومرورها على سمعك أهون من العيان ...[2] ثم يقول له إن جنوده دخلوا الديار المصرية ولكن على غير حالة مرضية . أما الخيول فعلى أيدي عساكرنا مجنوبة ، والطبول في أعناقهم مقلوبة ، وأما الرجال ففي أعناقهم الحبال والسلاسل

---

(١) نفس المصدر ١١٩-١٢٢ .

(٢) نفس المصدر .

والأغلال ، فعادت مغلك كالكلاب في أيدي أسود الغاب ... ثم يختم رسالته بهذين البيتين من الشعر :

وإن كان أعجبكم عامكم   فعودوا إلى الشام في قابل

فإن السيوف التي ورخت   مواقعها في يد القاتل[1]

- تيمورلنك -

نصل الآن ، في بحثنا ، إلى آخر الغزاة المغول الذين لهم يد طولى وقدم راسخة في تدمير الحضارة الإنسانية وعداء الجـنس البشري . ذلك أن هذا الغازي الذي خرج من أواسط آسيا استطاع أن يشق طريقه غرباً على أبراج جماجم الجنس البشري وعلى أنقاض المدن ، وكان سلاحه الرئيسي في ذلك قسوة مفرطة وبربرية لامثيل لها في التاريخ . وكانت الحرائق والمذابح والتدمير والقتل الجماعي والإبادة ترافق هـذا المغولي وجيوشه ، وقد ملأ بلاد آسيا الوسطى والغربية قتـلى وأشلاء وأكداس من الجماجم وخرائب وسلباً ونهباً ، بحيث لانكون مغـالين إذا اعتـبرنا هذا الرجل أكثر غزاة التاريخ فظاعة وفظاظة وبربرية وعداء لكل القـيم الإنسانية . ,على الرغم من أنه مسلم ، أو يدعي المؤرخون أنـه مسلم ، إلا أنه فعـــل في بلاد الاسلام وفي المسلمين مالم يفعله غازٍ قبله ولابعده . فقد فاق في وحشيته أسلافه المغول من أمثال جنكيزخان وهولاكو . كما وأنه فاق في هـــذا المجال لصوص الصليبيين وقتلتهم ، ولم يبزه في هذا المجال أحد من مجرمي الحروب الذين حفل بهم التاريخ الحديث ، ولاسيا تاريخ العرب الحديث.

(١) نفس المصدر .

وقد تمكن هذا الغازي ، بجبروته وقسوته المتناهية ، وبما بثــه في قلوب الشعوب والحــكام من رعب ، أن يبسط سلطانه على مساحات شاسعة من الأرض تمتد من أواسط آسيا حتى شواطىء البحر الأبيض المتوسط. ولكن هذه الامبراطورية المبنية على الخوف والرعب والأشلاء والحقد لم تلبث أن انهارت مثل كومة من القش بعيد وفاة المؤسس لها ، ولم يبق من هذه الامبراطورية إلا اللعنات تصب على رأس أكبر سفاك للشعوب عرفه التاريخ .

ولقد اتصل تيمورلنك بالأتراك العثمانيين في الأناضول وملكهم بيازيد وتغلب عليهم واحتل بلادهم ، كما اتصل بالمماليك وملكهم الظاهر برقوق سلطان سورية ومصر أواخر القرن الثامن الهجري . ولقد ظل تيمورلنك متردداً في الهجوم على بلاد الشام طيلة حياة الملك الظاهر ، ولم يجرؤ على مهاجمتها إلا بعد وفاته وبعد أن استلم ابنه الناصر فرج عرش السلطنة . ولقد دارت مراسلات كثيرة بين تيمورلنك وبين ملوك المماليك . وكالعادة افتتح علاقاته بالمماليك برسالة تهديدية يطالب الملك برقوق فيها بالخضوع المطلق لملك الملوك سيد الخلق ، وإلا فمصيرهم مصير الأمم التي قاومت تيمورلنك : وإن خالفتم وعلى بغيكم تماديتم فلا تلوموا إلا أنفسكم ، فالحصون منا .. لاتمنع ، والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع [١] إلى غير ذلك من العبارات التي تذكرنا بما كان يرسله أسلافه ملوك المغول ، ولاسيما غازان وأحمد إلى سلاطين المماليك .

ولقد كان جواب سلطان المماليك الملك الظاهر برقوق مناسباً كل المناسبة لخطاب تيمور وتهديداته . فهو لم يأبه له ولا لتهديداته ، ولم يخاطبه إلا بالأمير تيمور

---

(١) ابن تغري بردي . المصدر المذكور آنفاً . ١٢ ج ٤٩-٥٠ .

وأجابه بنفس لغته ، ورد على أقواله فقرة فقرة ، وأخبره أنه كافر وعدو للإنسانية وأنه ملعون بكل لسان وبكل دين : وأما قولكم : قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ، فالقصاب لايبالي بكثرة الغنم ، وكثير الحطب يفنيه الضرم . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين [1] .

ولقد استمرت المراسلات بين تيمورلنك وبرقوق . والذي يبدو لنا من هذه المراسلات أن هدف المغول من ذلك مزدوج ، فالرسول ، أو بالأحرى الرسل لم يكونوا رسلاً بالمعنى الحرفي للكلمة ، إنما كانت مهمتهم استكشافية تجسسية ، وهذا يفسر كثرة قتل المماليك لرسل المغول ، لأنهم جواسيس بالحقيقة أكثر من كونهم رسلاً . كما وأن أغلب رسائل تيمور خاصة كانت خالية من شيء معين ، وإنما غايتها جس النبض وإشاعة القلق والخوف من الخصم ، وبكلمة أخرى كانت جزءاً من حرب نفسية يشنها على أعدائه قبل بدء الحرب الحامية الفعلية بين الطرفين . وتدل أجوبة برقوق على شخص متمكن من موقفه ، واثق من نفسه لم يترك للخور أو الجبن أو الخوف إلى نفسه سبيلاً . إلى جانب استعداده للقاء أينما كان ومتى كان ، مما جعل تيمورلنك لايقدم على حربه ، وإنما اهتبل فرصة وفاته وتنصيب ابنه القاصر فرج ملكاً مكانه وتطاحن القواد والرؤساء وصراعهم حوله من أجل السلطة ، فزحف إلى بلاد الشام وشن عليها حرباً ليس لها مثيل في التاريخ بهولها وشناعتها وبعدها عن كل القيم الإنسانيه والأخلاقية التي يؤمن بها البشر

وعلى الرغم من أننا نملك بين أيدينا نص رسالة جوابية من برقوق إلى

---

(١) نفس المصدر ، جـ ١٢ ، ٥١-٥٢ .

تيمورلنك دون رسالة تيمور له ، إلا أننا نستطيع أن نحزر مضمون رسالة تيمورلنك له من جواب برقوق ذلـــك أن برقوق في جوابه يرد على كل فقرة من فقرات رسالة تيمور بفقرة تماثلها وتفند ما ورد فيها وتنقضها .

فنحن نعلم أن تيمورلنك افتتح رسالته لبرقوق بالتهديد والإنذار والإرعاد ، ويرد عليه برقوق بأنه اطلع على ذلك[1] . ثم نعلم أن تيمورلنك أرسل إلى برقوق هدية هي عبارة عن سيف وترس . ويعجب برقوق غاية العجب من هذه الهدية ، لأنه لم تجر عادة أحد من ملوك المغول أن أهدى أحد أعدائه مثل هذه الهدية ... لأنك لم تزل في كتبك كلها تستشهد بتاريخ جنكيز خان وأخباره وأحواله ... وما سمعنا في التواريخ ولا اتفق قط من جنكيز خان ولا ممن تقدمه وتأخره من ملوك مملكته في زمن من الأزمان أنه أهدى إلى خادم الحرمين الشريفين سيفاً ولا تركاشاً[2] . ثم يرد عليه بقوله : إنه (أي تيمور) فتح معه باب المحبة والوداد والصحبة والاتحاد لا باب المخاصمة والمشاورة والعناد ، إنه لو كان صادقاً في دعواه : كنت لما حضر إليك شكر أحمد وأرغون السلامي اللذان هما من بعض مماليكنا . . . أمسكتهما وجهزتهما إلينا بعد أن قيدتهما ، فما فعلت ذلك بل عملت بالضد منه لأنك آويتهما وحميتهما وعظمتهما وأكرمتهما . . . [3] كما وأن تيمور أكرم أحد أمراء العرب من أعداء برقوق ، واسمه نعير ، وراسله وعظمه ووعده بالنصرة ، بل إن برقوق

---

(١) القلقشندي . المصدر المذكور آنفاً . جـ ٧ ، ٣٠٨-٣١٩ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

يورد في رسالته نص رسالة أرسلها تيمورلنك إلى نعير هذا . [1]

ولقد طلب تيمورلنك من برقوق ، في رسالته إن يسلمه السلطان أحمد الجلايري الذي لجأ إلى برقوق لما احتل تيمور بلاده . ويرد عليه برقوق متسائلاً عن الذنب الذي اقترفه أحمد ضد تيمورلنك حتى يطلبه هذا الطلب ، وهو الذي حلف له مراراً كثيره أغلظ الأيمان بالله تعالى على الأمان له ولبلاده ثم غدر به شر غدرة واحتل بلاده وشرده وأسر نساءه وحريمه . ثم يقرعه برقوق قائلاً : ففي أي مذهب من المذاهب يحل لك أخذ حريم المسلمين وإعطاؤهن لغير أزواجهن ؟ ...[2] ثم يخبره أن السلطان أحمد قد استجار به ، وحق الجوار محفوظ ومكرم ومقدس في الإسلام ولدى الملوك ، ولاسيما إذا كانوا من جنس واحد .

ثم يبدأ بالتهكم عليه عندما ذكر له أن صاحب تكريت كان لصاً قاطع طريق ففعل به مافعل ، فيقول له برقوق بتهكم لاذع : أفأهل بغداد كانوا حرامية قطاع طريق حتى فعلت بهم مافعلت ؟ وقتلت منهم من التجار خاصة ثمانمائة نفس في المصادرة بالعقوبة والعذاب ... كيف تدعي أنك عادل وتعمل بأهل بغداد المسلين الموحدين وبغيرهم من المسلمين هذه العمائل [3]

ثم يتابع تهكمه عليه ويتحداه عندما هدد تيمور برقوق بالزحف عليه إن لم يرسل له السلطان أحمد الجلايري فيخبره أنه مستعد لمقابلته أينما شاء ومتى شاء ، وأنه كان متوقعاً قدومه من زمن طويل [4] .

---

(١) نفس المصدر .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .
(٤) نفس المصدر .

ويرد على عتاب تيمورلنك له لإساءة معاملة رسول أرسله تيمورلنك له بأنه لم يكن رسولاً وإنما كان جاسوساً يكتب المنازل منزلة منزلة . وطلب من حاكم الرحبة المصري أن يقبل الأرض للأمير تيمور وأن يقرأ الخطبة باسمه ، ولذلك فعل به ما فعل لأنه ليس برسول بل تجاوز مهمة الرسول[1]. ويأخذ عليه افتخاره بكثرة جيشه ويقول له إنه (أي برقوق) يستمد مدده واعتماده على الله تعالى الذي يهب النصر لمن يشاء من عباده . ويختم رسالته برد تهديد تيمورلنك له بخراب الديار ويخبره أن الذي يتكلم عن خراب الديار هو الذي تخرب دياره [2]

ولقد هاجم تيمورلنك بلاد الشام ودمرها وقتل رجالها وسبى نساءها وفعل بها أفعالاً تدمغه بالكفر والنذالة والوحشية والبربرية . وقد تخلى حكام مصر عن بلاد الشام بسبب الخلاف والتنافس على العرش وعلى من يكون أتابك الملك الصغير ووصيه . ودفعت بلاد الشام ثمناً رهيباً كل الرهبة لهذا الخلاف . ثم بدا للسفاح تيمور أن يعاود المراسلة مع الملك فرج ، فأرسل له رسالة يطلب منه أن يرسل له لاجئاً كان لجأ إلى مصر زمن السلطان برقوق . وهنا نجد تغيراً واضحاً جداً في مخاطبة تيمورلنك ، فقد خوطب بألقاب الملوك والأباطرة المعظمين ، وخلت الرسالة من شيء اسمه تحدٍ أو تهكم أو خلافه ، وإنما هي قطعة أدبية تنطق بفضائل تيمورلنك وعظمته ، وحتى عندما تعرض فرج لذكر ما لحق دمشق وجامعها على يد المجرم من دمار ، لم يوجه كلمة لوم واحدة إلى تيمورلنك . وهو يعلن له أنه كان قد جد في تجهيز الأمير

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

أطلمش لما جاءته الأنباء بتدمير دمشق وقلعتها وجامعها ، فاعتقد أن تيمورلنك عدل عن طلب الأمير أطلمش ، أما وهو يطلبه فإن السلطان فرج جاد في تجهيزه له . ويؤخذ من الرسالة أن تيمورلنك أقسم بالله الطالب الغالب المدرك المهلك الحي الذي لاينام ولايموت أنه إن جهز إليه أطلمش ، فإنه يعود إلى بلاده . ويبدو من الرسالة رغبة تيمورلنك في الصلح والتعاضد مع مصر وملكها ، وقد رد فرج التحية بأحسن منها ، ولم يكن باستطاعته إلا أن يفعل ذلك [1].

بعد ذلك تم عقد الصلح بين فرج وتيمورلنك . وقد تم ذلك على يد وفد أوفده تيمورلنك لهذه الغاية ، وحلف كل من الطرفين للآخر على الوفاء ، وعلى أن لايتجاوز أحدهما أو عساكرهما حدود البلد الآخر ، وأن ينظر الملكان إلى بعضهما ويتعاملا مع بعضهما على أنهما والد وولد [2] .

ولكن هذا الصلح لم ينه مطامع تيمورلنك في مملكة السلطان فرج ، فقد أرسل له رسالة يطالبه فيها بأن يسلم لنوابه عدداً من بلدان الحدود كابلستين وملطية والبيرة . وقد رد عليه فرج بأن هذه البلاد خراجها لايكفيها وأنها صعبة الإدارة ، ولكن تسليمها يوهن سلطته ويتعارض مع العواطف التي أبداها تيمورلنك تجاه فرج وأن يعامله كولده ، ويتعارض مع الأيمان التي أقسمها ، ويتعارض مع دعواته لله تعالى أن يزيد في ملك السلطان فرج !!! [3] .

ولاندري إن كان تيمورلنك قنع بهذا الجواب أم لم يقنع لأن كتب التاريخ غامضة في هذه المسألة . كما وإننا نجد صدى لهجوم تيمورلنك

---

(١) نفس المصدر جـ ٧ ، ٣١٩-٣٢٤ .

(٢) نفس المصدر جـ ١٤ ، ١٠٣-١٠٧

(٣) نفس المصدر ، جـ ٧ ، ٣٢٥-٣٣١ .

على بلاد الشام وماحلقها من قتل وتدمير واستباحة في رسالة أرسلها إلى السلطان فرج صاحب فاس السلطان أبو سعيد عثمان المريني ، وقد ترامت إلى مسامعه أنباء ماحدث في بلاد الشام فأرسل إلى فرج يستفسره ويعرض عليه المساعدة ويخبره أنه كان مستعداً لإرسال جيوشه التي تسد الفضاء وأساطيله المنصورة : ما يحمد إمداد المناصرة ويرتضى [1] ولكن الله تعالى كفى أمر هذه الداعية وانسحب الطاغية راجعاً إلى إلى بلاده . ومما يلاحظ ، بشكل بارز كل البروز . الألقاب الرفيعة الكثيرة المتتالية المترادفة التي يلقب بها السلطان المريني نفسه والسلطان فرج ، حتى إنها فقدت معناها [2] كما وأنه يصف تيمورلنك أنه : عدو الله وعدو الإسلام الباغي بالاجتراء على عباده سبحانه بالبؤس والانتقام الآخذ فيهم بالعيث والفساد ، الساعي بجهده في تهديم الحصون وتخريب البلاد . ولقد رد السلطان فرج التحية بأفضل منها وشرح له الظروف والمناسبات التي أدت إلى حدوث ماحدث ، وأن الجيش المملوكي لم يهزم وإنما كان مستعداً تمام الاستعداد لصد تيمورلنك ، وتقدم إلى بلاد الشام ، وفي تلك الآونة حدثت حركة في القاهرة من أجل العرش ، فاضطر الجيش المملوكي إلى الرجوع إلى مصر لقمع تلك الحركة ، فاغتنم تيمورلنك خلو البلاد من محام وفعل فعلته الشنعاء . ثم بعد ذلك يخبره بخبر الصلح الذي تم بين الطرفين وعودة بلاد الشام إلى حوزته وعودة الهدوء إلى البلاد . ولاينسى أن يكيل المدح للسلطان المريني ولنفسه [3] ، وكأنهما هما اللذان أنقذا بلاد الشام من وطأة تيمورلنك ، أو هما اللذان أبعداه وطرداه عنها !!! .

---

(١) نفس المصدر . ج ٨ ، ١٠٣-١٠٦ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر . ج ٧ ، ٤٠٧-٤١١ .

القسم الأول

وثائق الحروب الصليبية

٤٨٩ هـ - ٦٩٠ هـ
١٠٩٦ م - ١٢٩١ م

أ ـ الدور التمهيدي :

١ – رسالة الكسيس كومنين الأول امبراطور الدولة البيزنطية إلى روبرت الأول أمير الأراضي الواطئة (حوالي سنة ١٠٨٨ م) . .

مقتطفات :

من امبراطور القسطنطينية إلى السيد الأجل اللورد روبرت أمير الأراضي الواطئة ، وإلى جميع كبار رجال المملكة المؤمنين بالعقيدة المسيحية ، وإلى رجال الدين والدنيا : تحية وسلاماً ... أيها السيد العظيم حامي العقيدة المسيحية ، أودُّ أن أحيطك علماً بما وصل إليه تهديد البجاناكية [١] والأتراك [٢] للامبراطورية الاغريقية المسيحية المقدسة [٣] . فهم يعملون فيها السلب والتخريب كل يوم ، ويتوغلون في أراضيها دون انقطاع . وكم من مذابح وتقتيل وجرائم تفوق حد الوصف يقترفونها ضد المسيحيين الإغريق [٤] ، فضلاً عن السخرية والتحقير فإنهم يذبحون الأطفال والشباب داخل أماكن التعميد حيث يريقون دماء القتلى محتقرين بذلك المسيح .

لقد استولى أولئك القوم على كل البلاد الواقعة بين بيت المقدس وبلاد الإغريق ، إذ امتلكوا بلاد اليونان كلها ، بما في ذلك أجزاؤها

---

(١) البجاناكية من العناصر التركية التي عبرت الدانوب وتغلغلت إلى جوف الامبراطورية البيزنطية ويسمون أيضاً البتشينيج Pechongo .

(٢) يقصد بالأتراك هنا السلاجقة .

(٣) يقصد بالامبراطورية الإغريقية المسيحية المقدسة الامبراطورية البيزنطية .

(٤) يقصد بالمسيحيين الإغريق البيزنطيين .

العليا ، وهي : كبادوكيا الصغرى وكبادوكيا الكبرى ، وفريجية وبثينية ، وفريجية الصغرى إلى طروادة ، وكذلك بنطش وغلاطية وليدية وبمفيلية وايسورية وليكيا وجزائر خيوس وميتيلينيا الرئيسية ، كما وضعوا أيديهم على مناطق وجزائر أخرى حتى تراقية ، وغير هذا وذاك مما لا يقع تحت عد أو حصر ، ولم يبق الآن تقريباً سوى القسطنطينية .

لذا : استحلفك بمحبة الله وباسم جميع المسيحيين الإغريق أن تمد لنا وللمسيحيين الإغريق يد العون والمساعدة ، وذلك بتقديم جميع الجنود المسيحيين من كبير وصغير ، فضلاً عن العامة ممن يتسنى جمعهم من بلادك .

وبناء على ذلك يجب أن تحاربوا بكل ما أوتيتم من قوة وشجاعة قبل سقوط القسطنطينية [1] ، وستسعدون ويكون لكم في السماء أجراً عظيماً (كذا) . ومن الأفضل أن تكون القسطنطينية في حوزتكم وليست في قبضة الأتراك ، لأن بها أثمن آثار السيد ، وهي الصليب الذي صُلِبَ عليه ، والسوط الذي ضرب به ، والرداء القرمزي الذي ألبسوه إياه ، وتاج الشوك ... وكذلك الملابس التي نزعت عنه أمام الصليب ، وقطعة كبيرة من خشب الصليب الذي صلب عليه [2] ورأس يوحنا المعمدان وخصلات شعره بأكملها ولحيته ، فضلاً عن بقايا أجساد كثير من القديسين

فإذا لم يحفزهم [3] كل هذا للقتال ويفضلون عليه الذهب فسوف

---

(١) الخطاب هنا موجه لأهل الغرب .

(٢) هذه هي عقيدة المسيحيين في السيد المسيح بشكل عام. أما نحن المسلمين فعقيدتنا تخالف ذلك كل المخالفة فحاشا لله أن يكون السيد المسيح قد صلب : وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم .

(٣) الخطاب هنا موجه لأهل أوربا .

يجدونه في هذا المكان أكثر مما يوجد في العالم كله . فكنائس القسطنطينية ملأى بكنوز من الفضة والذهب والحلي والأحجار الكريمة والمنسوجات الحريرية التي تستخدم في صنع الأردية والملابس التي تكفي جميع كنائس العالم . سارعوا إذن بكامل رجالكم وحاربوا بكل مالديكم من قوة حتى لاتقع كل هذه الكنوز والنفائس في أيدي البجاناكية والأتراك ، إذ ينتظر وصول ستين ألفاً منهم بين وقت وآخر .

ولهذه الأسباب مجتمعة اعملوا قبل فوات الأوان كيلا تفقدوا مملكة مسيحية ، وما هو أهم وأعظم قبر المسيح ، وسوف يكون جزاؤكم ليس الدنيوية في هذا العالم ، وإنما ثواب الآخرة عند الله [1] .

« العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبيـة الأولى لجوزيف نسيم يوسف ٣٠٧ - ٣٠٩ »

٢ - خطاب البابا أوربان الثاني في الجماهير المسيحية في مؤتمر كليرمونت داعياً إلى الحروب الصليبية :

ياشعب الفرنجة ! شعب الله المحبوب المختار ! لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله قـد طغى وبغى في تلك البلاد بلاد المسيحيين ، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب وبالحرائق ، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم ، وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع تعذيب ، وهم يهدمون المذابح

---

(١) يذكر المؤلف أن الأصل اللاتيني لهذا الخطاب موجود في الكتاب التالي :
Epistola Alexi 1 Komneni imperatoris ad Robertum 1 Comitem Flandrensem (Circa annnm 1088) ; of Hogenneyer. H. (ed.) Epistoloe ad historiam primi belli socri spectantes 1 Heidelberg. 1901 (PP. 129 — 136).

والكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم ، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان فانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لايستطيع اجتيازها في شهرين كاملين .

على من تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم ، واستعادة تلك الأصقاع ، إذا لم تقع عليكم أنتم – انتم يامن حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالجد في القتال وبالبسالة العظيمة ، وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم ؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوي قلوبكم . أمجاد شارلمان وعظمته ، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم – فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا (١) ، الضريح الذي تمتلكه الآن أمم نجسة ، وغيره من الأماكن المقدسة التي لوثت ودنست – لاتدعوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون أسركم . ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنونها الآن ، والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبال ، ضيقة لاتتسع لسكانها الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام ، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً ، ويلتهم بعضكم بعضاً ، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية .

طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد ، واقضوا على مابينكم من نزاع ، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس ، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم ، إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها ،

---

(١) هذه هي عقيدة الكنيسة الكاثوليكية في السيد المسيح ، وحاشا لله من ذلك إذ عقيدتنا نحن المسلمين في السيد المسيح أنه عبد من عباد الله بشر كامل البشرية وأحد أنبيائه .

وقد أورده رونسيان في كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » تعريب السيد الباز العريني بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٧ م الجزء الأول ١٦١-١٦٢ ملخصاً موجزاً كل الايجاز لهذا الخطاب الهام .

هي فردوس المباهج . إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها ، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم وثقوا أنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لايفنى في ملكوت السموات .

قصة الحضارة لول ديورانت ١٥ / ١٥ - ١٦
الترجمة العربية بقلم محمد بدران

٣ - مقتطفات من خطاب أرسله الكونت اتين صاحب شارتروبلوا إلى زوجته الكونتيسة أديل .

والخطاب أرسل من الشرق من معسكر الجيش الصليبي بالقرب من مدينة نيقية في ٢٤ يونيو سنة ١٠٩٧ م وأرسل إلى الغرب الأوربي .

الملحق الرابع :

من الكونت اتين إلى حبيبته وزوجته الكونتيسة أديل ... وصلت بحمد الله وسلامته إلى مدينة القسطنطينية ، وكان فرحي زائداً وسروري عظيماً . ولقد أحسن الامبراطور [١] استقبالي وأكرم وفادتي وعاملني كما لو كنت ابناً له كما أغدق عليّ الكثير من الهدايا النفيسة . كذلك كنت موضع ثقة الامبراطور ومحبته أكثر من أي شخص آخر في جيش الله ، سواء أكان ذلك الشخص دوقاً أو كونتاً أو أحد العظماء. لقد ألحّ عليّ جلالته ومازال يلح ياعزيزتي على أن يكفل أحد أبنائنا وأن يتبناه... حقاً لايوجد تحت قبة السماء من هو أعظم منه ، فقد غمر جميع رؤسائنا بالمنح والهدايا ، وكذلك فعل مع كل فرساننا ، كما أطعم جميع الفقراء ، ويوجد على مقربة من مدينة نيقية قلعة تسمى كيفيتوت ، وبالقرب منها مضيق بحري تبحر فيه ليل

(١) هو الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين .

نهار سفن الامبراطور المتجهة صوب القسطنطينية وتقوم هذه السفن بنقل الطعام والمؤن من العاصمة إلى كيفيتوت حيث توزع على الجموع الغفيرة هناك . ولاأعتقد أنه يوجد في زماننا هذا رئيس أو زعيم له مثل شخصية الامبراطور وصيته الذائع : إن أباك في الحقيقة ، ياعزيزتي : غمرنا بكثير من الهدايا الثمينة ، ولكن ذلك لايقاس بالنسبة لما أضفاه علينا الامبراطور ... (١)

العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى
لجوزيف نسيم يوسف ٣٢٩ – ٣٣٠

ب ـ دور التفوق الصليبي :

٤ ـ رسالة الزراد إلى بيمند (بوهيموند)

حاصر الصليبيون أنطاكية بزعامة بوهيموند ، ويسميه المؤرخون المسلمون بيمند ، وكان في أحد أبراجها زراد خائن كان ياغي سيان حاكم البلد قد صادره سابقاً ، فحمله حنقه على أن راسل بيمند في تسليم البرج وقال في رسالته :

أنا في البرج الفلاني وأنا أسلم إليك أنطاكية إن أمنتني وأعطيتني كذا وكذا .

وقد وافقه بوهيموند على طلبه وتم الأمر كما رسم .

زبدة الحلب لابن العديم ج ٢ – ١٣٤

---

(١) يذكر المؤلف أن نص هذا الخطاب موجود في :
Epistolo I Stephani conitis Cornotensis ad Adeleni Uxorem Suam (scripta e castris prope Nicaeam a 109 Ca 24 diem Junü) ed, H. Hagenneyer, Epistolae et Chartae ad historiam primi belli spectantes. Heidelberg 1901 (pp. 138 – 140) .

٥-رسالةطغتكين حاكم دمشق إلى الملك الأفضل الوزير الفاطمي حول مدينة صور :

حاصر الفرنج صور فانجدها طغتكين وخلصها منهم ، ثم رحل عنها ، وخاف أهل صور من عودة الفرنج لما فطلبوا ، من طغتكين حمايتهم فأجابهم إلى ذلك وأرسل عساكره إليها . ولكنه خاف أن يؤدي ذلك إلى غضب الملك الأفضل لأن صور من أملاك مصر فأرسل إليه يقول :

وإن بغدوين (بلدوين) قد جمع وحشد للنزول على صور ، وإن أهلها استنجدوا بي عليه والتمسوا مني دفعه عنهم فبادرت بانهاض من أثق بشهامته لحمايتها والمراماة دونها إليه ، وحصلوا فيها ، ومتى وصل إليها من مصر من يتولى أمرها ويذب عنها ويحميها بادرت بتسليمها اليه وخروج نوابي منها . وأنا أرجو أن لايهمل أمرها وإنفاذ الأسطول بالغلة إليها والتقوية إليها . ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ١٨٢

٦ - رسالة ملك الفرنج إلى طغتكين حاكم دمشق لما قتل مودود

حشد مودود ، حاكم الموصل ، بعد سقوط القدس بيد الصليبيين بفترة ، جيشاً قوياً لحرب الفرنج ، ولكنه أي مودود ، اغتيل يوم العيد في جامع بني أمية بدمشق وتفرق الجيش كله ، فأرسل ملك الفرنج إلى طغتكين رسالة يقول فيها :

إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها [1] .

الكامل في التاريخ لابن الأثير ج١٠ - ٤٩٧

---

(١) يذكر ابن العمادفي « شذرات الذهب » ج٤ - ٢١ نصاً مطابقاًللنص المذكور أعلاه.

٧ - رسالة عيسى صاحب منبج إلى جوسلين صاحب الرها لما حاصر بلك عيسى هذا في بلدته :

إن وصلتني وكشفت عني عسكر بلك سلمت إليك منبج .

زبدة الحلب لابن العديم ج ٢ - ٢١٨

٨ - رسالة الصليبيين إلى ايلغازي ملك حلب :

آل ملك حلب إلى ايلغازي صاحب ماردين ، وبينما كان مقيماً في ماردين سمع أن الصليبيين قصدوا حلب وحاصروها فجمع جنوده وقصدهم ، فلما قرب منهم أرسل له الصليبيون رسالة يقولون فيها : لاتتعب نفسك بالمسير إلينا فنحن واصلون إليك .

الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٠ - ٥٥٤

٩ - رسالة والي حلب من قبل نجم الدين غازي بن أرتق إلى ملك الصليبيين .

دارت معارك كثيرة بين نجم الدين غازي صاحب حلب وماردين وبين الصليبيين ، ثم استقر الصلح بين الطرفين ، ورحل نجم الدين إلى ماردين ، ثم حدث أن أغار جوسلين صاحب الرها على حلب عدة مرات ، فأرسل والي حلب إلى ملك الفرنج يقول :

إن نجم الدين لم يترك هذه البلاد خالية من العساكر إلا ثقة بالصلح .

١٠ - جواب ملك الفرنج لوالي حلب :

مالي على جوسلين يد .

زبدة الحلب لابن العديم ج ٢ - ١٩٧

١١ - رسالة بغدوين (بلدوين) ملك القدس الفرنجي الى تمرتاس الأرتقي

أسر تمرتاس بن ايلغازى الأرتقي في احد معاركه بلدوين ، ملك الفرنج مع عدد من امراء مملكته وجرت بين الطرفين مفاوضات واتفقا على إطلاق سراح بغدوين لقاء فدية كبيرة وتنازله عن عدد من المدن والحصون القريبة من حلب مثل إعزاز وكفرطاب وغيرهما ، ولكن الملك الفرنجي غدر ورفض تسليم الحصون ، وذلك بعد إطلاق سراحه وعودته إلى القدس ، وأرسل الى تمرتاس يقول :

البطريرك الذي لايمكن خلافه سألني عما بذلت وما الذي استقر ، فحين سمع حديث إعزاز وتسليم حصنها أبى وأمرني بالدفع عنها وقال : إن خطيئتك تلزمني ولا أقدر على خلافه .

زبدة الحلب لابن العديم جـ ٢ - ٢٢٢

١٢ - رسالة والي شيزر إلى أهل دمشق يبشرهم بنصر عظيم حازه التركمان بقيادة الأمير مسعود سوار في حلب سنة ٥٢٠ هـ ضد الفرنج .

أغار الأمير مسعود مع من انضم اليه من التركمان ، على أراضي الفرنج في اللاذقية وأنطاكية وظفر ظفراً مبيناً ، وأرسل والي شيزر إلى أهل دمشق يبشرهم بذلك ويقول :

إن المتجدد عندنا بهذه الناحية ما يجب علينا من حيث الدين أن نذيعه ونبشر به كافة المسلمين ، فإن التركمان - كثرهم الله ونصرهم - اجتمعوا في ثلاثة آلاف فارس جريدة بعدة ، ونهضوا إلى بلاد اللاذقية وأعمالها بغتة بعد اليأس منهم وقلة الاحتراز من غارتهم ، وعادوا من هذه الغزاة

إلى شيزر يوم الأربعاء حادي عشر رجب ومعهم زيادة على سبعة آلاف أسير مابين رجل وامرأة وصبي وصبية ومائة ألف رأس دواب ما بين بقر وغنم وخيل وحمر ، والذي حازوه أو اجتاحوه يزيد على مائة قرية كبار وصغار وهم متواصلون بحيث امتلأت الشام من الأسارى والدواب .

ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢٥٥

١٣ ـ رسالة زنكي إلى ملك الروم لما حاصر شيزر مع الفرنج .

تحالف الروم والفرنج وزحف جيش رومي فرنجي بقيادة ملك الروم على بلاد الشام وحاصروا شيزر فتصدى لهم عماد الدين زنكي ، ولما طال عليه المطال أرسل إلى ملك الروم يقول :

إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال ، فانزلوا منها إلى الصحراء حتى تلتقي ، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم ، وإن ظفرتم استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها .

ولكن ملك الروم لم يجبه إلى ذلك

الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ١١ ـ ٥٧

١٤ ـ رسالة سيف الدين بن عز الدين الزنكي ملك الموصل إلى أنر صاحب دمشق :

حاصر الصليبيون في الحملة الصليبية الثانية دمشق وضايقوها فاستنجد حاكمها بملوك الإسلام فحضر سيف الدين ملك الموصل لنجدته وأرسل إليه يقول :

قد حضرت ومعي كل من يطيق حمل السلاح من بلادي ، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي وأصحابي ، وكانت الهزيمة علينا لايسلم منا أحد لبعد بلادنا عنها وحينئذ يملك الفرنج دمشق

وغيرها ، وإن أردت أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلم البلد إلى من أثق به .
وأنا أحلف لك ، إن كانت النصرة لنا على الفرنج أني لا آخذ دمشق ولا أقيم بها إلا بمقدار ما يرحل العدو عنها وأعود إلى بلادي .

١٥ ـ رسالة أنر إلى الفرنج الغرباء الذين حاصروا دمشق مع الفرنج المقيمين في بلاد الشام :

لم يجب أنر على الرسالة السابقة لأنه خاف من سيف الدين ، ولذلك لجأ إلى المراوغة وحاول تفريق كلمة الفرنج الوافدين عن الفرنج المقيمين فأرسل إلى الوافدين يقول :

قد حضر ملك المشرق ومعه من العساكر ما لا طاقة لكم بـه ، فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئـذٍ لاتطمعون في السلامة منه .

١٦ ـ رسالة أنر إلى الفرنج المقيمين :

أنتم بين أمرين مذمومين : إن ملك هؤلاء الفرنج الغـرباء دمشق لايبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد ، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنـكم لاتقدرون على منعه عن البيت المقدس [١] .
التاريخ الباهر لابن الأثير ص ٨٩

---

(١) وردت نصوص هذه الرسائل الثلاث السابقة ، بشكل مقارب كل القرب لنصنا أعلاه ، في كل من « الكامل في التاريخ » لابن الأثير ج ١١ ـ ١٣٠ ، وكتاب «الروضتين» لأبي شامة ج ١ ، ق ١ ـ ١٣٨ . و « مفرج الكروب » لابن واصل ج ١ ١١٢-١١٣ ، وكتاب « العبر » للذهبي ج ٤ ـ ١١٧ . ويمتاز نص الذهبي باختصاره .

١٧ – رسالة العاضد الخليفة الفاطمي إلى نور الدين مستنجداً ضد الصليبيين الذين هددوا القاهرة :

هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج [١] .

التاريخ الباهر لابن الأثير ص ١٣٨

١٨ – رسالة شاور إلى ملك القدس الصليبي مرى (اماليرك) يستنجدة ضد أسد الدين شيركوه .

استجاب نور الدين لنداء العاضد وأرسل له جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه ، أبعد الخطر الصليبي عن مصر ، وأراد شاور أن يتخلص من شيركوه ، ولكن شيركو رفض العودة بخفي حنين ، فأرسل شاور إلى ملك القدس يستنجده ضد شيركوه ويقول :

إن شيركوه طلع معي نجدة على ضرغام ، فلما حصلوا في البلد طمعوا فيها ، ومتى ملكوها مضافة إلى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيش ولاقرار :

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٢ – ٤٢١

١٩ – رسالة شاور إلى شيركوه أثناء حصاره له في بلبيس .

حاصر الفرنج وقوات شاور شيركوه في بلبيس وطال عليهم الحصار ، وفي تلك الأثناء أثخن نور الدين في بلاد الفرنج ، فقرر هؤلاء العودة إلى بلادهم ، فاستمهلهم شاور أياماً ، ثم بدأ يراسل شيركوه في الصلح وأرسل إليه يقول :

إعلم أنني أبقيت عليك ولم أمكن الفرنج منك لأنهم كانوا قادرين

---

(١) ورد نص مطابق لنصنا أعلاه في «الكامل في التاريخ» لابن الأثير ج١١-٣٣٧.

عليك ، وإنما فعلت ذلك لأمرين : أولهما ، أني ما أختار أن أكسر جاه المسلمين وأقوي الفرنج عليهم . والثاني ، أني خفت أن الفرنج إذا فتحوا بلبيس طمعوا فيها وقالوا : هذه لنا لأنا فتحناها بسيوفنا . وما من يوم كان يمضي بمصر إلا وانا أنفذ إلى كبار الفرنج الجملة من المال ، وأسألهم أن يكسروا همة الملك عن الزحف .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ – ٤٢٣

٢٠ ـ رسالة شيركوه إلى شاور لما قدم مصر للمرة الثانية واجتمع شاور مع الصليبيين ضده .

اجتمع شاور والصليبيون على حرب شيركوه ، ورأى شيركوه في ذلك فرصة نادرة للقضاء عليهم إذا انضم شاور اليه فأرسل إليه يقول :

أنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلا هو ، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه ، أنني لا أقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبداً ، ولا أمكن أحداً من التعرض إليها ، ومن عارضك فيها كنت معك إلباً عليه ، وما أومل منك إلا نصر الإسلام فقط . وهو أن العدو قد حصل بهذه البلاد والنجدة عنه بعيدة وخلاصه عسير ، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه ، وننتهز فيه الفرصة التي قد أمكنت ، والغنيمة التي قد كثبت فنستأصل شأفته ونخمد ثائرته . وما أظن أنه يعود فيتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً .

ولكن شاور رفض ذلك

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ ـ ٤٢٥

٢١ - رسالة شاور إلى مري ملك بيت المقدس الفرنجي .

هاجم الفرنج مصر بعد رحيل شيركوه عنها ، فأرسل شاور إلى نور الدين يستنجده ضدهم ، ولجأ في نفس الوقت إلى المراوغة فأرسل إلى مري يقول :

إن هذا بلد عظيم كبير وفيه خلق كثير ، ولا يمكن تسليمه ألبتة ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم ، ولا تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة . والرأي أن تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابي وتحصل شيئاً أدفعه لك فيحصل لك عفواً .

واستقرت المصالحة على أربعمائة ألف دينار .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ - ٤٣٣

٢٢ - رسالة مري ملك الفرنج إلى شاور

كان بين شاور وملك الفرنج اتفاق يقدم له شاور بموجبه جزية سنوية في حال مساعدته على صد أعدائه عنه . وقد أحس ملك الفرنج بضعف شاور ومصر بعد رحيل شيركوه عنها ، فأراد إما احتلالها أو مضاعفة الجزية فزحف نحو مصر وأرسل إلى شاور يقول :

إني قد قصدت الخدمة على ما قررته لي من العطاء في كل عام .

٢٣ - جواب شاور إلى الملك عن رسالته السابقة :

إن الذي قررته إنما جعلته لك متى احتجت إلى نجدتك أو إذا قدم عليّ عدو ، فأما مع خلو بالي من الأعداء فلا حاجة لي إليك ولا لك عندي مقرر .

٢٤ - جواب الملك إلى شاور عن الرسالة السابقة :

لابد من حضوري وأخذ المقرر[1] .

إتعاظ الحنفا للمقريزي ج ٣ - ٢٩٢

٢٥ - رسالة مري ملك الفرنج إلى شاور لما احتل بلبيس وقتل سكانها :

احتل مري بلبيس وسبى نساءها وأسر ولدين من أولاد شاور وأرسل إليه يقول :

إن ابنك قال : أيحسب مري أن بلبيس جبنة يأكلها ؟ نعم بلبيس جبنة والقاهرة زبدة .

إتعاظ الحنفا للمقريزي ج ٣ - ٢٩٣

جـ - دور توازن القوى :

أ - نور الدين الشهيد محمود بن زنكي ٥٤١ - ٥٦٩هـ / ١١٤٦ - ١١٨٣م .

٢٦ - رسالة حاكم حارم الصليبي إلى الصليبيين :

حاصر نور الدين حارم وضيق عليها الخناق ، فتجمع الفرنج وعزموا على قصده ، فأرسل حاكم حارم إلى الفرنج يقول :

لاتلتقوه فإنه إن هزمكم أخذ حارم وغيرها ، ونحن في قوة ، والرأي مطاولته .

فصالحوا نور الدين على أن يعطوه نصف أعمال حارم .

زبدة الحلب لابن العديم جـ ٢ - ٣٠٦

---

(١) ذكر أبو شامة في « الروضتين » جـ ١ ، ق ٢ ، ٤٣٠ - ٤٣١ نصاً قريباً كل القرب من النص اعلاه .

٣٧ - رسالة أرسلها القاضي الفاضل إلى مدينة قوص يصف غزوة قام بها صلاح الدين سنة ٥٦٦ ﻫ ، وهو وزير فاطمي وقائد من قواد نور الدين ، للداروم وغزة ، وكيف خرب معاقل الفرنج وكيف أن ملك الفرنج حاول إنجادها فعجز وهزم .

وفيـــه :

توجهنا من بركة الجب يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول ، ووصلنا بتاريخ السابع والعشرين من الشهر المذكور والعساكر بالسهل والوعر منتظمة ، والهمم على السهل والصعب مزدحمة ، وجنود الله في الأرض المعلمة ، وقد أيدتها جنود السماء المسومة ، وصابحنا الدير[1] يوم الأربعاء بقتال جعل كل من في حصن الدير راهباً ، ونصبنا عليه منجنيقاً لايزال شهاب القذف ضارباً . فلما تعالى النهار ملكنا ربضه وأطلقنا فيه النيران ، ورملنا الرجال بالدم ، وأرملنا النسوان وزحفنا إلى أبراجه ، وهي أبراج قد استمدت للبلى جلباباً ، فجعلنا لكل واحد جورة مفردة وباباً ، وسرحنا إليهم رسل المنايا من النشاب ، وقصدنا أحد الأبراج ، والبيوت تؤتى في الحرب من غير الأبواب . وتقدمت إليها نقابة الحلبية فباتت ليلتها تساوره وتراجعه بألسنة المعاول وتشافهه وأسفر الصبح وقد أمكن تعليقه وتيسر تحريقه ، فأودعنا تلك العقود آلات الوقود ، فلم يكن إلا مقدار اشتعالها حتى خر صريعاً سريعاً ، وعفر بين أيدينا سامعاً مطيعاً ، وانتظمت الرجال على أحجاره وتواثبت إلى أمثاله من الأبراج وأنظاره ، فحصلت في القبضة وعجز من كان فيها عن النهضة ، واحتكم فيها العذاب بالسيف والنار ، وضاق عليهم مجال النفس والقرار .

(١) المقصود بالدير دير الداروم .

واستقبلنا يوم الخميس نقب القلعة وتقديم المنجنيق ، وتيسير السبيل للقتال وتخليص الطريق . هذا والسلوب والنهوب قد امتارت منها العساكر، وخرجت منها مكنونات الذخائر ، وأشبه اليوم يوم تبلى السرائر ، وظهر الأرض منهم بالدم المائر .

فلما كان بكرة الجمعة ، وردتنا الأخبار بأن الملك قد زحف من غزة في فارسه وراجله ورامحه ونابله ، وحشود دياره وجنود أنصاره فركبنا مستبشرين بزحفه ، موقنين بحتفه ، ولقيناه فأحطنا من بين يديه ومن خلفه ، وناوشته الخيل الطراد ، وأحدقت به إحداق الأغلال بالأجياد ، وانتظرت حملته التي كان لها قبل ذلك اليوم موقع ، وصدمته التي لها من رجال الحرب موضع ، فملأ إليه قلبه رعباً وثنى صدقه كذباً ، ولم يزل يخاتل ولايقاتل ، ويواصل المسير ولايصاول ، والقتل في أعقابه ، وأيدي السيوف وسواعد الرماح لاتني في عقابه ، حتى حصل في الدير هو وخيله ورجله ، ولم يبق له من ملك الشام إلا ماوطئته رجله ، فناصبناه الحصار في ليلة السبت مستهل ربيع الآخر بالركوب إليه والوقوف عليه لعله يبرز ويبارز ، ويخرج ولايحاجز ، فخرست غماغمه ، واستذابت ضراغمه ، فتركناه وراء ظهورنا ، وجعلنا بلاده أمام صدورنا ، فكنا في توليته مرضين لله تعالى سبحانه لا مغضبين ، وفي تركه وراء ظهورنا ومباعدته من الله متقربين .

وواجهنا غزة بعساكرنا المنصورة ، وأطفنا بها في أحسن صورة ، وهي على ما علم من كونها بكراً لم تفترعها الحوادث ، وحصاناً لم يطمثها أمل طامث وهي معقل الديوية ، الذين هم جمرة الشرك وداهية الإفك. وأتى الله بنيانها من القواعد ، وأنجز فيها من النصر صادق المواعد ، ووردناها بأيمن الموارد ، وفتحناها من عدة جوانب ، ووطئناها فإذا

هي كأمس الذاهب فألقت إلينا أفلاذ كبدها وذخيرة يدها ، فمن بين مواشي بخراب البلاد التي خرجت ، وخيول مسومة كأنها لركوبنا أسرجت وألجمت ، وحوامل أثقال وزوامل خففت عن عساكرنا وفرجت ، وميرة كثيرة تمكنت منها يد الأجناد وأفرجت ، وأسارى المسلمين فكوا من القيد والقد ، وأنقذوا بلطف الله من سوء المكيدة وشدة الجهد . فأما الرؤوس المقطوعة وأسارى الفرنج الذين أيديهم إلى أعناقهم مجموعة ، فإن الفضاء الفضي تعصفر من دمائهم وتلهب ، وجرى منها ما به اضطرم وقد الجحيم وتلهب ، وفي الحال أمرنا بالنار أن نشتغل بها وتشتعل ، وبالهدم أن ينقل عنها معاوله وينتقل : فهل ترى لهم من باقية [1] ، أو تنظر إلا طلولاً على عروشها خاوية ، وعراصاً من سكانها خالية ، قد بقيت عبرة للعابر ، وذكراً للذاكر ، وموعظة سارة للمسلم وغمة للكافر . ثم عدنا بقية يوم السبت إلى الملك، خذله الله تعالى ، راجين أن يحمله الشكل على الإقدام ، ويخرجه حر النار إلى مقام الانتقام ، فإذا شيطانه قد نصحه ، وقتل أصحابه قد جرحه فبلغنا عليه ، والألسنة بفراره تعيره ، واستباره يقرعه ويقرره.

وأصبحنا يوم الأحد ثاني شهر ربيع الآخر ، والكسب قد أثقل المقاتلة ، ونصر الله قد بلغ الغاية المستأصلة ، ورحلنا والسلامة لصغير عسكرنا وكبيره شاملة ، والعدو قد غزي في عقره وعقر وأذل في دار ملكه واحتقر ، ووصلنا إلى مستقر سلطاننا في يوم الاثنين الحادي عشر من الشهر المذكور ، فاستقبلنا من مولانا ، صلوات الله عليه ، وتشريفه واستقبال ركابه ، ومشافهتنا بقبول دعائه الشريف وحجابه ما عظمت

---

(١) سورة الحاقة الآية ٨ .

به النعم وجلت ، وزالت به وعثاء الطريق وتجلت ، وجادتها سماء إنعامه التي لم تزل تجودنا واستهلت .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق٢ ٤٨٩ - ٤٩١

٢٨ - رسالة من صلاح الدين إلى نور الدين يخبره بغزوة قام بها ضد الكرك والشوبك سنة ٥٦٨ هـ .

ويخبره فيها أيضاً بترحيل البدو من تلك الأماكن إلى أماكن إسلامية من إنشاء القاضي الفاضل :

سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل ، أعز الله سلطانه ، ومدّ أبداً إحسانه ومكن بالنصر إمكانه وشيد بالتأييد مكانه ونصر أنصاره وأعان أعوانه ، علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص أجنحتهم ويفلل أسلحتهم ، ويقطع موادهم ، ويخرب بلادهم ، وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة ألا يبقى في بلادهم أحد من العربان ، وأن ينتقلوا من ذل الكفر الى عز الإيمان ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد وعده من أعظم أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم والحرص على تبديل دارهم ، إلى أن صارالعدو اليوم إذا نهض لايجد بين يديه دليلا ولايستطيع حيلة ولايهتدي سبيلا .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ق ٢ ٥٢٦ - ٥٢٧

٢٩ - رسالة الأمير شمس الدين بن المقدم للفرنج :

توفي نور الدين وحل ابنه الملك الصالح محله وهو قاصر ، فاغتنم الفرنج هذه الفرصة وهاجوا ثنز وقلعة بانياس (جنوبي دمشق) ، فأتاهم ابن المقدم بجيش وأرسل إلى مقدمهم يقول :

إن أنتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس ، فنحن على ماكنا عليه ، وإن

أبيتم ذلك أرسلنا إلى سيف الدين صاحب الموصل وصلاح الدين صاحب مصر نستنجدهم ونطالب بلادكم من جهاتها كلها فلاتقومون لنا . وأنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين ، والآن فقد زال الخوف ، وإذا طلبناه إلى بلادكم لايمتنع [1] .

فعلموا صدقه وصالحوه على شيء من المال وعدد من الأسرى أطلقوهم لهم .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ ـ ٧

٣٠ ـ رسالة صلاح الدين إلى الشيخ شرف الدين بن ابي عصرون يوبخه على الاتفاق السابق مع الفرنج :

لما وصلت إلى مسامع صلاح الدين ، أنباء الاتفاق الذي تم عقده بين ابن المقدم والفرنج ، غضب كل الغضب ، وأرسل إلى عدد من الكبراء الملتفين حول الملك الصالح كتب توبيخ ومن جملتها هذا الكتاب الموجه لابن أبي عصرون ، وهو من إنشاء القاضي الفاضل :

لما أتاه كتاب الملك الصالح بقصد الفرنج تجهز وخرج وسار أربع مراحل ، ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة ببذل الإسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى وسيدنا الشيخ أول من جرد لسانه الذي تغمد له السيوف وتجرد ، وقام في سبيل الله قيام من يقظ عادية من تعدى وتمرد .

وفي آخره :

وكتب من المنزل بفاقوس ، والفجر قد هم أن يشق ثوب الصباح لولا أن الثريا تعرضت تعرض أثناء الوشاح ، وهذه الليلة سافرة عن

---

(١) أورد ابن الأثير في « الكامل » ج ١١ ـ ٤٠٨ نصاً يكاد يكون مطابقاً لنصنا أعلاه .

نهار يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجة ، بلغه الله فيه أمله وقبل عمله ، بالغاً أسنى المراد وأفضله .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ق٢ – ٥٨٩

٣١ - نص آخر لكتاب صلاح الدين إلى الشيخ ابن أبي عصرون عن نفس الحادثة :

ورد الخبر بصلح بين الفرنج والدمشقيين ، وبقية بلاد المسلمين مادخلت في العقد ولا انتظمت في سلك هذا القصد ، والعدو لهما واحد ، وصرف مال الله الذي أعد لغنم الطاعة ومصلحة الجماعة في هذه المعصية المغضبة لله ورسوله ولصالحي هذه الأمة ، وكان مذخوراً لكشف الغمة فصار عَوْناً ، وإن أسارى من طبرية وفرسانها كانت وطأتهم شديدة ، وشوكتهم حديدة ، دفعوا في القطيعة ، وجعلوا إلى السلم السبب والذريعة . فلما بلغنا هذا الخبر ، وقفنا به بين الورود والصدر ، وإن أيمنا ظن بنا غير مانريد ، وإن قصدنا فالعدو من بقية الثغور التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد . وإن فرقنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد ، فرأينا أن سيرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي وأخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك ، وانه ربما عجز عن الاستدراك ، وان العدو طالب لايغفل ، وجاد لاينكل ، وليث لايضيع الفرصة ، مجد لايميل إلى الرخصة . فإن كانت الجماعة ساخطين فيظهر أمارات السخط والتغيير ، ولا يمسك في الأول فيعجز عن الأخير ؛ لاسيما ونحن نغار لله ونغير ، ونقصد للمسلمين مانجمع به صلاح الرأي وصواب التدبير . وقد منعنا عساكرنا أن تفترق خوفاً أن يقصد العدو ناحية حارم بالمال الذي قويت به قوته ، وثرت

به ثروته ، وانبسطت به خطوته ، فإنه مادام يعلم أنا مجتمعون ، وعلى طلبه مجمعون ، لايمكنه أن يزايل مراكزه ، ولايبادر مناهزه .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٢ ٥٩٤ - ٥٩٥

ب ـ صلاح الدين الايوبي يوسف بن أيوب ٥٦٩ـ ٥٨٩ هـ/١١٧٣ - ١١٩٣

١ ـ أيامه الأولى :

٣٢ ـ رسالة أرسلها صلاح الدين إلى بعض أنصاره يخبره بوفاة ملك القدس الصليبي سنة ٥٦٩ هـ من إنشاء القاضي الفاضل :

ورد كتاب من الدارم يذكر أنه لما كان عشيـة الخميس تاسع ذي الحجة هلك مري ملك الفرنج ، لعنه الله ، ونقله إلى عذاب كاسمـه مشتقاً ، وأقدمه على نار تلظى لايصلاها إلا الأشقى [1] .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٢ - ٥٦٦

٣٣ ـ رسالة أرسلها صلاح الدين إلى ملك القدس الصليبي الجديد بردويل معزياً بأبيه ومهنئاً له بجلوسه على عرش القدس ، وذلك قبل تحريرها :

أما بعد : خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد والسعد الساعد والحظ الزائد والتوفيق الوارد ، وهنأه من ملك قومه ماورثه ، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهر وأحدثه ؛ فإن كتابنا صادر إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق ، والنعـي الذي

---

(١) سورة الليل الآية ١٥ .

وددنا أن قائله غير صادق بالملك العادل الأعز الذي لقاه الله خـــير مالقيّ مثله وبلغ الأرض سعادته كما بلغه محله ، معزياً بما يجب فيـه العزاء ، ومتأسفاً لفقده الذي عظمت فيه الأرزاء . إلا أن الله سبحانه قد هون الحادث بأن جعل ولده الوارث . وأنسى المصاب بأن حفظ فيه النصاب ، ووهبه النعيمين : الملك والشباب ، فهنيئاً له ماحاز ، وسقياً لقبر والده الذي حق له الفداء لوجاز . ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين ، أدام الله سلامته ، قائم عنا بإقامة العزاء من لسانه ، ووصف ما نالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلو مكانه ، وكيف لايستوحش رب الدار لفرقة جيرانه . وقد استفتحنا الملك بكتابنـا وارتيادنا ، ووده الذي هو ميراثه عن والده من ودادنا ، فليلق التحية بمثلها ، وليأت الحسنة ليكون من أهلها ، وليعلم أنا له كما كنا لأبيه مودة صافية وعقيدة وافية ، ومحبة ثبت عقدها في الحيـاة والوفاة ، وسريرة حكمت في الدنيا بالموافاة ، مع مافي الدين من المخالفـــات . فليسترسل إلينا استرسال الواثق الذي لايخجل ، وليعتمد علينـا اعتماد الولد الذي لايحمل عن والده ماتحمل . والله يديم تعميره ، ويحرس تأميره ويقضي له بموافقة التوفيق . ويلهمه تصديق ظن الصديق .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧ ١١٥ – ١١٦

٣٤ - رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الملك العادل يخبره بتحالـف الحلبيين مع الفرنج ضده وخاصة مع قومص طرابلس ، وكيف أن ذلك لم يغن عنهم شيئاً وهرب الجميع عند قدوم السلطان ، وكان ذلك سنة ٥٧٠ هـ . والرسالة من إنشاء القاضي الفاضل .

قد أعلمنا المجلس أن العدو خذله الله ، كان الحلبيون قد استنجدوا

بصلبانهم واستطالوا على الإسلام بعدوانهم ، وأنه خرج إلى بلد حمص، فوردنا حماة وأخذنا في ترتيب الأطلاب لطلبه ولقاه ، فسار إلى حصن الأكراد متعلقاً بحبله مفتضحاً بحيله . وهذا فتح تفتح له أبواب القلوب وظفر ، وإن كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب ، فإن العدو وقد سقطت حشمته ، وانحطت همته ، وولى ظهراً كان صدره يصونه ونكس صليباً كانت ترفعه شياطينه .

كتاب الروضتين لأبي شامة حـ ١ ، ق٢ ـ ٦١٤

٣٥ ـ رسالة أرسلها صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ إلى بغداد يخبر بقدوم نجدة إلى فرنج الشام وكيف أنهم نقضوا الهدنة التي كانت معقودة بينه وبينهم ، وهي من إنشاء القاضي الفاضل :

خرج الكفار إلى البلاد الشامية فاسخين لعقد كان محكماً ، غادرين غدراً صريحاً ، مقدرين أن يجهزوا على الشام لما كان بالجدب جريحاً ، ونزلوا على ظاهر حماة يوم الاثنين الحادي والعشرين من جمادى الأولى، وزحفوا إليها في ثانية فخرج اليهم أصحابنا . وتضمن كتاب سيف الدين ـ يعني المشطوب [١] ـ أن القتلى من الفرنج يزيد على ألف رجل مابين فارس وراجل ، شفى الله منهم الصدور ورزق عليهم بالنصر والظهور ، ثم انصرفوا مجموعاً لهم بين تنكيس الصُلُب وتحطيم الاصلاب مفرقة أخرابهم عن المدينة المحروسة كما افترقت عن المدينة الشريفة النبوية الأحزاب .

كتاب الروضتين لأبي شامة حـ ١ ، ق ٧٠٦ ـ ٧٠٧

---

(١) هو سيف الدين المشطوب وكان من أعظم وأقدر قواد صلاح الدين .

٣٦ ـ رسالة صلاح الدين إلى أخيه تورانشاه في دمشق سنة ٥٧٣هـ ، يصف فيها معركة الرملة وكيف أنه اضطر للانسحاب ، وكيف نجا منها ووصل سالماً إلى مصر بعد شدة كبرى .

فاجأ جيش صليبي سنة ٥٧٣ هـ صلاح الدين في نفر يسير من أصحابه قرب مدينة الرملة ، فاضطر صلاح الدين بعد معركة غير متكافئة مع العدو أن أبلى هو وصحبه فيها أعظم البلاء ، أن ينسحب وذهب إلى مصر ، ولقي في الطريق شدة عظمى ومشقة ، ولما استقر في مصر أرسل إلى تورانشاه في دمشق رسالة يذكر له الواقعة وما حدث له ، افتتحها بهذا البيت من الشعر :

ذكرتك والخطي يخطر بيننا وقد فتكت فينا المثقفة السمر

ويقول فيها :

ولقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجانا الله سبحانه منه إلا لأمر يريده ، وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر(١) .

كتاب العبر لابن خلدون جـ٥ ـ ٦٤١

٣٧ ـ فصول من رسالة أرسلها القاضي الفاضل إلى صلاح الدين بعد معركة الرملة

بعد وصول صلاح الدين إلى مصر أعاد تنظيم جيشه ورجع إلى الشام ، وهناك وردته رسالة من القاضي الفاضل منها الفصول التالية :

إن العدو ـ خذله الله ـ نهض ووصل إلى صدر ، وقاتل ولم يتم له

(١) ذكر ابن الأثير في الكامل جـ ١١ ـ ٤٤٣ نصاً يكاد يطابق نصنا أعلاه .

أمر . وصرف الله شره وكفى أمره ، ووصل من الفرنج مستأمن وذكر أنهم يريدون الغارة على فاقوس واستقلوا أنفسهم وعرجوا .

ومنها :

أنهم وضعوا بنية تجديد الحشد ومعاودة القصد

ومنها :

وأما نوبة العدد في الرملة فقد كانت عثرة ، علينا ظاهرها ، وعلى العدو باطنها ، ولزمنا مانسي من اسمها ، ولزمهم مابقي من عزمها ، لادليل أدل على القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشام نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة والحشود الكثيرة ، والحريم المستور ، والمال العظيم الموفور .

مفرج الكروب لابن واصل جـ ٢ ـ ٦٥

٣٨ ـ رسالة الملك المظفر ملك حماة إلى صلاح الدين حول حصن بيت الأحزان

عمر الفرنج حصن بيت الأحزان على مخاضة قرب دمشق وبدؤوا يضايقون المسلمين والبلد ، وخاف السلطان من بقاء هذا الحصن ، فأرسل إلى الفرنج يطلب منهم هدمه ، فطلبوا منه أن يدفع لهم نفقات إنشائه فبذل لهم مائة ألف دينار ، وهم قد داخلهم الطمع وطالبوا بأكثر من ذلك، وأرسل السلطان إلى الملك المظفر صاحب حماة يستشيره في الأمر فأجابه بما يلي :

إن هذا الرأي الذي قد أزمعت عليه ليس بشيء ، وإن الله تعالى يسألك عن إعطائهم هذا المال ، وأنك قادر على المسير إليهم . والرأي

أن تصرف هذا المال إلى الأجناد وترغبهم في الجهاد ، وتسير بعساكرك وتنزل عليه ، والله تعالى في معونتك ونصرتك .

مضمار الحقائق لمحمد بن تقي الدين عمر ص ٢٥

٣٩ - رسالة صلاح الدين إلى الديوان العزيز يبشره بهدم حصن الأحزان المذكور آنفاً سنة ٥٧٥ هـ

صدق الله وعده وتمكن صلاح الدين من احتلال حصن الأحزان وهدمه ، وأرسل إلى خليفه بغداد يبشره بهذا الفتح ويقول - والرسالة من إنشاء القاضي الفاضل :

فصل :

وقد عرض حائطه الى أن زاد على عشرة أذرع ، وقطعت له عظام الحجارة ، وكل فص منها من سبعة أذرع الى مافوقها وما دونها ، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر ، لايستقر الحجر في مكانه ولايستقل في بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها ، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم ، المرغم بها أنوف الجبال الشم ، وقد جعلت سقيته بالكلس الذي إذا أحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه ، وصاحبه بأوثق وأصلب من صرمه ، وأوعز الى خصمه من الجديد بالاينهوض لهدمه .

وبات الناس في ليلة الجمعة مطيفين بالحصن ، والنيران به مطيفة وعليه مشتملة ، وعذبات ألسنتها على تاجيه مهدلة ومسدلة ، ومن خلفه مسبلة ، ونارهم قد أطفأها الله بتلك النار الواقدة ، ومنعتهم قد أذهبها الله بتلك الأبرجة الساجدة ، وبنفسج الظلماء قد استحال جلناراً ، والشفق قد عم الليلة فلم يختص آصالاً ولاأسحاراً ، ونفحاتها حميمية وقودها الناس والحجارة ، والبلاد ينادي بلسان مصابها : إياك أعني واسمعي ياجارة . فولجت النار

موالج يضيق بها الفكر ويعجز عنها الأبر ، ونقلت البناء من العين الى الأثر، وقال الكفر : انها لإحدى الكبر . ومؤلف المثل : ان السعادة لتلحظ الحجر ، وأغنى ضوؤها لسان كل إمعة أن يسأل هذا وهذا : ما الخبر ؟ وقذفت بالشرر كالجمالات الصفر ، وزفرت بغيظ تعفر له خدود الجبال الصعر ، وتلحقها كالكتب العفر وبات الليل والنهار يثله وكلما أغمده الخود جعل الوقود يسله ، الى أن بدا الصباح كأنه منها يمتار الأنوار ، وانشق الشرق ومن عصفرها صبغ الإزار ، فحينئذ تقدم الخادم فاقتلع الأحجار بيده من أسّها ، ومحا حروف البنيان من طرسها ، وتبعه الجيش ورفاقه ، وكافة من اشتمل عليه نطاقه [1] .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٢، ٨٤ - ٨٥

٤ ـ رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد يصف غارة ناجحة شنها على صفد عز الدين فرخشاه

... ورأينا أن البدار الى الحلول بدارهم وإحلال الخزي بهم في تعجل دمارهم ، فرصة لفريضة الجهاد منتهزة ، وعدة من الله تعالى في قهر عداته منتجزة ، وغنيمة للإسلام محرزة ، ونسرة في أقرب أمد بأنجح أمل بعون الله موجزة ، لاسيا والصوارم قد قلقت في أغمادها ، واللهاذم قد علقت عرى اجتهادها في جهادها ، والعزائم قد رمضت مضارب مظانها ، والسوابق قد ضمرت في مضمارها شوقاً إلى أضرابها ، والبيض والسمر قد اهتزت أعطافها إلى الانتشاء من طلاء الطلى، والارتعاء في أكلاء الكلا ، والاكتساء من النجيع القاني حمر الحلل والحلى ، وألسنة الأسنة

---

(١) يذكر ابن كثير في البداية والنهاية ج ١٢ - ٣٠٤ نصاً أقل تفصيلاً بكثير من النص المثبت أعلاه .

قد خطبت عقائل المعاقل ، وخطبت على أعواد العوامل الذوابل ، وطيور السهام المبرية المريشة إلى أوكارها من المقل نازعة نازية ، والأقدار بما تجري به من نصرة الإسلام زاهية ، والمنايا بأماني المغرورين من أهل الشرك هازية ، هممنا العالية بدَين الدين متقاضية ، وإلى حاكم القضاء في اقتضائه مقاضية . وهذه سنة قد هبت فيها النصرة من سنتها ، ومحت سيئة الليالي بحسناتها ، وبلغت نعم الله تعالى فيها منتهاها ، وأظهرت فرصة الانتهاز لها آية مكنتها ، ومما يبرهن على هذا القول ويبهر الأنام بشكر هذا الطول ، مقدمة في النصر يدل على أن نتائجها الفتوح الأبكار ، وباكورة في الظفر سمح بها القدر تبشر بأن جرت بمساعفتنا الأقدار .

وذلك أن ولدنا عز الدين فرخشاه ـ أحياه الله تعالى وأبقاه ـ نهض من العسكر برأس الماء في الحاضرين بعسكرنا عنده واستصحب رجّالة بانياس معه ، وأغار على صفد بكرة الأربعاء ثامن عشر ذي القعدة عند سلخ الصباح : فساء صباح المنذرين [1] . وكانوا في مساكنهم غارين وبحصانتها مغترين ، فأذن إقدامه بشت شملها ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، وسقى عطاش البيض وظماء الظبى من ورد وريدهم ورواها ، وأحرق أرباضها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها [2] ، وأعجلهم عن الالتجاء الى القلعة والاحتماء بالتلعة ، فسفح ذلك السفح دماءهم ، وسبى ذراريهم ونساءهم ، وساق أغنامهم وأبقارهم ، وخرب عليهم بل أحرق ديارهم ، وأشعل تلك الأماكن ناراً ، وأدركتها دعوة نوح : رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً [3] . فأعاد عليهم ليلاً ثانيا بعثارين

---

(١) سورة الصافات : الآية ٣٧ .
(٢) سورة الشمس : الآية ٩١ .
(٣) سورة نوح : الآية ٢٦ .

من نقع ودخان ، وأقام فيها المأتم بنكايتين من أسر وإثخان ، وعاد الى المخيم مشكور الخيم موفور النعم ظاهر الراية ، باهر الآية غانم الجند غالب الجد، كريم الظفر، حميد الأثر، وقد كف كف الكفر وهد ركن النكر، وسفرت وجوه الإسلام بهذه البشرى بشراً ، وطابت قلوب المؤمنين وطابت أرجاء الرجاء بأرج نجاحهم بشراً ، فهذه صفة صفد عند النهضة إليها والإشراف عليها ، فكيف والسيوف قد طاب ريها من طبرية ، وعاينت هي وأخواتها منا البلية . والقدس ينتظر إقدامنا ويستشرف اعتزامنا ، ونأمل من الله أن ينجز ميعاد نصره ويفتح لنا البلد الموعود بحصره ، فحينئذ يهي سلك الساحل وتتبدد عقوده ، ونستخلص من أيدي المشركين بعون الله تعالى حقوقه وحدوده .

مضمار الحقائق لمحمد بن تقي الدين عمر ٣٢ - ٣٣

٤١ - فصول من رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الملك المظفر في مصر يحثه على إرسال العساكر المصرية إلى الجهاد سنة ٥٧٩ هـ .

فصل :

قد تقدمت المكاتبة إلى مجلس الملك المظفر - لازالت أيامه بالملك والعز منعوتة ، وصلاة صلاته بالحمد والإخلاص موقوتة ، وولاة ولائه مرموقة ، وعداة آلائه ممقوتة ، ومنايا مناوئيه مكتوبة ، وشناة شانئيه مكبوتة وعرفناه ماشمل من نعم الله وفاض ، واستنار من لألاء آلائه واستفاض ، وأن الله أغاث بغيوث رحمته وبغوث نعمته حتى سالت أوديتها ، وسفكت دماء الحول بسيوف البوارق فلا يقال قودها أو ديتها ، فدم الحروب مطلول وسيف البارق مسلول .

ومنها :

وقد كاتبنا أمراء الأطراف باستعدادهم لاستدعائهم ، وأن يحزموا بجمع العساكر أوامرهم لأمرائهم ، فما منهم إلا من يسابق إلى تلبية النداء ، ويسارع الى إجابة الدعاء ، ويعشق ، ولاعشق لقاء الأحبة ، لقاء الأعداء . وهم الآن ينتظرون شتات شمل الشتاء . وإذا رأوا آذار مقبلا أقبلوا ، فإنهم مذ شاهدوا ضرع العارض حافلا احتفلوا ، وأجمعوا أمرهم قبل الاجتماع بأمرنا فَعَمِلُوا بما فعلوا . والله عز وجل يمد الإسلام بفتوح تفوح أرجاؤها بأريج العز ، ويسمي للمجاهد في سبيله ماوعدهم من درج الفوز وقد عزمنا - مع خروج شباط - على السير الى حلب ، لان هناك العساكر يقرب اجتماعها والغنائم يتحقق اتساعها ، والمشاورات الصائبة يتدانى استماعها ، والهيبة في النفوس تفخم ، والصيت في الآفاق يعظم .

مضمار الحقائق لمحمد بن تقي الدين عمر ١٦٣ - ١٦٤

٤٢ - بشارة أرسلها صلاح الدين لأحد الملوك بفتح غزة واقتلاعها من الديوية .

أدام الله سعادات المجلس وأحسن له التدبير ، وأصفى عيشه من التكدير ، وحقق له فيه أحسن الرجاء والتقدير ، وجعل وجهه من أهلة الأكابر والتكبير ، وأعاذ تأخير أجله من التقديم ، وتقديم حظه من التقدير .

نشعر المجلس بما منّ الله تعالى به من فتح مدينة غزة يوم الجمعة الجامع لشمل النصر ، القاطع لحبل الكفر ، وهذه المدينة ، قد علم الله ، أنها من أوسع المدائن وأملأ الكنائن وأوى المعادن ، وهي كرسي

الديوية ومهبط رؤوسهم ومحط نفوسهم وحمى كاهم بل كلابهم ، وظهر صليبهم بل أصلابهم ، وما كانت الأبصار إليها تطمح ، ولا الأقدار بها قبلنا تسمح ، ولها قلعة ، وأنفها شامخ في الهواء ، وعطفها جامح عن عطفة اللواء ، قد أوغلت في الجو مرتفعة ، وأوضت في الليل ملتمعة ، وبرداء السحاب ملتفعة . قد صافحتها أيدي الأيام بالسلامة من قوارعها ، وهادنتها حوادث الأيام على الأمن من بوائقها ، إلى أن أتيح لها من أتاح لها الحَين ، وقُيِّض لها من اقتضى منها الدَّيْن ، فصبحها بما ساء به صباحها ، وزعزعها بالزئير الذي خرس له نباحها . وكان من خبرها أننا لما أطللنا عليها مغيرين ، وأطفنا بها دائرين ، ولكؤوس الحرب مديرين ، تغلبت الأنجاد والأبطال على الزحف ، واعجل ارتياح النصر عن انتظام عقد الصف ، وانقضوا عليها انقضاض البزاة على طرائدها ، وأسرعوا إليها إسراع العطاش إلى مواردها ، ورفعت الألوية خافقة كذوائب الضرام ، طالعة برسائل الحمام ، مشيرة بالعذبات إشارة لم يطمئنوا إليها بالسلام ، وجـــاءهم الموت من كل مكان ، وأمطرت الشهب من كل سنان ، فرأوا مثواهم الجبيب ومحلهم الخصيب وقد ركضت فيه خيول الغِيَر ، واعترضت فيه سيول العِبَر ، وجُرِّدت فيه نصول القدر ، والنار قد لعبت فيه بجدة ، واحمرت فيه خدودها مخدة ، وأقواتهم المدخرة وأموالهم المثمرة نفلاً مباحاً وزبداً مطاحاً ومغنماً مشاعاً ونهباً مضاعاً قد ملئت منه الرحال وأخصبت ، واتسعت به الأيدي وضاقت به الأرض بما رحبت .

صبح الاعشى للقلقشندي جـ ٧ ٢٢ - ٢٣

٢ ــ فترة تحرير الساحل السوري والقدس

٤٣ ـ رسالة أرسلها أحد أفراد حاشية صلاح الدين الأيوبي لبعض إخـــوانه ، وصلاح الدين يستعد لمعركة حطين التاريخية وذلك سنة ٥٨٢ هـ .

كتبت هذه المكاتبة من جسر الخشب ظاهر دمشق ، وقد ورد السلطان ، أعز الله أنصاره ، للغزاة إلى بلاد الكفر ، في عسكر فيه عساكر ، وفي جمع البادي فيه كأنه حاضر ، وفي حشد يتجاوز أن يحصله الناظر إلى أن لا يحصله الخاطر ، وقد نهضت به همة لا يُرجى غير الله لإنهاضها ، وحجبت به عزمة الله المسؤول في حسم عوارض اعتراضها ، وباع الله نفساً يستمتع أهل الإسلام بصفقتها ، ويذهب الله الشرك بهيبتها . وأرجو ان يتمخض عن زبدة وتستريح الأيدي من المخض ، وأن يكون الله قد بعث سفتجة نصرة الإسلام وسلطانه قد نهض للقبض .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ٢ ـ ٧٥

٤٤ ـ رسالة القاضي الفاضل إلى صلاح الدين يهنئه بنصر حطين لأنه كان غائبا عن المعركة .

ليهن المولى أن الله قد أقام به الدين القيم ، وأنه كما قيل : أصبحت مولاي ومولى كل مسلم ، وأنه قد أسبغ عليه النعمتين الباطنة والظاهرة ، وأورثه الملكين : ملك الدنيا وملك الآخرة .

كتب المملوك هذه الخدمة والرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها ، والدموع لم تمسح من خدودها . وكلما فكر الخادم أن البيع تعود وهي مساجد ، والمكان الذي كان يقال فيه : إن الله ثالث ثلاثة يقال اليوم

فيه : إنه الواحد ، جدد لله شكراً ، تارة يفيض من لسانه ، وتارة يفيض من جفنه ، وجزاء يوسف خيراً عن إخراجه من سجنه . والمماليك ينتظرون أمر المولى ، فكل من أراد أن يدخل الحمام بدمشق قد عول على دخول حمام طبرية .

تلك المكارم لاقعبان من لبن وذلك الفتح لاعمان واليمن
وذلك السيف لا سيف ابن ذي يزن

وللألسنة بعدُ في هذا الفتح شرح طويل وقول جليل [1] .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ ٨٢ – ٨٣

٤٥ – قطعة من رسالة أرسلها العماد الأصفهاني تبشر بنصر حطين التاريخي وذلك باسم صلاح الدين .

... ولما أحيط بالقوم ، آوى ملكهم إلى جبل يعصمه من العوم ، فأسمعه السيف : لاعاصم اليوم ، واستولى الخذلان عليهم بأسرهم ، وبردت أيدي المؤمنين بحرقتلهم وأسرهم ، ولم يبق لهم باقية ، وغصت بقتلاهم في الدنيا والآخرة أرض الله الواسعة ، ونار الله الحامية ، فما يطأ من يصل إلى مخيمهم الا على رممهم البالية ، وأسر الملك وأخوه وبارونيته ومقدموه ، ولم يفلت منهم إلا القمص ، وهو مسلوب ، ولابد أن ندركه وهو مطلوب . وقد كنا نظرنا ضرب رقبة الابرنس صاحب الكرك الغدار ، كافر الكفار ونشيدة النار ، فلما رأيناه ضربنا عنقه سريعاً ، وسرنا إلى عكا ، وهي بيضة ملكهم ، وواسطة سلكهم ، ومركز دائرة كفرهم ومجمع جمع برهم وبحرهم فتسلمناها بالأمان .

والصخرة المقدسة الآن بنا تصرخ وتستغيث ، وعباد الله الصالحون

---

(١) أورد ابن كثير في « البداية والنهاية » ج ١٢ – ٣٢٢ نصاً أكثر اختصاراً من نصنا أعلاه .

قد وصلت إليهم بوعد الله الصادق المواريث ، والبشارة بفتح القدس لاتتأخر ، والهمم بعد هذا الفتح السني على ذلك تتوفر ، والحمد لله الذي تتم الصالحات بحمده : ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده [1] .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ ـ ٨٧

٤٦ ـ رسالة أرسلها شخص يقيم في عسقلان اسمه عبد الله بن أحمد المقدسي إلى بغداد يصف معركة حطين .

كتبت هذا الكتاب من عسقلان يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وفيه :

ولو حمدنا الله عز وجل طول أعمارنا ما وفينا بعشر معشار نعمته التي أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم . فإنا خرجنا إلى عسكر صلاح الدين ، وتلاحق الأجناد حتى جاء الناس من الموصل وديار بكر وإربل ، فجمع صلاح الدين الأمراء وقال : هذا اليوم الذي كنت أنتظره وقد جمع الله لنا العساكر ، وأنا رجل قد كبرت ، وما أدري متى أجلي ، فاغتنموا هذا اليوم وقاتلوا لله تعالى لا من أجلي ، فاختلفوا في الجواب وكان رأي أكثرهم لقاء الكفار ، فعرض جنده ورتبهم ، وجعل تقي الدين في الميمنة ، ومظفر الدين في الميسرة ، وكان هو في القلب ، وجعل بقية العسكر في الجناحين .

ثم ساروا على مراتبهم حتى نزلوا لأقحوانة،فتركوا بها أثقالهم وساروا حتى نزلوا بكفر سبت ، فأقاموا يومين ينتظرون أن يبرز لهم الكفار ،وكان عسكر الكفار على صفورية ، فلم يبرزوا ، فعاد صلاح الدين حتى نزل على طبرية ،

---

(١) سورة فاطر الآية ٢ .

فتقدم فرسانه وحماته ورماته والنقابون فدخلوا تحت الحصن ، فلما تمكن النقب منه انهـال من غير وقود ، ودخـل المسلمون فانتهـبوا يـوم الخميس .

وأصبحوا يوم الجمعة، فشرعوا في نقب القلعة ، فلما كان وقت الصلاة جاء الخبر أن الكفار قد توجهوا إلينا ، فارتحل صلاح الدين على صفوفه فلقيهم ، ثم لم يزالوا يتقدمون حتى صار المسلمون محيطين بهم وصار قلب المسلمين خلفهم فتراموا ساعة وبات كل فريق على مصافهم .

ثم أصبحوا فسار الكفار يقصدون طبرية ، والمسلمون حولهم يلحون عليهم بالرمي ، فاقتلع المسلمون منهم فوارس وقتلوا خيالة ورجالة ، فانحاز المشركون إلى تل حطين فنزلوا عنده ونصبوا الخيام ، وأقام الناس حولهم إلى أن انتصف النهار وهبت الرياح ، فهجم المسلمون عليهم فانهزموا لايلوون على شيء ، ولم يفلت منهم إلا نحو مائتين ، وكانوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفاً ، وقيل ثلاثة وعشرين ، ولم يتركوا في بلادهم من يقدر على القتال إلا قليلاً .

وكان الذي أسر الملك هو درباس الكردي . وغلام الأمير إبراهيم المهراني أسر الأبرنس [١] . وقتل صلاح الدين الأبرنس بيده لأنه كان قد غدر وأخذ قافلة من طريق مصر .

ثم عاد صلاح الدين إلى طبرية فأخذ قلعتها بالأمان ، ثم ضرب أعناق الأسارى الذين كانوا في العسكر ، وأرسل إلى دمشق فضربت أعناق الذين بها منهم .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ ، ٨١ - ٨٢

---

(١) المقصود بالأبرنس أرناط صاحب حصن الكرك واسمه أرنولد وكان من أخبث الصليبيين وأكثرهم غدراً وعدواناً على المسلمين وتهجماً على ذات الرسول عليه السلام فقتله صلاح الدين بيده .

٤٧ - رسالة صلاح الدين إلى بغداد من عكا بعد تحريرها ويصف فيها معركة حطين .

صبح الخادم طبرية فافتض عذرتها بالسيف وهجم عليها هجوم الطيف، وتفرق أهلها مابين الأسر والقتل ، وعاجلهم الأمر فلم يقدرو على الخداع والختل ، جاء الملك ومن بعد من كفاره ولم يشعر أن ليل الكفر قد آن وقت اسفاره ، فأضرم الخادم عليهم ناراً ذات شرار ، أذكرت بما أعد الله لهم في دار القرار ، فترجل هو ومن معه عن صهوات الجياد وتسنموا هضبةً رجاءً أن تنجيهم من حر السيوف الحداد ، ونصبوا للملك خيمة حمراء ووضعوا على الشرك عمادها ، وتولت الرجال حفظ أطنابها فكانوا أوتارها ، فأخذ الملك أسيراً ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً ، وأسير الأبرنس - لعنه الله - فحصد بنذره ، وقتله الخادم بيده ، ووفى بذلك نذره .

وأسر جماعة من مقدمي دولته وكبراء ضلالته ، وكانت القتلى تزيد على أربعين ألفاً ولم يبق أحد من الدوية ، فلله هو من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر ، وتداول فيه القتل والأسر . أصدر الخادم هذه الخدمة من ثغر عكا ، والإسلام قد اتسع مجاله ، وتصرف أنصاره ورجاله ، والكفر قد ثبتت أوجاله ودنت آجاله .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ٢ - ٨٧

٤٧ مكرر - رسالة صلاح الدين إلى خليفة بغداد الناصر يبشره بفتوحه التي سبقت أو عقبت حطين من إنشاء العماد الأصفهاني .

ولقـد كتبنا في الزبور من بـعد الذكر أن الأرض يرثها عبـادي

الصالحون [1] .

الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد ، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ، وجعل من بعد عسر يسراً ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمراً ، وهون الأمر الذي ماكان الإسلام يستطيع عليه صبراً ، وخوطب الدين بقوله : ولقد مننا عليك مرة أخرى [2] . فالأولى في عصر النبي فالصحابة ، والأخرى هذه التي عتق بها من ذل الكآبة ، وهو قد أصبح حراً ريان الكبد الحرّى ، والزمان كهيئته استدار ، والكفر قد رد ما كان عنده من المستعار . فالحمد لله الذي أعاد الاسلام جديداً ثوبه ، مبيضاً نصره ، مخضراً نصله ، متسعاً فضله ، مجتمعاً شمله

والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم والنصر الكريم مـا يشرح صدور المؤمنين ، ويمنح الحبور لكافة المسلمين ، ويورد البشرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر إلى يوم الخميس سلخه ، وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوماً سخرها الله على الكفار ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية [3] . وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خاوية ، ورأيتها إلى الإسلام ضاحكة وكانت من الكفر باكية .

فيوم الخميس الأول فتحت طبرية

ويوم الجمعة والسبت نوزل الفرنـج فكسروا الكسـرة التي ما لهم بعدها قائمة [4] ، وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه ، أخذ القرى وهي ظالمة [5] .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٥ .

(٢) سورة طه الآية ٣٧ .

(٣) سورة الحاقة الآية ٧ .

(٤) يقصد بالكسرة هنا الهزيمة الشنعاء التي مني بها الصليبيون في معركة حطين .

(٥) سورة هود الآية ١٠٣ .

وفي يوم الخميس سلـخ الشهر فتحت عـكا بالامان ورفعت أعلام الإيمان ، وهي ام البلاد واخت ارم ذات العماد .

وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور ، وقلب ملك الكفر الأسير بجيشه المكسور مكسور . والحديد الكافر الذي كان في يد الكفر يضرب وجه الإسلام قد صار حديداً مسلماً يعوق خطوات الكفر عن الإقدام . وأنصار الصليب وكباره ، وكل من المعمودية عمدته والدير داره قد أحاطت به يد القبضة ، وغلق رهنه فلا يقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها ، ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبيها ، وعمرت إلى أن شهدت يوم الإسلام وهو خير يوميها .

وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر ، وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر ، واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها ، ولطالما ارتجت لموقف الكافر .

فأما القتلى والأسرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفاً .

وأما فرسان الداوية والإستبارية فقد أمضي حكم الله فيهم وقطعتهم سيوف نار الجحيم ، ودخل الداخل منهم إلى الشقاء المقيم ، وقتل الأبرنس كافر الكفار ونشيدة النار من يـده في الإسلام كما كانت يـد الكليم .

والمعاقل التي فتحت

طبرية .	عكا .	الناصره .	صفورية .
قيسارية .	نابلس .	حيفا .	معليا .
الفولة .	الطور .	الشقيف .	

وقلاع بين هذه كثيرة .

الملك المظفر تقي الدين ، ظفره الله ، مضايق لصور وحصن تبنين .

والأخ الملك العادل سيف الدين ، نصره الله ، قد كوتب بالوصول فيمن عنده العساكر ، وينزل في طريقه على غزة وعسقلان ، ويجهز مراكب الأسطول المنصور إلى عكا .

وما يتأخر النهوض إلى القدس ، وهذا أوان فتحه . ولقد دام عليه ليل الظلام وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه [1] .

مفرج الكروب لابن واصل جـ ٢ ، ٢٠٣ – ٢٠٥

٤٨ – رسالة أخرى من صلاح الدين إلى بعض أهله يخبره بما تجدد من فتوحه ويعلن تهيؤه لفتح القدس .

. . . انتقلنا إلى الجانب الذي فيه القدس وعسقلان ففتحنا قلاعه كلها وحصونه جميعها ومعاقله بجملتها ومدنه بأسرها وهي :

حيفا . والرملة . والدير . وقيسارية .
ولد . والخليل . وارسوف . وتل الصالحية .
ويافا . وبيت جبريل .

ونازلنا عسقلان ، وهي المعقل المنيع والحصن الحصين والتل الرفيع ، وفيهم من القوة والعدة والعدد ما تتقاصر الآمال عن نيل مثله ، فافتتحناها سلماً لتمام أربعة عشر يوماً من يوم نزولنا عليها ، ونصبت أعلام التوحيد على أبراجها وأسوارها وعمرت بالمسلمين وخلت من مشركيها وكفارها ، وكبر المؤذنون في أقطارها .

---

(١) ذكر أبو شامة في كتاب « الروضتين » نصاً يكاد يكون مطابقاً لنصنا أعلاه جـ ٢ – ٨٩ .

ولم يبق في الساحل من جبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور ، والعزم مصمم على قصد القدس ، فالله يسهله ويعجله ، فإذا يسر الله تعالى فتح القدس ملنا إلى صور ، والسلام .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ – ٩١

٤٩ – رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله يبشره بفتح بيت المقدس ويذكر المعارك التي سبقت تحريره وعملية التحرير من إنشاء القاضي الفاضل :

أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري ، ولازال مظفر الجد بكل جاحد ، غنيّ التوفيق عن رأي كل رائد ، موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد ، مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقد ، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد ، متعدد مساعي الفضل وإن كان لايلقى إلا بشكر واحد ، ماضي حكم القول بعزم لايمضي إلا بنسل غويّ ورَيش راشد ، ولازالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواءاً إلى المرابع وأنواراً إلى المساجد ، وبعوث رعبه إلى الأعداء خيلاً إلى المراقب وخيالاً إلى المراقد .

كتب الخادم هذه الخدمة تيلو ما صدر منه مما كان يجري مجرى التباشير بصبح هذه الخدمة ، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة ، فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل ، ولطف الحق للشكر فيه عبءٌ ثقيل ، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب ، ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب ، ولله في إعادة شكره رضى ، وللنعمة الراهنة به دوام لايقال معه هذا مضى . وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها ، واستتبت عقائد أهله على بصائرها ، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط وصدق الله أهل

دينه ، فلما وقع الشرط حصل المشروط ، وكان الدين غريباً فهو الآن في وطنه ، والفوز معروضاً فقد بذلت الأنفس في ثمنه ، وأمر أمر الحق وكان مستضعفاً وأهلُ ربعه وكان قد عيف حين عفا ، وجاء أمرُ الله وأنوف أهل الشرك راغمة ؛ فأدلجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة ، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوارٌ أبانت أن الصباح عندها حيان الحين . واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم آبقاً ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأي طارقاً ، واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت ، وان كانت صخرة ، كما تشفى بالماء غللهم .

ولما قدم الدين عليها عرف منها سويداء قلبه ، وهنئاً كفؤها الحجر الأسود ببتّ عصمتها من الكافر بحربه . وكان الخادم لايسعى سعيه إلا لهذه العظمى ، ولا يقاسي تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى ، ولايناجز من استمطله في حربه ، ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادى في عَتْبه إلا لتكون الكلمة مجموعة ، والدعوة إلى سامعها مرفوعة ، فتكون كلمة الله هي العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لابالعرض الأدنى من الدنيا ، وكانت الألسنة ربما سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار ، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار . ومن طلب خطيراً خاطر ، ومن رام صفقة رابحة تجاسر ، ومن سما لأن يُجلّيَ غمرةً غامر ، وإلا فإن القعود يلين تحت نيوب الأعداء المعاجمَ فتعضّها ، ويضعف في أيديها مَهْز القوائم فتنفضها . هذا إلى كون القعود لايقضي فرض الله في الجهاد ، ولايرعى به حق الله في العباد ، ولا يوفي به واجب التقليد الذي تطوقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون . وخلفاء الله كانوا

في مثل هذا اليوم لله يسألون . لاجرم أنهم أورثوا سرورهم وسريرهم خلفهم الأطهر ونجلهم الأكبر وبقيتهم الشريفة وطلعتهم المنيفة ، وعنوان صحيفة فضلهم لاعدم سواد العلم وبياض الصحيفة . فما غابوا لما حضر ، ولاغضوا لما نظر ، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولاً ، وشاطروه العمل لما كان عنه مشغولاً ومنه مقبولاً ، وخلص إليهم إلى المضاجع ما اطمأنت به جنوبها ، وإلى الصفائح ما عبقت به جيوبها . وفاز منها بذكر لايزال الليل به سميراً والنهار به بصيراً ، والشرق يهتدي بأنواره ، بل إن أبدى نوراً من ذاته هتف به الغرب بأنواره ، فإنه نور لاتكنه أغساق السُوف ، وذكر لاتواريه أوراق الصحف .

وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شقفاً ، وطارت فرقه فرقاً ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الأكثر عدداً وحصا ، فكلت حملاته وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان ، عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغُضّتْ عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفه ، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون ، وجُدعتْ أنوف رماحه ، ولطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون ، وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث ، والرب المعبودُ الواحدَ وكان عندهم الثالث ، فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الكفر مهتومة ، وطوائفة الحامية مجتمعة على تسليم البلاد الحامية وشجعانه المتوافية مذعنة ببزل المطامع الوافية ، لايرون لهم في ماء الحديد لهم عُصْرَة ، ولافي فناء الأفنية لهم نصرة ، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبدّل الله السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة .

ولقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركه وأنجده بملائكته فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صرعة لا يعيش معها بمشيئة الله كفر ، وأسر منهم من أسرتْ به السلاسل وقتل منهم من فتكت به المناصل ، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح الكفار ، وعن أنصاف محيل فانه قتلهم الأفلاق والرماح الأكسار ، فنيلوا بثار من السلاح ونالوه أيضاً بثار ، فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين ، وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين . وكم فارسية ركض عليها فارسها السهمَ إلى أجل فاختلسه ، وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة فافترسه . وكان اليوم مشهوداً ، وكانت الملائكة شهوداً ، وكان الكفر مفقوداً والإسلام مولوداً ، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقوداً . وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه وآكدْ وصله بالدين وعلائقه وهو صليب الصلبوت وقائد أهل الجبروت ، ومادهموا قط بأمر إلا وقام بين دهائهم يبسط لهم باعه ، ويحرضهم وكان من اليدين في هذه الدفعة وداعه ، لاجرم أنهم تهافت على نارهم فراشهم ، وتجمع في ظل ظلامه خشاشهم ، فيقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه ، ويرونه ميثاقاً يبنون عليه أشد عقد وأوثقه ، ويعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه .

وفي هذا اليوم أسرتْ سراتهم وذهبت دهاتهم ، ولم يفلت معروف إلا القومص ، وكان ـ لعنه الله ـ ملياً يوم الظفر بالقتال ويوم الخذلان بالاحتيال ، فنجا ولكن كيف ؟ وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح وجناح السيف . ثم أخذه الله بعد أيام بيده وأهلكه لموعده ، فكان لعدتم فذلك ، وانتقل من ملك الموت إلى مالك .

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغاً ، البيضاء صنعاً ، الخافقة هي وقلوب أعدائها ، الغالبة وهي وعزائم أوليائها ، المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها البشر ، وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر ، فافتتح بلد كذا وكذا ، وهذه أمصار ومدن ، وقد تسمى البلاد بلاداً وهي مزارع وفدن . وكل هذه ذوات معاقل ومعاقر وبحار وجزائر ، وجوامع ومنائر وجموع وعساكر ، يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها ، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها ، ويحصد منها كفراً ويزرع إيماناً ، ويحط من منائر جوامعها صلباناً ويرفع أذاناً ، ويبدل المذابح منابر والكنائس مساجد ، ويبوىء بعـــد أهل الصلبان للذب عن دين الله مقاعـــد ، ويقر عينيه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عسكره بجار ومجرور ، وأن ظفر بكل سور ما كان يخاف زلزاله وزياله إلى يوم النفخ في الصور . ولما لم يبق إلا القدس ، وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد ، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد ، وظنوا أنها من الله مانعتهم ، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم ، فلما نازلها الخادم رأى بلداً كبلاد ، وجمعاً كيوم التناد ، وعزائم قد تألفت وتألبت على الموت ، فنزلت بعرصته ، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته ، فزاول البلد من جانب فإذا أودية عميقة ، ولجج وعرة عريقة ، وسور قد انعطف عطف السوار ، وأبرجه قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار ، فعدل إلى جهة أخرى كان للطامع عليها معرَّج ، وللخيل فيها متولج ، فنزل عليها وأحاط بها وقرب منها ، وضربت خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ، ويزاحمه السور بأكتافه ، وقابلها ثم قاتلها ، ونزلها ثم نازلها وبرز إليها ثم بارزها ، وحاجزها ثم ناجزها ، فضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح ، وصدع أهلها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الحد عن عتق

الصفح ، فراسلوه ببذل القطيعة إلى مدة ، وقصدوا نظرة إلى شدة وإنتظاراً لنجدة ، فعرفهم في لحن القول وأجابهم بلسان الطول ، وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها ، وأوتر لهم قسيها التي تضرب فلاتفارقها سهامها ، ولا يفارق سهامها نصالها ، فصافحت السور بأكنافها فإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك ، وقدم النصرُ نسراً من المنجنيق يخلّد أخلاده إلى الأرض ويعلوه علوه إلى السماك ، فشجَّ مرادع أبراجها ، وأسمع صوت عجيجها ورفع مثار عجاجها ، فأخلى السور من السيارة والحرب من النظارة ، فأمكن النقاب ، أن يسفر للحرب النقاب ، وأن يعيد الحجر إلى سيرته من التراب ، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله ، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أنمله ، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقيله ، وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الأرض . وفتح في السور باب سد من نجاتهم أبواباً ، وأخذ نقبٌ في حجره قال عنده الكافر : ياليتني كنت تراباً[1]. فحينئذٍ يئس الكفار من أصحاب الدور ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور .

وفي الحال خرج طاغية كفرهم وزمام أمرهم ابن بازان سائلاً أن يؤخذ البلد بالسلم لا بالعنوة ، وبالأمان لابالسطوة ، وألقى بيده إلى التهلكة ، وعلاه ذل الملكة بعد عز المملكة ، وطرح جبينه في التراب وكان حيناً لايتعاطاه طارح ، وبذل مبلغاً من القطيعة لايطمح إليه طرف آملٍ طامح . وقال : هاهنا أسارى مؤمنون يتجاوزون الألوف،

(١) سورة النبأ الآية ٤٠ .

وقد تعاقد الفرنج على أنهم إن هجمت عليهم الدار وحمّلت الحرب على ظهورهم الأوزار ، بدىء بهم فعجلوا ، وثنى بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا ، ثم استقتلوا بعد ذلك فلم يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف ، ولم يسل سيف من يد إلا بعد أن تنقطع أو تنقصف وأشار الأمراء بالأخذ بالميسور من البلد المأسور ، فإنه إن أخذ حرباً فلابد أن تقتحم الرجال الأنجاد وتبذل أنفسها في آخر أمرٍ قد نيل من أوله المراد .
وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفتكات وإعتاق الحركات ، فقبل منهم المبذول عن يد وهم صاغرون ، وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون ، وملك الإسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان ، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان ، لاجرم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم ، وأرضى أهل الحق وأسخطهم ، فإنهم - خذلهم الله - حموها بالأسل والصفاح ، وبنوها بالعمد والصفاح ، وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوية والاستبارية منها كل غريبة من الرخام الذي يطرد ماؤه ولايطرد لألاؤه ، وقد لطف الحديد في تجذيبه ، وتفنن في توشيمه ، إلى أن صار الحديد ، الذي فيه بأس شديد ، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد ، فما ترى إلا مقاعد الرياض لها من بياض الترخيم رقراق ، وعمداً كالأشجار لها من التنبيت أوراق .
وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود ، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود ، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان فكادت السموات يتفطرن للسجوم لا للوجوم ، والكواكب ينتثرن للطرب لا للرجوم ، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طرائقها مسدودة ، وطهرت قبور الأنبياء وكانت بينهم بالنجاسات مكدودة ، وأقيمت الخمس ، وكان التثليث يقعدها ، وجهرت الألسن بالله أكبر وكان

سحر الكفر بعقدها ، وجهر باسم أمير المؤمنين في قطبه الأقرب من المنبر ، فرحّب به ترحيب من بُرٍّ بن برّ ، وخفق علاه في حفافيه، فلو طار به سروراً لطار بجناحيه .

وكتاب الخادم وهو مجد في استفتاح بقية الثغور ، واستشراح ماضاق بتمادي الحرب من الصدور ، فإن قوى العساكر قد استنفدت مواردها، وأيام الشتاء قد مردت مواردها ، والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها ، ونهبت ذخائرها وأكلت غلالها ، فهي بلاد ترفد ولا تسترفد ، وتجم ولاتستنفد ، وينفق منها ، وتجهز الأساطيل لبحرها ، وتقام المرابط لبرها ، ويدأب في عمارة أسوارها ومرمات معاقلها . وكل مشقة فهي بالإضافة إلى نعمة الفتح محتملة ، وأطماع الفرنج فيما بعد ذلك مذاهبها غير مرجئة ولا معتزلة ، فلن يدعوا دعوة يرجو الله من الخادم أنها لاتسمع ، ولن تزول أيديهم من أطواق البلاد حتى تقطع .

وهذه البشائر لها تفاصيل لاتكاد من غير الألسنة تتشخص ، ولاسيما سوى المشافهة تتلخص ، فلذلك نفذنا لساناً شارحاً ومبشراً صادحاً ، ينشر الخبر على سياقته ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته[1].

صبح الأعشى للقلشقندي ج ٦ ، ٤٩٦ - ٥٠٤

---

(١) ورد نص هذه الرسالة الشهيرة في عدد من المصادر . فالقلقشندي نفسه يعيد نص هذه الرسالة مع شيء من الخلاف في « صبح الأعشى » جـ ٨ / ٢٨٢-٢٨٩ ، كما وأن أباشامة في « كتاب الروضتين » جـ٢ / ٩٦-٩٧ يأتي بنص مختصر لهذه الرسالة ، وكذلك يفعل ابن خلكان في « وفيات الأعيان » جـ ٦ / ١٧٠-١٨٠ وابن واصل في « مفرج الكروب » جـ٢ ٢٣٩-٢٤٨ وياقوت في « معجم الأدباء » جـ ١٩ / ٢٠-٢٢ . أما النويري فيأتي بمقتطفات في « نهاية الأرب » جـ١ - ٤٠٣ .

٥٠ ـ رسالة أخرى من صلاح الدين إلى الخليفة الناصر لدين الله العباسي يخبره بمعركة حطين وتحرير بيت المقدس من إنشاء العماد الأصفهاني الكاتب .

ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون (١) .

الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد ، على نصرته هذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ، وعلى أن أجرى هذه الحسنة التي ماشتمل على شبهها كرام الصحائف ، ولم يجادل عن مثلها في المواقف ، في الأيام الإمامية الناصرية ـ زادها الله غرراً وأوضاحاً ، ووالى البشائر فيها بالفتوح غدواً ورواحاً ، ومكن سيوفها في كل مازق من كل كافر ومارق ، ولا أخلاها من سيرة مرية تجمع بين مصلحة مخلوق وطاعة خالق ، وأطال أيدي أوليائها لتحمي بالحقيقة حمى الحقائق ، وأنجزها الحق وقذف به على الباطل الزاهق ، وملكها هوادي المغارب ومرامي المشارق ، ولازالت آراؤها في الظلمات مصابح ، وسيوفها للبلاد مفاتح ، وأطراف أسنتها لدماء الأعداء نوازح .

والحمد لله الذي نصر سلطان الديوان العزيز وأيده ، وأظفر جنده الغالب وأنجده ، وجلا به جلابيب الظلماء وجدد جدّه ، وجعل بعد عسر يسراً ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمراً ، وهون الأمر الذي ماكان الإسلام يستطيع عليه صبراً ، وخوطب الدين بقوله : ولقد مننا عليك مرة أخرى (٢) . فالأولى في عصر النبي ﷺ والصحابة ،

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٥ .

(٢) سورة طه الآية ٣٧ .

والأخرى هي التي عتق فيها من رق الكآبة ، فهو قد أصبح حراً .
فالزمان كهيئته استدار ، والحق بهجته قد استنار ، والكفر قد رد ماكان عنده المستعار ، وغُسل ثوب الليل بما فجّر الفجر من أنهـار النهار ، وأتى الله بنيان الكفر من القواعد ، وشفى غليل صـدور المؤمنين برقراق ماء الموردات البوارد ، أنزل ملائكة لم تظهر للعيون اللاحظة ، ولم تخف عن القلوب الحافظة ، عزت سيما الإسلام بسوّمها وترادف نصره بردفها ، وأخذت القرى وهي ظالمة فترى مترفيها كأن لم تؤو فيها ، فكم أقدم بها حيزوم ، وركض فأتبعه سحاب عجاج مركوم ، وضرب فإذا ضربه كتاب جراح مرقوم ، وإلا فإن الحروب إنما عقدت سجالاً ، وإنما جمعت رجالاً ، وإنما دعت خفافاً وثقالاً .
فإما سيوف تقاتل سيوفاً ، أو زحوف تقاتل زحوفاً ، فيكون حد الحديد بيد مذكراً وبيد مؤنثاً ، ويكون السيف في اليد الموحّدة وفي اليـد المثلثة لايغني بالضرب مثلثاً ، ذلك انه في فئتين التقتا ، وعدوتين لغير مودة اعتنقتا ، وان هذه النصرة إن زويت عن ملائكة الله جحدت كراماتهم . وإن زويت عن البشر فقد عُرفت قبلها مقاماتهم ، فما كان سيف يتيقظ من جفنه قبل ان ينبهه الصريخ ، ولا كان ضرب يطير الهام قبل ضرب يراه الناظر ويسمعه المصيخ ، فكم قرية كأنهـا هجرة الموت وبها التاريخ ، وكم طعنة تخر لها هضاب الحديد ولها شماريخ .
والحمد لله الذي أعاد الإسلام جديداً ثوبه ، بعد ان كان جـديداً حبله [1] ، مبيضاً نصره ، مخضراً نصله ، متسعاً فضله ، مجتمعاً شمله .
والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم والنصر الكريم مايشرح صدور

---

(١) جديداً حبله : مقطوعاً حبله .

المؤمنين ، ويمنح الحبور لكافة المسلمين ، ويكرر البشرى بما انعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخة وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوماً سخرها الله على الكفار ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية [1] ، ورايتها إلى الإسلام ضاحكة كما كانت من الكفر باكية . فيوم الخميس الأول فتحت طبرية وفاض ري النصر من بحيرتها ، وقضت على جسرها الفرنج فقضت نحبها بحيرتها . وفي يوم الجمعة والسبت كسر الفرنج الكسرة التي مالهم بعدها قائمة واخذ الله اعداءه بأيدي اوليائه اخذ القرى وهي ظالمة ؛ وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكا بالأمان ورفعت بها أعلام الإيمان ، وهي أم البلاد وأخت إرم ذات العماد ، وقد أصبحت كأن لم تغنَ بالكفر ، وكأن لم تفتقر من الإسلام .

وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور ، وقلب ملك الكفر الأسير جيشه المكسور مكسور ، والحديد الكافر الذي كان في الكفر يضرب وجه الإسلام قد صار حديداً مسلماً يفرق خطوات الكفر عن الاقدام ، وأنصاره الصليب وكباره ، وكل من المعمودية عمدته والدير داره ، قد أحاطت به يد القبضة ، وأخذ رهناً فلا تقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها ؛ ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبيها ، وعمرت إلى أن شهدت يوم الإسلام وهو خير يوميها . بل ليس من أيام الكفر يوم فيه خير . وقد غسل عن بلاد الإسلام بدماء الشرك ما كان يتخللها فلا ضرر ولا ضير ، وقد صارت البيع مساجدهم بها من آمن بالله واليوم الآخر ،

---

(١) سورة الحاقة الآية ٧ .

وصارت المناحر مواقف لخطباء المنابر ، واهتزت أرضها لوقوف المسلمين فيها وطالما ارتجت لمواقف الكافر . والبأس الإمامي الناصري قد أمضى مشكاته على يد الخادم حتى بالدنيّ من الكنائس ، وإن عزّ أول الإسلام بحط تاج فارس ، فكم حطت سيوفه في هذا اليوم من تاج فارس .

فأما القتلى والأسارى فإنها تزيد على ثلاثين ألفاً .

وأما الفرسان الديوية والاستبارية فقد أمضى الله حكمه فيهم وقطع بهم سيوف نار الجحيم ، ووصّل الراحل منهم إلى الشقاء المقيم ، وفتك بأفرنس[1] كافر الكفار ومشيد النار ، من يده في الإسلام كما كانت يد الكليم ، وافترت النصرة عن ثغر عكا بحمد الله الذي يسّر فتحها ، وتسلمتها الملة الإسلامية بالأمان ، وعرفت في هذه الصفقة ربحها . وأما طبرية فأفترتها يد الحرب فأنهرت الحروب جرحها .

فالحمد لله حمداً لاتضرب عليه الحدود ، ولاتزكى بأزكى منه العقود ، وكأنه بالبيت المقدس وقد دنا الأقصى من أقصاه ، وبلغ الله فيه الأمل الذي علم أن يحصيه وأحاط بأجله وأقصاه ، لكل أجل كتاب . وأجل العدو هذه الكتائب الجامعية ، ولكل عمل ثواب ، وثواب من هدي لطاعته جناتُ نعيمه الواسعة ، والله المشكور على ما وهب ، والمسؤول في إدامة ما استيقظ من جد الإسلام وهبّ .

وقد توجه من جانبه الأمير رشيد الدين ، دام تأييده ، في إهداء هذه البشرى نيابة عن الخادم ، ووصف مايسره الله لأوليائه من العزائم .

---

(١) المقصود بأفرنس كافر الكفار أرناط (أرنولد) صاحب حصن الكرك الذي قتله صلاح الدين بيده بعد معركة حطين مباشرة .

والبلاد والمعاقل التي فتحت هي : طبرية ، عكا ، الناصرة ، صفورية ، قيسارية ، نابلس ، حيفا ، معليا، القزلة ، الطور ، الشقيف ، وقلاع بين هذه كثيرة .

والولد المظفر تقي الدين بصور وحصن تبنين ، والأخ العادل سيف الدين ، نصره الله ، قد أوفت بالوصول من عنده من عنده من العساكر فينزل في طريقه إلى غزة وعسقلان . ويجهز مراكب الأسطول المنصور ويكاثر عددها ، ويسير بها إلى ثغر عكا المحروس ، ويشحنها بالرجال ويوفر سلاحها وعددها . والنهوض إلى القدس فهذا أوان فتحه ، ولقد دام عليه ليل الضلال ، وقد آن أن يستقر فيه الهدى مشكور الإحسان إن شاء الله تعالى [1] .

صبح الأعشى للقلقشندي جـ ٦ ٥١٧ - ٥٢٠ .

٥١ - مقتطفات من رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله صحبة رسوله اليه ضياء الدين الشهر زوري مبشراً بفتح القدس . والرسالة من إنشاء العماد الأصفهاني الكاتب .

. . . وقد سبقت البشائر بما منّ الله به من الفتح العظيم ، والنصر العميم ، والترف الجسيم ، والفضل الوسيم ، واليوم الأغر الأعز الكريم ، والشرف الذي ذخره الله لهذا العصر ليفضله على الأعصار ، وأراد تأخير فخاره إلى هذه الأيام ليكون بها تاريخ الفخار ، فقد أعجز الملوك عن اقتضاء نصرته وافتضاض عذرته ، وخص من أجراه على يده بسمو قدره

---

(١) يذكر القلقشندي أن هذه رسالة صلاح الدين إلى الخليفة بفتح القدس ، وليس الأمر كذلك لأن ختامها يذكر أوان النهوض إلى القدس : فهي وصف للمعارك التي سبقت وأعقبت حطين وتكاد تكون صورة طبق الأصل عن الوثيقة رقم ٤٧ في هذا الكتاب .

وغو قدرته ، وأعاد به القدس إلى قدسه . وأظهره وطهره من رجز الكفر ورجسه ، وقد رجع الإسلام الغريب منه إلى داره ، وخرج قمر الهدى به من سراره ، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره ، وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت موصوفة من التقديس ، وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى ومناخ التعريس ، وقد أقصى عن المسجد الأقصى الأقصون من الله الأبعدون ، وتوافد إليه المصطفون الأقربون والملائكة المقربون ، وخرس الناقوس بزجل المسبحين ، وخرج المفسدون بدخول المصلحين .

وقال المحراب لأهله مرحباً وأهلاً ، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع للإسلام به شملاً . ورفعت الأعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب ، وتلت بألسنة عليها : نصر من الله وفتح قريب [1] . وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين . وبُعد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين ، فذكر بها ما كاد ينسى من عهد المعراج النبوي ، وقامت بدلالتها براهين الإعجاز المحمدي ، وصافحت الأيدي منها موضع القدم ، وتجدد لها من البهجة والرسالة ما كان لها من القدم .

فهو ثاني المسجدين بل ثالث الحرمين ، فليهن البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الأسر ، واسفار صبح الإسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر ، وتطهير مواقف الانبياء - صلوات الله عليهم - من أدناس الارجاس ، وتضوع أرج الرجاء في أرجائه بعد اليأس .

---

(١) سورة الصف الآية ١٣ .

فالحمد لله الذي أبدل الإيحاش بالإيناس ، ونزع عنه بإفاضة خلع الرحمة عليه لباس الباس وجعل عصر مولانا أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ على الأعصر مفضلاً ، وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه فأصبح فخر الدين والدنيا به مكملاً ، ويسر ببركات أيامه فتح البلاد الساحلية بأسرها ، وعجل هلاك هذه الطائفة الطاغية من الفرنج بقتلها وأسرها ، ولقد حلّ الكفر عروة عروة وهُدَّ ذروة ذروة ، وعادت حباله رثاثاً وعقوده أنكاثاً ومساكنه أجداثاً ، وصار حديثاً بعد أن شوهد أهل الذمة أحداثاً .

فالرتاج مستفتح والرجاء مستنجح ، والبلاد مستخلصة ، والقيم الغوالي منها بسوم العوالي مسترخصة ، والعقائل مفتضة والمعاقل منقضة ، ومناهل المنى بمياه النجاح مرفضة ، ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف أهل الايمان منقضة ، والثغور مبتسمة ، والأمور منتظمة ، والحصون متسلمة والخصوم مذعنة مستسلمة ، وأرض الكفر ينقصها الإسلام كل يوم من أطرافها ، بل يستولي على أوساطها وأكتافها ، ويعيد إلى الطاعة كرهاً مذهب خلافها ، ولقد أينع زرعها وثمرهـا من رؤوس المشركين . وهذا أوان حصادها وقطافها ، والنعمة بحمد الله عظيمة ، والموهبة ، وإن خصت بهذا الإقليم ، فهي في جميع أقاليم المسلمين عميمة .

ولو شرح ما لهذا الفتح من جلالة العظمة ودلالة المكرمة ، لكبا قلم البليغ في مضمار البيان ولم يبلغ مدى : قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً [١] . والقاضي ضياء الدين القاسم الشهرزوري قد توجه لهذا النعمة واصفاً ، وعندما يؤمر به من إنهاء البشرى بها واقفاً ، وأولى من وصف العرف من كان بأوصافه

(١) سورة الكهف الآية ١٠٩ .

عارفا ، وأحق من شرح الحق والحقيقة من تفي بشرح الصدور مصادرشرحه ، ويفتح على الإسلام أبواب الهناء بانهاء ما تسنى من فتحه ، ويحدث ، وهو الضياء بإسفار صبحه .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني ـ ١٤٧ – ١٤٩

٥٢ ـ رسالة أرسلها صلاح الدين إلى أخيه حاكم اليمن سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين يبشره بتحرير القدس ، وهي من إنشاء العماد الأصفهاني

صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي ـ ضاعف الله علاءه وظاهر آلاءه وضافر نعماءه ، وأظفر بالنجح رجاءه ، وأضعف حسّاده وأعز أولياءه وأذل أعداءه ، ولازالت أيامه بالأيامن مسفرة ، ولياليه بالمجالس مقمرة ، ومكارمه بالمحامد مثمرة ، وعهود مواليه بشكر النعم محكة ، ومعاهد معاديه بقهر النقم مقفرة ـ دالة على البشرى بالفتح الأكبر والنجح الأزهر والنصر الأشهر والعصر الأبهر والفضل الأكثر ، والافضال الأوفر واليوم الأنور ، واليمن الأنضر والفجر الأسفر والفخر الأظهر ، والجد الأشم الأشمخ ، والمجد الأبلج الأبلخ (١) ، والعز الأسمق الأسمى ، والنور الأتم الأنمى والظفر الأجل الأجلى والوطر الأحل الأحلى والشرف الأسنم الأسنى والمغرم الأغنم الأغنى ، والسعد الأجد الأجدى ، والصيت الأبدي الأبدى .

وهو الفتح الذي تفوح بسحابه مهاب الفتوح ، وتبوح بسر روحه وملكه سرائر الملائكة والروح ، وتروح وتغدو عوادي النعم وروائحها

(١) المجد الأبلخ : المجد العظيم المتكبر أي المجد الذي يدعو الى الكبرياء .

إلى روض الهدى المروح ، وتلوح تباشير بشراه في لوح الدهر لكل مؤمن يتلقاها بالوجه السافر والصدور المشروح ، وتنوح ناعية الكفر في كل ناحية ، ولكل نادبة للأسى على قتيلها وأسيرها ندوب في القلب المقروح .

وهو فتح بيت المقدس الذي غلق نيفاً وتسعين سنة مع الكفر رهنه ، وطال في أسره سجنه ، واستحكم وهنه وقوي نكره وضعف ركنه وزاد حزنه وزال حسنه . وأجدبت من الهدي أرضه وأخلف مزنه ، وواصله خوفه وفارقه أمنه ، واشتغل خاطر الإسلام بسببه وساء ظنه ، وذكر فيه الواحد الأحد الذي تعالى عن الولد ، أن المسيح ابنه ، وأربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه ، وأفرد عنه التوحيد فكاد يخفى متنه .

ودرج الملوك الأقدمون على تمني استنفاذه ، فأبى الشيطان غير استيلائه واستحواذه ، وكان في الغيب الإلهي أن معاده في الآخرة إلى معاذه ، وأن نفاد ليل الشرك بإسفار صبح أمرنا وإشراق مطالع نفاذه ، ودخر الله هذه الفضيلة لنا ولهذا العصر ، وأنزل على نصلنا نص النصر ، وأطلع لليل عزمنا فجر الفخر ، ووفقنا لوصل اسباب الإسلام وقطع دابر الكفر .

وذلك أنا استفتحنا سنة ثلاث وثمانين بقمع أهل التثليث ، وأصرخنا الاسلام بالجد المنجد والعزم المغيث ، وخرجنا من دمشق في المحرم ، في العزم المصمم والرعب المجهز إلى الكفر والبأس المقدم .

وكنا اشفقنا على طريق الحج من قصد الفرنج فشغلناهم عن القصد بقصدهم ، وتصدينا لجهادهم بردهم عن المراد وصدهم ، وأقمنا بظاهر بصرى مخيمين على سمت الكرك ، وقدمنا الطلائع إلى المناهل ، ونظمنا سلك إمدادهم في ذلك المسلك حتى وصل الحاج سالماً ، وذل الكفر عن قصده راغماً .

ولما فرغ القلب من شغله ، وفاز كلٌ بجمع شمله بأهله ، سرنا إلى الكرك في الأمراء والمفردين الخواص ، وشفعنا للجهاد في سبل الله الفاتحة بالإخلاص ، وقد كنا استدعينا العساكر والجموع للجهاد من جميع الجهات ، وترقبنا توافيهم بالميقات ، وأمرنا ولدنا الملك الأفضل أن يقيم برأس الماء ، ويكون بخدمته جميع الأفراد ، وسرنا إلى الكرك والشوبك فأخربنا عماراتها وأحرقنا غلاتها وقطعنا ثمراتها وأزعجنا ساكنيها وأخفنا آمنيها ، وأجلينا عنها فلاحيها ، وأقمنا النوائح عليها في نواحيها .

ووصل الينا ، ونحن بالقريتين ، العسكر المستدعى من الديار المصرية ، فقويت به قلوب الأمة المحمدية ، واجتمع بالمخيم الأفضلي برأس الماء ، من وصل من العساكر الشامية والفراتية والجزرية والموصلية ، والديار بكرية ، فانتهز ولدنا هناك فرصة الإمكان ، وأنهض إلى الكفر سرية سرية [1] من أهل الإيمان ، فساروا سارين وأغاروا غارين وأخذوا ونهبوا وسبوا وسلبوا ، فلم يشعروا إلا وجموع الكفر قد سدت عليهم الطريق،وأخذت دون خروجهم إلى السعة المضيق ، فثبتوا ثبوت الجبال بالرياح العواصف وشرعوا إلى عرانين الكفر أسنة الرماح القواصف .

وكان مقدم عسكرنا [2]،ومعه مملوكنا[3] فلقيا بصدريهما صدور العوامل، وحملا في عسكرنا على الفارس والراجل ، وحصل الفرنج منهم في دائرة الردى ، وخذل الضلال ونصر الهدى ، وكثر من الفرنج القتلى والأسرى ، وعاد المسلمون بالمسرة العظمى والمبرة الكبرى . واتصلت بنا ونحن في

---

(١) السرية الثانية صفة للسرية الأولى والمعنى السرية الكريمة ذات المروءة والأصل .

(٢) مقدم العسكر هو مظفر الدين بن زين الدين .

(٣) المملوك هو قايماز النجمي صارم الدين .

بلاد الكرك البشرى ، وشكرنا الله على نصرته الأولى ، وقلنا هذه مقدمة الأخرى .

ولما قضينا الوطر في تلك البلاد ، ووفينا بإحراق أقوات أهل النار بالنار حق الجهاد ، اجتمعنا بأصحابنا القادمين من مصر ، وتناصرت لدينا دلائل الظهور وتظاهرت أمارات النصر ، وعدنا إلى الشام وقد تكاملت به جموع الإسلام ، وزخر بحر الفضاء بأمواج الأعلام ، وطفا على أثباج [1] لجة حباب الخيام ، وقد فض الفضاء ختام القتام ، وعلق بالفلق من ذلك الفيلق غرام الرغام ، فخيمنا بعشترا شهراً ، وقد أعدنا بشهر نيات الغمود سرها جهراً ، وخطبنا من الله الكريم فتح بكر جعلنا بذل المهج لها مهراً .

وقد سمع الفرنج بجمعنا فجمعوا ، ونادوا في بلادهم فأسمعوا ، واجتمعوا على صفورية من صفر ، وحضروا في تلك الأشهر في جمعهم في الحشر جموع سقر ، وأخرجوا صليب الصلبوت وقائد أهل الجبروت ، فتهافت إلى شعلة ناره فراشهم ، وتوافى إلى ظلة ضلاله خشاشهم ، وقاموا وقيامة رعبهم قائمة ، وسوابح جردهم في بحر العجاج عائمة ، وطلائعهم سارية وسراياهم طالعة ، ومقدمات رغبهم منا السائرة لجنوبهم وقلوبهم مقضة خالعة .

فلما تكامل منا الجمع ، وأخذ بعجاجه وعجيجه على الآفاق البصر والسمع ، وعرضنا عساكرنا في يوم يذكر بيوم العرض ، ويتلو مشاهده لنزل الملائكة : ولله جنود السموات والأرض [2] في رايات خافقة كقلوب الأعداء ، عالية كهمم الأولياء ، وسرنا في جموع ضاق بها واسعا الفضاء ، وسار في كتائبها نازل القضاء ، وسحب ذيل الأرض بثار نقعها على السماء ، وقطعنا الأردن

---

(١) أثباج جمع ثبج وهو أعلى الشيء أو معظمه أو وسطه .

(٢) سورة الفتح الآية ٧ .

وتأييد الله مواصل ، وقدره بأقدارنا على الأعداء كافل ، فما ألمنا بطبرية حتى فتحناها بالسيف ، ودخلناها دخول المغير لادخول الضيف ، وتسلمنا المدينة ونازلنا قلعتها البكر الحصينة ، وذلك يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيـع الآخر . والخميس يوم الخميس [1] . وأسد الوغى قـد اتخذت من وشيجها العريس .

هذا والملك العادل عنا غائب ، ومعه أيضاً بمصر كتائب ، وتوفيق الله له مصاحب . وكنـا عزمنا قبل قصد طبرية أن نلاقي الفرنج على صفورية في مركزهم ومجتمعهم ، ونلابسهم في مخيمهم ، فحين نزلنا من الثغر بالأقحوانة ، وتمكنا من الله بالاستنجاد والاستعانة ؛ ركبنا قبل قصد طبرية إلى الفرنج في جمعهم ، وأشرفنا عليهم في موضعهم فما برحوا من مكانهم ولاتحركو برجالهم ولافرسانهم .

وارتدنا في صحراء لوبية موضعاً للمصاف واسعاً وفضاء لمازق الجمعين جامعاً ، وبتنا هناك بأطلاب الأبطال ميمنة وميسرة ، ووجدنا بتأييد الله أسباب الظهور ميسرة ، وجئنا في خواصنا والجاندارية ، ونزلنا في العدة المجردة على طبرية ، وأخذ النقابون ساعه النزول في النقب ، فصرع قائم سورها للجنب ، ودخل الناس إليها ليلاً للنهب ، وكانت ليلة مدلهمة معتمة ، وأرجاء المدينة مظلمة ، فاشعلوا وأوقدوا ، ودخلوا الدور وتفقدوا مالم يفقدوا .

وكانت بها حواصل من زفت وكتان علقت بها النار ، فاحترقت تلك المساكن والديار ، وتحصن أهلها بقلعتها وتمنعوا بمنعتها ، فأصبحنا على حصرها وسلكنا جدد الجد في أمرها : فجاءت رسل الأمراء أن الفرنج قد تحركت ،

---

(١) الخميس الثانية تعني الجيش العرمرم الكثير العدد والعدد .

وانزعجت لكون عقيلتهم من طبرية تملكت ، وأدركهم الندم كيف تركت وما أدركت ، وأنها قد عبت جنودها ، وشبت وقودها ولبت نداء جموعها ، وصبت عليها ماء دروعها وفاضت في غدران سوابغها السابرية ، وفاضت بيجلو سوابحها الأعوجية .

وإن جمرهم قد استعر ، وان بحرهم قد زخر ، وأنهم قد أتوا في عددهم وعديدهم وحدهم وحديدهم ، وخيلهم ورجلهم ، وطلهم ووبلهم ، وفارسهم وراجلهم وأحزاب ضلالهم وأبطال باطلهم ، وأنهم حين عرفوا استيلاءنا على طبرية ، وسبقنا بفضيلة فتحها البرية غاروا على العقيلة السبية ، وأشعلت نخواتهم نار الحمية ، وساقوا [أنفسهم] إلى معترك الردى وملتقى المنية .

ولما عرفنا قربهم قصدنا حربهم ، وزحفنا إليهم وأشرفنا عليهم ، واللجب الساري كالجبل الراسي ، وقد أفاض الحديد من قلبه على الحجر القاسي ، ولمعت بوارق ببارقه وراعت طوارق طوارقه وبرقت قوانس قوامصه [1] ، وارتعدت فرائص فرائصه ، وأمكنت فرائس فرائسه ، وباح الحديد على عوابسه بوساوسه ، وماجت بحار سلاهبه ، واشتعلت نيران قواضبه ، وشدت الأجادل [2] دون صوار صوارمه ، وسدت بعرض أفواجه فجاج مخارمه ، وقرنت الألفات بلاماته ، وظهر من حشره يوم الحشر بعلاماته ، فاغتنمنا الفرصة في اللقاء ، وهجنا إلى الهيجاء . وأسرعت الأعنة وأشرعت الأسنة ، رنقع النقع أوام الجو وأجاب الصدى دوي الدو ، وجال الجاليش وطار السهم المريش ، وعصفت رياح السوابق ، واستعبرت عيون البوارق ، ولقيناهم

---

(١) القنس : أعلى الرأس ، والقومص : القرس .

(٢) الأجادل : الدروع المحكمة ، وصوار : مائلة .

في عرمرم عارم وبجرجار وعوامل جوازم، وصواهل صلادم وضراغم ضوار وجوارح جوار، وأسود قد اعتقلت أساود، وجياد قد حملت أجاود، وسوابح قد أقلت بحوراً، وصقور قد ركبت صقوراً.

وأوقفناهم نهار يوم الجمعة وساكنهم لايتحرك، وبازلهم لايبرك، وصفهم لاينفض، وجدارهم لاينقض. وبنيانهم مرصوص، وطائرهم عن الطيران مخصوص (١)، حتى دخل الليل، وقر في الوادي ذلك السيل، وبات الفريقان على تعبيتها. وإجابه داعي الموت بتلبيتها.

وأصبحنا يوم السبت، وأهل الأحد على حالهم لم يريموا موضع قتالهم، ومازالت الحملات تتناوب، والأسلات (٢) تتواثب وتتشاوب (٣)، والسواعد بقرع الظبا سواع، والرواعف في زرع الطلى رواع. والمنايا تئن، والحنايا تحن، والبيض تصافح البيض صفاحها، والذكور لنتاج الحرب العوان بالفتح البكر عند اللقاء لقاحها. والذوابل في أشاجع الشجعان ذواب، والصوارم بجوامح النيران شواب، وضمائر الغمود قد باحت بأسرارها، ونواظر الجفون قد تخلت عن غرارها (٤).

ولما أحسوا بأسنا ومرار أمراسنا، والهجير يتلظى وقد وقد عليهم بناره، والأوام يتوقد ولايتوقى إحراقهم بأواره، مالوا إلى طلب الماء، وأخذوا طريق البحيرة للارتواء، فأخذنا قدامهم ووقفنا أمامهم، وجلأناهم عن الورد، وألجأناهم إلى الردى بالرد، فاعتصموا بتل حطين وصرنا بهم محيطين، وتحكمت فيهم قواضي القواضب، ونشبت من النشاب بهم نيوب

---

(١) مخصوص: ضعيف ريش الجناح.
(٢) الأسلات: الرماح.
(٣) تتشاوب: تتعاود.
(٤) الغرار: القليل من النوم.

النوائب ، وكان جمعهم جمراً وقد وقد ، فصب عليهم السيف نهراً فخمد ، وفضوا بالفضاء وفرشوا بالعراء ، وعب ذأماء الدماء ، وعجت الفجاج بالقتلى والأسراء .

وأسر الملك وأخوه ، والأبرنس الكركي ومؤازروه ، ووجوه الكفر ومقدموه ، ومقدم الداوية وأعوانه ، وصاحب جبيل وأعيانه ، وهنفرى بن هنفرى وابن صاحب اسكندرونة وصاحب مرقية . ولم يفلت إلا ابن بازان والقومص،وتم لهما من الورطة الخلاص ، وكان كلاهما ملهماً عند اللقاء بالقتال ، وعند الفرار بالاحتيال ، فأما القومص فإنه لما مر بطرابلس أدركه الموت في برجه المشيّد ، ونقله القدر المبيد إلى عذابه المؤبد . وذل ذلك اليوم أهل الجبروت ، وحيز صليب الصلبوت ، وبار وباد أولياء الطاغوت ، وهلك عبدة الناسوت واللاهوت ، وملك عليهم القدر كتاب الأجل الموقوت .

وقدمنا الأبرنس وضربنا رقبته وفاء بالنذر ، وعجلنا به إلى النار مأوى أهل الغدر ، وألحقنا به الداوية والاستبارية ، وأدرنا عليهم صبراً كؤوس المنية ، وروينا ظماء الظبى من نجيعهم ، وقرينا سيد الفلا من صريعهم ، وعدنا إلى طبرية فتسلمنا قلعتها وحللنا عقدتها ، وفرعنا ذروتها وافترعنا عذرتها .

ثم سرنا إلى عكا ففتحناها بالأمان ، وأعلنا بها شعار الإيمان ، واستقرينا بعدها البلاد الساحلية من جبيل وحد طرابلس إلى الداروم ، غير صور ، فإنها امتنعت بسورها ، ولم يبق في كأس الكفر غير سؤرها ، ولأنها وجدت فسحة في أيام اشتغالنا بفتح أخواتها ، وكثفت من عدد المحاصرة آلاتها . وكنا لما فتحنا عسقلان بدأنا بالنزول على

القدس ، وذلك يوم الجمعة ثالث عشر رجب ، فرجف بها قلب الكفر ووجب ، وظن أهلها أنهم يعتصمون ، وأنهم من بأسنا يسلمون .

فنصبنا عليهم منجنيقات هدت أحجار السور أحجارها ، وآذن ركوعها بسجود الأبراج في إجبارها ، ووفت الصخور بإصراخ الصخرة وعثرت تلك القلل بإقالة مادام بها من العثرة ، وكشف النقب ونقب الأسوار ، ورمت الجنادل جوانب ذلك الجدار ، وعلم الكفار لمن عقبى الدار ، وأيقنوا بالقتل والإسار .

فخرج مقدموهم متذللين بالإذعان ، مبتهلين في طلب الأمان ، فأبينا كل الإباء ، وإلا سفك الدماء من الرجال وسبي الذراري والنساء فخوفوا بقتل الأسراء وإخراب العمران وهدم البناء ، فأمناهم على قطيعة موازية لأثمانهم لو أسروا أو سبوا ، فأمنوا أن يسلبوا وهم في الحقيقة قد سلبوا ، ومن وفى منهم بالقطيعة خرج بحكم العتق ، ومن عجز عن أدائه دخل تحت الرق .

وعاد الإسلام بإسلام البيت المقدس إلى تقديسه ، ورجع بنيانه التقوى إلى تأسيسه ، وزال ناموس ناقوسه ، وبطل بنص النصر قياس قسيسه ، وفتح باب الرحمة لأهلها ، ودخلت قبة الصخرة لفضلها ، وباشرت الجباه بها مواضع سجودها ، وصافحت أيدي الأولياء آثار القدم النبوية لتجديد عهودها ، وشوهد مقام المعراج وموطىء براقه ، ورئي نور الإسراء ومطلع إشراقه .

ودنا المسجد الأقصى للراكع والساجد ، وامتلأ ذلك الفضاء بالأتقياء الأماجد ، وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس ، وجليت هدى الهدى من الصخرة المقدسة جلوة العروس ، وزارها شهر رمضان مضيفاً لها نهار صومها بالتسبيح وليل فطرها بالتراويح ،

وشفى الله بسقيا هذا الفتح ماكان دهم القلوب لأجلها من تيار التباريح .

فالبيت الحرام مساوٍ للبيت المقدس ، مفدى منا كلاهما من المهج والأنفس بالأنفس ، وإنه المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال الرجال ويضيق عن وصف شرفها في حلبة البيان المجال ، وهو للحرمين ثالث ولاتثليث في حرم توحيده ، فتجدد جد الإسلام بتجديده .

ولما فرغ البال من تدبيره ، وقضينا حق تقديسه وتطهيره ، صرنا إلى صور ، ونازلناها بعسكرنا المنصور ، وفي صور سور الكفر وبقيته ، وقد تحصن بسورها ومنعته شرذمته ، وهي مدينة حصينة متوسطة في البحر كأنها سفينة نصبنا عليها المنجنيقات فنكأت فيها ، وردت من أعاليها وهدمت من مبانيها ، ولم يبق في جبهة الكفر سوى نشابها ، وإن جمحت علينا فنصرة الله وعوائد تأييده لنا تؤذن باصحابها ، وإذا تسلمناها تسلمنا - بإذن الله - كل بلد للفرنج باق ، ومالهم من عذاب الله الواقع بهم واقٍ .

ثم رأينا أن حصار صور يطول ، وأن مسألة بيكار[1] العسكر فيها تعول ، وأن فتحها لايفوت ، وله وقته الموعود ووعده الموقوت . وكان العسكر قد ضجر ومل وأعيا وكل ، وقد دخل الشتاء وبرد الهواء ، وجادت السماء ، وتواترت الأنواء ، وتواصلت الأنداء ، ولابد من استئناف جمع العساكر في أيام الربيع ، واستمداد النصر الذي يضم لاستجداد الفتح شمل الجميع .

ورحلنا عنها بعد أن رتبنا حولها في الثغور المجاورة لها ، من يديم شن الغارات عليها ، ويواظب على النهوض إليها ، وفسحنا لأجنادنا

---

(١) البيكار : كلمة فارسية معناها العام الحرب .

في الاستراحة مدة شهرين إلى النيروز ، فإن في تلك الأيام تتوفـر العـزائم على المبارزة والبروز ، وقد جرت المواعدة على المعاودة ، والمعاقدة للمعاضدة ، والمعاهدة للمساعدة . فليس في الفرنج من يقاتل الآن على الخيل ، والنهار عليهم في إظلام الليل ، والعز متقلص الظـل عنهم ، والذل ضافي الذيل ، وقد حزب حزبهم من حربنا مثـير للحرب والويل . وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة والمعاقل المبينـة وهي : طبرية ، عكا ، الزيب ، معليا ، اسكندرونة ، تبنـين ، هونين ، الناصرة ، الطور ، صفورية ، الفولة ، جينين ، زرعـين ، دبورية ، عفربلا ، بيسان ، سمسطية ، نابلس ، اللجون ، ريحـا ، سنجيل ، البيرة ، يافا ، أرسوف ، قيسارية ، حيفا ، صرفنـد ، صيداء ، قلعة أبي الحسن ، جبل جليل ، بيروت ، جبيل ، مجدل يابا ، مجدل حباب ، الداروم ، غزة ، عسقلان ، تل الصافية ، التل الأحمر ، الأطرون ، بيت جبريل ، جبل الخليل ، بيت لحم ، لد ، الرمـلة ، قرتيا ، القدس ، صوبا ، هرمس ، السلع ، عفرا ، الشقيـف ، ولم نذكر ماتخللها من القرى والضياع والأبراج الحصينـة الجاريـة مجـرى الحصون والقلاع .

ولكل واحدة من البلاد التي ذكرناها أعمال وقرى ومزارع وأماكن ومواضع ، وقد جاس المسلمون خلالها ، واسترعوا ثمارها وغلالهـا . وقد كنا عند قصدنا البلاد ، وعرضنا للجهاد الأجنـاد ، كاتبنا أخانا الملك العادل سيف الدين أن يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب ، وينتظر كتابنا بنصر هذه الكتائب ، فلما بشر بسكر الفرنج وفتـح طبرية وعكا ، والظفر الذي أضحك الأولياء وأزعج الأعداء وأبكى ،

وتلي عليه ، قد أفلح المؤمنون [1] و : قد أفلح من تزكى [2] ، كان وصل إلى السوادة في سواده وبياضه وبحار جيشه وبراضه [3] ، وورد من مورد النصر إلى حياضه ، فجاش بجيوشه ، وحاز العريش بعريشه، وزار دار الداروم بدورها ، وأجفلت قدامه البلاد في كل من اعتمد عليه بأمورها .

ووصل إلى يافا ففتحها عنوة ، ونال العسكر فيها بالنهب والسباء حظوة ، ثم حضر بجدل يابا وحصرها ، وطلبت منه الأمان فأنظرها ، وكتبنا إليه بالإقامة في ذلك الجانب ، ماضي العزائم قاضي القواضب ، وأن يستفتح من البلاد ما يتعجل فتحه ، ويقدم من الرجاء ما يتيسر نجحه ، إلى أن نفتح ما في جانبنا من البلاد ونتسلمه ، وننتهز فرصة الإمكان فيما نحن بصدده ونغتنمه .

وقد كنا أنهضتنا إلى كل بلد من الناصرة وصفورية وحيفا وقيسارية من يتولى افتتاحه ، ويستقبل من مهب النصر أرواحه ، فنصرهم الله على الناصرة وقيسارية قسراً ، وتسلمت البواقي سلماً ، ورأى من كان فيها سلامته غنماً ، ورضي بالغرم رغماً ، وتسلمنا نحن تبنين وبيروت بالأمان بعد أن قاتلنا أهلها قتالاً شديداً ألجأهم إلى الإذعان . فأما صيداء فإن صاحبها أذعن إلى التسليم بعد أن بات منا بليلة السليم . وأما جبيل فقد سلمها صاحبها وخلص من الأسر ، ورأى ربح خلاصه فيما تعجله من الخسر .

وحينئذٍ سرنا واجتمعنا بالملك العادل في عسقلان ، وهان لنا كل

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١ .

(٢) سورة الأعلى الآية ١٤ .

(٣) البراض جمع برض : وهو القليل والمعنى أنه وصل بكثير جيشه وقليله .

ما استصعب ودان ، وظهر لنا منها وجه الفتح وبان ، وأمكـن كل ماتعذر واشتد ولان ، وزاحمنا مناكب أبراجها من المنجنيقات بمناكب ، وأصبنا فوائدها لما رميناها بمصائب ، وأصمينا مقـاتل الأسوار بسهام قسيها ، وعاقبناها بحبالها وعصيها ، واقتدنا بخزائم الكره أنف الطاعة من عصيها ، وصافحنا ببيض الصفائح يد الرضى من أبيها ، وباشرت سهام المجانيق بسواكها ثنايا الشرفات فهتمتها ، ونهضت أحجار الرماة إلى أحجار البناء فهدتها وهدمتها ، وغنى فيها معول النقاب فرقصت للاضطراب لا للإطراب ، وعادت الحجارة إلى أصلها من التراب .

ولما أيقن أهلها بالعطب ، لاذوا بالضراعة والطلب ، وخرجوا مسلمين مستسلمين ، وانقادوا مستكينين مذعنين ، وأسلم البلد وأسلم ، وجدع أنف الكفر وأرغم ، وعاد منه الإيمان الغريب إلى وطنه ، وقـر منه الإسلام القريب في مسكنه ، وعند ذلك تسلمنا غزة وأعدنا إليها العزة .

وأتينا على الرملة ولد والنطرون ، وفتحنا بيت جبريل وجبل الخليل وجميع تلك المعاقل والحصون .

ثم ختمنا فتوحات تلك السنة بفتح الأرض المقدسة ، والحمد لله على نعمه المفرجة للكروب وألطافه المنفسة . وقد جعلنا هذه البشارة القدسية بما هنأه الله من الموهبة السنية وسناه من المنحة الهنية لمملوكنا حسام الدين سنقر الخلاطي ، وأمرناه أن يسير فيهـا من أصحابه من يقوم فيها بحق منابه .والمجلس السامي يشيع ميامنها ببلاد اليمن ، ويجلو عروسها البكر في حسنها الحالي وحليها الحسن ، ويشكر نعمة الله التي خصنا بها وعمت الأمـة ، ويديم شكرها ، فـإن دوام الشكر يديم النعمة . لازال المجلس

السامي مشكور الشئمة عالي الهمة منصور العزم إن شاء الله [١] .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني ١٩٠ - ٢٠٢

٥٣ - أول خطبة ألقيت في المسجد الأقصى بعد تحريره

لما دخلت الجمعة الأولى بعد استرجاع القدس ، أصدر السلطان صلاح الدين مرسوماً يقضي بتكليف القاضي أبي المعالي محمد بن علي بن زكي الدين الدمشقي أن يلقي الخطبة ، فألقى الخطبة التالية بحضور السلطان [٢] .

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين [٣] . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين [٤] . الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون [٥] . وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا [٦] . الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً [٧] . قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون [٨] . الحمد لله الذي له مافي السماوات ومافي الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير [٩] .

---

(١) أورد ابن واصل في مفرج الكروب ج ٢ - ٢٤١ مقتطفات موجزة كل الايجاز لهذه الرسالة .

(٢) لم يذكر ابن خلكان سوى مطالع الآيات فأتممناها نحن وذكر أن قصد الخطيب أن يأتي بجميع تحميدات القرآن الكريم .

(٣) سورة فاتحة الكتاب .

(٤) سورة الأنعام الآية ٤٥ .

(٥) سورة الأنعام الآية ١ .

(٦) سورة الإسراء الآية ١١١ .

(٧) سورة الكهف الآية ١ .

(٨) سورة النمل الآية ٥٩ .

(٩) سورة سبأ الآية ١ .

الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق مايشاء إن الله على كل شيء قدير [1] .

ثم شرع في الخطابة فقال :

الحمد لله معز الإسلام بنصره ، مذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذي قدر الأيام دولاً بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فما يدافع ، أحمده على إظفاره وإظهاره ، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد [2] . شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشك ومدحض الشرك وداحض الإفك ، الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السماوات العلا إلى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى مازاغ البصر وما طغى [3] . صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق إلى الايمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان .

---

(١) سورة فاطر الآية ١ .

(٢) سورة الإخلاص الآية ٣-٤ .

(٣) سورة النجم الآية ١٧ .

أيها الناس: أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة، وردها إلى مقرها من الإسلام، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيها اسمه.

وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه، واستقر فيها رسمه ورفع قواعده بالتوحيد. فانه بني عليه، وشيد بنيانه بالتمجيد، فانه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه. فهو موطن أبيكم إبراهيم ومعرج نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء ومدفن الرسل ومهبط الوحي ومنزل به ينزل الأمر والنهي، وهو في ارض الحشر وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي كتبها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذي أكرمه برسالته، وشرفه بنبوته، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته. فقال تعالى: لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون [١]. كذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيداً. ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض. سبحان الله عما يصفون [٢]. لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم [٣]. وقال المسيح يابني

---

(١) سورة النساء الآية ١٧٢.

(٢) سورة المؤمنون الآية ٩١.

(٣) يذكر راوي الخطبة ابن خلكان عند وصوله هنا أن الخطيب تابع ذكر الآيات المتعلقة بالمسيح من سورة المائدة حتى آخر تلك الآيات دون ذكرها فأكملناها نحن.

اسرائيل اعبدو الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ، لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم [١] . ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون [٢] .

وهو أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين لاتشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولاتعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، فلولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لايجاريكم فيها مجارٍ ولايباريكم في شرفها مبارٍ ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم من المعجزات النبوية ، والواقعات البدرية ، والعزمات الصديقية والفتوحات العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ؛ جددتم للإسلام أيام القادسية ، والملاحم اليرموكية والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية ، فجزاكم الله عن نبيه محمد ﷺ أفضل الجزاء وشكر لكم مابذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من إهراق الدماء ، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء ، فاقدروا ، رحمكم الله ، هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله تعالى بواجب شكرها ، فلله المنة عليكم لتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة . فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء ، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرّ به عيناً الأنبياء والمرسلون ، فماذا

---

(١) سورة المائدة الآيتان ٧٢ و ٧٣ .

(٢) سورة المائدة الآية ٧٥ .

عليكم من النعمة أن جعلكم الجيش الذي يفتح على يديه بيت المقدس في آخر الزمان ، والجند الذي يقدم لسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان،فيوشك أن يفتح الله على أيديكم أمثاله وأن يكون التهاني لأهل الخضراء أكثر من التهاني لأهل الغبراء. أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه ونص عليه في محكم خطابه ، فقال تعالى : سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى [1] . أليس هو البيت الذي عظمته الملل ، وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الله عز وجل ، أليس هو البيت الذي أمسك الله تعالى لأجله الشمس على يوشع أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب؟ أليس هو البيت الذي أمر الله عز وجل موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان ؟ وغضب الله عليهم لأجله فألقاهم في التيه عقوبة للعصيان . فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل وقد فضلت على العالمين ، ووفقكم لما خذل فيه أمم كانت قبلكم من الأمم الماضين ، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى . فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم جنده ، وشكر لكم الملائكة المنزلون على ما أهديتم لهذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتمجيد ، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث والاعتقاد الفاجر الخبيث ، فالآن يستغفر لكم أملاك السماوات وتصلي عليكم الصلوات المباركات . فاحفظوا ، رحمكم الله ، هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم ،

---

(1) سورة الاسراء الآية ١ .

ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ومواقعة الردى ورجوع القهقرى ، والنكول عن العدا ، وخذوا في انتهاز الفرصة وإزالة ما بقي من الغصة ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، وبيعوا ، عباد الله أنفسكم في رضاه إذ جعلكم من خير عباده ، وإياكم أن يستزلكم الشيطان وأن يتداخلكم الطغيان فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد وخيولكم الجياد ، وبجلادكم في موطن الجلاد ، لا والله ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . فاحذروا عباد الله ـ بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل والمنح الجزيل وخصكم بنصره المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ـ أن تقترفوا كثيراً من مناهيه ، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه فتكونوا كالتي نقضت غزلها بعد قوة أنكاثاً ، وكالذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . والجهادَ الجهادَ فهو من أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم ، وانصروا الله ينصركم واحفظوا الله يحفظكم ، اذكروا الله يذكركم ، اشكروا الله يزدكم ويشكركم ، جدوا في حسم الداء وقلع شأفة الأعداء ، وطهروا هذه الأرض من هذه الأنجاس التي أغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله ، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية والملة المحمدية . الله أكبر ، فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، وأذل الله من كفر . واعلموا ، رحمكم الله ، أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ، وغنيمة فحوزوها ، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها ، وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها ، فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بذخائرها ؛ فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول ، وهم مثلكم أو يزيدون ، فكيف وقد أضحى قبالة الواحد منهم منكم عشرون ؟ وقد قال الله تعالى : إن يكن

منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون (١) .

أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجره ، وأيدنا معاشر المسلمين ، بنصر من عنده : إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده (٢) . إن أشرف مقال يقال في مقام ، وأنفذ سهام تمرق عن قسي الكلام ، وأمضى قول تحل به الأفهام قول الواحد الفرد العزيز العلام . قال الله تعالى : وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون (٣) . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم . سبح لله مافي السماوات ومافي الأرض وهو العزيز الحكيم . هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار (٤) .

ثم قال :

آمركم وإياي بما أمر الله به من حسن الطاعة فأطيعوه ، وأنهاكم وإياي عما نهاكم عنه من قبح المعصية فلا تعصوه . وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولجميع المسلمين فاستغفروه .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٥ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٦٠ .

(٣) ورة الأعراف الآية ٢٠٤ .

(٤) سورة الحشر الآيتان ١ و ٢ . لم يذكر راوي الخطبة نص الآيتين وإنما ذكر أن الخطيب تلا أول الحشر فأثبتناها نحن هنا .

ثم خطب الخطبة الثانية على عادة الخطباء بختصرة ، ثم دعا للإمام الناصر خليفة العصر ، ثم قال :

اللهم وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك الشاكر لنعمتك المعترف بوهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والمحامي عن دينك المدافع ، والذاب عن حرمك المانع ، السيد الأجل الملك الناصر جامع كلمة الإيمان وقامع عبدة الصلبان صلاح الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس أبي المظفر يوسف بن أيوب ، محيي دولة أمير المؤمنين . اللهم عم بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك براياته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه ، وانشر في المشارق والمغارب دعوته . اللهم كما فتحت على يديه البيت المقدس بعد أن ظنت الظنون وابتلي المؤمنون ، فافتح على يديه داني الأرض وقاصيها ، وملكه صياصي الكفر ونواصيها ، فلاتلقاه منهم كتيبة إلا فرقها ، ولاجماعة إلا فرقها ، ولاطائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها . اللهم اشكر عن محمد ﷺ سعيه ، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه اللهم واصلح به أوساط البلاد وأطرافها ، وأرجاء المملكة واكنافها . اللهم ذلل به معاطس الكفار ، وأرغم به انوف الفجار ، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار ، واثبت سرايا جنوده في سبل الأقطار . اللهم أثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين ، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم . اللهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي تبقى على الأيام ، وتتخلد على مر الشهور والأعوام فارزقه الملك الأبدي الذي لاينفد في دار المتقين ، وأجب دعاءه في قوله : رب أوزعني أن

أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين[1].

ثم دعا بما جرت به العادة [2] .

وتوفي القاضي سنة ٥٨٩ هـ .

وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٣ ٢٦٥ - ٣٧١

٥٤ - فصل من رسالة أرسلها صلاح الدين إلى أخيه سيف الدين طغتكين ملك اليمن يبشره بفتح اللاذقية .

وهذه اللاذقية مدينة واسعة وخطة جامعة ، معاقلهـــا لا ترام ، وأعلاقها لا تستام ، وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنها ، وأزيدها أعمالاً وضياعاً وأزينها ، وما في البحر مثل مبناها ، وللمراكب الواردة إليها مثل مرساها ، وهي جنة كان يسكنها أهل الجحيم ، وطالما مكثت بالكفر دار بؤس فعادت بالإسلام دار نعيم .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ - ٢٦٠

٥٥ - رسالة القاضي الفاضل إلى صلاح الدين يهنئه بفتحه حصن برزيه سنة ٥٨٣ هـ وكان يحمي أفامية .

وصلت كتب البشارة بفتح حصن برزية ، وهو الذي تضرب بـه الأمثال ، وتعزب عنه الآمال ، ويكاد يحزن إذا قادت أيدي السلاسل أزمة الجبال ، ويكاد يذم ساكنيه من خطرات الأوجال بل من خطوات

---

(١) سورة النمل الآية ١٩ .

(٢) ذكر كل من اليافعي في « مرآة الجنـان » ج ٣ ، ٣٧٥-٣٧٧ وابن واصل في « مفرج الكروب » ج ٢ ، ٢١٩-٢٢٧ وأبي شامة في « كتاب الروضتين » ج ٢ ، ١١٠ - ١١٢ نصوصاً تتقارب مع نصنا أعلاه وإن كان نصنا أكمل وأوضح .

الآجال ، وكان للكفر درعاً حصينة طالما كانت تهزأ بالنصال ، فعظمت المنة السلطانية عند أهل الإسلام ، ودعوا بأن يفلج الله حجة سيفه ألد الخصام . وقد كان الناس يعدون مواهبته مما لايحصى ، فقد تحققت بها فتوحاته فهي أيضاً لاتحصر ، فرحبا بفتوح يقول غائبها الحمد لله ، وحاضرها الله أكبر . ومابقي الملوك يستبطيء خبر أنطاكية فقد ألقت الأرض أفلاذها ، وقد ولدت لكرمه ذهبها ، ولنصره فولاذها ، ولم تر في نعم الله مثلها نعمة كريمة وجيهة ، ولانعرف بعدها للزمن سيئة ولاكريهة . إلا أنا نرجع في معرفة قدرها وإخلاص شكرها إلى مارضيه الله شكراً ممن نجاه من أهوال يوم القيامة ، وأدخله دار المقامة بأنهم قالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن [1] . الحمد لله الذي صدقنا وعده [2] . الحمد لله الذي هدانا لهذا [3] ، وكان آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين [4] فرضي بالحمد منهم ورضي عنهم وأثنى عليهم بأنهم اختتموا به وافتتحوا ، وقدسوا به وسبحوا ، وثقلت به موازين أعمالهم فرجحوا ونجحوا . ونحن نقول : الحمد لله على بهجة الدنيا بمولانا ونضرتها ، وعلى عزة الملة به ونصرتها ، وعلى بهجة القلوب به ومسرتها ، وعلى غنى الأيدي به وميرتها ، وعلى روعة قلوب الأعداء وحسرتها ، وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها . وفتوح مولانا من تلك النعم وإن قصرنا في شكرها فما نقصر في ذكرها ، وإن عجزنا عن حصرها فمانعجز عن المعرفة بفضل قدرها ، وتلك

---

(١) سورة فاطر الآية ٣٤ .

(٢) سورة الزمر الآية ٧٤ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٤٣

(٤) سورة يونس الآية ١٠ .

النعم ، بحمد الله منتظمة العقود ومطردة السعود متوافية الرسل عامرة السبل ، خارقة العوائد ، قارنة المساعي بالمساعد ، كادت العيون قبل وقوعها تلحظها ، وكادت المنابر لما يدرس عليها من كتبها تحفظها فما يشرح صدر من خبرها فيسمعه ذو صدر إلا انشرح ، ومـا يسأل الناس هل فتح الملك الناصر ؟ وإنما يقال ما اسم البلد الذي فتح . فمن عند مولانا الجنان ومن عندنا اللسان ، وعليه الجهد وعلينا الحمد ، فهي فتوح كثمرات الجنة لامقطوعة ولاممنوعة ، وأعمالها المبرورة إلى الله مرفوعة .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ٢ ١٣١ - ١٣٢

٥٦ - بشارة أرسلها صلاح الدين إلى بعض الأمراء بفتح حصن برزية من إنشاء العماد الأصفهاني .

إن هذه البشرى ، بما أجده الله من الفتح العزيز والنصر الوجيز ، بفتح حصن برزية الذي برزت له الأرض في قشب أثوابها ، وتفتحت له السماء لتتنزل الملائكة من أبوابها ، بل سفرت بـه عرائس الأيام في في حل أيامنها ، وأشرقت منه أقمار الليالي في أنوار محاسنها . وهذا الحصن لايمكن وصف ما هو عليه من الحصانة ، وكان حجره في حجر حضن للحضانة ، وقد عرف ما فتحناه من البلاد والحصون ، وسلبنا أهل الكفر بها من السلامة والسكون ، وفتحنا كل مرتج لم يكن فتحه مرتجى ، ولم يجد من حصل في أسر الدهر به مخرجاً ، حتى أتت أيامنا ، ودانى فيه مرامنا فجاءه عصرنا وفجأه أمرنا ، ووصل إلينا ماهو في الأزل ذخرنا ، وكمل بهذه الفتوحات فخرنا .

وذلك أننا فتحنا من حدود طرابلس إلى حد أنطاكية ، وسقينا

بماء الحديد الجاري في أنهار دم أهل النار مغارس الهدى الزاكية ، وجلونا بها ثغور الثغور الضاحكة وعيون العدو الباكية . وهذه الحصون التي فتحناها والمعاقل التي استبحناها ، لو وكلنا الله إلى اجتهادنا في فتح أحدها لتعذر ، ولو أنجدت عساكر الدنيا بمددها ، ولكن الله سهل ويسر وفتح ونصر وأنزل الظفر . وإن حصن برزية لم يكن عليه قتال ولا الوهم فيه مجال ، ولامنصب عليه لمنجنيق ، ولامسلك إليه لسالك طريق .

وحضرنا لحصره ، متوكلين على الله في أمره ، غير طامعين في فتحه ولاراجين لنجحه ، فانقاد جماحه ، وانخفض جناحه وساء صباحه وكلّ سلاحه ؛ وتوقّل [1] الرجال في ذروته توقل النجوم في الأفلاك ، ونصر الله أهل التوحيد على أهل الإشراك ، وفتحناه بالسيف عنوة ، ودجا يوم المثلث عليه يوم الثلاثاء ضحوة . فإنا لما توكلنا على الله في منازلته واستعنّا به في مقاتلته ، ونظر الله إلى النيات وأعان ذوي العزائم والثبات ، فتعلقوا في الجبل وتسلقوا إلى القلل ، وسعوا إلى الأجل في طلب تسني الأمل ، فكان كما قال الله تعالى : وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر [2] ؛ حق منّ الله بالظفر ، وأصفى الورد والصدر من الكدر .

وقد بقيت أنطاكية ، ومالها بقاء ، ولالها في الاعتصام رجاء ، وقد نقضنا أطرافها واستبحنا أكنافها ، وشفهنا نطافها ، وعضدنا من رؤوس أهلها بحدود الصوارم قطافها ، ولم يبق من معاقلها إلا القصير ودربساك وبغراس ، وقد تقدم إليها الفاتحان الرعب واليأس .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني ٢٥٢ - ٢٥٣

---

(١) توقل في الجبل : صعد فيه.

(٢) سورة القمر الآية ٥٠ .

٥٧ ـ رسالة صلاح الدين إلى الخليفة العباسي يبشره بفتح حصون الكرك وشوبك وصفد وكوكب من إنشاء العماد الاصفهاني :

... وقد خلص لنا جميع مملكة القدس وحدها في سمت مصر من العريش ، وعلى صوب الحجاز من الكرك والشوبك ، ويشتمل على البلاد الساحلية إلى منتهى أعمال بيروت ، ولم يبق من هذه المملكة إلا صور ، وفتح أيضاً جميع أعمال أنطاكية ومعاقلها التي للفرنج والأرمن ، وحده من أقصى أعمال جبلة واللاذقية إلى بلد ابن لاون ، وبقيت أنطاكية بمفردها ، والقصير من حصونها ، ولم يبق من البلاد التي لم تفتح أعمالها ولم تجل عما كانت عليه سوى طرابلس ، فإنها لم يفتح فيها إلا مدينة جبيل ، فقد سحبت عليها المهلة الذيل ، ومعاقلها باقية وليس لها من عذاب الله واقية .

والخادم الآن على التوجه إليها وعزم النزول عليها ، وإنه قد رتب الجانب القبلي والبلد المقدس ، وشحن الثغور من حد جبيل إلى عسقلان بالرجال والآلات والعُدد والعَدد المتواصل المدد ، ورتب فيها ولده الأفضل علياً لحمايتها وحفظ ولايتها ، وقلد ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أقاليمها لتهذيب أحوالها وتقويمها .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ ٢٧٥ ـ ٢٧٦

٥٨ ـ رسالة صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام ملك اليمن يبشره بفتح كوكب وصفد والكرك سنة ٥٨٤ هـ ويستمده المساعدة ضد الصليبيين الذين تجمعوا حول عكا ، والرسالة من إنشاء القاضي الفاضل

أصدرنا هذه المكاتبة إلى المجلس ، ومما تجدد بحضرتنا فتوح كوكب ، وهي كرسي الاستبارية ودار كفرهم ومستقر صاحب أمرهم وموضع سلاحهم

ما ذخرهم ، وكان بمجمع الطرق قاعداً ، ولملتقى السبل راصداً ، فتملقت بفتحه بلاد الفتح واستوطنت ، وسلكت الطرق فيها وأمنت ، وعمرت بلادها وسكنت ، ولم يبق في هذا الجانب إلا صور ، ولولا أن البحر ينجدها والمراكب تردها لكان قيادها قد أمكن وجماحها قد أذعن ، وماهم بحمد الله في حصن يحميهم ، بل في سجن يحويهم ، بل هم أسارى وإن كانوا طلقاء ، وأموات وإن كانوا أحياء .

قال الله عز وجل : فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً [1] . ولكل امرىء أجل لابد أن يصدقه غائبه ، وأمل لابد أن يكذبه خائبه . وكان نزولنا على كوكب بعد أن فتحت صفد بلد الداوية ومعقلهم ومشتغلهم ومحلهم ، ومحلهم الأحصن ومنزلهم ، وبعد أن فتحنا الكرك وحصونه . والمجلس السيفي — أسماه الله — أعلم بما كان على الإسلام من مؤونته المثقلة ، وقضيته المشكلة وعلته المعضلة ، وأن الفرنج — لعنهم الله — كانوا يقعدون منه مقاعد للسمع ، ويتبوؤون منه مواضع للنفع ، ويحولون بين قات وراكبها ، فيذللون الأرض بما كان ثقلاً على مناكبها ، والآن ما أمن بلاد الحرمين بأشد من أمن بلاد الحرمين ، فكلها كان مشتركاً في نصرة المسلمين بهذه القلعة التي كانت ترامى ولاترام ، وتسامى ولاتسام ، وطالما استفرغنا عليها بيوت الأموال ، وأنفقنا فيها أعمار الرجال ، وقرعنا الحديد بالحديد إلى أن ضجت النصال من النصال . والله المشكور على ما انطوى من كلمة الكفر وانتشر من كلمة الإسلام ، وإن بلاد الشام اليوم لا تسمع فيها لغواً ولاتأثيماً ، إلا قيلاً سلاماً سلاماً . وكان نزولنا على كوكب والشتاء في كوكبه ، وقد طلع بيمن الأنواء في موكبه ، والثلوج

---

(1) سورة مريم الآية ٨٤ .

تنشر على البلاد ملاءها الفضيض وتكسو الجبال عمائمها البيض ، والأودية قد عجت بمائها وفاضت عند امتلائها ، وشمخت أنوفها سيولاً ، فخرقت الأرض وبلغت الجبال طولاً ، والأوحال قد اعتقلت الطرقات ، ومشى المطلقُ فيها مشية الأسير في الحلقات ، فتجشمنا العناء نحن ورجـال العساكر ، وكاثرنا العدو والزمان ، وقد يحرز الحظ المكاثرُ . وعـلم الله النية فأنجدنا بفضلها ، وضمير الأمانة فأعان على حملها ، ونزلنـا من رؤوس الجبال بمنازل كان الاستقرار عليها أصعب من ثقلها ، والوقوف بساحتها أهون من ثقلها : وأما بنعمة ربك فحدث .

والحمد لله الذي ألهمنا بنعمته الحديث ، ونصـــر بسيف الإسلام الذي هو سيفه ، وسيف الإسلام الذي هو أخونا ، الطيـــب على الخبيث ، فمدح السيف ينقسم على حديه ، ومدح الكريم يتعـدى إلى يديه . والآن فالمجلس ــ أسماه الله ــ يعلم أن الفرنج لا يسلون عمـــا فتحنا ، ولايصبرون على ما جرحنـــا ، فإنهم ــ خذلهم الله ــ أمم لاتحصى ، وجيوش لاتستقصى ، ووراءهم من ملوك البحر من يأخـذ كل سفينة غصباً ، ويطمع في كل مدينة كسباً ، ويد الله فوق أيديهم والله محيط بأقربيهم وأبعديهم ، وسيجعل الله بعد عسر يسراً ، لاتدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

وماهم إلا كلابٌ قد تعاوت ، وشياطين قد تغاوت ، وإن لم يقذفوا من كل جانب دحوراً ويتبعوا بكل شهاب ثاقب مدحوراً ، استأسدوا واستكلبوا ، وتألبوا وجَلَّبُوا وأجلبوا ، وحاربوا وحـزَّبوا ، وكانوا لباطلهم الداحض أنصر منا لحقنا الناهض ، وفي ضلالهم الفاضح أبصر منا لهدانا الواضح ، ولله در جرير حيث يقول :

إن الكريمة ينصر الكرمَ ابنُها   وابن اللئيمـة للئام نصـــور

فالبدار إلى النجدة البدار ، والمسارعة إلى الجنة فإنها لاتنال إلا بإيقاد نار الحرب على أهل النار . الهمة الهمة ! فإن البحار لاتلقى إلا بالبحار ، والملوك الكبار لايقف في وجوهها إلا الملوك الكبار .

وما هي إلا نهضة تورث العلا   ليومك ما حنت روازم نيب

ونحن في هذه السنة - إن شاء الله تعالى - ننزل على أنطاكية ، وينزل ولدنا الملك المظفر - أظفره الله - على طرابلس ، ويستقر الركاب العادلي - أعلاه الله بمصر ، فإنها مذكورة عند العدو - خذله الله - بأنها تطرق ، وأن الطلب على الشام ومصر تفرق ، ولاغنى عن أن يكون المجلس السيفي - أسماه الله - بحراً في بلاد الساحل يزخر سلاحاً ، ويجرد سيفاً يكون على مافتحناه قفلاً ولما لم يفتح بعد مفتاحاً فإنه ليس لأحد ما للأخ من سمعة لها في كل مسمع سمعة ، وفي كل روع روعة ، وفي كل محضر محضر ، وفي كل مسجد منبر ، وفي كل مشهد مخبر ، فما يدعى العظيم إلا للعظيم ، ولايرجى لموقف الصبر الكريم إلا الكريم . هذا والأقدار ماضية وبمشيئة الله جارية ، فإن يشأ الله ينصر على العدو المضعّف بالعدد الأضعف ، ويوصل إلى الجوهر الأعلى بالعرض الأدنى ، فإنا لانرتاب بأن الله مافتح علينا هذه الفتوح ليغلقها ، ولاجمع علينا هذه الأمة ليفرقها ، وأن العدو إن خرج من داره بطراً ، ودخل إلى دارنا كان فيها جزراً . ومابقي إن شاء الله إلا أموال تساق إلى ناهبها ، ورقاب تقاد إلى ضاربها ، وأسلحة تحمل إلى كاسبها ، وإنما نؤثر أن لاتنطوي صحائف الحمد خالية من اسمه ، ومواقف الرشد خاوية من عزمه ، ونؤثر أن يسام آل أيوب في ميراثهم منه مواقع الصبر ومطالع النصر . فوالله إنا على أن نعطيه

عطايا الآخرة الفاخرة أشد منا حرصاً على أن نعطيه عطـايا الدنيـــا القاصرة . وإنا لايسرنا أن ينقضي عمره في قتال غير الكافـر ونزال غير الكفء المناظر . ولاشك أن سيفه لو اتصل بلسان ناطق وفـــم لقال : مادمت هناك فلست ثم . وماهو محول على خطة يخافهـا ، ولامتكلف قضية بحكمنا يعافها ، والذي بيده لانستكثره بل نستقصره عن حقه ونستصغره . وما ناولناه لفتح أرضه السلاح ، ولا أعرناه الملك مركزه النجاح إلا على سخاء من النفس به وبأمثاله ، على علم منا أنه لايقعد عنا إذا قامت الحرب بنفسه وماله . فلانكن به ظناً أحسن منه فعلا ، ولانرضى ، وقد جعلنا الله أهلا ، أن لانراه لنصرنا أهـلا . وليستبشر أهل الرشاد فإنهم لايألونه حقاً واستنهاضاً ، وليمص أهـل الغواية فإنهم إنما يتغالون به لمصالحهم أغراضاً ، ومن بيته يظعن ، وإلى بيته يقفل ، وهو يجيبنا جواب مثله لمثلنا ، وينوي في هذه الزيارة جمع شمل الإسلام قبل نية جمع شملنا ، ولاتقعد به في الله نهضة قائم ، ولاتخذله عزمة عازم ، ولايستفت فيه فوت طالب ولاتأخـذه في الله لومة لائم . فإنما هي سفرة قاصدة وزجرة واحدة ، فإذا هو قد بيض الصحيفة والوجه والذكر والسمعة ، ودان الله أحسن دين فلا حرج عليه إن فاء إلى أرضه بالرجعة ، وليتدبر ما كتبناه ، وليتفهم مـــا أردناه ، وليقدم الاستخارة فإنها سراج الإنارة ، وليغضب لله ورسوله ولدينه ولأخيه فإنها مكان الاستغضاب والاستشارة ، وليحضر حتى يشاهد أولاداً لأخيه يستشعرون لفرقته غماً ، وقد عاشوا ما عاشوا لايعرفون أن لهم مع عمهم عماً . والله سبحانه يلهمه توفيقاً ويسلك به إليه طريقاً ، وينجدنا به سيفاً

لرقبة الكفر مرقاً ودمــه مريقاً ، ويجعله في مضمار الطاعات سابقاً لا مسبوقاً (١)

صبح الأعشى للقلقشندي جـ ٧ ، ٢٣ – ٢٧

٣ ـ رد الفعل الصليبي والمعارك التي تجددت في بلاد الشام حتى انتهت بالهدنة بين الطرفين

أ ـ موقف صلاح الدين من قـدوم النجدات الالمانية وغيرها إلى صليبيي الشام .

٥٩ ـ رسالة امبراطور الروم إلى صلاح الدين حول عبور ملـك الألمان بجيشه بلاده في طريقه إلى بلاد الشام :

من ايساكيوس الملك المؤمن بالمسيح الإله ، المتوج من الله المنصور العالي أبداً ، أقمقوس المدبر من الله القاهر الذي لايغلب ، ضابط الروم بذاته انكليوس ، إلى النسيب سلطان مصر صلاح الدين :

هذه هي ديباجة الكتاب ، وأما مافسر من الكتاب فهو كما يلي :

المحبة والمودة ، وقــد وصل خط نسبتك الذي أنفذت إلى ملكي وقرأناه وعلمنا منه أن رسولنا توفي . وحزنا حيث إنه توفي في بلد غريب ، وما قدر أن يتم كلما رسم له ملكي ، وأمره أن يتحدث مع نسبتك ويقول في حضرتك ، ولا بد لنسبتك أن تهتم بإنفاذ رسول إلى ملكي ليعرف

---

(١) أورد أبو شامة في كتاب « الروضتين » جـ ٢ ، ١٣٦-١٣٧ نصاً أكثر اختصاراً من نصنا أعلاه .

ملكي ما بعثت إليك مع رسولي المتوفى . وأما القماش الذي خلفه ووجد بعد موته ينفذ إلى ملكي لنعطيه أولاده وأقاربه . وما أظن أنـــه سمع نسبتك أخباراً ردية . وأنه قد سار في بـلاد الألمان ، وما هو عجب فإن الأعداء يرجفون بأشياء كذب على قدر أغراضهم ، ولو تشتهي أن تسمع الحق فإنهم قد تأذوا وتعبوا أكثر مما آذوا فلاحي بلادي ، وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرحل والرجال ، ومات منهم كثير وقتلوا وتلفوا وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادي ، وقد ضعفوا بحيث إنهم لايصلون إلى بلادك ، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثيرة ، لايقدرون ينفعون جنسهم ولا يضرون نسبتك . وبعد ذلك كله العجب كيف قد نسيت الذي بيني وبينك ؟ وكيف ما عرفت للملكي شيئاً من المقاصد والمهمات ؟ ما ربح ملكي من محبتك إلا عداوة الفرنـج وجنسهم ، ولا بد لنسبتك ، كما قد كتبت للملكي في كتابك الذي قد أنفذت إلينا من إنفاذ رسول حتى يعرفني جميع ما قد كتبت إليك في القديم من الحديث ويكون ذلك بأسرع ما يمكن ، ولا تحمل على قلبك من مجيء الأعداء الذين قد سمعت بهم ، فإن إدبارهم على قدر نيتهم وآرائهم . وكتب في أيام سنة ألف وواحد وخمسمائة ؟

النوادر السلطانية لابن شداد ١٣٢-١٣٣

٦٠ ـ رسالة ملك الأرمن صاحب قلعة الروم التي على أطراف الفرات كاغيكوس إلى صلاح الدين يخبره خبر ملك الألمان وما جرى منه :

كتاب الداعي المخلص الكاغيكوس : مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الإيمان ، رافع كلمة العدل والإحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أدام الله إقباله وضاعف جلاله ،

وصان مهجته وكماله ، وبلغه نهاية آماله بعظمتـــه وجلاله . من أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره ، وذلـــك : أنه أول ماخرج من دياره ودخل بلاد الهنكر غصباً ، وغصب ملك الهنكر بالإذعان والدخول تحت طاعته ، وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ، ثم إنه دخل أرض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها ، وأقام بها وأخـــلاها ، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائنه ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه ، وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً وخمسين قنطاراً فضة ، وثياب أطلس مبلغاً عظيماً ، واغتصب المراكب وعاد بها إلى هذا الجانب ، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان ورد الرهائن وبقي سائراً ثلاثة أيام ، وتركان الأوج يلقونه بالأغنام والأبقار والخيل والبضائع ، فتداخلهم الطمع وجمعوا جمعاً من جميع البلاد ووقع القتال بين التركان وبينه ، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوماً وهو سائر . ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليـــج أرسلان العساكر وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً ، فظفر به ملك الألمان وكسره كسرة عظيمة ، وسار حتى أشرف على قونيه ، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين فردهم مكسورين وهجم قونية بالسيف وقتل منها عالماً عظيماً من المسلمين والفرس ، وأقام بها خمسة أيام . فطلب قليج أرسلان الأمان فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة أكيدة وأخذ منه الملك رهائن وعشرين من أكابر دولته ، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل وقبل منه . وقبل وصوله إلى هذه البلاد نفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده وما لقيه في طريقه ، وأنه لابد مجتاز هذه الديار اختياراً أو كرهاً ، فاقتضى الحال إنفاذ المملوك حاتم وصحبته ما سأل ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه . وكانت الوصية معه أن يحرفوه على بلاد قليج أرسلان إن أمكن ، فلما اجتمعوا بالملك الكبـير وأعادوا

عليه الجواب وعرفوه الأحوال أبى الانحراف ، ثم كثر عليه العساكر والجوع ونزل على شط بعض الأنهار فأكل خبزاً ونام ساعة وانتبه ، فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد ، فمكث أياماً قلائل ومات . وأما لاون فكان سائراً يلقى الملك . فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدموا إليه وأخبروه في الحال ، فدخل في بعض حصونه واحتمى هناك .

أما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه إلى قصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه واستقرت القاعدة ، وبلغه هرب رسل ابن لاون فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال : إن أبي كان شيخاً كبيراً وما قصده هذه الديار إلا لأجل حج بيت المقدس ، وأنا الذي دبرت الملك وعانيت المشاق في هذه الطريق فمن أطاعني وإلا قصدت دياره .

واستعطف ابن لاون واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة ، وبالجملة فهو في عدد كثير . وقد عرض عسكره فكان اثنين وأربعين مجفجفاً (١) . وأما الرجالة فما يحصى عددهم ، وهم أجناس متفاوتة على قصد عظيم وجد في أمرهم وسياسة هائلة ، حتى إن من جنى منهم جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة . ولقد بلغهم عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه فاجتمعت القسوس للحكم ، فاقتضى الحكم العام ذبحه وشفع الى الملك منهم خلق عظيم ، فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه ، وقد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى إن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه ، كل ذلك كان حزناً على بيت المقدس .

وقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة ، وحرّموا

---

(١) التجفاف مايجلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح ، وقد يلبسه الإنسان . والمعنى أن عدد فيالق الخيالة اثنان وأربعون وهي مدرعة .

ما حل، ولم يلبسوا إلا الحديد، حتى أنكر عليهم الأكابر ذلـك، وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب في حال عظيم، طالع المملوك بالحال، وما يتجدد بعده يطالع به إن شاء الله تعالى (١) .

النوادر السلطانية لابن شداد ١٢٤–١٢٦

٦١ – رسـالة ثانية من كاغيكوس إلى صلاح الدين حـول ملك الألمان

أرسل كاغيكوس رسولاً خاصاً يخبر صلاح الدين بأنباء جيش الألمان بعد وفاة ملكهم، ويقول في رسالته مع الرسول :

هم عدد كثير ولكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة، وأكثرهم تقلهم حمير وخيل ضعيفة .

وقال الرسول :

ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم فعبر منهم جمع عظيم ماوجدت مع واحد منهم طارقة ولارمحاً إلا في النادر، فسألتهم عن ذلك قالوا : أقمنا بمرج وخيم أياماً، وقلت أزوادنا وأحطابنا فوقدنا معظم عددنا ومات منا خلق عظيم، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها وأوقدنا الرماح والعدد لإعواز الحطب .

النوادر السلطانية لابن شداد ١٢٧

---

(١) أورد ابو شامة في « الروضتين » ج ٢ – ١٥٥ وابن الفرات في « تاريخه » ج ٤ ٢١٦–٢١٨ وابن واصل في « مفرج الكروب » ج ٢ ، ٣٢٠–٣٢١ نصوصاً متقاربة مع نصنا أعلاه، مع خلافات لابد منها . هـــذا ويسمي ابن الفرات وابن واصل كاغيكوس باسم كافيلوس .

٦٢ - رسالة صلاح الدين إلى الديوان العزيز حول قرب وصول ملك الألمان بجيشه وعن عدد جيشه

وقد وصل الخبر بالداهية الدهياء والغمة الغماء والنكبة النكباء والشدة الدهماء والليلة الليلاء ، وهي أن ملك الألمان ، ومعه ملوك الفرنجية وحشودها وقوامصها وكنودها ، وأحزاب الشيطان وجنودها ، وألوية اللأواء وبنودها وصـل جاراً على السماء ذيول قتامه ، مجرياً في الأرض سيول لهامه ، ثائراً بأطلابه لطلاب ثاره ، سائراً بخيله ورجله كالسيل إلى قراره .

وانه في عصائب صلبان في عصبيتها متصلبة ، وأتباع شياطين لإرضائها متغلبة ، وأسراح سراحين على سرح الاسلام متوثبة ، وأنه في مئين الألوف الآلاف للمنون ، وأقطاب الإعطاب الدائرة لدوائر سوئها رحى الحرب الزبون ، وقد أوقدوا للشر شراراً ، وأضرموا للشرك الداعي إلى النار ناراً ، فإن حسرتهم على (قمامتهم) دائمة ، وقيامتهم قائمة والموت يدعوهم إلى المقبرة التي يدعونها ، والآجال تلبيهم لمناياهم التي يدعونها . وكان خبر وصوله متداولاً على ألسنة الأراجيف ، وتشيعه أعداء الله من قبل للترهيب والتخويف . واستمدت العساكر الإسلامية للتوجه إلى بلاد الروم في الربيـع ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجموع باتفاق الجميـع ، وانتظر ورود خبر صحيح ، ويقين بأمر صريح ، حتى إذا صح الخبر سار العسكر ثم انقطعت الأخبار ، وتمادى الانتظار ، ومضت شهور الربيع آذار ونيسان وأيار .

وكانت كتب سلطان الروم قليج أرسلان وأولاده ، ورسلهم متواصله بما ينبيء عن التعاضد ، ويبني أمر الوفاء والوفاق على التعاون والتعاقد ، وهم بإنهـاء مـا يصح عندهم واعـدون ، ويزعمون أنهم في رد الواردين وإردائهم مساعدون . فأخلف ذلك الوعد وضيع ذلك العهد ، ووصلت كتبهم بغتة في هذا الأوان بما تأخر به الخبر عن العيان .

وقالوا : إنهم قد توسطوا بلاد الإسلام ، وإنهم على قصد الشام ، ثم ورد الخبر بأنهم صالحوهم وصانعوهم وأخلوا لهم الطريق وواعدوهم ، ووسعوا لهم في المضايق ، وسعوا في أمن طرقهم من الطوارق ، وهذا حادث كارث وباعث فاجىء فاجع لأهل الحمية في الدين باعث ، وناكب لعقود العقول في تعاظم ضرورة ، وتفاقم خطره ناكث .

وقد تعين الجهاد على كل مسلم ، وما في الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم ، والاهتمام بدفعه من أفرض المهام وأهم الفروض ، والخادم منفرد في حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالنهوض وهو واثق بأن بركات الدار العزيزة تدركه ولاتتركه ، وأن الذي يستمد من النصر القريب يتسق ويتسع به سلكه ومسلكه إن شاء الله تعالى .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني ٣٩٧ ـ ٣٩٨

٦٣ ـ رسالة صلاح الدين إلى الخليفة الناصر يخبره بحركة صاحب القسطنطينية وصاحب صقلية ضده وماحدث بينه وبينها ويعتذر عن تأخير الرسائل من إنشاء القاضي الفاضل :

سلام الله الأطيب ، وبركاته التي يستدرها الخُضّر والنُقّيب، وزكواته التي ترفع أولياءه إلى الدرج ، ونعمه التي لم تجعل على أهل طاعته في الدين من حرج ، على مولانا سيد الخلق وساد الخرق ومسدد أهل الحق ، ولابس الشعار الأطهر سواداً ، ومستحق الطاعة التي أسعد الله من خصه بها بدءاً ومعاداً ، ومولى الأمة الذي تشابه يوم نداه وبأسه إن ركض جوداً أو جواداً ، وواحدِ الدهر الذي لايثنى واليه القلوب تُثنى ، ولايقبل الله جمعاً لايكون لولائه جمع سلامة لا جمع تكسير ، ولااستقبال قبلة ممن لاتكون محبته في قلبه تقيم واسمه في عمله إلى الله يسير ، مولانا أمير المؤمنين ،

وعلى آبائه المالئي الأرض عدلاً ، والملاء أهلاً وفضلاً ، والضاربين فيصلاً والقاتلين فصلاً ، ومن تقــول الجنة لأهلها بهم أهلاً ، المخصوصين بالعناية الإلهيه ،الحاكمين فكل أمة بطاعتهم مأمورة ، وعن معصيتهم منهية ، والمشرفي الأسارير على أسرة الشرف ، فـكم ملأت البهو مناظرهم البهية ،

المملوك يخدم الحرم الشريف باحترامه ، والفناء الكريم بإعظامه ، والبساط المقبَّل بطـول استلامه ، والستر الذي أسبله الله على العبادة بتحيته وسلامه ، وينهي أنه آخر الخدم عن أن ينتظم الأوقات المتجددة ، ويقتضب الحالات المتجردة ، والرسل عن أن تتوارد دراكاً ، وتتوالى وشاكاً ، والإنهاءات عن أن تثبت بالمقامات الشريفة النبوية ، ومجالس العرض العلية ، ما انتهت إليه الأقدار ، وما أفضى إليه من كثير المناجح وقليل الأعذار ، فإن أدب الأمالي عن المطالعة كالصوم لايفض ختامه ولايحل نظامه إلا بعيد يطلع هلاله مبشراً ، ويبث خبره في الآفاق ممطراً ، فلو أن متكلفاً أفطر قبل موعده وورد الماء قبل مورده لكان مفسداً لمقده ناكثاً لعهده .

كذلك المملوك أمسك حين كانت الأخبار بجانبه مشتبهة ، والحقائق لديه غير متوجهة فإن طاغيتي الكفر لقسطنطينية وصقلية كانا قد أوقدا للحرب ناراً ، ورفعالها أوزاراً ، واتخذا لها اسطولاً جارياً وعسكراً جراراً ، وتباريا ولم يزد الله الظالمين إلا تباراً ، وكتبا إلى الفرنج بعد انهزامهم بالنجدة والنصرة ، وتضمنا لهم الخروج والكرة ، ويصفان مااستمدا به بما لايعبر عنه الا بالكثرة ، واستطارت الشناعة وتداولتها الألسن ، وخرجت من الأفواه حتى كادت تدخل فيما رأته الأعين . وورد إلى المملوك رسول من طاغية القسطنطينية ، وهو أقدم ملوك النصرانية قدماً ، وأكثرهم مالاً

منتمى ، فعرض عليه موادعة يكون بها عسكره مودعاً ويكون له بها مفزعاً ، وله ولصاحب صقلية الذي زعم أنه أصلٌ للشر يكون الشر منه مفرّعاً ، فلم ينِ ولم يجب إلى السلم ، ولم يزعه أن عسكره ـ خذله الله ـ مُبارٌ في البر واليمّ ، إن شاء الله تعالى .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ٦ ٥١٥ ـ ٥١٦

ب ـ الموقف في عكا وحولها .

٦٤ ـ رسالة القاضي الفاضل إلى الملك العادل وقد سمع بتجدد حركة العدو الى بيروت :

وقد تجدد من وصول العدو للعين وحركته الى جانب بيروت، وخطر البلاد ما أذهل كل مرضعة وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها في سعة، وللإسلام اليوم قدم إن زلت زل ، وهمة إن ملت فإن النصر عنه مل ، وتلك القدم القدم العادلية وتلك الهمة الهمة المسابقة السيفية ؛ فالله الله ثبتوا ذلك الفؤاد ، ودمثوا ذلك المهاد ، واسهروا في الله فليست بليلة رقاد ، ولا ينظر في حديثٍ ، في حديث زيد ولاعمر ، ولا أن فلاناً نفع ولاضر ، ولا أن من الجماعة من جاء ، ولا أن فيهم من مر ، فانظروا إلى أنكم للإسلام كله قد برز إلى الشرك كله وأنكم ظل الله ، فإن صححتم تلك النسبة فإن الله لاناسخ لظله ، واخبروا أن الله مع الصابرين ، ولاتهنوا وإن ذهب الناصر فإن الله خير الناصرين ، فما هي إلا غمرة وتنجلي ، وهيعة وتنقضي ، وليلة وتصبح وتجارة وتربح .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ ٢٣٢ ـ ٢٣٣

٧٥ ـ رسالة القاضي الفاضل إلى الأمير عز الدين لما أخذ العدو بيروت .

قال بعد البسملة :

قال الله سبحانه في كتابه العزيز مسلياً نبيه الكريم ﷺ : وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل[1] . فإذا كان من الناس من خان الله ورسوله ﷺ فكيف لايخون الناسُ الناسَ ؟ ! وأين الموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرون في البأساء والضراء وحين البأس ؟ .

وقد كانوا إذا عُدوا قليلاً فقد صاروا أقـل من القليل

والمولى ـ أعز الله بنصره ، وعوضه أحسن العوض من أجره ، وكتب له ثواب تسليمه إليه وصبره ـ ليس بأول من وثق بمن خان ، وقضية بيروت بأول مقدور قال الله له : كن ، فـكان. والقدر السابق لايدفعه الهم اللاحق ، ومن الخجلات المستعارة خجلة الواثق ، والموثوق به لائق الخجل الصادق . ومعاذ الله أن ينكس المجلس رأسه حياء ، أو أن يسخط لله قضاء ، أو أن يأسف على مال نقله من مودعه الذي لا يؤمن من الآفات عليه ، إلى مودع الله يحفظه إلى أن يأتيه به أحوج ما يكون إليه . والحمد لله الذي جعل مصائبنا في الدنيا فوائدنا في الأخرى ، ثم الحمد لله الذي جعل البادرة للعدوان والعاقبة للتقوى . وقد علم الله أني مقاسمه ومساهمه ومضمر من الهم بما اتفق من هذا المقدور ما مقدره عالمه ، غير أنه لاحيلة لمن لا حيلة له إلا الصبر ، وإن صبر جرى عليه القدر وجرى له الأجر ، وإن لم يصبر جرى عليه القدر وكتب عليه الوزر . وكل ما ذهب من صاحبه قبل أن يذهب صاحبه فقد أنعم الله عليه ، حيث أخرج ما في يديه وأبقى يديه ،

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧١ .

والمال غادٍ ورائح ، والمال بالحقيقة هو العمل الصالح ، وإن اجتمع موصلها بحضرته فهو ينهي ماعندي ، ويؤدي حقيقة ودي ، ورأيه الموفق .

نهاية الأرب للنويري جـ ٥ ٢٢٤ - ٢٢٥

٦٦ - مخاطبة صلاح الدين لقواده لما حاصر الصليبيون عكا وحاصر المسلمون الصليبيين ، وذلك بعد استرجاع صلاح الدين عكا من الصليبيين وقدوم الحملات الصليبية الثالثة .

جمع صلاح الدين قواده واستشارهم في معالجة أمر الصليبيين الذين تجمعوا حول عكا ، وذلك إثر معركة ضارية ضدهم ، وتدفق الإمدادت عليهم فقال :

بسم الله ، والحمد لله والصلاة على رسول الله : اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا وقد وطىء أرض الإسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى ، وقد بقي في هذا الجمع اليسير ، ولابد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك . وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل . وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم . والرأي كل الرأي عندي مناجزته : فليخبرنا كل منكم بما عنده من ذلك .

فقر رأيهم على تأخير العسكر إلى الخروبة ، وإراحة العسكر عدة أيام حتى يصل الملك العادل ثم يعاود المسلمون الهجوم على الأعداء (١) .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ٢ - ١٤٦

---

(١) أورد ابن شداد في « النوادر السلطانية » ص ١١٤ نصاً قريباً كل القرب من النص أعلاه .

٦٧ – رسالة صلاح الدين إلى الخليفة الناصر يخبره بوصول ملك الألمان والقتال الذي دار مع الصليبيين حول عكا ويطلب النجدة بإلحاح ويشرح الوضع الصعب حول عكا ، وهي من إنشاء القاضي الفاضل :

أدام الله ظل الديوان العزيز النبوي الإمامي الشريف الناصري ، ومده على الأمة ظليلاً ، وجعل الأنوار عليه دليلاً ، وحاطه بلطفه وتقبل أعماله بقبول حسن وأنبتها ، وأرغم أعداءه وكبتها ، ومسها بعذاب من عنده وسحتها ، ولازالت رايته السوداء بيضاء الخبر ، محمرة المخبر في العداة ، مسوّدة الأثر .

ورد على الخادم ماكوتب به من الديوان العزيز رائداً في استخلاصه ، مبرهناً عن اختصاصه ، مطلقاً في الشكر للسانه ، وفي الحرب لعنانه ، ومقتضياً لأمنية كان يتهيبها ، ومضيفاً لمكرمة لو سمت نفسه إليها كان يتهمها ، فلله هو : من كتاب كأنه سورة ، وكل آية منه سجدة ، قابله بالخشوع كأنما قلب الكاتب القضيب وطرسه البردة ، وتلاه على من قبله من الأولياء مسترهفاً به لعزائمهم ، مستجزلاً به لغنائمهم ، مستثبتاً به لملازمهم ، مستدعياً به الخدمة للوازمهم ، مرهفاً به ظباهم في القتال ، فاسحاً به خطاهم يوم النزال ، فأثر فيهم كالاقتداح في الزند ، وكالانبجاس من الصلد ، وكالاستلال من الغمد ، فشمر من كان قد أسبل ، وانتهى من كان قد أجبل ، وكأنما أعطوا كتاباً من الدهر بالأمان ، أو سمعوا منادياً ينادي للإيمان ، وقالوا : سمعنا وأطعنا ، وعلينا من الخدمة ما استطعنا . هـذا مع كونهم أنضاء زحوف ، وأشلاء حتوف ، وضرائب سيوف ، وقد وسمت وجوههم علامات الكفاح ، وأحالت عرضهم أقلام الرماح ، صابرين مصابرين مكاثرين مكابرين ،

مناضلين مناظرين ، قد قاموا عن المسلمين بما قعد عنه سائرهم ، ونزلوا بقارعة القراع ، فلا يسير عليها سائرهم ، وسدت كعوبُ الرماح أنملهم ، وأثبتوا في معترك الموت أرجلهم . كل ذلك طاعة لله ولرسوله ولخليفتها ، وإذا رموا فأصابوا قالوا : ولكن الله رمى .

ومن خبر الكفار أنهم إلى الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثرعدة من أمواجه ، ويخرج للمسلمين منهم أمرٌ من أجاجه . قد تعاضدت ملوك الكفر على أن يُنهضوا اليهم من كل فرقة منهم طائفة ، ويقلدوا لهم من كل قرنٍ يُعجز بالكرّة واصفه ، فإذا قتل المسلمون واحداً في البر بعث البحر عوضه ألفاً ، وإذا ذهب بالقتل صف منهم أخلف بدله صفاً ، فالزرع أكثر من الجيداد، والثمرة أنمى من الحصاد ، وهذا العدو المقاتل ـ قاتله الله ـ قد زر عليه من الخنادق أدراعاً متينة ، واستجن من الجنَويات بحصون حصينة ، مصحراً وممتنعاً ، وحاسراً ومتدرعاً، ومواصلاً ومنقطعاً ، وكلما أخرج رأساً قد قطعت منه رؤوس ، وكلما كشف وجهاً كُشفَتْ من غطاء أجسادها نفوس . فكم من يوم أرسلوا أعنة السوابق فذاقوا عقبى إرسالهــا ، وكم من ساعة فضوا فيها أقفال الخنادق ، فأفضى بهم البـلاء عنـد فض أقفالها ، إلا أن عددهم الجم قد كاثر القتلى ، ورقابهم الغلْب قد قطعت النصل لشدة ما قطعها النصل . ومَن قِبل الخادم من الأولياء قــد أثرت المدة الطويلة والكلف الثقيلة في استطاعتهم لا طاعتهم ، وفي أجوالهم لا في شجاعتهم ، فالبَرْك قد أنفوه ، والسلاح قد أخفوه ، والدرهم قد أفنوه ، وكل من يعرفهم من أهل المعرفة ويراهم بالعين فما هم مثل ما يراهم بالصفة ، يناشد الله المناشدة النبوية في الصيحة البدرية في : اللهـم إن تهلك هذه العصابة ، ويخلص الدعاء ويرجـو على يد أمير المؤمنــين الإجابة . هذا والساحل قد تماسك وما تهالك ، وتجلد ومـا تبـلد ،

وشجعته مواعد النجدة الخارجة ، وأسلته عن مصارع العدة الدارجة فكيف به إذا خرج داعية الألمان وملوك الصلبان وجموع ما وراء البحر وحشود أجناس الكفر ؟ وقد حرم باباهم - لعنة الله عليهم وعليه - كل مباح ، واستخرج منهم كل مذخور ، وأغلق دونهم الكنائس ، ولبس وألبسهم الحداد ، وحكم عليهم أن لايزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة ويعيدوا القمامة : وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم (١) .

اللهم أخفر جواره ، واصرف جوره ، وأخلف وعده ، واكسر ضمانه وانكصه على عقبه ، وعجل في الدنيا والآخرة منهم تبابه ، ومابدلتنا به من نعمتك فلاتقطعه ، وماوهبتنا من نصرك فلاتسلبه ، وما سترته من عجزنا فلا تهتكه ، وفي دون ما الدين مستقبله ، وعدوه - خذله الله - يؤمله ، ما يستفرغ عزائم الرجال ويستنفد خزائن الأموال ، ويوجب لإمام هذه الدولة أن يحفظ عليها قبلتها ، ويزيح في قتل عدوها علتها . ولولا أن في التصريح مايعود على عدالته بالتجريح، لقال مايبكي العين ، وينكي القلوب ، وتنشق له المرائر ، وتشق الجيوب . ولكنه صابر محتسب ، منتظر لنصر الله مرتقب ، قائم من نفسه بما يجب : رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ، وهاهو قد هاجر إليك هجرة يرجوها عندك مقبولة ، وولدي ، وقد أبرزت لعدوهم صفحات وجوههم وهان عليَّ محبوبك بمكروهي فيهم ومكروههم . ونقف عند هذا الحد، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وإن لم يشتك الدين إلى « ناصره » والحق إلى من قام بأوله إلى اليوم الآخر يقوم بآخره ، فإلى من

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤٨ .

يشتكي البث ؟ وعند من يتفرج بالنفث ؟ ومنفعة الفوت قبل العطب ، والنجاءُ قبل أن يصل الحزام الطبيين ، والبلاغ قبل أن يصل السيل الزبى .

فياعصبة محمد ﷺ أخلفه في أمته بما تطمئن به مضاجعه ، ووفّـه الحق فينا ؛ فإنّا وإن المسلمين عندك ودائعه . ومامثل الخادم نفسه في هذا القول إلا بحالة من وقف بالباب ضارعاً ، وناجى بالقول صادعاً . ولورفعت عنه العوائق لهاجر ، وشافه طبيب الاسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر ، ولو أمن عدوّ الله أن يقول : فرّ لسافر . وبعدُ ففيه ، وإن عض الزمان بقيـة ، وقبلَتهُ وإن تدارأت الشهاد درية ، فلايزال قائماً حتى ينصر أو يعذر ، فلايصل إلى حزم ذرية أحمد ﷺ ومن ذرية أيوب واحد يذكر .

أنجز الله لأمير المؤمنين مواعد نصره ، وتمم مساعدة دهره ، وأصفى موارد إحسانه ، وأرسى قواعد سلطانه ، وحفظه وحفظ به ، فهو خير حافظاً ، ونصر على يديه فهو أقوى ناصراً إن شاء الله تعالى .

صبح الأعشى للقلقشندي

٦٨ ـ رسالة القاضي الفاضل إلى صلاح الدين ، والقاضي مقيم في مصر يدبر الأمور عن السلطان ، والسلطان محاصر لعكا . والرسالة تذكير للسلطان وتحريض على الجهاد والثبات وتخويف من ارتكاب الذنـــب :

المملوك ينهي أن الله تعالى لاينال ما عنده إلا بطاعته ولاتفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته . والمعاصي في كل مكان بادية ، والمظالم في كل موضع فاشية ، وقد طلع إلى الله تعالى منها ما لايتوقع بعدها إلا ما يستعاذ منه . وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا حسن

فتح البيت المقدس ما يكون له بمشيئة الله له حجة في رضاه ، ونعوذ بالله أن يكون حجة عليه في غضبه . بلغ المملوك من كل وارد منه مكاتبة ومخاطبة بأنه على صفة تقشعر منها الأجساد وتتصدع بذكرها الأكباد . والمملوك لايتعرض لتفصيل مابلغه من ظهور المنكرات في أتباعه وشيوع المظالم في ضياعه وخراب البلد وعدم القدرة على المرمة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى ، وبالغفلة عن مرمتها وبفقدهما في أشتية القدس العظيمة الجليلة المثلجة لايؤمن سقوطها وافتضاح القدرة في العجز عن إعادتها ، والمرمة أقرب تناولاً من الإنشاء والتجديد . ولا شبهة أن مولانا – عز نصره – في أشغال شاغلة وأمور متشددة وقضايا غير واحدة ولامتعددة ، ولكن قد ابتلي الناس فصبروا ، وأضجرتهم الأيام فما ضجروا ، وأي عبادة أعظم من عبادته التي قام بها والناس عنها قعود ، وصبر في طلب جنتها على ناري الحرب والوقت ذواتي الوقود . غير أن مولانا إذا ذكر نصيبه من الإقدام فلا ينسى نصيبه من الحزم ، ولايعجل في الأمور الخطيرة ، ولايقدم بالعدد القليل على العدة الكثيرة . فالمولى إذا أقبل كان واحداً ، وإذا أدبر كان مقوماً بجميع الخلق ولا يطمع بأن يقوم به الألف . وليذكر المولى نوبة الرملة التي كان وقوعها من الله سبحانه أدباً لاغضباً وتوفيقاً لااتفاقاً ، ولايكره المولى أن تطول مدة الابتلاء بهذا العدد ، فثوابه يطول وحسناته تزيد وأثره في الإسلام يبقى ، وفتوحاته بمشيئة الله يعظم موقعها ، والعاقبة للتقوى ، ولينصرن الله من ينصره . والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده وبرأيه وبولده وبخاصته وبعامة جنده ، وبإعداد في أعدائه بصاحب صيدا في الفرنج ، فهو جهاد قد أربى فيه رأي المولى ، والحديد بالحديد يفلح ، وأكيد ماقوبل به العدو سلاحه ،

وأسرع جناح طار لقنصه جناحه ، ودولة مولانا كالبحر كرماً وظهور عجائب ، وكالسماء مطراً وأسنة كواكب [1] .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ ١٦٥ - ١٦٦

٦٩ - رسالة أخرى من القاضي الفاضل إلى صلاح الدين حول نفس الموضوع السابق من الوعظ والزجر والتذكير .

إنما أتينا من قبل أنفسنا ، ولو صدقنا ، لعجل الله لنا عواقب صدقنا ، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا ، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لانقدر عليه إلا به ، فلايختصم أحد إلا نفسه وعمله ، ولايرج إلا ربه ، ولايغتر بكثرة العساكر والأعوان ، ولافلان الذي يعتمد عليه أن يقاتل ولافلان ، فكل هذا مشاغل عن الله ليس النصر بها ، وإنما النصر من عند الله ، ولانأمن أن يكلنا الله إليها . والنصر به واللطف منه، واستغفر الله تعالى من ذنوبنا ، فلولا أنها تسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل ، وفيض دموع الخاشعين قد غسل ، ولكن في الطريق عائق ، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق .

البداية والنهاية لابن كثير ج ١٢ - ٣٣٩ .

٧٠ - رسالة أرسلها القاضي الفاضل لصلاح الدين جواب رسالة أرسلها له صلاح الدين ، والقاضي في مصر والسلطان حول عكا :

ورد على المملوك ــ أدام الله أيام المجلس العالي الملكي الناصري ونصره على أعدائه وملكه أرضه بعدل حكم سمائه ، ولا أخلى من

---

(١) أتى ابن كثير في « البداية والنهاية » ج ١٢ - ٣٣٩ بنص غاية في الإيجاز لهذه الرسالة المذكورة آنفاً .

نعمق خيره ونظره قلوب وعيون أوليائه ، وأعز الإسلام ورفع عن أهـــله البلوى بلوائه ـ الكتبُ القديمة التي تسر الناظرين من شعارها الأصفر ، وتبشر الأولياء ، إن كانوا غائبين مع الغُيّب ، بأن حظهم حاضر مع الحضَّر . وقد كانت الفترة قد طالت أيامها ، واستطالت آلامها والطرقات قد سبق إلى الأنفس إيهامها . فالحمد لله الذي أذهب عنـا الحزن ، وأولى من النعمة ما اشترى الحمد بـلا ثمن ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ووعدُ الله سبحانه منتظر ، إذ يقول في كتابه : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضـى لهـم وليبدلنهم من بعد خوفهـم أمناً [1] . وصدق ﷺ في قوله : إن اختيار الله للمؤمن خير من اختياره . وإن مواضع الأمل للعبد خير منها مواضع أقضية الله وأقداره . فقد كانت حركة احتاجت إليهـا البلاد التي انفصل عنها والبلاد التي قدم عليها . أما المصرية منها فبكونها على عدة من نجدته آجلا ، وأما الشامية فبكونها على ثقـة من نصـره عاجلا ، فقد تماسكت من المسلمين الأرماق، وقد انقطعت من المشركين الأعناق

تهاب بك البلاد تحل فيها ولولا الليث ماهيب العرين

وعرض المملوك ماوصـــل إليه من مكاتبات المولى على العلم العادلي وأدركها تحصيلا وأحاط بها جملة وتفصيلا . والمولى ـ خلد الله ملكه ـ فكل ما أشار إليه من عزيمة أبداها ، ونية أمضاها ، فهو الصواب الذي أوضح الله له مسالكه ، والتوفيق الذي قرب الله عليه مداركه . ومن أطاع الله أطاعه كل شيء ، ومن استخاره بين له الرشد من الغي .

---

(١) سورة النور الآية ٥٥ .

والله تعالى يجعل له من كل حادثة نخـــوة [1] ، ويكتب أجره في كل حركة ونَفَس وخطوة ، إن شاء الله تعالى .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧/ ١١١-١١٢

٧١ - رسالة من القاضي الفاضل إلى صلاح الدين أثناء حصاره للصليبيين حول عكا يشجعه ويهون عليه . مقتطفات :

... وماتجدد للعدو من الشروع في آلات الحصار لعكا ، وماأرجف به من النجدتين الفرنجيتين الواصلة والبعيدة ، وافتراق العساكر في هذا الوقت للضرورة ، والتماس العسكر الشرقي الدستور للضجر ، وحاجـة المولى من الإنفاق إلى مالايسعه التدبير ويضيق عنه الإمكان ، ومطالبة الغني بالزيادة مع الغنى ، والضعيف بأكثر مما يحتاج إليه ، وضياع فرصة واختلاف رأي بين المتشاورين من الجماعة ، وجمود الألسنة بالآراء وبخل الأيدي بالمعونة ، وانفراد المـولى بالتعب واشتراك الناس في الراحة ، وما ابتلي به المسلمون من مرض أظهروه ليكون لهم عذراً في القعود ، وكتمه المولى على نفسه لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النفوس ، فهذه الأمور وإن كانت شدائد وزائدات على العوائد فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر وحسن الصبر ليشعره أن صبره يعقبه النصر وحسبته يعقبها الأجر. ولو لم ير الله تعالى أن قوة مولانا أكمل القوى وعروة عزمه أوثق العرى ، لما أهـله لأن ينصر ملة لايعرف الملوك غير الله ينصرها وغير مـولانا يبـاشر النصرة ويحضرها ، فليس إلا التجرد للدعاء والتجلد للقضاء ، فلا بـد من قدر مفعول ودعاء مقبول ، ومن الأمثال المنظومة :

---

(١) النخوة : المظلمة .

نحن الذين إذا علوا لم يبطروا يوم الهياج وإذ عُلوا لم يضجروا

ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها ، وأن يسلم على يدينا القدس ثم ينصره ، ثم معاذ الله أن تغلب على النصر ، ثم معاذ الله أن تغلب على الصبر . وإذا كان ما يقدم الله إليه المماليك قبل المولى لابد منه ، وهو لقاء الله سبحانه ، فلأن نلقاه والحجة لنا خير من أن نلقاه والحجة علينا ، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره وتملأ صدره ، فلا تهنوا أو تدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ، والله معكم . وهذا على دين ماغلب بكثرة ولانصر بثروة ، إنما اختار الله تعالى له أرباب نيات وذوي قلوب معه وحالات ، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف ، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة (واشتدي أزمة تنفرجي) والغمرات تذهب ثم لاتجيء . والله تعالى يُسمع الأذن مايسر القلب ، ويصرف عن الإسلام وأهله غاشية هذا الكرب ، وأستغفر الله العظيم فإنه ما ابتلى إلا بذنب .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ /١٦٦ - ١٦٧

٧٢ - رسالة القاضي الفاضل الى صلاح الدين يستفسره صحة إشاعة انتشرت كل الانتشار مفادها أن ملك إنكلترا قتل في إحدى المعارك ضد المسلمين .

كثر الإرجاف بهلاك ملك الإنكلتيرة ، فإن كان كذلك ، فجواب كل من قصر في يافا عن أخذه عن السلطان : إلا تنصروه فقد نصره الله . وجواب السلطان لهم عن ملك الإنكلتيرة : إلا تقتلوه فقد قتله الله . ولم يزل لطيفاً ، ولم يزل مولانا يحمل الثقل ثقيلاً وخفيفاً . ومن كان الله عليه لم يكن قوياً ، ومن كان الله معه لم يكن ضعيفاً .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ / ٢٠٢

٧٣ ـ رسالة صلاح الدين إلى الديوان العزيز يشرح تدفق الإمدادات الفرنجية إلى عكا وحولها والوضع حولها وداخلها :

قد تقدمت المطالعة بمنازلة العدو النازل بالنوازل ، ومجادلة أهل الغواية بالغوائل ، ومقاتلة طواغيت الكفر الواصلة في البحر بعدد أمواجه إلى الساحل . وقد نزلوا على عكاء المحروسة براياتهم المنكوسة ، وآرائهم المعكوسة ، وحشودهم المجموعة وجموعهم المحشودة ، وظلال الضلال الممدودة ، وإقدام الأقدام المصدودة المسدودة .

وقد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه ، وبسط الكفر جناحه ، وحصل الشرك على قروحه وعدم اقتراحه ، وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روعت ، والروعات التي وقعت ، أكثر من عشرين ألف مقاتل ، من فارس وراجل ، ورامح ونابل ، فما أثر ذلك في نقصهم ، ولا أرّث[1] إلا نار صرحهم ، وما فلل حد حديثهم الحادث ، ولا قلل عدد كثيرهم الكارث ، ولا غضوا عيون أطماعهم ، ولا فضوا ختوم اجتماعهم ، ولا ردوا وجوههم عن مواجهة الردى ، ولا قطعوا أملهم عن الوصول إلى المدى ، ولو قطعوا بالمدى ، وهم لمواضعهم ملازمون ، وفي مصارعهم جاثمون ، وعلى الموت صابرون ، وإلى الحمام صائرون ، وبالخنادق من البوائق محتمون ، وبالطوارق من الطوارق معتصمون ، وعندهم أنهم للبلد محاصرون ، وهم على الحقيقة ، وإن كانوا لكثرتهم غير محصورين ، محصورون ، وإن جندنا لهم المنصورون .

وللعساكر الإسلامية فيهم كل يوم نكاية شديدة وفتكة مبيدة ووقعة نآكية ، وجمرة ذاكية ، وصدمة صادعة ، وحدمة رادعة .

---

(١) أرّث : أوقد .

ولما امتنع الدخول إليهم ، وتعذر الوصول إليهم : جُمع راجل البلاد وحشد إلى حشودهم ذوو الاستعداد ، حتى نقاتل الراجل بالراجل والفارس بالفارس ، ونفترع بقمع جمعهم بكر الفتح العانس ، وقد وصل الأخ العادل – وفقه الله للمراقي الشريفة – بالجموع الكثيرة الكثيفة ، ولعل الله أن يجعل حتف هؤلاء الفرنج فتحاً لأبواب الفتح ، ويعجل لليالي آمال المسلمين بطلوع صبح النجح ، وليس هذا العدو بواحد فينجح فيه التدبير ، ويأتي عليه التدمير ، وإنما هو كل من وراء البحر ، وجميع من في ديار الكفر ، فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة ، ولاخطة صغيرة ولا كبيرة إلا جهزت مراكبها وأنهضت كتائبها ، وتحرك ساكنها وبرز كامنها ، ونفضت خزائنها وانفضت معادنها وحملت ذخائرها ، وبذلت أخايرها وثار ثائرها وسار سائرها وطار طـائرها ، ونثلت كنائن كنائسها ، واستخرجت دفائن نفائسها .

وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها ، وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكها ، وتصلبت للصليب السليب وتغضبت للمصاب المصيب ، ونادوا في نواديهم بأن البلاء دهم بلادهم ، وأن إخوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم ، وأنه من خرج من بيته مهاجراً وبحرب الإسلام مجاهراً ولمتعبده مسترداً ، وبجده في النخوة لدينه مستجداً فقد وهبت له ذنوبه وذهبت عنه عيوبه . ومن عجز عن السفر سفر بعدته ، وثروته من قدر ، وبذل البدر لمن بدر ، فجاؤوا لابسين للحديد بعد أن كانوا لابسين للحداد ، وتواصلت منهم الأمداد بالإمداد ، وتوالت أنجاد الإنجاد ، وهم على النقص يزيدون وعلى الأيد يبيدون ، وبالمهج يجودون ، وعن اللجاج في خوض اللجج لايعودون .

وهؤلاء هم الواصلون في البحر القاطعون أثباجه الـكاثرون أمواجه .

فاما ملوكهم الواصلون في البر، فقد تواترت أخبارهم ، بأن خلت منهم ديارهم ورمتهم إلى أغراضهم البعيدة أوتارهم ، وبهم يستفحل الشر ويعضل الأمر ويصول الكفر ويجول ويتطاول الشرك ولكنه لايطول ، فإن لدين الله من خليقته ناصراً لايسلمه ورازقاً لايحرمه ، وما تمسك بحبل طاعته إلا من فاز قدحه ، وحاز السناء قدحه وأسفر صبحه ووقر نجحه ، وبدا علوه وباد عدوه . والخادم ، بقوة رجائه بالعوارق الإمامية والعواطف النبوية وشدة استظهاره بالنصرة الظاهرة الناصرية آن أن يفرق الجمعين ، ويجمع للطريقين القممين ويعيد البر بحراً من دماء وأفدى البر والبحر ، ويقطع دابرهم دابر الكفر (١) .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني ٣٣٧ – ٣٣٨

٧٤ ـ فصل من رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الديوان العزيز يشرح حالة الجيش الإسلامي المتعبة وفناء الخيل والعدد والسلاح والجراح التي أصابت الجند :

قد نهك العساكر طول البيكار ، وأنضاه قتال الكفار بالليل والنهار ، لاسيا في هذه السنين الأربع ، فإنه لم يعرج فيها عن مباشرة الحروب ومغامرة الكروب على مصيف ولا مربع ولاشتا ولاصاف ، إلا حيث صف العدو وصاف ، وقد تكررت عليه الزحوف وتعثرت به الحتوف ، وتفللت منه السيوف وتحلحلت به الصفوف ، وتمخضت بآحاده الألوف ، وتمخضت لجني بيضه وسمره من ورق الحديد الأخضر القطوف ، حتى سئم ومل وضجر وكل ، وكم عقد عزمه وحل ، وانهل نصله من دم الكفار وعلّ ، وامثّل النصر فقال عسى ولعل .

---

(١) أورد كل من ابي شامة في كتاب « الروضتـــين » ج ٢ / ١٤٩ وابن واصل في « مفرج الكروب » ج ٢ / ٣٠٦-٣٠٧ نصوصاً أكثر اختصاراً من النص المذكور أعلاه.

وأما خيوله فقد أجهدها الجهاد وأنضاها الطراد وفرى جلودها الجلاد ، وعزت منها لكثرة الجراح الجياد ، وأعادت شهبها كمتاً حدود البيض الحداد حيث داخلها الرعب من خروج الجروخ للجروح وتفريق السهام منها بين الجسم والروح ، صارت تنفر من رنة الحنية وأنة المبرية ، كأن عندها للأوتار أوتاراً ، ولطائرات النصال في لباتها أوكاراً ، أوكأنها لما رأت أنها تباريها في المطار ، وتجاريها في المضمار ، ثارت لإدراك الثار . وهذا سبب ماحدث من النفار ، وماعادت الآن تدخل على راجل الكفار .

وأما العُدد فقد فقدت بالكلية وُعدمت ، وتكسرت وتحطمت وتقصفت وتقصبت وتقصمت ، وقتلت قبل المقاتل بها ، وفي يــــد من استشهد استشهدت .

وأما النشاب فإنه قد فني ، بعد أن اتخذ من أخشاب جميع ما وجد واقتني ، وقد عدمت أشجاره في منابتها ، وأعوزت أخشابه من مناحتها ، ونفضت الكنائن ، وانفضت منه ومن كل ما يذخر الخزائن ، وماتبرح الصناع في الممالك مصر والشام ، ومايجري معها في بلاد الإسلام ، يبرون ويريشون وينصلون ويعملون ، ويكملون ويحملون .

واحتيج في هذه السنين التي استمر فيها القتال إلى أحمال كثيرة لايفي بها الصناع ولايرفعها العمال ، وحسبها أن نصولها أعدمت من حديدها المعادن ، وخلت من ذخائرها الأماكن .

هذا والخادم قائم بازاء هذا الفرض وحده ، مسترهف في قطع دابر المشركين غرب عزمه وحدّه ، وما استمر على مساعدته وموازرته ومعاقدته إلا صاحبا الموصل وسنجار ، وكلاهما عن سنن الإسعاف والإسعاد ما جار ، فهو يحضر تارة بنفسه ، وآونة بولده ، ويستمر من جدالموازرة على جدده ، ويواظب بمَدده وُعدده ومدده في مطاولة مدده .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني ٥٥٣ ـ ٥٥٤

٧٥ ـ رسالة صلاح الدين إلى الخليفة الناصر يشرح الوضع حول عكا وتدفق المدد الصليبي عليها ، وهي من إنشاء القاضي الفاضل :

. . . ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ، ويخرج منه للمسلمين ماهو أمر من أجاجه ، وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا إليهم من كل فرقة طائفة ، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شوكة فإذا قتل المسلمون واحداً في البر بعثوا ألفاً عوضه في البحر ، فالزرع أكثر من الحصاد والثمرة أنمى من الجذاذ . وهذا العدو المقاتل ـ قاتله الله ـ قد زر عليه من الخنادق دروعاً متينة ، واستجن من الجنايات بحصون حصينة فصار محصوراً ممتنعاً ، حاسراً ومتدرعاً ، مواصلاً ومنقطعاً ، وعددهم الجم قد كاثر القتل ، ورقابهم الغلب قـــد قطعت النصل لشدة ما قطعها النصل . وأصحابنا قد أثرت فيهم المدة الطويلة والكلف الثقيلة في استطاعتهم لا طاعتهم ، وفي أحوالهم لا شجاعتهم ، وكل من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النبوية في الصيحة البدرية : اللهم إن تهلك هذه العصابة ، ويخلص الدعاء ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الإجابة ، وقد حرم باباهم ـ لعنة الله عليه وعليهم ـ كل مباح ، واستخلص منهم كل مذخور ، وأغلق دونهم الكنائس ، ولبس وألبسهم الحداد ، وحكم عليهم أن لايزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة ، فيا عصبة محمد عليه السلام أخلفه في أمته بما تطمئن به مضاجعه ، ووفه الحق فينا ، فإنا والمسلمون عندك ودائعه . وما مثل الخادم نفسه في هذا القول إلا بحالة عبد لو أمكنه لوقف بالعتبات ضارعاً وقبل ترابها خاشعاً ، وناجاها بالقول صادعاً . ولو رفعت عنه العوائق لهاجر وشافه طبيب الاسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر . ولو أمن عدو الإسلام أن يقول قولاً آخر لسافر ، ولولا أن في التصريح مايعود على العدالة بالتجريح ، لقال مايبكي العيون وينكي القلوب ، ولكنه صابر محتسب

منتظر لنصر الله مرتقب قائم من نفسه بما يجب : رب إني لا أملك إلا نفسي وها هي في سبيلك مبذولة ، وأخي ، وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة ، وولدي ، وقد بذلت لعدوك صفحات وجوههم ، وهان عليّ محبوبك بمكروهي فيهم ومكروههم ونقف عند هذا الحد ، ولله الأمر من قبل ومن بعد [١] .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ٢/ ١٥٧ - ١٥٨

٧٦ - رسالة من صلاح الدين إلى الديوان العزيز سنة ٥٨٦ هـ يشرح الوضع الصعب حول عكا :

• وقد بلي الإسلام منهم (يقصد الفرنج) بقوم قد استطابوا الموت واستجابوا الصوت ، وفارقوا المحبوبين : الأوطان والأوطار ، وهجروا المألوفين : الأهل والديار ، وركبوا اللجج ووهبوا المهج ، كل ذلك طاعة لقسيسهم ، وامتثالاً لأمر مركيسهم ، وغيرة لمتعبدهم ، وحمية لمتقدمهم ، وتهالكاً على مقـبرتهم وتخوفاً على قمامتهم ، لايطلبون مع شدة الإملاق مالاً ، ولايجدون مع كثرة المشاق ملالاً ، بل يتساقطون على النيران تساقط الفراش ، ويقتحمون الردى متدرعين الصبر ، متثبتين الجاش ، حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات ، وسرن إلى الشام في البر والبحر متجهزات ، وكانت منهـن ملكة ، استتبعت خمسمائة مقـاتل ، رامح ونابـل ، والتزمت بمؤنتهن ، فصودف مركبها بقرب الإسكندرية فأخذت برجالها وأراح الله من شر احتفالها ، ومنهم ملكة وصلت مع ملك الألمان في ذوات المقانع من الفرنج ، مقنعات دارعات يحملن إلى الطعان الطوارق

---

(١) ورد جزء من هذه الرسالة ضمن رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة الناصر في « صبح الأعشى » للقلقشندي جـ ٧ ، ١٢٧ - ١٣٠ . انظر الوثيقة رقم ٦٧ في هذا الكتاب.

والقنطاريات ، وقد وجدت في الوقعات التي جرت ، عدة منهن في القتلى ، فما عرفن حتى سلبن .

وإن البابا الذي لهم برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم وقال : من لا يتوجه إلى القدس مستخلصاً فهو عندي محرم ، لا منكح له ولا مطعم ، فلأجل هذا يتهافتون على الورود ، ويتهالكون على يومهم الموعود . وقال لهم : إني واصل في الربيع ، جامع على الاستنفار شمل الجميع . وإذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد ، ويصل معه بأهله وولده ، كل من يقول لله أهل وولد .

فهذا شرح حال هؤلاء وتعصبهم في ضلالتهم ، ولجاجتهم في غوايتهم ، بخلاف أهل الإسلام فإنهم يتضجرون ولا يصبرون ، بل يتفللون ولا يجتمعون ، ويتسللون ولا يرجعون ، وإنما يقيمون ببذل نفقة ، وإذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة . ليعلم أن الاسلام من عند الله منصور ، وأن الكفر بإرادة الله محسور مدحور . والله أعلم[1] .

تاريخ ابن الفرات ج ٤ / ٢٢٩ - ٢٣٠

٧٧ - رسالة أخرى من صلاح الدين إلى الخليفة الناصر يشرح الوضع حول عكا وتدفق الإمداد إلى الصليبيين وخصوصاً وصول ملك الإنكليز ، من إنشاء القاضي الفاضل سنة ٥٨٧ هـ . مقتطفات :

ما قطع الخادم الخدم إلا لأنه قد ضجر وسأم من المطالعة بخبر هذا العدد الذي قد استفحل أمره واستشرى شره ، فإن الناس ما رأوا ولا سمعوا عدواً حاصراً منحصراً ، غامراً مغموراً ، وقد تحصن بخنادق تمنع الجائز من الجواز ، وتعوق الفرص عن الانتهاز ، ولا تقتصر عدتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل قد أفناهم القتل

(١) أورد ابو شامة في كتاب « الروضتين » ج ٢ ، ١٦١-١٦٢ نصاً قريباً كل القرب مع النص أعلاه .

والأسر ، وأكلتهم الحرب ولفظهم النصر . وقد أمـدهم البحر بالبحار وأعان النار أهل النار ، واجتمع في هذه الجموع الجيوش الغريبة والألسنة الأعجمية من لا يحصر معدوده ولا يتصور في الدنيا وجوده ، فما أحقهم بقول أبي الطيب المتنبي .

تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث إلا التراجم

حتى إنه إذا أسر الأسير أو استأمن المستأمن احتيج في فهم لغته إلى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ، ويقول ثانٍ ما يقول أول ، وثالث ما يقول ثانٍ . والأصحاب كلوا أو ملوا ، وصبروا إلى أن ضجروا أو تجلدوا .

والعساكر الـتي تصل من المكان البعيد لا تصل إلا وقد كل ظهرها وقل وقرها ، وضاق بالبيكار صدرها ، ولا تستفتح إلا بطلب الدستور ، ويضر ضجرها بالسمعة عند العدو المخذول . ولهـم — لعنهم الله — تنوع في المكائد ، فإنهم قاتلوا مرة بالأبرجة وآخرى بالمنجنيقات ، ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش ، وآونة باللوالب ، ويوماً بالنقب وليـــلا بالسرابات ، وطوراً بطم الخنادق ، وآناً بنصب السلالم ، ودفعة بالزحف بالليــــل ، وحالة في البحر بالمراكب . ثم شرهوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطاً مستطيلا يشبه السور من التراب ، وتلالاً تشبه الأبرجة مدورة ، ورفعوها بالأخشاب وعلوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قدامها ، وهم يتقدمون أولاً فأولاً ، وترتفع حالاً بعد حال حتى صارت منه كنصف غلوة سهم . وقد كان الحجر والنار يوقدان في أبراج الخشب ، وهذه أبراج وستائر للرجال ومنجنيقات من العطب

لاتؤثر فيها الحجارة الرامية ولاتعمل فيها النار الحامية ... [1]

تاريخ ابن الفرات جـ ٤ ، ق ٢ ٩-١١

٧٦ مكرر ـ فقرات من رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الديوان العزيز حول حصار الفرنج لعكا ، وكيف تمكن المسلمون من إحراق الأبراج الثلاثة التي نصبها الفرنج لضرب عكا :

ولما كان يوم السبت ظهر أهل الجمعة على أهل الأحد ، ورمى الأصحاب المحصورون المنصورون عدة العدو وأبراجه بقدور النفط من البلد فخطبت ألسنة النيران على تلك الأعواد ، بل على تلك الأطواد ، وألحفتها رداء الردى وألحقتها بالوهاد ، وفرشت رمادها لمأتم أولئك المراد .

فكانت تلك النار على الكفر ضراماً، وعلى الإسلام برداً وسلاماً ، واحترقت الأبراج الثلاثة على معتقدي التثليث ، ودبت النار إلى الدبابات بصدمة التأثير وحدمة التأريث . وما أطول ألسن النار وأفصحها بالدعاء على أهلها بالتبار ، وقد أبدت إلى الإسلام بتضرمها وتضرعها وجـــه الاستبشار . وما أحسنها وهي ترمي بشرر كالقصر ، ويكسو سنى لهبها وجوه المؤمنين بشر النصر .

وما أقطعها لدابر المشركين . وقد خُصَّت بإحراق تلك الآلات عن البلد أجنحة الحصر ، وبسم بعد عبوس البوس باسم الله ثغر الثغر ، وقد بغتت هذه الفجيعة فجأة من حوته تلك البروج ، ودخل إلى طبقاتها قوم لإطفاء النار فتعذر عليهم الخروج ، وهلك فيها أكثر من ثمانمائة دارع ، وخرج من أهل البلد لـــما سُحِقَ الفرنج كل مسابق إلى الغنيمة مسارع ،

---

(١) أورد كل من أبي شامة في كتاب « الروضتين » جـ ٢ ، ١٨٥-١٨٦ وابن واصل في « مفرج الكروب » جـ ٢ ـ ٣٥٢ نصاً مشابهاً لنصنا هذا مع بعض الخلافات الثانوية .

وكسبوا من الدروع والمناصل والسيوف على ما وجدوه خلل رماد تلك الحتوف .

وكان القوم قد اعتصموا بالأبراج وثوقاً بوثاقتها ، واشتدوا بشدتها فيما علق بهم من علاقتها ، ووصلوا بها أجنحتهم ، وذخروا فيها أسلحتهم فاخفقت ظنونهم وسخنت عيونهم ، وخسر هنالك المبطلون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون [1] .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني ٣٧٦

٧٧ مكرر - رسالة من صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل نائبه في مصر بشأن انتصار الأسطول الإسلامي في مياه البحر الأحمر على أسطول صليبي حاول غزو سواحل الحجاز فدمره الأسطول المسلم بقيادة حسام الدين لؤلؤ وذلك سنة ٥٧٨ هـ ، والرسالة من إنشاء القاضي الفاضل :

وصل كتابه المؤرخ بخامس ذي القعدة المسفر من الأخبار ، المبتسم عن المبتسم من الآثار ، وهي نعمة تضمنت نعماً ، ونصرة جعلت الحـــرم حرماً ، وكفاية ماكان الله ليؤخر معجزة نبيه - ﷺ - بتأخيرها ، وعجيبة من عجائب البحر التي يحدث عن تسييرها وتسخيرها ، وماكان الحاجب لؤلؤ فيها إلا سهماً أصاب وحمد مسدده ، وسيفاً قطع وشكر مجرده ، ورسولاً عليه البلاغ ، وإن لم يجهل مـا أوتيه يده . وقد غبطناه بأجر جهاده ونجح اجتهاده ، ركب السبيلين براً وبحراً ، وامتطى السابقين مركباً وظهراً ، وخطا فأوسع الخطو ، وغزا فأنجح الغزو ، وجـند العنان الذي في هذه الغزوة أطلق ، والمال الذي في هذه الكرة أنفق .

وهؤلاء الأسارى فقد ظهروا على عورة الإسلام وكشفوها ، وتطرقوا بلاد

---

(١) سورة غافر : الآية ٧٨ .

القبلة وتطوفوها ، ولو جرى في ذلك سبب ، والعيـــاذ بالله ، لضاقت الأعذار إلى الله والخلق ، وانطلقت الألسن بالمذمة في الغرب والشرق ، ولابد من تطهير الأرض من أرجاسهم ، والهواء مـن أنفاسهم بحيث لايعود منهم مخبر يدل الكفار على عوارت المسلمين . وإن هذا العدو القليل قد نال ذلك المنال الجليل ، وهذا مقام إن روعي فيه حراسه الظاهرة والوفاء للكافر ، حدث الفتق الذي لايمكن في كل الأوقات سده ورتقه ، ولدغ المؤمن مرتين ، والأولى تكفي لمن له في النظر تفقه .

٧٨ ـ قطعة من خطاب ثان أرسله صلاح الدين إلى أخيه العادل يأمره بقتل الأسرى الذين مر ذكرهم في الخطاب السابق :

ونحن نهنىء المجلس السامي بظفره ، ولم لايكلمه وينصره ، ولم لايعجله ويشكره ، وليس في قتل هؤلاء الكفار مراجعة ، ولا للشرع في إبقائهم فسحة ولافي استبقاء واحد منهم مصلحة ، ولافي التغاضي عنهم عند الله عذر مقبول ، ولاحكم الله في أمثالهم عند أهل العلم بمشكل ولا بمجهول ، فليمض العزم في قتلهم لتناهي أمثالهم عن فعلهم . وقد كانت عظيمة ما طرق الاسلام بمثلها ، وقد أتى الله بعدها بلطيفة أجراها على يد من رآه من أهلها .

٧٩ ـ قطعة من خطاب ثالث أرسله صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل يخبره بضرورة قتل الأسارى المذكورين في الخطاب السابق .

وقد تكرر القول في معنى أسارى بحر الحجاز ، فلا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، ولا توردهم بعد ماء البحر إلا ناراً . فبأقلهم إذا بقي جنى الأمر الأصعب ، ومتى لم تعجل الراحـــة منهم وعدت العاقبة بالأشق الأتعب .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ٢ ٣٦-٣٧

٨٠ ـ قطعة من خطاب أرسله صلاح الدين إلى الديوان العزيز في بغداد يخبره بغزوة البحر الأحمر سالفة الذكر :

...وسارت المراكب الإسلامية طالبة شوكة المراكب الحربية المعترضة للمراكب الحجازية واليمنية ، وكانت مراكب العدو قد أوغلت في البحر ، ودلها على عورات الساحلين من العرب من أشبه ركابها في الكفر ، فوصلت إلى عيذاب ، فلم ينـــل منها مراداً ، غير أن ما وجدته في طريقها أو في فرضة عيذاب نالت منه وشعثت ، وأفسدت فيه وعثت ، وتمادت في الساحل الحجازي إلى رابغ إلى سواحل الحوراء ، وهناك وقع عليها أصحابنا وأوقعوا بها أشد إيقاع ، وأخذوا المراكب الفرنجية على حكم البدار والإسراع ، ففر فرنجها إلى الساحل ، فركب أصحابنا وراءهم خيول العربان التي وجدوها ، وأخذوا الكفار من شعاب وجبال اعتصموا بها وقصدوها ، وكفي المسلمون أشد فساد في أرضهم ، وأقطع قاطع لفرضهم ، وانبسطت آمالهم بقبضهم ، وعميت على الكفار هذه الطريق التي لو كشف لهم غطاؤها قـــدماً ، ولو أحاطوا بها علماً لاشتطت نكايتهم ، واشتـدت جنايتهم وعز على قدمـــاء ملوك مصر أن يصرعوا هذه الأقران ويطفئوا هذه النيران ، ويركبوا غوارب اللجج ويرخصوا عوالي المهج ، ويقتنصوا هذا الطائر من جوه الذي لايدرك لوحه ، ويدركوا هذا العدو الذي لايُدرك ألا أن يُستنجد عليه ملائكة الله وروحه .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ٢ ٣٦ ـ ٣٧

٨١ ـ قطعة من خطاب ثان أرسله صلاح الدين إلى الخليفة الناصر حول نفس الموضوع السابق :

كان الفرنج قـــد ركبوا من الأمـــر نكراً ، وافتضوا من البحر

بكراً ، وعمروا مراكب بحرية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد ، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز ، وأثخنوا وأوغلوا في البلاد ، واشتدت مخافة أهل تلك الجوانب ، بل أهل القبلة لما أومض إليهم من خلل العواقب وما ظن المسلمون إلا أنها الساعة ، وقد نشر مطوي أشراطها والدنيا وقد طوي منشور بساطها ، وانتظر غضب الله لفناء بيته المحرم ومقام خليله الأكرم وتراث أنبيائه الأقدم ، وضريح نبيه الأعظم ﷺ ، ورجوا أن تشحذ البصائر آية كآية هذا البيت إذ قصده أصحاب الفيل ، ووكلوا إلى الله الأمر ، وكان حسبهم ونعم الوكيل . وكان للفرنج مقصدان : أحدهما قلعة أيلة التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله ، والأخرى الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من سواحله ، وانقسموا فريقين وسلكوا الطريقين : فأما الفريق الذي قصد قلعة أيلة فإنه قدر أن يمنع أهلها من مورد الماء الذي به قوام الحياة ، ويقابلهم بنار العطش المشبوب الشباه . وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقدر أن يمنع طريق الحاج عن فجه ، ويحول بينه وبين ثجه ، ويأخذ تجار اليمن وأكارم عدن ، ويلم بسواحل الحجاز ، فيستبيح والعياذ بالله المحارم ، ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم .

وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمر مراكب وفرقها على الفرقتين ، وأمرها بأن تطوي وراءهم الشقتين . فأما السائرة الى قلعة أيلة فإنها انقضت على مرابطي منع الماء انقضاض الجوارح على بنات الماء ، فقذفتها قذف شهب السماء مسترقي سمع الظلماء ، فأخذت مراكب العدو برمتها وقتلت أكثر مقاتلتها ، إلا من تعلق بهضبة وما كاد ، أو دخل في شعب وما عاد ، فإن العربان اقتصوا آثارهم والتزموا إحضارهم ، فلم ينج منهم إلا من ينهى عن المعاوده ، ومن قد علم أن أمر الساعة واحدة .

وأما السائرة إلى بحر الحجاز ، فتمادت في الساحل الحجازي إلى رابغ إلى سواحل الحوراء ، فأخذت تجاراً وأخافت رفاقاً ، ودلها على غوارب البلاد من الأعراب من هو أشد كفراً ونفاقاً ، فهناك وقع عليها أصحابنا وأخذت المراكب بأسرها وفرفرنجها بعد إسلام المراكب ، فسلكوا في طريق الجبال مهاوي المهالك ، ومعاطن المعاطب ، وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب فشلوهم شلاً ، واقتنصوهم أسراً وقتلاً ، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلاً ورجلاً ، نهاراً وليلاً ، حتى لم يتركوا منهم مخبراً ولم يبقوا لهم أثراً . وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، وقيد منهم إلى مصر مائة وسبعون أسيراً . وسير هذا الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد [1] .

مفرج الكروب لابن واصل جـ ٢ ١٢٩ - ١٣١

٨٢ - قطعة من خطاب أرسله صلاح الدين إلى بغداد مبشراً بانتصار أسطوله في البحر المتوسط وانتصار جيشه في المغرب :

ومن جملة البشائر الواصلة من مصر عود الأسطول مرة ثانية كاسراً كاسباً غانماً غالباً ، بعد نكايته في أهل الجزائر ، وإخراب ما وجده فيها من الأعمال والعمائر ، ومن جملة ما ظفر به في طريقه : بطشة من مراكب الفرنج تحمل أخشاباً منجورة إلى عكا ، ومعهم نجارون ليبنوا منها شواني ، فأسر النجارون ومن معهم ، وهم نيف وسبعون . وأما الأخشاب فقد انتفع بها المجاهدون ، وكفي شرها المؤمنون . وللخادم في المغرب عسكر قد بلغت أقصى أفريقية فتوحه ، وعاود به شخص الدين في تلك البلاد روحه .

كتاب الروضتين جـ ٢ - ٣٧

---

(١) أورد أبو شامة في كتاب «الروضتين» جـ ٢ - ٣٧ نصاً يكاد يطابق نصنا أعلاه .

٨٣ – رسالة من صلاح الدين إلى صاحب الموصل يشكره لإرسال ولده على رأس جيش ليقاتل مع المسلمين حول عكا ، ويصف الوضع الصعب حولها :

قدم علاء الدين – دام علاؤه – في مقدمي الجنود الأنجاد ، ووقف اجتهاده على موقف الجهاد ، وما أكرمه قائماً في المقام الكريم ، وعظيماً خاطباً دفاع الخطب العظيم ، ووصل فوصل جناح النجاح ، وأنشر الصدور بما صدر به لها من نشر الانشراح ، وجاء والكريهة ذاهبة بالأرواح ، والحرب ساقية طلاء الطلى في صحاف الصفاح ، وقد برزت بنات الأغماد الذكور على أكف أكفاء الكفاح لنكاح الهام بالسفاح ، وشارك في الجهاد وشد الأزر وسدد الأمر ، وآزر وعضد ، وظاهر وأسعد . ولاخفاء عن العلم بحال الفرنج في هذه السنة واجتماع ملوكهم وكنودهم ، وتوافد إمداد حشودهم ، وقد استشرى شرهم ، واستضرى ضرهم ، وأعضل خطبهم واستفحل أمرهم ، واشتغلوا منذ وصلوا بنصب منجنيقات وتركيب آلات ودبابات ، وزحفوا إلى بلد عكاء بجمعهم وقدوا بجمرهم ، وأخذوا فيه نقوباً ، وحكوا في الأسوار من الأسواء بضرب المجانيق ضروباً . والثغر الآن قد أشرف ، والعدو قد أسرف وكلما زحف إلى الثغر زحفت العساكر الإسلامية إليه وهجمت عليه . والعدو بخندقه محتجز ، ولفرصة الغفلة عنه منتهز ، ومن جثوم الموت عليه في مجثمه محترز ، ولم يبق إلا أن يتدارك الله الثغر بلطفه ، ويجريه على المعروف من عادة نصره وعرفه .

والمجاهدون فيه قد هانت عليهم المهج ، ووضح لهم من ثبات جنانهم المنهج ، وفي كل يوم يسدون بأشلاء الهاجمين عليهم الثلم ، ويجلون عنهم بما يشبونه من نيران الظباء الظلم .

والعدو قد لج ، والحديد من قرع الحديد قد ضج ، والبلد مشف والبلاء عليه موف . والمأمول من الله أن يأتي من نصره بما ليس في الحساب ، وأن يعيد ما جمع من أمــــر الأصحاب إلى الأصحاب ، ويكفي هذه النوبة الصعبة ، فهو كافي النوب الصعاب .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني ٤٩٨

٨٤ – رسالة صلاح الدين إلى صاحب اربل مظفر الدين يشرح الوضع الصعب حول عكا وداخلها :

لما عاين أصحابنا بالبلد ما هم عليه من الخطر وأنهم قد أشفوا على الغرر ، فر جماعة من الأمراء ممن قل بالله وثوقـه وأعمى قلبه فجوره وفسوقـه ، ولقـــد خانوا المسلمين في ثغرهم ، وباؤوا بوبال غدرهم ، وما قوى طمع العدو في البلد إلا هربهم ، وما أرهب قلوب الباقين من مقاتلتهم إلا رهبهم ، والمقيمين من أصحابنا الكرام قـد استحلوا أمر الحمام وأجمعوا أنهم لا يسلمون حـــتى يقتلوا من الأعداء أضعاف أعدادهم ، وأنهم يبذلون في صون ثغرهم غاية اجتهادهم . وكانوا تحدثوا مع الفرنج في التسليم ، فاشتطوا واشترطوا ، فصبروا بعد ذلك وصابروا ، ومدوا أيديهم في القوم وبسطوا ، فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب . والله تعالى يسهل تنفيس ماهم فيه من الكروب .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ – ١٨٧

٨٥ – رسالة صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام في اليمن عن وضع المسلمين المحصورين في عكا :

كان كتب إلينا أصحابنا بعكاء أننا حبسنا ، وإلى ليلة نصف شعبان

لا يبقى لنا شيء نقتاته ، وبقاؤنا ببقاء القوت ، وفواتنا فواته . فبينا نحن في هذا المهم مفكرون ، ومن هذا المهم متنكرون ، إذ ظهر للعيون بالقرة ، وللقلوب بالقرار والمسرة ، ثلاث بطس على ثبج البحر مستقرة يبعثها لطف الله بعثاً ، وتحثها الريح القوية حثاً كأنها جبال بإقبالها تروع ، ونسور أجنحتها القلوع . وشعر الفرنج بها فضاقت مذاهبها وبرزت مراكبها ودبت عقاربها ، وقربت من البطس شوانيها وقويت في البطش أمانيها ، وحمى ما فيها من فيها من الرجال ، وهي تجري بهم في موج كالجبال ، وكأن جواريها عرائس بما لهن من الجهاز ، وكأن البحر المتموج ثوب بتلك الأعلام المنشآت معلم الطراز ، بل كأنها تجار تحمل الصدقات إلى ذوي الإعواز ، فجاءت فجأة متسقة موسقة، وأتى الآتي بها موافقة موفقة ، فلم يقدر على مقاربتها ومقارنتها شيني شانيء ، وكانت كلاءة الله وعصمته لها خيراً من كل كالىء .

وجازت والكفر خزيان ينظر ، وفازت بالعز والعدو بذيل الذيل يعثر ، وكان وصولها أوان انفضاض الأزواد وإنفادها ، فملأت المدينة بغلاتها وأزوادها ، وعصمت أرماقها وسمت أمراقها وقسمت أرزاقها وأشبعت جوعها ، وشعبت صدوعها ، وأثالت آرابها ، وأزالت أحدابها وخصتها بخصبها ، وصحت لها بسجمها .

فأفاقت من الفاقة ، وأفرقت من الفرق ، وسكنت بعد القلق ، وعاد إليها بعد الغسق إسفار الفلق والحمد لله المغني بعد الإعدام ، المولي السني بعد الإظلام ، والمفني بأوليائه أعداء الإسلام .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني ٤٢١ — ٤٢٢

٨٦ ـ رسالة أهل عكا إلى السلطان صلاح الدين لما ضاق بهم الحصار كل الضيق :

إنا بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم . ونحن في الغد ـ يعني يوم الأربعاء ثامن جمادى الآخرة ـ إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا .

النوادر السلطانية لابن شداد ١٦٧

٨٧ ـ رسالة ثانية من أهل عكا إلى السلطان صلاح الدين :

إنا قد تبايعنا على الموت . ونحن لانزال نقاتل حتى نقتل ، ولانسلم هذا البلد ونحن أحياء ، فأبصروا كيف تصنعون في شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا . فهذه عزائمنا ، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو أو تلينوا له ، فأما نحن ، فقد فات أمرنا .

النوادر السلطانية لابن شداد ١٦٩ ـ ١٧٠

٨٨ ـ رسالة أهل عكا الأخيرة للسلطان :

ضايق الفرنج عكا كل المضايقة ، ولم يتمكن السلطان صلاح الدين من إنقاذها أو التخفيف عن المحصورين ، وحاول الاتفاق مع الفرنج فتعنتوا كل التعنت ، وعلم أهل عكا تعنت الفرنج ، فأرسلوا إلى السلطان يقولون قبيل سقوط البلد بيد الفرنج .

يامولانا : لاتخضع لهؤلاء الملاعين الذين قد أبوا عليك الإجابة إلى مادعوتهم فينا ، فإنا قد بايعنا الله على الجهاد حتى نقتل عن آخرنا ، وبالله المستعان .

البداية والنهاية لابن كثير ج ١٢ ـ ٣٤٤

٨٩ - رسالة صلاح الدين إلى الديوان العزيز يشرح ما تم وحصل بعد رحيله عن عكا :

... وساروا [يقصد الجيش الصليبي] في مواضع ما للنيزك عليهم فيها سبيل ، ولا لقداح القراع في مجالها مجيل ، وعساكرنا تضايقهم كل مضيق ، وتطرقهم بالبلاء بل المنايا في كل طريق ، وهم على البحر لايفارقونه ، ومن المورد إلى المورد في كل مرحلة لايتجاوزونه ، فإن المياه قريب بعضها من بعض ، ومسيرهم بمقدار مسافة ما بين المنهلين ، وإذا نزلوا لم يبعدوا بين المنزلتين . وكانت لنا إلى هذه الغاية معهم في كل بقعة وقعة ، وفي كل مرحلة مقتلة ، وفي كل منزلة منازلة ، وأوردناهم الردى في كل مورد ، وقصدناهم بالشدائد في كل مقصد ، وسبلنا حمام للحمام في كل سبيل ، وساء صباحهم منافي كل مغدى ومقيل ، وطريقهم على البحر كلها مضايق وأجم ورمال ومواضع لايتسع فيها مجال ولايتهيأ قتال .

وكلما وجدنا فسحة ضايقناهم ، وأرهفنا حدود العزائم والصوارم وأرهقناهم ، وجرت معهم عدة وقعات كاد الكفر فيها يبور ، ودائرة السوء على أهله بنا تدور ، وماء أهل النار بفيض بأسنا عليهم يغور ، ولولا أن الله تعالى قد أخر موعده في نصر أوليائه وقهر أعدائه لوقع الفرار من شغلهم ، وشملت نعمته لنا بتبديد شملهم .

فمنها :

يوم رحيلهم عن عكاء أرهقتهم اليزكية الزكية ونكأت فيها منهم الرمية بل المنية ، وكان الولد الأفضل يومئذ متولي اليزك ، فتولى إسعار لهب المعترك ، ووقف لهم في المضيق على الطريق ، وباشر جمعهم بالتفريق وقطع آخرهم عن أولهم ، وعاق الساقة عن الوصول إلى منزلهم

وبتر وتبك ، وفتك وهتك ، وقتل وسفك وطلب وأدرك .

وعبر الفرنج نهر حيفا لما دهمهم من الأمر ، واحتموا بالمنزل الوعر، ووصل عسكرنا وقد تمنعوا بالنزول ، وتجمعوا في الوعور عن السهول، ولم يبق إليهم نهج للوصول ، وأقام الفرنج في تلك المنزلة أياماً ، وقد نالت معاطسهم إرغاماً ، حتى استجدوا عدداً واستنجدوا مدداً ، واستجدوا ممن وراءهم عُدداً ، وأحكموا التدبير واستأنفوا المسير .

ومنها :

يوم انفصالهم عن قيسارية بارتهم الرماة وبرتهم بالمبرية وأنفذت إليهم رسل المنية ، وقتلت منهم مقتلة جيدة ، ولم تزل السهام إلى مقاتلهم مصوبة مسددة ، إلى أن احتموا بالنزول ، وحلوا عقد تلك البلية عنهم بالحلول ، وقد قتلت من خيلهم عدة ألف رأس ، لم ينفصل راكبها إلا وهو من ثوب التجبيع كاس ، ثم كانت المياه في طريقهم متقاربة المناهل والمسافات غير متباعدة المنازل ، فإذا لزوا بالمنازلة ارتزوا [1] إلى المنزلة ، ولاذوا - وهم أهل النار - بالماء ؛ وقادهم العجز عن الاحتيال إلى الاحتماء .

ثم استقلوا ، منتصف شعبان ، سائرين على البحر بمادتهم وعاديتهم ، شاكين في منعتهم ، ممتنعين بشوكتهم وشكيتهم ، والخيل تجري بهم جريان السيل ، والراجل يلتف عليهم في مثل سواد الليل ، والعساكر الإسلامية جائلة في عراضهم ، مائلة إلى اعتراضهم ، موفقة في مرامها ، مفوقة لسهامها ، محرقة أهل الجحيم بضرامها .

ولما نشب فيهم النشاب وأعجزهم وأزعجهم وأحرجهم بكثرة النكاية

(١) ارتزوا : ثبتوا .

فيهم وأرهجهم ، كابروا وصابروا إلى أن وصلوا أرسوف وقد شارفوا الخسوف وقاربوا الحتوف ، فحملوا بجملتهم حملة واحدة . وجاؤوا كالسحاب بارقة وراعدة .

واندفعت الأطلاب الإسلامية أمامها ، ولم تثبت قدامها حتى أبعدوا بجملتهم في حملتهم ، وبحركتهم في معركتهم ، وظنها السلطان هزيمة ، وبانت بالعاقبة أنها كانت عزيمة ، فإن القلب المنصور ثبت فئة للمتحيز، ومؤئلاً للمتفزز المتحرز . ووقف الأخ العادل ثابتاً قلبه ، نابتاً طلبه ، وكر عليهم في حزبه ذوي الحمية والأنوف الأبية ، والهمم العلية ، كرة ردتهم وأردتهم وصرفتهم عن بلوغ الغاية وصدتهم ، فاستدركت مافرط في النوبة من النبوة ، واستمسكت بما استأنفته في العزمة من القوة ، وقتلت منهم كنداً كبيراً ، وعدداً كثيراً ، وعاد نظيم هامهم بالعراء نثيراً ، ونزلوا بأرسوف راغمي الأنوف ، قد فل جندهم وقتل كندهم .

وهذا طاغوتهم الهالك بسيف سيف الدين ، كان مطاع أولئك الملاعين وإبليس تلك الشياطين ، والمعروف بسير جاك ، واستمر حكمه قبل وصول ملك الاشراك ، وتحت حكمه عدة كثيرة من القوامص والبارونية ، ونفذ أمره على الداوية والاستبارية وكان من عظم شأنه وفخامة مكانه أنه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين المحتشمين ، فما قتل حتى قتلوا ، ولا بذل روحه حتى بذلوا ، وجزع ملك الإنكليز لمصرعه وفزع من ورود مشرعه .

ونزلت العساكر الإسلامية على الماء ، وهو بعيد عن مخيم الكفار ، وخيمت عليهم بحكم الاضطرار ، ثم رحلوا وقصدهم العسكر فصادفهم بقرب يافا ، وكل منهم استدرك بقصده إياها تلفه وتلافي ، فجال دونهم

اقدح متونهم نحيلا ، ومن جممم بقممهم مديلا ، وعلى قومهم بوقمهم محيلا ، حتى باسطهم في ميادينها وخالطهم في بساتينهـا ، ورابطهـم بالأسود في عرينها ، وأسرى الحين إلى سراحينها .

فما وصلوا المدينة إلا وقد تخطفوا من حولها ، واستـولى الرعب على قلوبهم من بأس الحرب وهولها ، وخافوا من فريضة مسألة النكاية وعولها ، وما صدقوا كيف نجوا وأفلتوا ، وسكنوا فيها بنية الاستيطان وتثبتوا ، وعلموا أنهم إن خرجوا أخرجوا ، وإن سلكوا هلكوا ، وزعموا أنهم إذا صبروا ملكوا .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني ٥٤٦ - ٥٤٨

٩٠ - رسالة صلاح الدين إلى قطب الدين بن نور الدين قره أرسلان صاحب حصن آمد يخبره بسقوط عكا :

قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر في هذه السنة من مدد ملوكه وكاثر على نهار الإسلام بإظلام ليل الكفر وحلوكه، فالإسلام ينشد ظهيره ، ويطلب الدين لكشف الغمة من (ابن نوره) نوره .

وهذه عكاء التي كنا عنها ندافع وعن ثغرها نمانع ، ونجري دماء الواردين في البحر لقصدها في بحرها ، ونرد للرد عنها مكايد العداة في نحرها ، قد تمكن منها الكفر على كره من الإسلام، واحتاج من أبى إسلامها بعد أن صابر وصبر إلى الإسلام .

وكانت مودودة فأصبحت موؤودة،وصارت مغصوبة بعد أن كانت عارية من الكفر مردودة ، وإذا أفكر من خذلهـا ، وما أخذلها ، وغاب عنها وما حضرها ، علم أنها أسيرة إهماله وأخيذة إغفاله . وحاشى أن يكون المجلس بالغيبة عنا راضياً ، وعن النجدة عند تحقق الحاجة إليها متغاضياً .

وما بقي للفرنج مع استيلائها على الموضع ، إلا زائد قوة في المطمح والمطمع وقد عزمنا على المصاف ، ومن صدمة الكافر بالجد الكافي الكاف . والله كافل دينه بالنصر ، والمردي بكفره أهل الكفر . وما هذا أوان الونى ، بل هو زمان استنجاح المنى ، فإن العدو الخادر قد آن أوان أن يصحر ، وليل الهدى قد قرب أن يسفر .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني ٥٢٠

٩١ ـ رسالة صلاح الدين إلى صاحب سنجار يخبره بما تم بعد سقوط عكا وخراب عسقلان

قد تقدم الإعلام بما جرى عند رحيل العدو على قصد عسقلان ، وما تم عليه منا في طريقه من النكاية والخذلان ، وأنه قطع في سبعة عشر يوماً مسافة يومين لما لابسه وغامره في الحين ، ومـا صدق كيف وصل إلى يافا فأظهر بها الاستيطان وأقام بها يعمر المكان . وهذه مدينة يافا متوسطة بين القدس وعسقلان ، ومنها إلى كل واحدة منها مسافة نصف نهار ، وكلتاهما من العدو على خوف وحذار ، وكل واحد مـن الموضعين يحتاج في تحصينه إلى ثلاثين ألف مقاتل ، وتعذر الجمع بين حفظ الثغرين وتحصين البلدين : وتعينت في تخريب عسقلان عمـارة القدس وتحصينه وعصمته من العدو وتأمينه .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ ـ ١٩٣

٩٢ ـ رسالة صلاح الدين إلى شمس الدولة بن منقذ رسوله إلى سلطان الموحدين يشرح له سقوط عكا ويستحثه على شرح الوضع للسلطان الموحدي والعودة بالنجدة . وهو من إنشاء القاضي الفاضل .

لقد تجاوزت عدة من قتل على عكا ـ يعني من الفرنج ـ الخمسين ألفاً ،

قولاً لايطلقه التسمح ، بل يجوزه التصفح ، فانبرى في هذه السنة إفرنسيس وإنكليس وملوك آخرون في مـــراكب بحرية وحمالة حملوا فيها الخيول والخيالة والمقاتلة والآلة ، ووصلت كل سفينة تحمـــل مدينة ، فأحدقت بالثغر ، فمنعت الناقل بالسلاح إليه ، والداخل بالميرة إليه .

فصل :

وأخذوا البلد على سلم كالحرب ، ودخله العدو ، ولو لم يدخله مـــن الباب لدخله من النقب ، وما وهنّا لما أصابنا في سبيل الله ومـــا ضعفنا وما رجعنا وراءنا ولا انصرفنا ، بل نحن مكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم ، أو يخرجوا فنناجزهم أو ينشروا فنطويهم ، أو ينبثوا فنزويهم ، وأقمنا على طريقهم وخيمنا على مخنقهم وأخذنا بأطراف خندقهم ، وأحوج مـــا كنا الآن إلى النجدة البحرية والأساطيل المغربية ، فإن عاريتنا بها ترد ، وعاديتنا بها تشتد .

والأمير يبلغ ما بلغه من خطب الإسلام وخطوبه ، ويقوم في البلاغ يوم الجمعة مقـــام خطيبه ، ويعجل العودة وقبلها الإجابة ، ويستصحب السهم ويسبق بشرى الإصابة ، ويشمر بأن الراية قد رفعت لنصر تقدم به عرابه ، فإن للإسلام نظرات إلى الأفق الغربي يقلبها ، وخطرات من اللطف الخفي يقربها ، ويكفي من حسن الظن أنها نظرة ردت الهوى الشرقي غرباً ، وخطرة أوهمت أن تلك الهمة لو تلم بالسيف لأخذت كل سفينة غصباً .[1]

تاريخ ابن الفرات جـ ٤ ، ق ٢ – ٢٥

---

(١) أورد كل من أبي شامة في « الروضتـــين » جـ ٢ ، ١٨٨-١٨٩ وابن واصل في « مفرج الكروب » جـ ٢ – ٣٦١ نصاً قريباً كل القرب من النص أعلاه .

٩٣ ـ مخاطبة صلاح الدين لجنوده لما اقترب الفرنج من القدس

تقدم الفرنج بعد احتلالهم عـــكا ، باتجاه القدس يريدون استرجاعها ، وصلاح الدين موجود فيها مع جنوده ، ووصلته الأنباء بذلك فجمع قواده وقال لهم مايلي :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . اعلموا أنـكم جند الإسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم في ذممكم معلقة ، والله عز وجل سائلـكم يوم القيامة عنهم .

وإن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه عن العباد والبلاد غيركم . فإن وليتم ـ والعياذ بالله ـ طوى البلاد وأهلك العباد وأخذ الأموال والأطفال والنساء ، وعُبد الصليب في المساجد وعزل القرآن عنها والصلاة ، وكان ذلك كله في ذمـكم فإنكم أنتم الذين تصديتم لهـــذا كله وأكلتم بيت مال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم وتنصروا ضعيفهم ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم : والسلام .

٩٤ ـ جواب كبير القواد ابن المشطوب للسلطان على قوله سالف الذكر .

يا مولانا : نحن عبيدك ، وأنت الذي أعطيتنا وكبرتنا وعظمتنا ، وليس لنا إلا رقابنا ، ونحن بين يديك ، والله لا يرجع أحد منـــا عن نصرك حتى يموت [١] .

البدايه والنهاية لابن كثير جـ ١٢ ٣٤٨ ـ ٣٤٩

---

(١) ورد نص هذه المحاورة بين صلاح الدين وقواده في عدد من المصادر مثل « تاريخ ابن الفرات » جـ ٤ ، ق٢ ـ ٦٩ وكتاب « الروضتين » لأبي شامة جـ ٢ ـ ١٩٨ و «النوادر السلطانية » لابن شداد ٢١٦ ؛ وإن يكن هناك خلافات ثانوية بين نصوصها لاتغير المعنى العام لهـــا .

٩٥ رسالة أبي الهيجاء إلى صلاح الدين :

قدمت جنود كثيرة من الأتراك لنصرة صلاح الدين ومنع الصليبيين من أخذ القدس ، وقرر صلاح الدين تحصين البلد والدفاع عنهـــا ، ويبدو أن هذا التدبير لم يعجب الأتراك ومقدمهم أبا الهيجاء ، فأرسل إلى السلطان يقول :

اجتمع عنده جماعة المماليك والأمراء ، وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له ، وقالوا : لا مصلحة في ذلك ، فإنا نخاف أن نحصر ويجري علينا ما جرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الإسلام أجمع ، والرأي أن نلقى مصافاً ، فإن قدر الله تعالى أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ومضى القدس ، وقد احتفظت بلاد الاسلام بعساكرها مدة بغير القدس .

إنك إن أردتنا فتكون معنا أو بعض أهلك ، حتى نجتمع عنده وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك ، والأتراك لا يدينون للأكراد .

النوادر السلطانية لابن شداد ٢١٦ ـ ٢١٧

٩٥مكرر ـ رسالة صلاح الدين إلى الصليبيين حول تسليم الأسرى :

اتفق أهل عكا المحاصرون مع الفرنج على أن يسمح لهـم الفرنج بالخروج منها سالمين مع أموالهم ودوابهم وذراريهم ونسائهم على أن يسلموا لهم البلد بما فيه ومائتي ألف دينار وألفاً وخمسمائة أسير مجاهيل ومائة أسير معينين . ثم طالت المفاوضات وتعثرت بينهم وبين الفرنج وصلاح الدين حتى تم الاتفاق أخيراً على إطلاق سراح أهـل عكا لقـــاء مائة ألف دينار تدفع على ثلاث دفعات : كل شهر دفعة ، وصليب الصلبوت وستمائة أسير . ولكن لم يف الفرنج بإطلاق سراح أهل عكا ،

وإنما أرسلوا إلى صلاح الدين يطلبون منه القسط الأول فأجابهم :

إما أن ترسلوا إلينا أصحابنا وتتسلموا الذي عين لكم في ذلك النجم ، ونعطيكم رهائن على الباقي ، تصل إليكم في نجومكم التالية ، وإما أن تعطونا رهائن على ما نسلمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا .

٩٦ – جواب الصليبيين لصلاح الدين على رسالته سالفة الذكر :

لا نفعل شيئاً من ذلك ، بل تسلمون ما يقتضيه هذا النجم وتقنعون بأمانتنا حتى نسلم إليكم أصحابكم فأبى السلطان ذلك لعلمه بغدرهم (١) .

تاريخ ابن الفرات ج ٤ ، ق ٢ ٢٦ – ٢٧

٩٧ – رسالة جوابية من صلاح الدين إلى ملك الإنكليز الذي حضر إلى الشرق وحاصر عكا وحارب صلاح الدين ، ثم ارسل بعد فترة يطلب الاجتماع به ، فأجابه السلطان بما يلي :

الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة ، وما يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة ، وإذا أراد ذلك فلا بد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة ، ولا بد من ترجمان نثق فيه في الوسط ، يُفهِّم كل واحد منا ما يقوله الآخر . فليكن الرسول بيننا ذلك الترجمان . فإذا أسفرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى .

النوادر السلطانية لابن شداد ١٦٣

---

(١) ذكر ابن الأثير في « الكامل » ج١٢ – ٦٨ نصين يختلفان بعض الاختلاف عن النصين المثبتين أعلاه .

٩٨ - رسالة ملك إنكلترا إلى صلاح الدين حول الصلح ، وقد أرسلها إلى الملك العادل ليوصلها إلى السلطان :

لا تظنن تأخري بسبب ما قيل ، فإن زمام قيادي مفوض إلي، وأنا أحكم ولا يُحكم عليّ ، غير أني في هذه الأيام اعترى مزاجي التياث منعني من الحركة ، فهذا كان العذر في التأخر لا غير . وعادة الملوك إذا تقاربت منازلهم أن يتهادوا ، وعندي ما يصلح للسلطان ، وأنا أستخرج الاذن في إيصاله .

النوادر السلطانية لابن شداد ١٦٥

٩٩ - رسالة ملك إنكلترا للعادل حول الصلح :

طالت المفاوضات بين ملك إنكلترا والعادل حول الصلح ، وأخيراً أرسل ملك الإنكليز إلى العادل يقول :

إنه قد طال بيننا القتال ، ونحن قد جئنا في نصرة أصحاب الساحل ، فاصطلحوا أنتم وهم ، وكل منا يرجع إلى مكانه [١] .

١٠٠ - جواب العادل :

على ماذا يكون الصلح ؟

١٠١ - جواب ملك الإنكليز :

على أن يسلم إلى أهل الساحل ما أخذتم منهم من البلاد .
فأبى الملك العادل وأخبره أن دون ذلك قتل كل فارس وراجل .

تاريخ ابن الفرات جـ ٤ ، ق ٢ - ٣٣

---

(١) ورد نص هذه الرسالة بشكل قريب من النص أعلاه في « النوادر السلطانية » لابن شداد ١٨٦ .

١٠٢ - رسالة صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل من أجل الاجتماع بملك الانكليز :

طلب ملك الإنكليز الاجتماع بالملك العادل من أجل الصلح ، وأرسل السلطان إلى العادل يقول :

إن قدرت أن تطاول الفرنج في الحديث ، فلعلهم يقومون اليوم حتى يلحقنا التركمان فإنهم قد قربوا منا .

النوادر السلطانية لابن شداد ١٨٢

١٠٣ - رسالة ملك الانكليز الموجهة إلى صلاح الدين عن طريق أخيه الملك العادل :

إنك تسلم عليه وتقول له : إن المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية ، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين ، وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد ، والقدس فمتعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد ، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن ، وأما الصليب ، فهو خشبة لامقدار له عندكم وهو عندنا عظيم ، فيمن به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم .

١٠٤ - جواب صلاح الدين لملك الإنكليز على الرسالة السابقة .

القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلايتصور أن ننزل عنه ولانقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت ، وما أقدركم الله على عمارة حجر منها مادام الحرب قائماً ، وما في أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظمية ، ولايجوز

أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام هي أوفى منها [1] .

النوادر السلطانية ١٩٤

١٠٥ ـ رسالة أخرى من ملك الإنكليز إلى صلاح الدين من أجل الصلح :

إني أحب صداقتك ومودتك ، وإنك ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه ، ولابد وأن يكون لنا علقة بالقدس الشريف ، ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لايكون عليه لوم من المسلمين ، وتقسم البلاد بيني وبينه ، ولا علي لوم من الإفرنجية .

النوادر السلطانية لابن شداد ٢٠٢

١٠٦ ـ رسالة أخرى من ملك الإنكليز إلى صلاح الدين حول الصلح وحول تزويج أخته من الملك العادل ، وهو مشروع الزواج الذي اقترحه ريشارد قلب الأسد وكاد يتم لولا أن البابا عارض في ذلك :

إن معاشر دين النصرانية أنكروا عليّ وضع أختي تحت مسلم بدون مشورة البابا ، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه . وها أنا أسير إليه رسولاً يعود في ثلاثة أشهر ، فإن أذن فيها ونعمت ، وإلا زوجتك ابنة أختي وما أحتاج في إذنه في ذلك .

النوادر السلطانية ٢٠٣

١٠٧ ـ رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين حول الصلح .

---

(١) أورد ابن الفرات في « تاريخه » ج ٤ ، ق ٢ ـ ٣٩ نصين قريبين كل القرب من النصين أعلاه .

إنا قد وافقنا على مقاسمة البلاد وإن كل من في يده شيء فهو له فإن كان مافي أيدينا زائداً ، أخذتم في مقابلته ما يقابل الزيادة ممـا يخصنا ، وإن كان مافي أيديكم أكثر فعلنا كذلك ، ويكـون القدس لنا ، ولكم فيه الصخرة .

النوادر السلطانية لابن شداد ٢٠٥

١٠٨ ـ رسالة أخرى من ملك الإنكليز إلى صلاح الدين أرسلها له شفهية مع رسول خاص :

تقول لصاحبك بأنا قد هلكنا نحن وأنتم ، والأصلح حقن الدماء ، ولاينبغي أن تعتقد أن ذلك عن ضعف مني ، بل للمصلحة ، ويكون هو الواسطة بيننا وبين السلطان ، ولاتغتر بتـأخري عـــن منزلي ، فالكبش يتأخر لينطح .

١٠٩ ـ رسالة أخرى من ملك الإنكليز إلى صلاح الدين حول نفس الموضوع أرسلها له مع رسول آخر :

تقول له : إنـــه راغب في مودتك وصداقتك ، وإنه لايريـد أن يكون فرعون يملك الأرض ، ولايظن ذلك فيك ، ولايجوز لـك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولايجوز لي أن أهلك الفرنج كلهم ، وهذا ابن أختي الكندهري قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك ، ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا .

ويقول :

إن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها ، وأنا أطلب منك كنيسة ، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك بما كان تجري المراسلة مع الملك العادل قد قلتُ بتركها وأعرضت عنها ، ولو أعطيتني مقرعة أو قرية لقبلتها وقبلتها .

١١٠ ـ جواب صلاح الدين لملك الانكليز عن الرسالة السابقة :

إنك إذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الإحسان إلا الإحسان ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي ، وسيبلغك ما أفعل في حقه من الخير ، وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة ، وبقية البلاد نقسمها ؛ فالساحلية التي بيدك تكون بيدك ، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا ، ومابين المملين تكون مناصفة ، وعسقلان وماوراءها تكون خراباً لالنا ولا لكم ، وإن أردتم قراها تكون لكم ، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان (١) .

النوادر السلطانية لابن شداد ٢١٨ — ٢١٩

١١١ ـ رسالة من ملك الانكليز إلى صلاح الدين حول الصلح والقدس:

الذي أطلبه منك أن يكون لنا في قلعة القدس عشرون نفراً ، وأن من سكن من النصارى والفرنج في البلد لايتعرض لهم . وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطاة ، والبلاد الجبلية لكم .

١١٢ ـ جواب صلاح الدين لملك الانكليز عن الرسالة السابقة :

إن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة ، وأما البلاد فعسقلان وما وراءها فلابد من خرابه .

النوادر السلطانية لابن شداد ٢٢٠

١١٣ ـ رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين حول الصلح:

إن الملك يسألك ويخضع لك في أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة

---

(١) يذكر ابن الفرات في تاريخه المسمى « تاريخ ابن الفرات » ج ٤ ، ق ٢ ، ٧٢-٧٣ نصاً قريباً كل القرب من نصنا أعلاه .

عامرة ، وأي قدر لها عند ملكك وعظمتك ؟ وماسبب إصراره عليها إلا أن الفرنج لم يسمحوا بها . وهو قد ترك القدس بالكلية ، لا يطلب أن يكون فيه رهبان ولاقسوس إلا في القيامة وحدها ، فتترك له أنت هذه البلاد ويكون الصلح عاماً ، فيكون لهم كل مافي أيديهم من الداروم إلى أنطاكية ، ويسلم مافي أيديكم ، وينتظم الحال ويروح ، وإن لم ينتظم الصلح فإن الفرنج لايمكنونه من الرواح ولايمكنه مخالفتهم.

١١٤ ـ جواب صلاح الدين لملك الانكليز على رسالته السابقة :

إن أهل أنطاكية لنا معهم حديث ورسلنا عندهم ، فإن عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح ، وإلا فلا . وأما البلاد التي يسألها فلايوافق المسلمون على دفعها إليه ، وإلا فلا قدر لها ، وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابله ما خسر عليه لداً في الوطاة .

١١٥ ـ جواب ملك الانكليز إلى صلاح الدين عن الرسالة السابقة :

لايمكننا أن نخرب من عسقلان حجراً واحداً ، ولايسمع عنا في البلاد مثل ذلك وأما البلاد فحدودها معروفة لامناكرة فيها[١] .

النوادر السلطانية لابن شداد ٢٢١

١١٦ ـ رسالةأخرىمن ملك الانكليزإلى صلاح الدين يستجدي الصلح.

هاجم صلاح الدين يافا وأوشك على أخذها ، ثم أرسل ملك الإنكليز ، مع رسول إلى السلطان رسالة يطلب الصلح ويقول :

تسلم على السلطان وتقول له :

---

(١) وردت نصوص هذه الرسائل بشكل مشابه لنصوصنا أعلاه في «تاريخ ابن الفرات» ج ٤ ، ق ٢ ، ٧٣-٧٥ .

بالله عليك أجب سؤالي في الصلح ، فهذا أمر لابد له من آخر ، قد هلكت بلادي وراء البحر ، وما دام هذا مصلحة لالنا ولالكم .

١١٧ ـ جواب صلاح الدين إلى ملك الانكليز على الرسالة السابقة:

إنك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة ، وكان الحديث في يافا وعسقلان . والآن قد خربت هذه يافا ، فيكون لك من قيسارية إلى صور .

١١٨ ـ جواب ملك الانكليز إلى صلاح الدين عن الرسالة السابقة : يقول الملك :

إن قاعدة الفرنج أنه إذا أعطى واحد لواحد بلداً صار تبعه وغلامه . وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان ويكون عساكرهما في خدمتك دائماً ، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي .

١١٩ ـ جواب صلاح الدين لملك الإنكليز :

حيث دخلت هذا المدخل فأنا أجيبك إلى أن تجعل هذين البلدين قسمين : أحدهما لك وهو يافا وما وراءها ، والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها .

١٢٠ ـ جواب ملك الانكليز لصلاح الدين مع رسول بلغه للسلطان :

يشكر الملك ويقول : انه إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار الى بلاده ، والا احتاج أن يشتي هنا .

١٢١ ـ جواب صلاح الدين لملك الانكليز :

أما النزول عن عسقلان فلا سبيل اليه . وأما تشتيته في هذه

البلاد فلابد منها ، لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة ، واذا أقام أيضاً ان شاء الله تعالى . واذا سهل عليه أن يشتي ههنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عنفوان شبابه ووقت اقتناص لذاته ، ما يسهل عليّ أن أشتي وأصيف وأشتي وأصيف ، وأنا في وسط بلادي وعند أولادي وأهلي ، ويأتي إليّ ما أريده ومن أريده . وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني . والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير العسكر الذي عندي في الصيف . وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء [1].

النوادر السلطانيه لابن شداد ٢٢٨

١٢٢ – جواب ملك الانكليز لصلاح الدين عن الرسالة السابقة :

لكم أطرح نفسي على السلطان وهو لايقبلني ، وأنا كنت أحرص حتى أعود إلى بلادي ، والآن فقد هجم الشتاء وتغيرت الأنواء ومابقي بيننا حديث .

تاريخ ابن الفرات ج ٤ ، ق ٢ – ٨١

١٢٣ – رسالة ملك الانكليز إلى الملك العادل حول الصلح .

مرض ملك الإنكليز فأرسل له صلاح الدين فاكهة وثلجاً ، فأرسل ملك الإنكليز إلى الملك العادل مع رسول يقول له :

قل لأخي – يعني الملك العادل – يبصر كيف يتوصل إلى السلطان

---

(١) وردت نصوص مشابهة لهذه الرسائل في «تاريخ ابن الفرات» ج ٤ ، ق ٢ ، ٨٠–٨١ كما وردت نصوص مشابهة لها في كل من كتاب « الروضتين » ج ٢ ، ١٩٣–٢٠٤ لأبي شامة وابن واصل في « مفرج الكروب » .

في معنى الصلح ويستوهب لي منه عسقلان وأمضي ويبقى هو هاهنا مع هذه الشرذمة اليسيرة ويأخذ البلاد منهم ، فليس غرضي إلا إقامة جاهي بين الفرنجية ، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فليأخذ لي عوضاً عن خسارتي على عمارة سورها .

١٢٤ ـ رسالة صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل حول عرض ملك الانكليز الأخير .

إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم ، فإن العسكر قد ضجروا من ملازمة البيكار والنفقات قد نفدت .

تاريخ ابن الفرات ج ٤ ، ق ٢ ٨٣ – ٨٤

١٢٥ ـ رسالة حاكم صور المركيس إلى ملك إنكلترا

احتل ملك الانكليز عكا وأراد احتلال عسقلان ، ولكن صلاح الدين سبقه إليها وأخربها ، فاختلف ملك الإنكليز مع المركيس حاكم صور ، فترك المركيس الملك ولجأ إلى بلده صور ، ومن هناك أرسل له هذه الرسالة :

مثلك لا ينبغي أن يكون ملكاً وتتقدم على الجيوش ، تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك؟! ياجاهل : لما بلغك أنه قد شرع في تخريبها كنت سرت إليه مجداً فرحلته وملكتها صفواً بغير قتال ولاحصار ، فإنه ماأخربها إلا وهو عاجز عن حفظها ، وحق المسيح لو أنني مكانك كانت عسقلان اليوم في أيدينا لم يخرب منها غير برج واحد .

الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ١٢ – ٧١

١٢٦ ـ رسالة كند هري إلى صلاح الدين

أصبح كند هري ابن أخت ملك الإنكليز حاكماً على الساحل الفلسطيني

الصليبي ، فأراد أن يتقرب من صـــلاح الدين فأرسل اليه يطلب منه خلعة ويقول :

أنت تعلم أن لبس القباء والشربوش عنـدنا عيب وأنا ألبسها منك محبة لك .

فأنفذ إليه خلعة سنية فيها قباء وشربوش

الـكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ١٢ - ٧٩

١٢٧ - رسالة صلاح الدين إلى خليفة بغداد يشرح أحواله بعد استرجاعه يافا من الصليبيين :

الخادم حاله على ما أنهاه غير مرة في مرابطة أهل الكفر مستمرة ، وأفاويق النصر على حفولها تارة وبكئها أخرى مستمرة ، والحرب سجال ، وللإسلام في مضمار الظفر مجال . وقد تجاوزت القصة عن حد الإنهاء ، وكلما شارفت القضية الانتهاء عادت إلى الابتداء ، والحادثة متصلة والواقعة مستقبلة ، والنعمة من الله في إجراء أوليائه على أجمل عاداته بإنجاز عيداته في قمع عُداته مؤملة . وما ينقضي يوم إلا عن نصرة تتجدد ونعمة تتمهد وجمع للعدو يتبدد ، وجمر لنكاية فيه يتوقد ، وحد للسيف من حده بدم الشرك يتورد ، وفتح بكر من الحرب العوان بلقاح البيض الذكور يتولد .

وآخر ما تم في هذه الأيام من مرهجات الكفر ومبهجات الإسلام خطوة حلوة ونوبة مالها نبوة ، وهي أن الفرنج لما أعجزهم قصد البيت المقدس ، ولم يستقم لـهم ما سولوه في الأنفس ، عكسوا زعمهم ونكسوا عزمهم وعادوا خائبين ونكصوا هائبين ، واستأنفوا مكيدة أخرى وشرعوا في شر ، خلفه الشرك فيه يمري ، وأجمعوا على قصد مدينة بيروت ، وتآمر على الاتجاه نحوها أعداء الله أولياء الطاغوت .

فسارت العساكر الإسلامية على مباراتهم لمضايقتهم في مضايق طرقاتهم ، وتجرد الخادم في خواصه ووافى يافا ، موقنا من الله تعالى أن مدد نصره إليه يتوافى ، وحمل إليها من معتقلي بنات الأسل ومشتملي بنات الخلل الأسد والعرين . فـــإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ، فأخذها بالسيف عنوة ، وأعاد ضرام النيران بها جنح الليل ضحوة . وأتى القتل والنهب على من وجد فيها من الكفار ، واستخرج مابها من الأموال والعدد والأذخار ، وخلص من المسلمين من كان بها في الإسار ، وأضحت الفـــرنج فيها تبارى بالتبار .

وطلب من بالقلعة الأمان على أن يسلموا من القتل ويستسلموا للأسر ، ونزل البطرقُ والقسطلان والمرشان وجماعة من المقدمين خـــرجوا ودخلوا تحت القهر ، فبينما هم مشتغلون بالنزول ومنقطعون إلى الوصول ، جاءهم الغوث في البحر وظهرت منهم أمارة الغدر ، ورجع العدو عن مقصده ، ورده الله وخذله ، ونصر الإسلام وأخذ له ، وسره بما يسره له وأجذله ، ونال سيف الدمار من سيب دمائهم عله ونهله .

وكان المقصود ردهم عن موردهم وصدهم عن مقصدهم ، فأربى ما قيضه الله من فتح الهدى وحتف العدا على الأرب ، واهتزت أعطاف البيض والسمر والمنتشية من كأس نجيعها للطرب . والقوم الآن اشتغلوا بمصابهم ، واجتمعوا لضم ماانتشر من أسبابهم ، وراسلوا في الصلح على أن تخلى لهم عسقلان فما أجيبوا ، وعلموا بجهلهم أنهم ماأصابوا فيما دبروه لإدبارهم فأصيبوا . والعساكر الاسلامية اليوم عليهم مجتمعة ، ومسالك المهالك لضائقتهم ومضايقتهم متسعة . وقد آن أن تحل معاقد معاقلهم التي هي ممتنعة .

وكل ما يجده الله من علو يظهر ، وعدو يقهر ، ونصر يزهر ، ونصل بالظفر يشهر ، فهو بركات الاستمساك بطاعة المواقف الشريفة الإمـــامية

الناصرية ، وبحمد الله ويمن أيامها وفضل إنعامها دلائل النصر ظاهرة ، وأسباب الظهور متناصرة ، ووجوه الآمال بنشر نجاحها ويسر مـــا في اقتراحها سافرة .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني ٦٠١ – ٦٠٢

١٣٨ ـ رسالة ثانية من صلاح الدين إلى الديوان العزيز يشرح نوبة يافا والهدنة العامة التي عقدت مع الفرنج :

قد سبقت مطالعة الخادم بإنهاء حاله ، وماهو لايزال مستمراً عليه من جهاد العدو وقتاله ، وما كان عليه الكفر من الجمع الملتهم ، والجمر الملتهب والحشر والحشد المضطرم المضطرب ، وأنهم قد اجتمعوا على قصد البيت المقدس ، وعزموا على بذل المصونـين من النفائس والأنفس ، وسلكوا في القصد كل طريق ، وتوافوا وتوافدوا من كل فج عميـق ، ودنوا على ظن أن جنى الفتح لهم دان ، وأن شبا الحتف عنهم وان ، ولما قربوا عرفوا أن المرمى بعيد المرام ، وأنهم لايستطيعون مقاومـة عسكـر الإسلام ، فنكصوا على أعقابهم ، ونكسوا ماضربوه من آرائهم وآرابهم ، وعلموا عقبى ماجهلوه ، وقطعوا من أسباب العزم ما وصلوه ، ونكثوا من عقد القصد ما أبرموه ، وشرعوا في أمر آخر توهموه .

ومضوا واستأنفوا الاستعداد واستنهضوا الأمداد ، وحصنوا بلادهم وجمعوا فيها طرافهم وتلادهم ، وشحنوا عسقلان ويافا بالقوة الجامعـة والعدة النافعة والشوكة الرادعة والشكة القاطعة ، واستظهروا فيهـا بكل ماقدروا عليه من المنعة الحامية ورجال الصبر على النار الحامية . ثم ساروا بحشودهم المجموعة وجموعهم المحشودة ، وظلال الضلال الممدودة وضلال الصلادم المقـــودة ، مستمطري شآبيب الأنابيب ، مستنفري

سراحين السراحيب ، وتوجهوا على سمت ثغر بيروت بنيـة الحصر ، وغفلوا عما أجراه الله لأوليائه على أعدائه من عوائد النصر .

ولما نمي خبرهم وطار شررهم وخيف ضررهم ، أنهض الخادم العساكر المنصورة إلى مقابلتهم ومباراتهم ومقاتلتهم ، ونزل في مماليكه وخواصه ورجال الإقدام ذوي استخلاصه على مدينة يافا فأخذها بالسيف عنوة ، وجب بها من سنام الكفر ذروة ، وحل منه بغزوته إليهـا عـروة ، واستكمل للإسلام بتملكها حظوة ، وقتل كل من حوته وسبى وناب المشركين بما دى بجده ومضى حده فيه . وغنم من أموالهـا المسلمـون ما خف وثقل ، وأسر من وجد فيها وقتل ، ونهب مـن آلات الحصر ما خرج عن الحصر ، وابتذل كل ما صين من الغلال والعـدد والمـال الدثر للذخر .

وطلب أهل القلعة الأمان من القتل خاصة دون الأسر ، وشرطوا أنهم لا يمكنون من الدخول إليهم من جاءهم للنجدة من البحر ، وأخرجوا على سبيل الرهينة مائة رجل من محتشميهم وكنودهم ومقدميهم مثل البطرك الكبير والقسطلان والمرشان ومن يجري مجراهم من الفرسان . فلـمـا أصبحوا جاءهم ملكهم في البحر فغدروا ، وامتنعوا بعد انقيادهم للعجز حين قدروا ، وخيم العدو هناك في جموعه ، وندب إلى عسكره من يأمره برجوعه ، ووافت في البر جحافلة حافلة ، وتواردت في الاسراع إلى الصريح ظلماناً جافلة .

فأجرى الخادم على الرهائن حكم الاسترقـاق وسيرهم إلى دمشق في أقياد الوثاق ، ورجع إلى القوم فهزمهم وردهم إلى عكا بعدما نكـى فيهم ، وأضحك من دمائهم البيض وأبكى وعاد إلى العدو ونـزل عليه ، وكدر الموارد لديه حين زحف إليه ، واجتمعت من أهل الاسلام

العساكر واتسعت على المشركين في المضايقة الدوائر ، ورجا المؤمن وخاب الكافر ، وجالت بأوجالها الضمائر لما جالت عليهم الضوامر ، وعاينوا العذاب الواقع وعدموا الدوافع وشاهدوا المصارع ، فما زالت رسلهم تتردد بالضراعة وبذل الطاعة والنزول عن الاشتطاط والدخول تحت الاشتراط ، والغبطة بما هزّ له الإسلام عطف الاغتباط واحتوى عليه بيد الاحتياط .

وكانوا لايجابون إلا بالإباء ، ولاتلقى رسلهم إلا بتصميم عزم اللقاء ، حتى حضر أكابر الدولة وأمراؤها ، وأولياء الطاعة وألباؤها ، وأشاروا بعقد الهدنة والانتهاز فيها لفرصة المكنة ، واستقرت المهادنة على ما أعز للإسلام الأنوف وأذل من الكفر الرقاب ، ورجح وأنجح من أهل الإيمان الآراء والآراب ، بعد أن نزلوا عن البلاد والمعاقل التي تملكوها وبعدوا [عن] الطرق التي سلكوها وسألوا الأمان على الاماني التي استدركوها وما أدركوها، وسلموا عسقلان وغزة والداروم ويُبْنَى ولدوقل الصافية وغير ذلك من الأعمال والأماكن الوافرة الوافية .

واقتنعوا بيافا وعكاء وصور ، واستبدلوا من تطاولهم وقدرتهم العجز والقُصور ، ورأوا عزهم في ذلهم ، وصونهم في بذلهم ، وسلامتهم في سلمهم وغنامهم في عدمهم، ولانوا بعد الاشتداد ودانوا للانقياد ، وهانوا بعد الاعتزاز ، وهابوا بعد الاغتراب وأقروا بعد الإنكار لتعود جفونهم إلى القرار وأمورهم إلى القرار ، وخلوا ديارهم وأخلوها ، وماسألوا عن حب الأوطان والأوطار وسلوها ، مدة الهدنة التي أخذوا بها اليد وأعطوا اليمين : ثلاث سنين وثمانية أشهر ، أولها أول أيلول يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين ، ووضعت الحرب أوزارها ورحضت بماء السلم أوضارها وأخذت من أهل النار ثأرها ، وقصدت الفرنج من وراء البحر ديارهم ،

ولاشك أنهم يستمدون في هذه المدة ويستمدون مايستطيعونه من القوة والعدة ، ويستجدون عزمة العودة .

وقد شرع الخادم في تحصين الثغور وإمرار الأمور وإبرام معاقد المعاقل وإحكام قواعد الحق بتعفية آثار الباطل ، وإتمام أسوار القدس وخنادقه حتى يبقى على الدهــر آمنا من طروق العدو وطوارقه ، وإعادة الأعمال والأحوال إلى عادة عمارتها وحلية نضارتها ، وإجمام العساكر وإراحتها ليوم تعبها الذي هو عين راحتها .

ولقد كان الخادم للسلم متكرها ، ولايرى أن يكون كشيمة ملوك العصر عن الغزو مترفها ، لكنه أجمع من عنده من الأمراء وذوي الآراء على أن المصلحة في المصالحة راجحة ، وأن صفقة الكفر فيها خاسرة وصفقة الإسلام رابحة .

وأن في إطفاء هذه الجمرة ، وقد وقدت ، سكوناً عــاماً وامناً تاماً ، وتفريقاً لجمع الكفار بشمل النصر عليهم ضاماً ، فهي سلم أنكى من الحرب فيهم ، وأنها تقصيهم من هذه الديار بل تنفيهم ، وإلى متى تجتمع هذه الأعداد الهائلة لهؤلاء الأعداء ، وتتفق هذه الأمداد المتواصلة من أهل النار في الماء . وماصح لهم هذا الجمع على التكسير إلا في خمس سنين ، وماوافى إليهم مددهم من ألوفهم سوى مئين . وكل مــا كان لهم من أموالهم في بلادهم نقلوه وأنفقوه ، وأيقنوا أن مرامهـــم صعب وتحققوه ، فمتى انفضوا انفضوا ، وقد آن أن ُيرفضوا ويرفضـوا . وإلى أن يتفق مثل هذه الجموع ويعزم ذاهبهم على الرجـوع يكون الإسلام قد استظهر بقوته واستكثر من نجدته ومن جدتـه ، فرأى موافقة الإجماع وقبل مناصحة الأشياع وتفرق جمع الكفر وباخ جمره وأمن نكاه ومكره ، وانشرح صدر الإسلام وتضوع نشره ، وتوضح بسنيّ النصر فجره .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني ٦٠٦ - ٦٠٩

دور الانهيار الصليبي

آ ـ بقايا الايوبيين :

١٢٩ ـ رسالة أرسلها نيابة عن الملك العادل وباسمه إلى الملك المنصور صاحب حماة الصاحب صفي الدين بن سكر يخبره فيها أن الملك العادل أرسل إلى صاحبي بعلبك وحمص يطلب منهما إنجاد الملك المنصور في حربه ضد الفرنج في بعرين سنة ٥٩٨ هـ .

علم المملوك حركة المولى ونزوله قبالة حصن الأكراد ، وما عزم عليه من المصابرة والجهاد . وقد كتب السلطان ـ أعز الله أنصاره ـ إلى صاحب حمص وبعلبك ـ أبقاهما الله ـ بمقتضى ما أشار المجلس ونبه عليه من إنفاذ عسكرهما إليه .

وقد علم الله أن المملوك لايألو جهداً في خدمته التي يعدها من السعادة ، والمبادرة إلى امتثال أمثلته التي صارت له كالعادة (١) .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٣ - ١٤٢

١٣٠ ـ رسالة أخرى من الصاحب صفي الدين إلى الملك المنصور صاحب حماة يخبره أن الملك العادل عتب على صاحبي حمص وبعلبك تأخرهما في إنجاده وأنه طلب من صاحب حلب إنجاده :

كن كيف شئت من العباد فأنت من قلبي قريب

عرض المملوك كتاب المولى على السلطان ـ خلد الله ملكه ـ وقد كتب إلى الملك الظاهر والملك الأمجد والملك المجاهد ـ عز نصرهم ـ

---

(١) أورد ابن الفرات في « تاريخه » ج ٤ ، ق ٢ / ٢٠٠ نصاً قريباً كل القرب من النص أعلاه .

بتسيير عساكرهم إليه وورودها عليه ، وإعانته على جهاده ومرابطته والإنقياد إلى آرائه وطاعته . فجزاه الله عن الإسلام ماجزاه ، فقد أوتي من الفضل مالم يؤت أحد سواه ، وقد قام بأمور الجهاد لما قعد عنه عداه ؛ وقد اقتنى الأجرين وحاز الشكرين وقام بالحقين وأدى مايجب عليه من الفرضين ، فشكره مخلد في صحائف الأيام ، وحمده تنطق بـه ألسنة الأقلام ، وقد أهل له في الآخرة عن هـذا السعي المشكور دار السلام (١) .

تاريخ ابن الفرات ج ٤ ، ق ٢ - ٢٥١

١٣١ - رسالة الملك العادل إلى الملك المنصور صاحب حماة لما تحارب مع الفرنج سنة ٥٩٩ هـ وكسرهم :

وردت مكاتبة المجلس ووقف الخادم عليها ، وعلم ما أشار فيها : من يُمن حركته وسعادة وجهته وبركة نصرته ، ودخوله إلى بلاد الكفار وما أثره فيها وفيهم من جميل الآثار ، فاستبشر بمادلت عليه من هذه النعم الراهنة والعوارض الظاهرة والباطنة ، والله يجازيه أحسن الجزاء ويضاعف له من الحسنات أوفر الأجزاء ، ويرحم سلفه الكريم ويحسن له في الحديث والقديم ، ويؤيده في كل حركة بأحزاب الملائكة (٢) .

تاريخ ابن الفرات ج ٤ - ق ٢ - ٢٥٥

١٣٢ - رسالة أخرى من الملك العادل إلى الملك المنصور صاحب حماة حارب المنصور الاستبارية فكسرهم فطلبوا الصلح فأرسل إلى العادل يستشيره فأجابه بما يلي :

---

(١) ورد في «مفرج الكروب» لابن واصل جـ ٣ - ١٤٢ نص يكاد يطابق نصنا أعلاه

(٢) وردفي «مفرج الكروب» لابن واصل جـ٣ - ١٤٥ نص يكاد يطابق نصنا أعلاه .

الذي يراه المجلس من الصواب يعتمده ، والمصلحة _ إن شاء الله _ فيما يقصده . وأما الفرنج - خذلهم الله - فإن مادتهم قليلة ، ونجدتهم متأخرة . وقد وصلت الكتب من كل جهة تخبر بضعفهم ، ولم يتجدد سوى مضيهم إلى أنطاكية للصلح بين الأبرنس وابن لاون . والثغور - بحمد الله - قد تحصنت ، والأمراء والعساكر إليها قد جردت ، وهي بهم قد ملئت وشحنت .

والله تعالى يوزع شكر المجلس فقد بلغ الغاية في الإحسان وأتى بما يزيد على الإمكان في هذا الشان .

ويوعز المجلس بأن يقوي عليهم القول ويشدد عليهم الطول [1] .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٣/١٥٢ – ١٥٣ .

١٣٣ - رسالة من القاضي الفاضل إلى الملك العادل يحثه على الجهاد والمرابطة :

هذه الأوقات التي أنتم فيها عرائس الأعمار ، وهذه النفقات التي تجري على أيديكم مهور الحور في دار القرار . وما أسعد من أودع يد الله ما في يديه فتلك نعم الله عليه وتوفيقه الذي ما كل من طلبه وصل إليه . وسواد العجاج في هذه المواقف بباطن ما سودته الذنوب من الصحائف . فما أسعد تلك الوقفات ، وما أعود بالطمأنينة تلك الرجفات !!

١٣٤ - رسالة أخرى من القاضي الفاضل إلى الملك العادل حول نفس الموضوع السابق :

أدام الله ذلك الاسم تاجاً على مفارق المنابر والطروس ، وحباه

---

(١) يروي ابن الفرات في « تاريخه » جـ ٤ ،ق ٢ - ٢٦٠ نصاً قريباً كل القرب من النص أعلاه .

الدنيا ومافيها من الأجساد والنفوس ، وعرف المملوك من الأمر الذي اقتضتـه المشاهدة وجرت به العافيـة في سرور ، ولا يزيد على سيبه الحال بقوله :

ألم تر أن المرء تدوى يمينه   فيقطعها عمداً ليسلم سائره

ولو كان فيها تدبير لكان مولانا سبق إليه ، ومن قلم من الأصبع ظفراً فقد جلب إلى الجسد بفعله نفعاً ، ودفع عنـه ضرراً . وتجشم المكروه ليس بضائر إذا كان ماجلبه سبباً إلى المحمود ، وآخر شتـوة أول كل غزوة ، فلا يسأم مولانا نية الرباط وفعلهـا ، وتجشم الكلـف وحملها ، فهو إذا صرف وجهه إلى وجه واحد وهو وجـه الله صرف الوجوه إليه كلها ؛ والذين جاهدوا فينا لنهدينهـم سبلنـا ، وإن الله لمع المحسنين (١) .

البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ – ١٤

١٣٥ رسالة الامبراطور فريدريك الثاني إلى الملك الكامل لمـا أتى إلى سورية سنة ٦٢٦ هـ من أجل القدس :

تراسل الملك الكامل مع الإمبراطور وأطلعه على مكاتبة ملوك الفرنج إليه بأن عزمهم أن يمسكوه فبعث إلى الكامل يقول :

إني عتيقك ، وتعلم أني أكبر ملوك الفرنج ، وأنت كاتبتني بالمجيء ، وقد علم البابا والملوك باهتمامي ، فإن رجعت خائباً انكسرت حرمتي . وهذه القدس فهي أصل دين النصرانية . وأنتم قد خربتموها ، وليس لها طائل ، فإن رأيت أن تنعم عليّ بقصبة البلد ليرتفع رأسي بـين

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .

الملوك ، وأنا التزم بحمل دخلها إليك[1] .

كتاب العبر في خبر من عبر للذهبي ج ٥ – ١٠٢

١٣٦ ـ رسالة أخرى من الامبراطور للكامل :

بعد وصول الإمبراطور فريدريك الثاني إلى عكا أرسل إلى الكامل يقول مع رسول :

الملك يقول لك : كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء ولا أجيء إليهم . والآن ، فقد كنتم بذلتم لنائبي – في زمن حصار دمياط – الساحل كله ، وإطلاق الحقوق بالاسكندرية ، وما فعلنا . وقد فعل الله لكم مافعل من ظفركم وإعادتها لكم . ومن نائبي ؟ إن هو الا أقل غلماني ، فلا أقل من اعطائي ما كنتم بذلتموه له .

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٢ ٢٢٨-٢٢٩

١٣٧ ـ رسالة أحمد بن عبد السيد صلاح الدين الاربلي إلى الملك الكامل بعد أن تفاوض مع الامبراطور فريدريك الثاني الذي وصل إلى عكا سنة ٦٢٦ هـ وقرر معه القواعد .

زعم الزعيم الأنبرور بأنه ... سلم يدوم لنا على أقواله
شرب اليمين فإن تعرض ناكثاً ... فلياً كلن لذاك لحم شماله

وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ – ١٨٦

١٣٨ – رسالة فرنج دمياط إلى الملك الكامل حول رد صواري أخذها منهم قائده شجاع الدين :

---

(١) أورده ابن العماد في « شذرات الذهب » جـ ٥ – ١١٨ نصاً يكاد يطابق نصنا اعلاه .

حاصر المسلمون دمياط سنة ٦١٨ هـ وتغلبوا على الفرنج واستلموا دمياط منهم ، وعهد الكامل الى شجاع الدين أن يستلم البلد منهم ، وكان في البلد صوارٍ عظام جداً ، فأراد الفرنج أخذها فمنعهم من ذلك شجاع الدين فكتب الفرنج الى الكامل يقولون :

إن هذه الصواري لنا ، وإن مقتضى الصلح أن ترد إلينا .

١٣٩ ـ جواب شجاع الدين إلى الكامل الذي أمره بإعطائهم الصواري فامتنع، وكتب إليه يقول :

ان الفرنج أخذوا منبر جامع دمياط وكسروه وأهدوا كل قطعة منه الى ملك من ملوكهم ، فيأمرهم السلطان أن يردوا الينا المنبر لنرد عليهم الصواري .

فكتب السلطان اليهم وذكر لهم ماذكره شجاع الدين فعجزوا عن رد المنبر .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٤ ٩٩-١٠٠

١٤٠ ـ رسالة الملك المعظم عيسى إلى نائبه في دمشق أبي الظفر حول أخذ الفرنج دمياط سنة ٦١٦هـ ويطلب منه تحريض الناس على الجهاد :

قد علم الأخ العزيز بأنه قد جرى على دمياط ماجرى . وأريد أن تحرض الناس على الجهاد وتعرفهم ما جرى على اخوانهم أهل دمياط من الكفرة أهل العناد . واني كشفت ضياع الشام فوجدتها ألفي قرية ، منها ألف وستمائة أملاك لأهلها ، وأربعمائة سلطانية ، وكم مقدار ماتقوم به هذه الأربعمائة من العساكر ؟ وأريد أن تخرج الدماشقة ليذبوا عن أملاكهم ، الأصاغر منهم والأكابر ، ويكونون لقاؤنا وهم صحبتك الى نابلس . . . في وقت سماه .

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٦ ـ ٢٣٩

١٤١ - رسالة ملك فرنسا لويس التاسع إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي لما أتى إلى مصر محارباً له :

أما بعد : فإنه لم يخف عنك أني أمين الأمة العيسوية ، كما أني أقول إنك أمين الأمة المحمدية . وإنـــه غير خافٍ عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل الرجـال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ، ونخلي منهم الديار ، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح إلى النهاية . فلو حلفت لي بكل الأيمان ، ودخلت على القسوس والرهبان ، وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان ماردني ذلـــك عن الوصول إليك وقتلك في أعز البقاع عليك ، فإن كانت البلاد لي فيا هدية حصلت في يدي ، وإن كانت البلاد لك والغلبة عليّ فيدك العليا ممتدة إليّ . وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي تمـــلأ السهل والجبل ، عددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا .

١٤٢ - جواب الملك الصالح نجم الدين إلى الملك الفرنسي لويس التاسع وهي من إنشاء القاضي بهـــاء الدين زهير بن محمد كاتب الإنشاء :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فقد وصل كتابك وأنت تهدد بكثرة جيوشك وعـــدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف ، وماقُتِيل منا قِرن إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ، فلو رأت عيناك ، أيها المغرور ، حد سيوفنا وعظم حروبنا ، وفتحنا منـكم الحصون والسواحل ، وإخرابنا منـكم ديار الأواخر

والأوائل ، لـكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولابد أن تزل بك القدم ، في يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسيء بك الظنون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . فإذا قرأت كتابي هذا فكن فيه على أول سورة النحل : أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، وكن على آخر سورة ص : ولتعلمن نبأه بعد حين . ونعود إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين ، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين (١) . وإلى قول الحكماء : إن الباغي له مصرع ، وبغيك يصرعك ، وإلى البلاء يقلبك ، والسلام (٢) .

كتاب السلوك للمقريزي جـ ١ ، ق ٢ ٣٣٤ – ٣٣٥

٤٣ – رسالة الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح إلى نائبه في دمشق جمال الدين يغمور يبشره باستسلام الصليبيين وظفر المنصورة .

الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، وما النصر إلا من عند الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . وأما بنعمة ربك فحدث ، وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها . نبشر المجلس السامي الجمالي بل نبشر المسلمين كافة بما منّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين ؛ فإنه كان قد استكمل أمره واستحكم شره ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد ، فنودوا ألا تيأسوا من روح الله .

ولما كان يوم الإثنين مستهل السنة المباركة وهي سنة ثمان وأربعين وستمائة ، تمم الله على الإسلام بركتها ، فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقاً لايعلمهم إلا الله جاؤوا من كل فج عميق

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٩ .

(٢) ورد نص مشابه كل المشابهة للنص اعلاه في « الخطط المقريزية » جـ ١ – ٣٨٦ .

ومكان سحيق . فلما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح على ما وقع الاتفاق بينهم وبين الملك الكامل فأبينا . ولما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين ، فسرنا في آثارهم طالبين ، ومازال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل ، وقد حل بهم الخزي والويل . فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه في اللجج . وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج ، والتجأ الفرنسيس إلى المنية وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه ، واستلمنا دمياط بعون الله تعالى وقوته وجلاله وعظمته (١) .

كتاب الخطط للمقريزي ج ١ - ٣٩١

ب - المماليك -

١ - الملك الظاهر بيبرس ٦٥٨ هـ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ م - ١٢٧٧ م .

١٤٤ - رسالة صاحب طرابلس الفرنجي إلى الملك الظاهر بيبرس .

أغار الملك الظاهر بيبرس على ضواحي طرابلس فأرسل إليه صاحبها يقول :

مامراد السلطان في هذه الأرض ؟

١٤٥ - جواب السلطان عن الرسالة السابقة إلى صاحب طرابلس

جئت لأرعى زروعكم وأخرب بلادكم ثم أعود إلى حصاركم في العام الآتي .

البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ - ٢٥٩

---

(١) أورد المقريزي نفسه في كتابه « السلوك » ج ١ ، ق ٢ / ٣٥٦-٣٥٧ نصاً آخر لهذه الرسالة لايختلف عن النص أعلاه ، كما اورد ابن تغري بردي في « النجوم الزاهرة » ج ٩ - ٣٦٧ نصاً مشابهاً لنصنا هذا .

١٤٦ - رسالة السلطان الملك الظاهر بيبرس إلى فرنج عكا .

نقض فرنج الساحل الهدنة المعقودة بينهم وبين بيبرس ولم يفوا بشروطها ، فزحف السلطان على بلادهم بجيشه . فلما اقترب منهم خافوا وراسلوه في استمرار الهدنة وادعوا أنهم لم يعلموا بقدومه ، فأرسل إليهم كتاباً يقول فيه :

من يريد أن يتولى أمراً ينبغي أن يكون فيه يقظة ومن خفي عليه خروج هذه العساكر وجهل ما علمته الوحوش في الفلاة والحيتان في المياه من كثرتها التي لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه التراب الذي أثارته خيل هذه العساكر ، ولعل وقع سنابكها قد أصم أسماع من وراء البحر من الفرنج ومن في موقان [١] من التتر . فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب مدينتكم ولاتدرون ، فأي شيء تعلمون ؟ وماذا تحيطون به علماً ؟ ولم لا أعطيتم لوالي غزة الكتاب الذي كنا سيرناه لكم بتمكين رسولكم إذا حضر ؟

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٢ - ٤٨٣

١٤٧ - رسالة شارل ملك صقلية إلى الملك الظاهر بيبرس .

كان شارل دوق أنجو أخو ملك فرنسا لويس التاسع ملكاً على صقلية ، فأراد عقد معاهدة تجارية مع دولة المماليك ، فأرسل إلى السلطان الظاهر هدية مع رسالة من استاداره هذا نصها :

بأن مخدومه أمره أن يكون أمر الملك الظاهر نافذاً في بلاده ، وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه .

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٢ - ٥١٣

---

(١) موقان : إحدى اقسام أذربيجان .

١٤٨ – رسالة السلطان الملك الظاهر بيبرس إلى ملك قبرص :

أرسل بيبرس أسطولاً مؤلفـــاً من إحدى عشرة سفينة إلى قبرص لغزوها فكسرتها الريح وأسر من فيهـا ، وأرسل ملك قبرص يخـبر السلطان بذلك ويعيره ، فأجابه السلطان بما يلي :

إلى حضرة الملك اوك : ذكر بيالي ، جعله الله ممـن يوفي الحـق أهله ، ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله . نعلمه أن الله إذا أسعد إنساناً دفـع عنه الكثير من قضائـه باليسير ، وأحسن إليه بالتدبير فيما جرت به المقادير . وقد كنت عرفتنا أن الهوا كسر عدة من شوانينا ، وصار بذلك يتبجح وبه يفرح . ونحن الآن نبشره بفتح القرين ، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بمـا كفى الله ملكنا من العين . وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب . الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب . وقد قال وقلنا ، وعلم الله أن قولنا هو الصحيح . واتكل واتكلنا ، وليس من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح . وما النصر بالهواء مليح . إنمـا النصر بالسيف هو المليح . ونحن ننشيء في يوم واحد عدة قطايـع ، ولا ينشيء لكم من حصن قطعة ، ونجهز مائة قلع ، ولا تجهز لـكم في مائة عام قلعة . وما كل من أعطي مقذافاً قذف وما كل من أعطي سيفاً أحسـن الضرب بـه أو غرف . وإن عدمت من بحرية المراكب آحـاد فعندنا من بحرية المراكب آلاف . وأين الذين يطعنون بالمقاذيف في صدر البحر من الذين يطعنون بالرماح في صدر الصفوف . وأنـتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول ، وفرق بين من يجريها كالبحار ومن تقف به في الوصول . وفرق بين من يتصيد على الصقور من الخيل

الغراب ، وبين من إذا افتخر قال تصيدت بغراب . ولئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة ، فكم أخذنا لكم من قرية معمورة وان استوليتم على سكان فكم أخلينا بلادكم من سكان ، وكم كسبت وكسبنا ، فيرى أينا أغنم . ولو أن في الملك سكوتا كان الواجب عليه أنه سكت وما تكلم .

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٢ ـ ٥٩٤ حاشية رقم ٣

١٤٩ – رسالة جوابية من الملك الظاهر بيبرس إلى مقدم الاستبارية:

حصلت عدة مراسلات بين الملك الظاهر بيبرس ومقدم الاستبارية حول نقضهم الهدنة المعقودة بين الطرفين ، وخالف الاستبارية شروط الهدنة فحصنوا عكا ، وأرسل السلطان الى مقدمهم عدة رسائل مستفسراً وأرسلوا له عدة أجوبة لم يطمئن اليها ، وأخيراً أرسل الى مقدمهم يقول:

أما تجديد الربض لحفظ الصعاليك ، فالبلاد ماتحفظ بالأسوار ، ولاتحفظ الرعية ولا بالخنادق (١) ، ولاتحفظ الا بأحد أمرين : اما بالسيوف والعزائم ، وإما بإحسان الجيرة وكف الأذى . ومن يخاف من اللصوص لِمَ لايخاف من غيرهم ؟ وأما أمر التتار فقد علم كل أحد أنا عندما تحصنتم بالأسوار والخنادق خرجنا نحن إلى التتار . وما جعلنا حصوننا الا خيولنا ، ولا خنادقنا الا سيوفنا ، ولا أسوارنا الا رجالنا . وأما قولكم إن قلاعكم ماتخاف إلا الله ، ولايجسر أحد أن يصل إليها ، فسوف ترون كيف يكون الوصول إليها إن شاء الله تعالى ولايفزع من أخبار التتار إلا مثلكم . وإلا هـذه عساكري أولها في الفرات وآخرها في عيذاب وماهي متواصلة .

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٢ ـ ٥٦٩

---

(١) كذا بالأصل .

١٥٠ ـ رسالة الملك الظاهر بيبرس الى فرنج عكا من أجل ملكة بيروت :

احتال صاحب قبرص وحاكم عكا على صاحبة بيروت وجعلاها تترك مملكتها وتذهب إلى قبرص ، وبقيت بيروت بدون سلطان ، فأرسل بيبرس إلى صاحب عكا يقول :

هذه الملكة بيني وبينها هدنة ، وماسافر زوجها حتى أودعها عند جاهي . وعادتها إذا سافرت تستودعني بلادها . وفي هذه المرة ما سيرت لي رسولاً ، ولابد من حضورها وأن تتوجه رسلي وتشاهدها وإلا أنا أحق ببلادها .

تاريخ ابن الفرات ج ٧ — ٣٥

١٥١ ـ رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى القاضي ابن خلكان يبشره بفتح قيسارية وأرسوف عنوة سنة ٦٦٣ هـ ، وهي من إنشاء فتح الدين عبد الله بن القيسراني :

جـدد الله البشائر الواردة على المجلس السامي القضائي وأسره بما أسمعه وأبطل ببركته كيد العدو ودفعه ، وجاء بها سبب الخير وجمعه . ولا زالت التهاني إليه واردة والمسرات عليه وافدة ونعـم الله وبركاته لديه متزايدة . هذه المكاتبة تبشر بنصر من الله وفتح قريب ، وهناء يأخذ له المجلس منه أوفر نصيب . ونوضح لعلمه الكريم أنه لما كان يوم الاثنين التاسع من رجب المبارك قدمنا خيرة الله تعالى وزحفنا على مدينة أرسوف بعساكرنا المنصورة ، وأدرنا بهـا الأطلاب للزحف ، وكانت مرتبة على أحسن صورة وتناولناها مناولة القادم إذا ضم ضمة المشتاق ، واستولينا على جميع أهلهـا فأضحى كل منهم من القيد في

وثاق ، وأضرمنا بها النيران ، فعجل الله لهم بها في الدنيا قبل الآخرة الإحراق ، وجرعناهم غصص الموت فتجرعوها مـرة المذاق . وكانت مدة القتال ثلاثة أيام آخرهـا يوم الخميس ثاني عشر شهر رجب المبارك فلم يفلت منهم أحد ، وعاجلناهم في هـذه المدة القريبة فـلم يغنهم ما فعلوه في تحصين البلد ، ولم يمس أحد منهم في ليلة الجمعة وقد نجا من القتل إلا وهو أسير ، واحتطنا بهم فما نجـا منهم بحمد الله صغير ولا كبير . وعجلنا للمجلس بهذه البشارة ليأخذ منها حظاً وافراً ويقرأ آيات نصر الله على أصحابه من الفقهاء والعدول . ويحدث بها فيكون تالياً لها بين الأنام وذاكراً ، ويكتب مضمون ذلك إلى نوابه من الحكام ليشهر هذا الخبر السعيد بين الأنام ، ويواصلنا بدعائه فإننا نرجو بـه الزيادة . والله تعالى يجزينا ويجزيه من ألطافه على أجمل عادة ، بمنـه وكرمه إن شاء الله تعالى .

كتب ثاني عشر شهر رجب المبارك وبين الأسطر وبين الأسطر وعدة الأسرى ألف أسير ، وأما القتل فكثير لأن القلعة أخذت بالسيف .

ذيل مرآة الزمان لليونيني ج ٢ ٣١٩ ـ ٣٢٠

١٥٢ ـ رسالة السلطان الظاهر بيبرس إلى القاضي ابـن خلـكان سنة ٦٦٤ هـ لما أخذ صفد من إنشاء كمال الدين أحمد بن العجمي :

سر الله خاطر المجلس السامي وأطلع عليه وجوه البشائر سوافر ، وأمتع نواظره باستجلاء محاسنها النواضر ، وواصلها إليه متوالية تواجهه كل يوم بمرائيها الزواهي الزواهر ، وأماثلها لديه متضاهية الجمال متناسبة في حسن المبادي والأواخر ، ولم تزل وجـوه البشائر أحسن وجوه تستجلى ، وألفاظه أعذب ألفاظ تستعاد وتستحلى . وإذا كررت على

المسامع أحاديث كتبها لا تمل بل تستمـلى ، لا سيما إذا كانت بإعزاز الدين وتأييد المسلمين ، ونبأ فتح نرجو أن يكون طليعة فتوحات كل فتح منها هو الفتح المبين ، فـإن أنباءها تجل وقعاً وتعظم في الدنيا والآخرة نفعـاً ، وتود كل جارحة عند حديثه أن تكون سمعاً لحديث هذا الفتح الذي كرم خـبراً وحسن أثره في الإسلام ورداً وصدراً ، وطابت أخبار ذكره فشغل به السارون حيداءً والسامرون سمراً . وهو فتح صفد واستنقـاذه من أسره واسترجاعه إلى الإسلام ، وقـد طالت عليه في النصرانية مدة من عمره ، واقرار عين الدين بفتحه ، وكان قذى في عينه وشجى في صدره . وقد كنا لمـا وصلنا الشام بالعزم الذي نفرته دواعي الجهاد ، وأنفذته عوالي الصفاد وقربته أيدي الجياد ملنا على سواحل العـدو المخذول ، فغرقناها ببحار عساكرنا الزاخرة ، وشلينا بها من الغارات ما ألبسها ذلاً رفل بهـا الإسلام في ملابس عزه الفاخرة . وهي وإن كانت غارة عظيمة شنت في يوم واحد على جميع سواحله واستولى بهـا النهب والتخريب على أمواله ومنازله ، واستبيح من حرمه وحرمه مصونات معاقله وعقائله ، إلا أنها كانت بين يدي عزائمنا المنصورة نشيطة نشطنا بهـا الغازين واسترهفنا بهـا همم المجاهدين ، وقدمناها لهم كاللهنة قبل الطعام للساغبين ، واعقبنا ذلك بما رأيناه أولى بالتقديم وأحرى ، وتبيناه أشد وطأة على الإسلام وأعظم ضراً ، وهي صفد التي باء بإثمها حاملها على النصرانية ومسلطها بالنكاية على البلاد الإسلامية ، حـتى جعلها للشرك مأسدة آساده ومراد مراده ومجر رماحه ومجرى جياده ، كم استبيح بسببها للإسلام من حمى ، وكم استرق الكفار بواسطتها مسلمة من الأحرار ومسلماً ، وكم تسرب منها جيش الفرنج إلى بلاد المسلمين فحازوا مغنماً وقوضوا معلماً ، فنازلناها

منازلة الليـــل بانعقاد القساطل ، وطالعناها مطالعة الشمس ببريـق المرهفات وأسنة الذوابل ، وقصدناها بجحفل لم يزحم بلداً إلا هدمه ولا قصد جيشاً إلا هزمه،ولا امّ ممتنعاً طغى جباره إلا سهله وقصمه،فلما طالعتها أوائل طلائعنا منازلة ، وقابلتها وجوه كاتئبنا المقاتلة اغتر كافرها فبرز للمبارزة والقتال ، ووقف دون المنازلة داعياً لنزال . فتقدم إليه من فرساننا كل حديد الشبا جديد الشباب يهوي إلى الحرب فيرى منه ومن طرفه أسد فوق عقاب ، ويخف نحوها متسرعاً فيقال : أذا لقاء أعداء أم لقـاء أحباب ؟! فهم فوارس كمناصلهم رونقاً وضياء ، تجري بهـــم جياد كذوابلهم علائاً ومضاءً ، إذا مشوا إلى الحرب مزجوا المرح بالتيـه فيظن في أعطافهم كسل ، وهزوا قاماتهم مع الذوابل فجهلت الحرب من منهم الأسل . فحين شاهد أعداء الله آساد الله تصول من رماحهـــا بأساودها ، وتبدي ظمأً لاينقعه إلا أن ترد من دماء الأعداء محمـر مواردها ، وأنها قد أقبلت نحوهم بجحافل تضيق رحب الفضاء ، وتحقق بنزولها ونزالها كيف نزول القضاء ، وأنه جيش بعثه الله بإعزاز الجمعة وإذلال الأحد ، وعقد برايته مذ عقدها أن لاقبل بهـا لأحد ، وأن الفرار ملازم أعدائه ولاقرار على زأر من الأسد ، ولوا مدبرين وأدبروا على أعقابهم ناكصين ، ولجأوا إلى معقلهم معتقلين لا متمقلين . فعنـد ذلك زحفنا إليه من كل جانب حتى صرنا كالنطـاق بخصره ، ودرنا به حتى عدنا كاللثام بثغره ، وأمطرنا عليه من السهام وبلا سحبت ذيول سحبه المتراكمة ، وأجرينا حولها من الحديد بحراً غرقه أمواجه المتلاطمة وضايقناها حتى لوقصد وفد النسيم وصولاً إليه لما تخلـص ، أو رام ظل الشمس أن يعود عليه فيئاً لعجز لأخذنا عليه أن يتقلـص . ثم وكلنا به من المجانيق كل عالي الغوارب عاري المناكب ، عبل الشوى

سامي الذرى ، له وثبات تحمل إلى الحصون البوائق ، وثبات تزول دونه ولايزول . الشواهق ، ترفع لمرورها الستائر فتدخل أحجاره بغير استئذان ، وتوضح لنزوله رؤوس الحصون فتخر خاضعة للأذقان فلم يزل يصدع بثبات أركانه حتى هدمها ، وتقبل ثنيات ثغره حتى أبدى ثرمها . وفي ضمن ذلك لصق الحجارون بجداره وتعلقوا بأذيال أسواره ففتحوها أسراباً ، وأججوها جحيماً يستعر جرها التهاباً ، فصلي أهل النار بنارين من الحريق والقتال ، ومنوا بعذابين من حر الضرام وحد النصال ، هذه تستعر عليهم وقوداً ، وهذه تجعل هامهم للسيف غموداً.

فعند ذلك جاءهم الموت من فوقهم ومن أسفل منهم ، وأصبح ثغرهم الذي ظنوه عاصماً لايغني عنهم ، ومع ذلك فقاتلوا قتال مستقتل لايرى من الموت بداً ، وثبتوا متحابين [1] يقدون ببيضهم البيض والأبدان قداً ؛ فصبر أولياء الله على ماعاهدوا الله عليه ، وقدموا نفوسهم قبل إقدامهم رغبة إليه ، ورأوا الجنة تحت ظلال السيوف فلم يروا دونها مقيلاً ، وتحققوا ما أعده الله لأهل الشهادة فاستحلوا وجه الموت على جهامته جميلاً . فعند ذلك خاب ظن أعداء الله وسُقِط في أيديهم وصار رجاء السلامة برؤوسهم أقصى تمنيهم ، فعدلوا عن القتال إلى السؤال ، وجنحوا إلى السلم وطلب النزول بعد النزال ، وتداعوا بالأمان صارخين وجاؤوا بدهاء التضرع لاجين ، فأغمد الصفح عنهم بيض الصفاح ، وقاتلوا من التوسل بأحد سلاح ، واستدعوا راياتنا المنصورة فشرفوا بها الشرفات ونزلوا على حكمنا فأقالت القدرة لهم العثرات . وتسلم الحصن المبارك وقت صلاة الجمعة ثامن عشر شوال ، وتحكم نوابنا

---

(١) كذا بالأصل .

على مابها من الذخائر والأموال ، ونودي في أرجائها بالواحد الأحد ، واستديل للجمعة يوم الجمعة من يوم الأحد . ونحن نحمد الله على هذا الفتح الذي أعاد وجه الإسلام جميلا ، وأنام عين الدين في ظل من الأمن مدة ظليلا . والآن من جانب هذا الثغر مالا ُظن أن سيلين ، وذلك من صعبه ماشرح به صدر الملك والدين ، فإنه حصن مر عليه دهر لم يمر فتحه بالأوهام ، ولاتطاولت إليه يد الخطب ولاهمة الأيام ، وربما كان يجد منفساً فيدعو الملوك إلى نفسها فيصاموا ، وتخطبهم ومهرها أدنى حرب فيرغبوا في العزلة والمسالمة فيسالموا ، ألهاهم عن فخر فتحها الرغبة في رفاهية عيشة ظنوها راضية ، ووقف بهم دون السعي فيه همة لنزول الدنايا متغاضية ، وجنح بهم مراد السلم وإرادة السلم كانت عليهم القاضية والمجلس – أيده الله – يأخذ حظه من هذه البشرى ويقربها عيناً ويشرح بها صدراً ويملي وجوه بشائرها من هذه المكاتبة على عيون الناس من كل حاضر وبادٍ ، ويستنطق بها ألسن المحدثين وفي كل محفل ونادٍ . والله يحرس المجلس ويسهل بهمته كل مراد إن شاء الله تعالى في التاريخ المذكور وقت الفتح .

ذيل مرآة الزمان لليونيني ج ٢ ٣٣٨ – ٣٤٣

١٥٣ – نص الهدنة المعقودة بين السلطان الملك الظاهر بيبرس وبين الاسبتارية المتغلبين على حصن الأكراد والمرقب وعكا ، وذلك سنة ٦٦٥ هـ .

استقرت الهدنة المباركة الميمونة بين مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبي الفتح بيبرس الصالحي النجمي ، وبين المقدم الكبير الهمام فلان مقدم بيت الأسبتارى الفلاني بعكا والبلاد الساحلية وبين فلان مقدم حصن الأكراد وبين فلان مقدم حصن المرقب وجميع الأخوة الأسبتار لمدة عشر سنين متوالية وعشرة

أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات أولها يوم الاثنين رابع رمضان سنة خمس وستين وستمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام الموافق لليوم الثلاثين من أيام ... [1] سنة ألف وخمسمائة وتسعة وسبعين سنة للإسكندر بن فيلبس اليوناني – على أن جميع المملكة الحمصية والشيزرية والحموية وبلاد الدعوة المباركة واقع عليها الاتفاق المبارك ومستقرة لها هذه الهدنة الميمونة بجميع حدود هذه الممالك المعروفة وبلادها الموصوفة وقراها وضياعها وسهلها وجبلها وعامرها وغامرها وفروعها ومعطلها وطرقاتها ومياهها وقلاعها وحصونها – على ما يفصَّل في كل مملكة ويشرح في هذه الهدنة المباركة للمدة المعينة إلى آخرها .

وعلى أن المستقر بمملكة حمص المحروسة أن جميع المواضع والقرى والأراضي التي من نهر العاصي وتغرّب إلى الحد المعروف من الغرب لبلد المناصفات ، عامراً وداثراً ، وبما فيها من الغلات صيفياً وشتوياً ، والعداد وغيرها من الفوائد ، تقرر أن يكون النصف من ذلك للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبي الفتح بيبرس ، والنصف لبيت الأسبتار .

وعلى أن كلا من الجهتين يجتهد ويحرص في عمارة بلد المناصفات المذكورة بجهده وطاقته ، ومن دخل إليها من الفلاحين بدواب ، أو من التركمان أو العرب ، أو من الأكراد أو من غيرهم ، أو الفُتّاة ، كان كان عليهم العداد كجاري العادة ، ويكون النصف للسلطان والنصف لبيت الأسبتار .

وعلى أن الملك الظاهر يحمي بلد المناصفات المقدم ذكرها من جميع

---

(١) بياض بالأصل .

عسكره وأتباعه وممن هو في حكمه وطاعته ، ومن جميع المسلمين الداخلين في طاعته كافة . وكذلك مقدم بيت الاسبتار وأصحابه يحمون بلاد مولانا السلطان الداخلة في هذه الهدنة .

وعلى أن جميع من يتعدى نهر العاصي مغرباً لرعي دوابه ، سواء أقام أو لم يقم ، كان عليه العداد سوى قناة البلد ودوابه ، ومن يخرج من مدينة حمص ويعود إليها ، ومن غرَّب منهم ومات كان عليه العداد .

وعلى أن يكون أمـــر فلاحي بلد المناصفات في الحبس والإطلاق والجباية راجعاً إلى نائب مولانا السلطان ؛ باتفاق من نائب بيت الاسبتار ، على أن يحكم فيـه بشريعة الإسلام إن كان مسلماً ، وإن كان نصرانياً يحكم فيه بمقتضى دولة حصن الأكراد . وأن يكون الفلاحون الساكنون في بلاد المناصفات جميعها مطلقين من السخر من الجانبين .

وعلى أن الملك الظاهر لايأخذ في بلد المناصفات المذكورة : من تركمان ولاعرب ولا أكراد ولاغيرهم عداداً ولاحقاً من حقوق بلد المناصفات إلا ويكون النصف منه للملك الظاهر والنصف الآخر لبيت الاسبتار .

وعلى أن الملك الظاهر لايتقدم بمنع أحد مـــن الفلاحين المعروفين بسُكنى بلاد المناصفات من الرجوع إليها والسكن فيهـــا إذا اختاروا العودة ، وكذلك بيت الاسبتار لايمنعون أحداً مـن الفلاحين المعروفين بسكنى بلاد المناصفات من الرجوع إليها والسكن فيهـــا إذا اختاروا العود .

وعلى أن الملك الظاهر لايمنع أحداً من العربان والتركمان وغيرهم : ممن يؤدي العداد من الدخول الى بلد المناصفات ، إلا أن يكون محارباً لبعض الفرنج الداخلين في هذه الهدنة . فله المنع من ذلك ، وأن تكون خشارات الملك الظاهر وخشارات عساكره وغلمانهم وأهل بلده ترعى في

بلد المناصفات آمنة من الفرنج والنصارى كافة ، وكذلك خشارات بيت الاسبتار وخشارات عسكرهم وغلمانهم وأهل بلدهم ترعى آمنة من المسلمين كافة في بلد المناصفات . وعند خروج الخشارات من المراعي وتسليمها لأصحابها ، لايؤخذ فيها حق ولاعداد ولاتعارض من الجهتين .

وعلى أن تكون مصيدة السمك الرومية ، مهما تحصل منها ، يكون النصف منه للملك الظاهر والنصف لبيت الاسبتار ، وكذلك المصايد التي في الشط الغربي من العاصي يكون النصف منه للملك الظاهر والنصف لبيت الاسبتار ، ويكون لبيت الاسبتار في كل سنة خمسون ديناراً صورية عن القش ويكون القش جميعه للملك الظاهر يتصرف نوابه فيه على حسب اختيارهم ، ويكون الينوفر مناصفة ، النصف منه للملك الظاهر ، والنصف لبيت الاسبتار . وتقرر أن الطاحون المستجد المعروف بإنشاء بيت الاسبتار الذي كان حصل الحرب فيه ، والبستان الذي هناك المعروف بإنشاء بيت الاسبتار أيضاً يكون مناصفة ، وأن يكون متولي أمرهما نائب من جهة نواب السلطان ونائب من جهة بيت الاسبتار ، يتوليان أمرهما والتصرف فيها وقبض متحصلها . وتقرر أن مهما يجدد بيت الاسبتار على الماء الذي تدور به الطاحون ويسقى البستان من الطواحين والأبنية وغير ذلك يكون مناصفة بين الملك الظاهر وبين بيت الاسبتار .

وأما المستقر بمملكة شيزر المحروسة فهي : شيزر وأبو قبيس وأعماله ، وعينتاب وأعمالها ، ونصف زاوية بفراس المعروفة بجهاية بيت الاسبتار وأعمالها ، وجميع أعمال المملكة الكسروية والبلاد المذكورة بحدودها المعروفة بها وقراها المستقرة بها وسهلها وجبلها وعامرها وغامرها .

وما استقر بمملكة الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر أبي الفتح محمود بن الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب

فهي : حماة المحروسة وقلاعها ومدنها ، والمعرة وقراهـــا وسهلها وجبلها وأنهارها ، ومنافعها وثمارها وعامرها وغامرها ، وبلاد رقيبة وبلاد بارين بحدودها وتخومها وعامرها ودائرها وجميع من فيها . على أن الملك المنصور لايرخص للتركمان ولا للعرب أن ينزلوا بلد رقيبه وبارين سوى ثلاثين بيتاً يحملون الغلة لقلعة بارين ، وإن أرادوا الزيادة يكون بمراجعة الأخوة الاسبتارية والاتفاق معهم على ذلك .

وعلى أنه إن تعدى أحد من أصحابه بأذية أو تعدى أحد من الفرنجة في بلاده بأذية ، كانت المهلة في ذلك خمسة عشر يوماً ، فـــإن انكشفت الأخيذة أعيدت ، وإلا تحلّف الجهة المدعى عليها أنها ما علمت ولاأحست . وكا لهم كذلك عليهم .

والمستقر لمملكة الصاحبين : نجم الدين وجمال الدين ، والأمير صارم الدين نائبي الدعوة المباركة وولد الصاحب رضي الدّين وهي : مصياف والرصافة وجميع قلاع الدعوة وحصونها وسهلها ووعرها وعامرها ودائرها ومدنهـــا وبلادها وضياعها وطرقاتها ومياههـــا ومنابعها وجميع بـــلاد الإسماعيلية بجبلي بهرا واللكام ، وكل ما تشتمل عليه حدود بلاد الدعوة وتخومهـــا ، أن يكون الجميع آمنين من على الرصيف الذي بشيزر إلى نهاية الأراضي التي بحصون الدعوة وبلادها . وحمـــاية القرية المعروفه بمرطهار (١) يكون له أسوة الإسماعلية . وإن علم الأصحاب أن أحداً من الإسماعيلية قد عبر إلى بيت الأسبتارية لأذية أعلموا بيت الأسبتار قبل أن تجريَ أذية ، وما لم يُعلموا به عليهم اليمين أنهم ما علموا به ، وإن لم يحلفوا يردوا الأذية التي تجرى .

---

(١) كذا بالأصل .

وتقرر أن يكون فلاحو بيت الأسبتار رائحين وغادين ومنصرفين في بيعهم وشرائهم مطمئنين لا يتعدى أحد منهم ، وكذلك جميع فلاحي بلاد الإسماعيلية لا يتعدى أحد عليهم ، وأن يكونوا آمنين مطمئنين في جميع بلاد الاسبتارية ، وإن تعدى أحد من الجهتين في سوق أو طريق في ليل أو نهار تكون المهلة خمسة عشر يوماً ، فـإن ردت الشكوى كلها فما يكون إلا الخير بينهم ، ومن توجهت عليه اليمين حلف ، ومن لم يفعل يحلّف وإلا يرد الأذية . وتكون الضيعة الـتي رهنها عبد المسيح رئيس المرقب الاسبتار ، وهي المشيرفة تكون آمنة إن كان الحـــال استقر عليها إلى آخر وقت عند كتابة هذه الهدنة المباركة بين الأصحاب وأصحابهم ، ويحمل الأمر في الحقوق .

ويبطل ما هو على بلاد الدعوة المباركة من جميع ما لبيت الاسبتار على حماية مصياف والرصافة وهو في كل سنة ألف ومائتا دينار قومصية وخمسون مداً حنطة وخمسون مداً شعيراً ، ولا تبقى قطيعة على بـلاد الدعوة جميعها ، ولا يتعرض بيت الاسبتار ولا نوابهم ولا غلمانهم إلى طلب قديم من ذلك ولا جديد ، ولا منكسر ولا ماضي ولا حاضر ولا مستقبل على اختلافه .

وتقـرر أن تكون جميع المباحات من الجهتين مطلقه ممـــا يختص بالمملكة الحمصية ، يسترزق بهـا الصعاليك ، وأن نواب الملك الظاهـر يحمونهم من أذية المسلمين من بلاده المذكورة ، وأن نواب بيت الاسبتار يصونونهم ويحرسونهم ويحمونهم من النصارى والفرنج من جميع هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة ، ولا يتعرض أحد من المسلمين كافة من هـذه البلاد الداخلة في [هذه] الهدنـة [إلى البلاد الاسبتارية] بأذيـــة ولا إغارة ، ولا يتعرض أحد من جميع الفرنجة من هذه البلاد الداخلة

في هذه الهدنة بحدودها الجارية في يد نواب الاسبتار وفي أيديهم ، إلى بلاد الملك الظاهر بأذية ولا إغاره .

وعلى أنه متى دخل في بلاد المناصفات أحد ممن يجب عليه العداد وامتنع من ذلك ، وكان عداد إحدى الجهتين حاضراً . اما عداد ديوان الملك الظاهر ، واما عداد بيت الاسبتار ، فلنائب العداد الحاضر من إحدى الجهتين أن يأخذ من ذلك الشخص الممتنع عن العداد أو الخارج من بلد المناصفات رهناً بمقدار ما يجب عليه من العداد ، بحضور رئيس من رؤساء بلد المناصفات ، ويترك الرهن عند الرئيس وديعة إلى أن يحضر النائب الآخر من الجهة الأخرى ، ويوصل إلى كل من الجهتين حقه من العداد .

وإن خرج أحد ممن يجب عليه العداد ، وعجز النائب الحاضر عن أخذ رهنه : فإن دخل بلداً من بلاد الملك الظاهر ، كان على النواب إيصال بيت الاسبتار إلى حقهم مما يجب على الخارج من العداد .

وكذلك إن دخل الخارج المذكور إلى بيت الاسبتار ، كان عليهم أن يوصلوا إلى نواب الملك الظاهر حقهم مما يجب على الخارج من العداد . وكذلك يُعتمد ذلك في المملكة الحموية وبلاد الدعوة المحروسة .

وعلى أن التجار والسفار والمترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين : الجهة الإسلامية ، والجهة الفرنجية والنصرانية ، في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها - على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم ، يحميهم السلطان ونوابه ، ويتعاهدون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفات - من جميع المسلمين ، ويحميهم بيت الاسبتار في بلادهم الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفات - من الفرنج والنصارى كافة .

وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددين على أي طريق اختاروه من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر ، وبـــلاد معاهديه وبلاد المناصفات ، وخاص بيت الاسبتار والمناصفات ، يكـون الساكنون والمترددون في الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال ، تحمي كل جهـة الجهـة الأخرى .

وعلى أن مايختص بكل جهة من هذه الجهات الإسلامية والفرنجيـــة الأسبتارية ، لايكون عيداداً على مالها من المناصفات : من الدواب والغنم والبقر والجمال وغيرها ، على العادة المقررة في ذلك .

وعلى أن إطلاق الرؤساء يكون باتفاق الجهتـين : الاسلامية والفرنجيه الأسبتارية ، ومتى وقعت دعوى على الجهة الأخرى ، وُقف أمرهـــا في الكشف عنها أربعين يوماً ، فإن ظهرت أُعيدت إلى صاحبهـا ، وإن لم تظهر حلف ثلاثة نفر ممن يختارهم صاحب الدعوى على ما يعلمونه في تلك الدعوى . وإن ظهرت بعد اليمين أُعيدت إلى صاحبها ، وإن كان قد تعوض عنها أعيد التعويض .

وعلى أن يكشفوا على الأخيذة بجهدهم وطاقتهم ، ومتى تحققت أعيدت إلى صاحبها ، فإن حلفوا يبرؤون من الدعوى ، وإن ظهرت بعد اليمين أعيدت على صاحبها ، وان امتنع المدعى عليه من اليمين حلف المدعي ، ولا يستحق[1] عوض ماعدم من كل شيء مثله . وكذلك يجري الأمر في القتل عوض الفارس فارس ، وعوض الراجل راجل ، وعوض البركيل بركيل ،

---

(١) كذا بالأصل . ولعل الصواب إسقاط « لا » ليستقيم المعنى فتصبح « ويستحق » وبذلك يتسق المعنى .

وعوض التاجر تاجر ، وعوض الفلاح فلاح . وإذا انقضت الأربعون يوماً المذكورة لكشف الدعوى ولم يحلف المدَّعى عليه المدعي وجب عليه العوض حتى يرد ، وإن رد اليمين على المدعي ومضى على ذلك عشرة أيام ، ولم يحلف صاحب الدعوى بطلت دعواه وحكمها ، وإن حلف أخذ العوض .

ومتى هرب من إحدى الجهتين إلى الأخرى أحد ، ومعه مال لغيره أعيد جميع ما معه ، وكان الهارب مخيراً بين المقام والعود ، وإن هرب عبد وخرج عن دينه أعيـــد ثمنه ، وإن كان باقياً على دينه أعيد . وعلى أن لايدخل أحد من القاطنين في بلد المناصفات : من الفلاحين والعرب والتركمان وغيرهم إلى بلاد الفرنج والنصارى كافة لإغارة ولا أذية بغير علم الملك الظاهر وبلاد معاهديه ، [ولا يدخل أحد] بلاد المسلمين لإغارة ولا أذية بعلم بيت الأسبتار ولا رضاهم ولا إذنهم .

وعلى أن الدعاوى المتقدمة على هذا الصلـــح يحمل أمرها على شرط المواصفة التي بين الملك الظاهر وبين معاهديه وبين بيت الأسبتار .

وعلى أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة : لاتنقضي بموت أحد من الطرفين ولا وفاة ملك ولا مقدم إلى آخر المدة المذكورة وهي : عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، أولها يوم تاريخه .

وعلى أن نواب الملك الظاهر ومعاهديه لايتركون أحداً من التركمان ولا من العربان ولا من الأكراد ، يدخل بلد المناصفات بغير اتفاق من بيت الأسبتار أو رضاه ، إلا أن يكفلوه على نفوسهم في هذه الطوائف المذكورة ويعلموا حاله ، لئلا تبدو منهم أذية أو ضرر أو فساد ببلد المناصفات وببلد النصارى ، ولنواب مولانا السلطان أن تتركهم على شرط أنهم يعلم بهم بيت الأسبتار في غد نزولهم المكان ، إن كان المكان قريباً ، وإن ظهر منهم فساد كان النواب يجاوبون بيت الأسبتار .

وعلى أن المهادنة بحدودها يكون الحكم فيها كما في المناصفات ، والحدود في هذه البلاد جميعها تكون على ماتشهد به نسخ الهدن ، أو ما استقر الحال عليه إلى آخر وقت .

وعلى أن تخلى أمور المملكة الحمصية على ما كان مستقراً في الأيام الأشرفية على ما قرره الأمير علم الدين « سنجر » .

هذا ما وقع الاتفاق والتراضي عليه من الجهتين ، وبذلك جرى القلم الشريف السلطاني الملكي الظاهري : حجة بمقتضاه ، وتأكيداً لما شرح أعلاه . كتب في تاريخ كذا كذا .

صبح الأعشى للقلقشندي جـ ١٤ ، ٣١ - ٣٩

١٥٤ - رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى القاضي ابن خلكان يبشره بفتح حصن الشقيف سنة ٦٦٥ هـ من إنشاء كمال الدين بن العجمي :

صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي القضائي ، لازالت البشائر تحل به ربعاً ، وتصنع لديه في الابلاغ حسناً وتحسن صنعاً ، وتسر بالإفهام والإلمام والإعلام له قلباً وبصراً وسمعاً ، نعلمه بفتح أمست وجوه البشائر ببشره متهللة وأسماع المنابر لوعيه متبتلة ، وفروض الجهاد به مؤداة ، ولكنها مشفوعة بالسيوف المسنونة والغزوات المتنفلة . وهو فتح الشقيف الذي جاء بتناوب الإتحاف إلى القلوب ، ويتناسب أنباؤه كالرمح أنبوب على أنبوب ، ويتعاقب مسراته إلى الإسلام كما تتعاقب الأنواء لنقع الثرى المكروب . وأقبل بعد فتح يافا كما تقبل البكر التي لابد لها بعد سهولة الهواء من الامتناع عند الافتراع ، وتهادى تهادي الغيث الذي لابد له عند نزوله من الرعد المزعج والبرق اللماع . وكان نزولنا عليها في تاسع عشر شهر رجب المبارك سنة ست وستين وستمائة ،

بعد أن سلكنا إليها في أوعار تتعثر بها ذيول الرياح ، وهبطنـــا في أودية لايأنس فيهـــا إلا بمجاوبة الصدى لقعاقع السلاح . وصعـدنا في جبال لايرى الأشباح منها إلا كالذر والذرى إلا كالأشباح . وهذه القلعة من وجه هذه الشواهق بمكان الغرة ، ومن كتابها بمنزلة الطرة ، كأنها سمع تناجيه النجوم بأسرارها ، أو راحة بما بسطته من أصابع شرفاتها وتلك البواشير فيها بمنزلة سوارها ، يكاد الطرف ينقلب عنها خاسئـاً وهو حسير ، وكل ذي جناح يغدو دون منالها يطير . وقد أحكم بناؤها فلا أيدي المعاول لأطراف أسوارها مجاذبة ، وحصن فناؤهـا فلا غير الغمائم لها مجاورة ولاغير الرعود لها مجاوبة . وقد تحصن بهـا من الكفر كل مستقتل ، وتوطنها منهم كل جاهل يرجع في التحصن بها إلى منعتها وكيف لاوهو لها مستعقل ، وقد انتخبهم الفرنج من بينهم انتخاب المناضل بسريع سهامه والمفاضل ببديع كلامه ، وحلوا منـــه ذروة بعيدة المنال ، وتوقلوا صهوة لاتتخطى إليها الآمال . وكنـا ، كما قد علم المجلس السامي أعزه الله ، قد سيرنا إليها العساكر الشامية تمسك منها الخناق ، وتأخذ منها بمجامـــع الأطواق ، فحفت بها كما حفت الخواتم بالخناصر ، أو كما حفت بالعيون الأهداب ، ودارت حولها سوراً مـاله غير الخوذ من شرفات وغير نواهد الخيل من أبراج وغير حنايا السيوف من أبواب ، وأحدقت بثغرها كما تحدق الشفاه بالثغور ، وأطافت بهـا قبل إطافتنا كما يطوف البند قبل المنطقة بالخصور ، وأقامت السمهرية ترمقهم بزرق عيونها والمشرفية تتناعس لاستنامتهم بتغميض جفونها . وبقيت ألسنة الصناجق في أفواه غلفها صامتة لسماع الزحافات مصغية ،وكواسر الآساد في آجامها من الرماح السمهرية مقعية ، وصارت السهام في كنائنها تقلق ، وأخشاب المجانيق لتفرق أجزائها تفرق ، إلى أن بعثنا الله من فتحها إلى المقام

المحمود ، وانقضت مدة إرجائها في يد الكفر ، وما كان تأخيره إلا لأجل معدود ، ونزلنا ربعها بالعساكر التي سيوفها مفاتيح الحصون ورماحها أرشية المنون . فما نزلنا من ظهر جوادنا إلا على ظهر جبلها الذي حرته عن يمينها جنيباً ، ولا ألقينا عصى التسيار حتى حملنا أعواد المجانيق على عاتقنا لنقدمها إلى الله تقرباً وإليهم تقريباً . وللوقت نفخ أمرنا في صور الإيعاز بالمضايقة ، ونشر العالم في صعيد وأخـــذ المسابقة إلى صعودها والمساوقة . وفي الوقت الحاضر اجتمعت أعضاء المجانيق المنفصلة ، وتخطت في الهواء كفالها المتصلة ، واعتزلت كل فرقة من أوليائنا بمنجنيق يقيمه ، وأعجب شيء أنها الظـاهرية وأصحبت المعتزلة ، وعن قريب أهوت إلى الأعداء محلقة صقور الصخور وتتابعت حجارتها إليهم عندما حصلت من المجانيق في الصدور ، فبعثرت من أجسادهم المرسومة في القلعة مـــا في القبور ، وكانت هذة القلعة المذكورة قـد قسمها العدو قسمين ، وخاصم الإسلام منها بخصمين ، وجعلها قلعة دون قلعة ، وصيرها ملكاً مقسوماً حتى لاتكون فيه شفعة ، وجعل أحديها مهبط قباله ومحط نزاله ومأوى رجاله ؛ والأخرى مستودع نفسه وماله . فلما أحسوا بأسنا ورأوه شديداً ، وشاهدوا حزمنا عنيداً وعـــزمنا مبيداً ، واقتحموا الأسوار يتسورها الرجال ، والمجانيق تحف بهم عن اليمين وعن الشمال ، وضعفوا عن أن يحموا من تلك القلل جهتين ، أو أن يقتسموا بهما فئتين ، أو يجمعوا مع كفرهم ، إلا ما قد سلف ، بين الأختين ، أو أن يغدو نجس شركهم إلا وهو فيما دون القلتين حرقوا ما بالقلعة من مضمون ، وأضرموا بها نيراناً أعجب شيء كونها لم تطف بما أجروه من الجفون ، وغالبتهم اليد الإسلامية قبل تركها ، ودخلتها عليهم قبل الخروج عن ملكها . وذلك يوم الأربعـــاء السادس وعشرين شهر رجب المـــذكور ، وكانت المجانيق ترمي عليها [فصارت]

ترمى منها ، وتصدر حجارتها إليها فصارت تصدر عنها . وتملكناهــا معقلا شيده لنا العدو وبناه ، وحصنا منيعاً دافع عنه حتى تعب فلما تعب أخلاه وخلاه ، وأصبح بحمد الله شك فتوحها لنا يقيناً ، وما كان من خنادقها وأسوارها يقي الكفار وغدا يقي عساكرنا ويقينا . وصارتا جارتين تتحاسدان على قربنا ، وما زال يغري بين الجيرة الحسد ، ورأساً وجسداً فرق بينهما النصر ولابقاء للرأس بعد زوال الجسد . ولما أمكن الله من القلعة الواحدة ، لم نر أن نبشر بالأولى حتى نبشر بالأخرى ، ولا أن يقصر الإعــلام على الإعلان بالبطشة الصغرى حتى نجمع إليه الإعلام بالبطشة الكبرى ، ولمـا جاز القصر والجمع في الفروض المؤداة في هــذه السفرة المباركة قصرنا وجمعنا في أداء هذه البشرى . وكتابنا هذا وقد منَّ الله بهما علينا . وقال الإسلام : هذه بضاعتنا ردت إلينا ، وذلك في سابعة يوم الأحد سلخ شهر رجب المبارك . وبحمد الله قد أصبحت تلك الضالة التي فقدها الإسلام منشودة ، وتلك العارية التي استولت عليها يد الكفر مردودة ، فشكر السيف رد الضالة وأردى الضلالة ، ومضى لايكل حتى استغنى في الكلالة ، وأحاله فرض الجهاد على الكفر بحق ما استخلص بحول الله وقوته تلك الحوالة . فليأخذ المجلس السامي حظه من هــذه البشرى بما جعله الله للمتقين من عقبى الدار ، وبما قدره من انقياد الكافرين صاغرين في قبضة الإسار ، وبمـا سهله من عتق من كان فيها من الحرم والأطفال والصغار ، وليملأ بحسن هذا الخبر المسامع ، وليعمر بذكره الجامع والجوامع ، فطالما اشتاقت إليه أعواد المنابر ، وانتظرت إيداعه في سرائر السير ألسنة الأقلام وأفواه المحابر ، والله تعالى يوفق المجلس فيما يحاول ويحاور إن شاء الله تعالى .

ذيل مرآة الزمان لليونيني ج ٢ ٣٧٧ – ٣٨١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٥٥ - رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى القاضي ابن خلكان بفتح يافا سنة ٦٦٦ هـ من إنشاء محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر .

هذه المكاتبة إلى المجلس السامي - أسمعه الله من البشائر أجملها ، ومن التهاني أشملها ، ومن تحيات النصر أفضلها ومن سور الإتحاف بالظفر منزلها - تعلن ببشرى بفتح حسن استفتاحه وتساوي في الجلالة غرره وأوضاحه ، وأتى بسملة لهذه الغزاة المباركة التي بها تتبرك المهارق ، ومفتاحاً لمغلق الحصون التي إن فتحها الله فلا مغلق ، وإن سهلها فلا عائق . وذاك لأن يافا كانت قد كثر عدوان من فيها وحصل من إضرارهم مالا يقدر أحد على تدارك تحيفاتها ولا تلافيها ، وصارت لعكا - يسر الله فتحها - طليعة مكر ومادة كفر ، منها يمتارون من كل ممنوع وربما يأمنون من خوف ويشبعون من جوع ، ويتطلعون إلى دار الإسلام منها من وراء زجاجة ، ويجعلونها لهم باباً يتوصلون منه عند الاجاجة إلى مافي نفوسهم من حاجة . فلما توجهنا هذه الوجهة المباركة وتعوضنا منها عن إنجاد الملوك بالملائكة ، صرفنا إليها العنان يسيراً ، وعرجنا عليها تعريج مستروح ثم يستأنف سيراً . وطرقناها بكرة يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة ، فما مضى إلا بقدر ماجردت السيوف من الأغماد ، أخذت المعاول في العويل على أهل الإلحاد ، ونطقت ألسن الأعلام بالنصر المبين ، وتلقى النصر رايتنا باليمين ، وطفنا بها طواف المناطق بالخصور والشفاه بالثغور . وإذا بأهلها يطلبون الأمان على النفوس خاصة وأنهم يبذلون لنا كل مالهم من مال وغلال وسلاح وغير ذلك فأجبناهم إلى ذلك . وما فتحوا الأبواب إلا والرجال قد فتحت النقوب ولاجيبوا الأطواق إلا والسيوف قد فتقت الجيوب . ولا خرجوا

من قلعتها إلا والأبطال عليها قد علت ، ولا طلعوا منها إلا والأولياء إليها [قد دخلت] ، وما حصلوا خارجها إلا والمقاتلة بها قد حصلت . وتسلمناها وقلعتها فتحاً قريباً ، وتسلمناها مرتعاً مربعاً ومربعاً خصيباً ، وسطرناها في الساعة التي قام لسان العلم قبل لسان القلم على منبرها خطيباً . فيأخذ حظه من بشرى جاءت طليعة لما بعدها من البشائر ، وأقبلت مفهمة بأن لابد بعدها من فتوحات تتبع الأوائل منها الأواخر . والله تعالى يوفقه في الموارد والمصادر ، إن شاء الله تعالى .

ذيل مرآة الزمان لليونيني ج ٢ ٣٧٥-٣٧٦

١٥٦ - رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى القاضي ابن خلكان مبشراً بفتح أنطاكية سنة ٦٦٦ هـ من إنشاء محي الدين بن عبد الظاهر .

أدام الله سعادة المجلس السامي القضائي ، ولا برح يؤثر البشائر حشايا المنابر ، ويجري من السرور الهاجم عيون المحابر ، ويسجد لها قلم الناظم والناثر ، ويتلقاها ببشر إذا تأمل قادمه قال كم ترك الأول للآخر . هذه المكاتبة تتحدث بنعمة الله التي تهلل لها وجه الإيمان ؛ وهلل بها من أهله كل لسان ، وجاءت بحمد الله حلوة المجتنى حافة بالنصر من هنا ومن هنا ، وذلك بفتح أنطاكية التي لم تتطرق إليها الحوادث والخطوب ، ولاخرق حديث فتحها الأسماع ولا هجس في القلوب ، وادخرها الله لنا ليخصنا بفتحها الوجيز ، ويجعلها باباً لما يليها من بلاد الكفر نلج منه بمشيئة الله وماذلك على الله بعزيز . وهو أننا لما فرغنا من فتوحاتنا التي سبق بها الإسلام ، وإشاراتنا التي خصت وحصت طرابلس الشام ، ثنينا العنان إلى هذه الجهة ، فشاهدنا منها ما يروق النواظر ، ورأينا مدينة يجتمع داخل سورها الأنس والوحش

الطائر للاستيطان والبادي والحاضر ، تحف بها أسوار لايقطعها الطائف في يوم سيراً ، ولايدرك الناظر من أولها لها أخيراً ، وبها رجال غدوا إليها من كل حدب ينسلون ومن كل هضبة ينزلون ، وفي ظلال كل مطهم يتقيلون . وكان نزولنا عليها في يوم الأربعاء غرة شهر رمضان المعظم، فلم يكن إلا بقدر مانزلنا إلا ورسلهم قد حضروا ليمسحوا أطـراف الرضا ويتقاضوا من العفو أحسن مايقتضى . فما ألوى عليهم حلمنـــا ولاعرج ، ولانفس عنهم كربة ولافرج . فزحفنا إليها في يوم السبت بكرة وهو رابع الشهر ، فلم يلبثوا إلا ساعة من نهـار وقـد دخلت عليهم من أقطارها ، وتسور العسكر المنصور من أسوارها ، وامتـدت ألسنة الصوارم وأسنة الرماح ، وشهرت البيض الصفـــاح ، واريقت الدماء واستحيت النساء ، وغنمت الأموال وجدلت الأبطال . ووجد العالم من التحف والنعم ما لا كان يمر في خلد ولايخطر في بال . وكتابنا هذا واليد الإسلامية لها متسلمـة وفيها متحكمة . فالمجلس يأخذ حظه من هذه البشرى ويرى فيها هذه الآية الكبرى . وما نريهـم من آية إلا وهي أكبر من الأخرى . ويتلقاها ببشر فقد بعثنا بها الله في أحسن رونق من النصرة ، وأقبلت بحمد الله كما بدأت أول مرة . فليشعها المجلس في كل باد وحاضر ، ولينشر خبرها على أكباد المنـابر . والله يكرمه بجعل سعادته من أتم الذخائر ، إن شاء الله تعالى . كتب رابع شهر رمضان المعظم سنة ست وستين وستمائة .

ذيل مرآة الزمان لليونيني ج٢ ٣٨٢ - ٣٨٤

١٥٧ - نص الهدنة التي عقدها السلطان الملك الظاهر بيبرس سنـة ٦٦٧ ه مع ملكة بيروت .

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس

وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة فلانة ابنة فلان ، مالكـة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبـع وستين وستمائة الموافق لتاسع أيار سنة ألف وخمسمائة وثمانين يونانية ، على بيروت وأعمالها المضافة إليها ، الجـاري عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وأيام ولده الملك المعظم عيسى وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بـن الملك العزيز ، والقاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية ، بمقتضى الهدنة الظاهرية ؛ وذلك مدينة بيروت وأماكنها المضافة إليها : من حد جبيل إلى حد صيدا ، وهي المواضع الآتي ذكرها : جونية بحدودها ، والعذب بحدودها والعصفورية بحدودها ، والراووق بحدودها وسن الفيل بحدودها ، والرح والشويف بحدودها ، وأنطلياس بحدودها، والحديدة بحدودها ، وحسوس بحدودها ، والبشرية بحدودها ، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها ، وقرينة بحدودها ، والنصرانية بحدودهـا ، وجلدا بحدودها والناعمـــة بحدودها ، ورأس الفيقة والوطاء المعروف بمدينة بيروت ، وجميع ما في هذه الأماكن من الرعايا والتجار ، ومن سائر أصناف الناس أجمعين ، والصادرين منها والواردين إليها من جميع أجناس الناس والمترددين إلى بلاد السلطان فلان وهي : الحيرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ماهو مختص بها ، والمملكة الأنطاكية وقلاعهاوبلادها، وجبلة واللاذقية وقلاعها وبلادها،وحمص المحروسةوقلاعها وبلادها وماهو مختص بها،ومملكةحصن عكا وما هو منسوب إليه ،والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها ، والمملكة الرحبية وماهو مختص بها من قلاعهـا وبلادها ، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها : من قلاعها وبلادها ، والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها : من قلاعها وبلادها ورعاياهـا

وممالكها ، والمملكة الشقيفية وما يختص بها : من قلاعها وبلادها ورعاياها ، والمملكة القدسية وما يختص بها والمملكة الحلبية وما يختص بها ، والمملكة الكركية والشوبكية وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا ، والمملكة النابلسية والمملكة الصرخدية ، ومملكة الديار المصرية جميعها : بثغورها وحصونها وممالكها وبلادها وسواحلها وبرها وبحرها ورعاياها وما يختص بها ، والساكنين في جميع هذه الممالك المذكورة مالم يذكر من ممالك السلطان وبلاده ، وما سيفتحه الله تعالى على يده ويد نوابه وغلمانه يكون داخلاً في هذه الهدنة المباركة ومنتظماً في جملة شروطها ، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم ، من الملكة فلانة وغلمانها ، وجميع من هو في حكمها وطاعتها : براً وبحراً ، ليلاً ونهاراً ، ومن مراكبها وشوانيها . وكذلك رعية الملكة فلانة ، وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته : براً وبحراً ، ليلاً ونهاراً : في جبلة واللاذقية وجميع بلاد السلطان ومن مراكبه وشوانيه .

وعلى أن لايجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة ، بل يجرون على العوائد المستمرة والقواعد المستقرة من الجهتين ، وإن عُدِم لأحد من الجانبين مال أو أخذت أخيذة وصحت في الجهة الأخرى ردت إن كانت موجودة ، أو قيمتها إن كانت مفقودة ، وإن خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوماً ، فإن وجدت ردت ، وإن لم توجد حلف والي تلك الولاية المدعى عليه ، وحلّف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعي ، وبرئت جهته من تلك الدعوى ، فإن أبى المدعى عليه عن اليمين حلف الوالي المدعي وأخذ ما يدعيه . وإن قتل أحد من الطرفين ، خطأ كان أو عمداً ، كان على القاتل في جهته

العوض عنه نظيره : فارس بفارس وبركيل ببركيل وراجل براجل وفلاح بفلاح . وإن هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال رد من الجهتين هو والمال ولايعتذر بعذر ، وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلاً في هذه الهدنة ، وإن عاد إلى غيرها لايكون داخلاً في هذه الهدنة .

وعلى أن الملكة فلانة لاتمكن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء . وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين .

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان ، وتقرر العمل بهذه الهدنة والإلتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين : لاينقضها مرور زمان ولايغير شروطها حين ولا أوان ، ولاتنقض بموت أحد من الجانبين . وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين أربعين يوماً ، ولايمنع أحد منهم من العود إلى مستقره . وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها . والله الموفق . في تاريخ كذا وكذا .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٤ ٤٠ – ٤٢

١٥٨ ـ رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس وذلك بعد فتحه أنطاكية سنة ٦٦٧ هـ .

قد علم القومص الجليل المبجل ، المعزز الهمام ، الأسد الضرغام ، بيمند فخر الأمة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية ، كبير الأمة العيسوية ، المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية منه من البرنسية إلى القومصية ، ألهمه الله رشده ، وقرن بالخير قصده ، وجعل النصيحة محفوظة عليه

ماكان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار ، وماشاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر وهدم الأعمـــار ، وكيف كنست تلك الكنائس من بساط الأرض ، ودارت الدوائر على كل دار ، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر ، وكيف قتلت الرجال واستخدمت الأولاد وتملكت الحرائر ، وكيـف قطعت الأشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق إن شاء الله والستائر . وكيف نُهبِّت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشي ، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب واستخدم الخديم وركب الماشي . هـــذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتاً قلـت فزعاً : عليّ بهذا الصوت . وكيف رحلنا عنك رحيل من يعـود ، وأخرناك وماكان تأخيرك إلا لأجل معدود . وكيف فارقنا بـلادك ومابقيت ماشية إلا وهي لدينا ماشية ، ولاجارية الا وهي في ملكنا جارية ، ولا سارية إلا وهي من أيدي المعاول سارية ، ولازرع إلا وهو محصود ، ولاموجود لك إلا وهو منك مفقود ، ولامنعتك تلك المغاير التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة ، ولاتلك الأودية التي هي في التخـوم مخترقة ، وللعقول خارقة ، وكيف سُقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر ، وكيف وصلنا إليها وأنت لاتصدق أننا نبعد عنك ، وإن بعدنا فسنعود على الأثر .

وهنا نعلمك بما تم ، ونفهمك بالبلاء الذي عم : كان رحيلنا عنك عن طرابلس يوم الأربعاء رابع عشري شعبان ، ونزولنا أنطاكيـة في في مستهل شهر رمضان . وفي حال النزول خرجت عساكرك للمبادرة فكسروا ، وتناصروا فما نصروا ، وأسر من بينهم كندا سطيل [1] ،

(١) كندا سطيل : لفظ لاتيني معناه حاكم القلعة .

فسأل مراجعة أصحابك فدخل إلى المدينة ، فخرج هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعوانك ، فتحدثوا معنا فرأيناهم على رأيك من إتلاف النفوس بالغرض الفاسد ، وإن رأيهم في الخير مختلف وقولهم في الشر واحد . فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت ، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت ، رددناهم وقلنا : نحن الساعة لكم نحاصر ، وهذا هو الأول في الإنذار والآخر ، فرجعوا متشبهين بفعلك ، ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك ، ففي بعض ساعة مرَّ شأنُ المرشانَ [1] ودخل الرهبُ الرهبان ، ولان للبلاء القسطلان [2] ، وجاءهم الموت من كل مكان وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها ، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا ، فما بقي منا إلا وعنده شيء منهم ومنها .

فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهابة فيها تصول والكسابة فيها تجول ، وأموالك وهي توزن بالقنطار ، ودأماتك وكل أربع منهم تباع فتشترى من مالك بدينار . ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت ، وصحفها من الأناجيل المزورة قد نشرت ، وقبور البطارقة قد بعثرت . ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القداس والمذبح ، وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس ، والبطارقة وقد دهموا بطارقة ، وأبناء المملكة قد دخلوا في المملكة . ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق ، وقصورك وأحوالك قد حالت ، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان وقد زلت وزالت ، لكنت تقول : ياليتني كنت ترابا ! وياليتني لم أوت بهذا

---

(١) المرشان : لفظ لاتيني معناه منظم الحفلات والمجالس .

(٢) القسطلان : لفظ لاتيني معناه حارس القصر .

الخبر كتاباً ، ولـكانت نفسك تذهب من حسرتك ، ولكنت تطفىء تلك النيران بمـاء عبرتك ولو رأيت مغانيك وقـــد أقفرت من معانيك ، ومراكبك وقد أخذت في السويدية بمراكبك فصارت شوانيك من شوانيك ، لتيقنت أن الإله الذي أعطاك أنطاكية منك استرجعها والرب الذي أعطاك قلعتها منك قلعها ، ومن الأرض اقتلعها .

ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ماكنت أخذته من حصون الإسلام ، وهـــو ديركوش وشقيف تلميس وشقيف كفر دنين وجميع ما كان في بلاد أنطاكية ، واستنزلنا أصحابك مـــن الصياصي ، وفرقناهم في الداني والقاصي ، ولم يبق شيء يطلق عليه اسم العصيان إلا النهر ، فلو استطاع لما سمي بالعاصي . وقد أجرى دموعه ندماً وكان يذرفها عبرة صافية ، فما هو أجراها بما سفكناه فيه دماً .

وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر بكونك لم يكن لك في أنطاكية في هـــذه المدة إقامة ، وكونك ماكنت فيها فتكون إما قتيلاً وإما أسيراً ، وإما جريحاً وإما كسيراً ، وسلامــة النفس هي التي يفرح بها الحي إذا شاهد الأموات ، ولعل الله ما أخرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات ، ولما لم يسلم أحد يخبرك بما خبرناك ، ولما لم يقدر أحـد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشرناك لتتحقق الأمر على ما جرى .

وبعد هذه المـكاتبة لاينبغي لك أن تكذب لنا خبراً ، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها مخبراً [1] .

---

(١) أورد القلقشندي في « صبح الأعشى » جـ ٨ / ٢٩٩-٣٠٢ نصاً قريباً من نصنا أعلاه ، ولكن النص المذكور أعلاه أكمل وأوضح وفيه زيادات لابأس بها .

قال : ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتد غضبه ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب .

كتاب السلوك المقريزي ج ١ ، ق ٣ ٩٦٦ - ٩٦٩

١٥٩ - نص الهدنة التي عقدها الملك الظاهر بيبرس وولده الملك السعيد بركة مع الاسبتارية في قلعة لد سنة ٦٦٩ هـ .

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي قسيم أمير المؤمنين وولده الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خاقان خليل أمير المؤمنين ، وبين المباشر المقدم الجليل افريز اولدكال مقدم جميع بيت الاسبتار سرجوان بالبلاد الساحلية وبين جميع الأخوة الاسبتارية لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات وعشرة أشهر أولها مستهل رمضان سنة تسع وستين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية الموافق للثامن عشر من نيسان سنة ألف وخمسمائة واثنتين وثمانين للإسكندر بن فيلبس اليوناني - على أن تكون قلعة لد بكمالها وربضها وأعمالها وماهو منسوب إليها ومحسوب منها ، بحدودها المعروفة بها من تقادم الزمان ، وما استقر لها الآن ، و يتعلق بذلك : من المواضع والمصايد والملاحات والبساتين والمعاصر والطواحين والجزائر : سهلها وجبلها وعامرها ودائرها ، ومايجري بها من أنهار وينبع بها من عيون وما هو مبني بها من عمائر ، وما استجد بها من القراح ، وكل ماعمر في أراضي المناصفات على دورها وأنهارها ، وما بحدود ذلك من نهر بدرة إلى جهة الشمال ، وما استقر لبلدة من هذه الجهات إلى آخر الأيام الناصرية من الحدود المعروفة بها والمستقرة لها ، وحصن برغين ومانيسب إلى ذلك من البلاد والضياع والقرى التي كانت مناصفة ،

تكون جميع بلدة وهذه الجهات خاصاً إلى آخر الزائد للملك الظاهر ، ولايكون لبيت الاسبتار ولا للمرقب فيها حق ولا طلب بوجه ولا سبب إلى حين انقضاء مدة الهدنة وما بعدها إلى آخر الزائد ، ولا لأحد من جميع الفرنجة فيها تعلق ولاطلب بوجه ولاسبب . وكذلك مهما كان مناصفة ، كقلعة العليقة في بلادها لبيت الاسبتار ، يكون ذلك جميعه للديوان المعمور والخاص الشريف ولايكون للمرقب فيها شيء ولا لبيت الاسبتـــار .

وكذلك كل ما هو في بلاد الدعوة المباركة جميعها وقلاعها من القرى – لاتكون فيها مناصفة لبيت الاسبتار ولا للمرقب ولاحـق . ولا رسم ولاشرط ولاطلب في جميع بلاد الدعوة : مصياف المحروسة والكهـف والمنيقة والقدموس والخوابي والرصافة والعليقة ، وكل ما هـو في هذه القلاع وفي بلادها من مناصفة ، يكون ذلك خاصاً للملك الظاهر ، وليس لبيت الاسبتار ولا الفرنجية فيه حديث ولاطلب

وعلى أن تكون بلاد المرقب وحدودها من نهر لد ومقرّباً ومغرّباً إلى حدود بلاد مرقية المعروفة بها ، الداخل جميعها في الفتوح الشريف، واستقرارها بحكم ذلك في الخاص المبارك الشريف ، وحد البيوت المحاذية لسور الربض ، تستقر جميعها مناصفة بين السلطان وبين بيت الاسبتار نصفين بالسوية ، وما في جميع هذه البلاد : من بساتين وطواحين وعمائر ومصايد وملاحات ووجوه العين والمستغلات الصيفية والشتوية والقطاني والحقوق المستخرجة ، وما هو مزروع من الفـــدن لأهل الربض وبيادرها : يكون ذلك مناصفة بين السلطان وبين بيت الاسبتار سرجوان بالسوية نصفين .

وماهو داخل الربض وداخل المرقب فإنه مطلق من الملك الظاهر

المقدم الكبير افريز أولدكال مقدم الاسبتار سرجوان وخيالته ، ورجاله وحمالته ورجاله ورعيته ، برسم إقامتهم وسكناهم من داخل الأسوار ، وعن سور الربض المحاذية للسور تكون مناصفة جميعها بما فيه من حقوق طرقات واحكار ، ومراعي المواشي على اختلاف أصوافها وأوبارهـــا وجميع السخريات ، وكل أرض مزروعة أو غير مزروعة مهما أخذ منه من حق أو عداد يكون مناصفة .

وكل ما هو من الموانى والمراسي البحرية المعروفة جميعها بحصـــن المرقب : من مينا بلدة إلى مينا القنطرة المجاورة لحدود مرقية ، تكون هي وما يتحصل منها من الحقوق المستخرجة من الصـادرين والواردين والتجار ، وما ينعقد عليـــه ارتفاعها ، وتشهد به الحسبانات ـ جميعه مناصفة ، وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع على اختلافها يؤخـذ الحق منه مناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من حـين أخذ بيت الاسبتار المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مناصفة .

ويُعتمد ذلك في كل مايصل للمترددين والمقيمين بالقلعة والربض : من عامة وغير عامة ، وخيالة وغير خيالة على اختلاف أجناسهم ، خلا ما يصل للأخوة ولغلمانهم المعروفين بالأخوة الاسبتارية من الحبوب والمئونة والكسوة والخيل التي هي برسم ركوبهم خاصة ، لا يكون عليهـا حق بشرط أنه لايكون فيها للتجار شيء من ذلك وما خلاذلك جميعه يؤخذ الحق منه مناصفة على ماشرحناه .

وعلى أنه لايحمي أحد من الأخوة الخيالة والوزراء والكتاب والنواب والمستخدمين شيئاً على اسم بيت الاسبتار ليستطلق الحق ويمنع مـــن استيدائه ، ولو أنه أقرب أخ إلى المقدم أو ولد المقـدم . إذا ظهـر

منه خلاف ما وقع عليه الشرط أخذ جميع ماله مستهلكاً للجهتين : للديوان السلطاني المعمور ولبيت الاسبتار ، إن كان خارجاً من البحر أو نازلاً إلى البحر ، صادراً وارداً ، وكذلك في البر صادراً ووارداً بعد المحافظة على ذلك وصحته .

وعلى أن نواب المباشر المقدم الكبير لبيت الاسبتار ، وولاته وكتابه ومستخدميه وغلمانه يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وجميع ما يتعلق بهم . وكذلك غلماننا وولاتنا ونوابنا ومستخدمونا وكتابنا ورعايا بـــلادنا يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم ، متفقين على مصالح البلاد وأخذ الحقـــوق وسائر المقاسمات والطرقات والبساتين والطواحين والحقوق المقررة على الفدن على اختلاف أجناسها، وكذلك الرآسة واستخراج وجوه العين والحبوب والتصاريف الجاري بها العادة المقررة على الفدن من جميع ما يتعلق بها .

وعلى أن جميع الضمانات يكون نواب السلطان ونواب بيت الاسبتار متفقين جملة على ذلك لاينفرد أحد منهم بشي إلا باتفاق وتنزيل في دفاتر الديوان المعمور وديوان بيت الاسبتار ، ولايطلق ولايحبس إلا باتفاق من الجهتين ، ولاينفرد واحد دون آخر .

وعلى أن أي مسلم تصدر منه أذية يحكم فيه بما يقتضيه الشرع الشريف في تأديبه ، يعتمد ذلك فيه نائبنا ، من شنق يجب عليه أو قطع ، وأدب بحكم الشرع الشريف : من شنق وقطع وكحل أعين ، بحيث لايعمل ذلك إلا بحضور نائب من جهة بيت الاسبتار حاضر يعاين ذلك بعينه ، ويكون قد عرف الذنب وتحققه . وإن كان ذنبه يستوجب جناية أو غرامة دراهم أو ذهب أو مواش أو غير ذلك على اختلاف

أجناسه ، يكون ما يستأدى مناصفة للديوان المعمور لبيت الاسبتـار وصاحب المرقب . فإن كان فيها قماش وبضائع على اختلاف أجناسه ، وصاحبه مسلم ، يأخذ بضاعته من غير اعتراض من الجهتين بعد أداء الحق للديوان المعمور لبيت الاسبتار ، وإن لم يُعرف صاحب البضاعة وكانت لمسلم أعيدت للخزانة السلطانيه ولا يكون لبيت الاسبتار. تعلق وإن كان صاحب البضاعة نصرانياً على اختلاف أجناس النصارى : تؤخذ بضاعته من غير اعتراض من جهتنا بعد أداء الحق ، وإن لم يعرف صاحب البضاعة ، وكانت لنصراني ، تبقى تحت يد بيت الاسبتار ، خلا ما كان من بلاد مملكة السلطان على اختلاف دينه : إن كان نصرانياً أو ذمياً ، على اختلاف جنس دينه ، ليس لبيت الاسبتار عليهم اعتراض ، ويحمل ذلك جميعه على اختلاف أجناس البضائع للديوان المعمور .

وعلى أنه متى انكسر مركب ، وظهر إلى بر الموانىء بضاعة ، وقصد صاحبه شيله إلى جهة يختارها في البر والبحر ، ولا يتبيع ، فيؤخذ الحق منه : إن باع يؤخذ الحق ،ويكون الحق للجهتين ، وهو الحق المعروف الجاري به العادة .

وعلى أن التجار السفارة والمترددين بالبضائع من بلاد المسلمين والنصارى متى ما خرجوا من الموانىء المحدودة في أعلاه ، يتوجهون بخفارة الجهتين من غير حـــق : لايتناول من الخفارة شيء منسوب إلى نفوسهم إلى أن يخرجهم ويحضرهم إلى بر حدود المرقب آمنين مطمئنين تحت حفظ الجهتين . ومتى وصل التجار من مملكة السلطان إلى بلاد المرقب وموانيها ، فالترتيب على الخفارة من الجهتين مع تدرك الرؤساء الحفظ للطرقات صادراً ووارداً ، بحيث إنهم يحضرون إلى بلاد المرقب وإلى الموانىء بالمرقب المحدودة أعلاه ، طيبين آمنين على أرواحهم وأموالهم بالخفارة من الجهتين على ماشرحناه .

وعلى أن غلمان المباشر المقدم لبيت الأسبتار والأخوة والخياله والرعية

المقيمين بقلعة المرقب والربض يكونون آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم ومن يلوذ بهم ويتعلق في حـال صدورهم وورودهم إلى بلادنا الجارية في مملكتنا في البر ، منا ومن نوابنا بالمملكة والبلاد الجارية في حكمنا . ومن ولدنا الملك السعيد ومن ارائنا وعساكرنا المنصورة . وإن قتل قتيل أو أخذت أخيذة في حدود المناصف ببلاد المرقب فيقع الكشف عن ذلك عشرين يوماً ، فإن وجد فاعل ذلك يؤخذ الفاعل بذنبه ، وإن لم يظهر فاعل ذلك مدة عشرين يوماً فيمسك رؤساء مكان قطع الطريق وأخذ الأخيذة وقتل القتيل ، إن كان أخـذ وقتل – مكان من قتل القتيل أو أخذ الأخيذة – أقرب القرباء إلى الذي قطع عليه الطريق أو قتل قتيلاً ، فإن خفي الفاعل لذلك وعجز عـن إحضاره بعـد عشرين يوماً ، يلزم أهل نواب الجهتين من القرباء الأقرب لذلك المكان بألف دينار صورية : للديوان السلطان النصف ، ولبيت الأسبتار النصف ، ولا تتكاسل الولاة في طلب ذلك . ويكون طلبه يداً واحدة ولا يختص الواحد دون الآخر ، ولا يحابي أحد منهم لأخذ الفلاح في هـذا أو غيره في مصلحة عمارة البلاد واستخراج الحقوق ومقاسمة الغلال وطلب المفسدين ليلاً نهاراً .

وعلى أن لا تغيَّر الهدنة المباركة بأمر من الأمور ، لا من جهتنا ولا من جهة ولدنا الملك السعيد إلى انقضاء مدتها المعينة أعلاه وفروعها ولا تتغير بتغير المقدم المباشر لبيت الأسبتار الحاكم على المرقب وغيره . وإذا جرت قضية في أمر من الأمور يعرفهم نوابنا ، ويحقق الكشف إلى مدة أربعين يوماً ، فمن يكون للبداية يخرج منها على من شغب[1] ، ويكون قد عرف دَيْنَته الذي بـدا من جهة كل واحـد . وإذا تغير

(١) كذا بالأصل والمعنى غير مفهوم .

النواب بالمرقب وحضر نائب مستجد يعتمد مـا تضمنته هذه الهدنـة ، ولا يخرج عن هـذه المواصفة . وإذا تسحب أحـد من المسلمين على اختلاف أجناسه ، إن كان مملوكاً أو غير مملوك ، أو معتوقاً أوغير معتوق ، أو كائناً من كان من المسلمين على اختلاف منازلهم ، وإن كان غلاماً أو غير غلام - يرد بجميع ما يوجد معـه ، إن كان قليلاً أو كثيراً يرد ، ولو أن المتسحب دخـل الكنيسة وجلس فيها يمسك بيده ويخرج ويسلم لنوابنا بجميع ما معـه ، وإن كان خيلاً أو قماشاً أو دراهم أو ذهباً وما يتعامل الناس به يسلم بما معه إلى نوابنـا على مـا شرحناه . وكذلك إذا تسحب أحـد من جهتهم من الفرنج أو النصارى إلى أبوابنا الشريفة ، أو وصل إلى جهة نوابنا يمسك ويسلم بما حضر معه : من الخيل والأقمشة والعدة وجميع ما يصل إن كان قليلاً أو كثيراً يمسكه لنوابنـا ويسلمون ذلك بما معه لنائب المقـدم الماستر المقيم بالمرقب ، وأخذوا الخطوط بذلك بتسليمه بما حضر معه .

وعلى أنهم لا يكون لهم حديث مع قلمة العليقة ولا الرعية الذين فيها ، ولا مع نواب ابن الرديني المقيمين فيها : لا بكتاب ولا بمشافهة ولابرسالة ولابقول ، ولا يطلع أحد من جهتهم إليهم ، ولايمكن أحد من الحضور إليهم والوصول إلى جهتهم من القلعة المذكورة ، ولاتسيّر إليهم مئونة ولاتجارة ولا جلب على اختلاف أجناسه ، ولاتكون بينهم معاملة ، وإن حضر أحد من جهة قلعة العليقة إليهم يمسكون ويسلمون لنوابنا ويأخذوا بذلك خطوطهم .

وعلى أنهم لايجددون عمارة قلعة ، ولافي القلعة عمارة ، ولافي البدنة ولافي أبراجها ، ولايعتمدون إصلاح شيء منها إلا إذا عاينه نوابنا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضرورة في ترميم يرممونه بعد أن يعانيه نوابنا

من هذا التاريخ ، ولايجددون عمارة في ربضها ولا في سورها ولا في أبراجها ، ولايجددون حفر خندق وعمارة خندق ، أو تجدد بناية خندق أو قطع جبل أو تحصن عمارة ، أو تحصن بقطع جبل ، منسوباً لتحصين يمنع أو يدفع ، ولم نأذن لهم بسوى البناية على أثر الدور التي أحرقت عند دخول العساكر صحبة الملك السعيد ، وقد أذنا لهم في عمارة باطن الربض على أثر الأساس القديم .

وعلى أن صهيون وأعمالها ، ولرومة [؟] وأعمالها ، والقليعة وأعمالها وعيدوب وأعمالها الجارية تحت نظر الأمير سيف الدين محمد بن عثمان صاحب صهيون — يجري حكم هذه البلاد المختصة به حكم بلادنا في المهادنة ، بحكم أن بلاده المذكورة جارية في ممالكنا الشريفة .

وعلى أنه لايمكن بيت الاسبتار من دخول رجل غريبة في البر ولافي البحر إلى بلادنا بأذية ولاضرر يعود على الدولة وعلى بلادنا وحصوننا ورعيتنا ، إلا أن يكونوا أبداً غالبة صحبة ملك متوج .

وعلى أن البرج الداخل في المناصفة ، وهو برج معاوية الذي عند الحاصّة الداخلة في مناصف المرقب الآن ، يخرب ما يخصنا منه ، وهو النصف من البرج المذكور أعلاه ، وأن الجسر المعروف بجسر بلدة لم يكن لبيت الاسبتار فيه شيء من البرّين ، وأنه خالص للديوان المعمور دون بيت الاسبتار ، وأن الدار المستجدة عمارتها بقلعة المرقب برسم الماستر المقدم الكبير الذي هو عايز تكميل عمارة سقف القبو بالحجارة والكلس لاتكمل عمارتها ويبقى على حاله ، وهو وسط القلعة الظاهر منه قليل إلى البر الشرقي وهو المذكور أعلاه .

وعلى أن نواب الاسبتار بالمرقب لايخفون شيئاً من مقاسمات البلاد

ولاشيئاً من حقوقها الجاري بها العادة أن بيت الاسبتار يستخرجونه ولايخفون منه شيئاً ، وكل ماكان يستأدى من البلاد في أيدي الاسبتار قبل هذه الهدنة يطلعون نوابنا عليه ولا يخفون منه شيئاً قليلاً ولا كثيراً من ذلك .

وعلى أن السلطان يأمر نوابه بحفظ مناصفات بلاد المرقب الداخلة في هذه الهدنة من المفسدين والمتلصصين والحرامية ممن هو في حكمه وطاعته . وكذلك الماستر المقدم افريز أولد كال يلزم ذلك من الجهة الأخرى . ومتى وقع ـ والعياذ بالله ـ فسخ بسبب من الأسباب ، كان التجار والسفار آمنين من الجهتين إلى أن يعودوا بأموالهم ، ولايمنعون من السفر إلى أماكنهم من الجهتين . وتكون النهاية لهم أربعين يوماً . وتكون هذه الهدنة منعقدة بشروطها المذكورة ، مستقرة بقواعدها المسطورة للمدة المعينة وهي عشر سنين وعشرة أشهر كوامل : أولها مستهل رمضان سنة تسع وستين وستمائة إلى آخرها متتابعة متوالية ، لاتفسخ بموت أحد من الجهتين ولابعزل والٍ وقيام غيره موضعه ، ولا زوال رجلٍ غريبة ولاحضور يد غالبة ، بل يلزم كلاً من الجهتين حفظها إلى آخرها . ومن تولى بعد الآخر حفظها إلى آخرها بالشروط المشروطة فيها أولاً وآخراً . والخط أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى . في تاريخ كذا وكذا .

صبح الاعشى للقلقشندي ج ١٤ ٤٢ - ٥٠

١٩٠ ـ رسالة من الملك الظاهر بيبرس باسم ولده الملك السعيد إلى القاضي ابن خلكان مبشرة بفتح حصن الأكراد سنة ٦٦٩هـ من إنشاء محيي الدين بن عبد الظاهر .

هذه البشرى إلى المجلس السامي القضائي ، لازالت التهاني عنده

وثيقة الأواخي حسنة التواخي عجلة لإرضاء أهل الإيمان فلا يرخى له أعنة التراخي ، تعلمه بفتوحات شملت بشائرها وتعرفت بالنصر أماثرها واستطعم الإيمان حلاوتها من أطراف المران ، واستنطق الإسلام عبارتها من ألسنة الخرصان ، وذلك بفتح حصن الأكراد الذي كان في حلق البلاد الشامية غصة لم تسغ بمياه السيوف المجردة ، وشجاً في صدورها لم تقاومه أدوية العزائم المفردة . طالما أكسبت البلاد رعباً ورهباً ، وطالما استمرى من أخلاف الاستبتار حلباً . وكم صان كفراً في بلاد الإسلام وحماه ، وكم ابتلى منها ببكر أساء صحبتها فما خشي معرة ولاخاف حماة . قد سما في السماء فلا أمل إليه يمتد ، وعلا في الهواء فلا بصر يلمحه إلا وينقلب خاسئاً عنه ويرتد . ماكان بأكثر مما قدمنا الاستخارة وشننا على البلاد الإغارة ، وعللنا بالمكاسرة عنه نفسه الأمارة وأبحنا العساكر من الغنائم كل ما أربح لهم من التجارة ، فكم أحضروا من بادٍ وأبادوا من حاضر ، وتخولوا ما يعقد على حسابه أصابع اليدين التي تدخل في جملتها عقد الخناصر . ولساعة نزولنا بساحته ومصافحتنا بالصفاح مبسوط راحته ، إذا صافينا بذلت نفسها في فدائه ، وتعلقت بذيول العسكر المنصور بأخذ الحسب من أمرائه ، فقبل فداؤها ولكن بشرط فتوحه وتملكه ، وتكفل نصر الله على من فيه ، فوجدت أرباضه جميعها من الذعر خاوية على عروشها ، صائلة سخالها على وحوشها مرخصة المساوم ، مرخصة في اغتنام الغنائم ، فملكت العساكر حمى تلك الأموال وحمى تلك القلل العوال ، وتفيئوا من هذه ما يصلح الأحوال وتبوؤا من هذه ما يغدو مقاعد للقتال . وأخذنا عليها من النقوب كل ساري الجراحة في ذلك الجثمان ، سارب في ضمائرها كما يسرب الميل بين الأجفان . ونصبنا عليه من المجانيق كل مثبتة في مستنقع الموت رجلها ،

حاملة في الهواء رحلها جاثمة جثوم الهرم، هادية هداية العلم، تحلق تحليق الصقور، وتحني الصخور بالصخور، ومازالت بها حتى هدمت منها الأركان. وما برح النقابون حتى سروا في ضمائرها سريان الدم في مفاصل الإنسان، وفصدوا بمباضع قطاعاتهم عروق تلك الأبدان، واستكنوا بها داء معضلاً لايجد العدو إليه من فتكاته دواء موصلاً، تنمو بتنقيص المواد أخلاطه، ولايرجى ببحار من الأمطار المرسلة الخطاطه حتى تحللت من الحصن المذكور قواه، واحترقت حماة من النيران الموقدة بأحشاء حماه، فحينئذ بلغت روحه التراقي، وعجلت عليه المجانيق المذكورة التي أصابته بعين مالها من راقي، من كل ذات أعضاء وأعضاد وأعصاب من السرياقات وعروق تتخلل تلك الأجساد، وذات زمانة كم لها خطوة في الهواء بعيدة المنال، وأمانة كم ردت إلى الحبال ماعجزت عن حمله الجبال. لها كف متسمحة وأعطاف لاتبرح حتى تجود مترنحة، مازالا: هذا بعويل معاوله وهذا بأنين سهامه ينعبان الكفر مساء صباحاً، ويترنمان بما يظنه المسلم له غناء وتحسبه للكفر عليه نواحاً، حتى تسلمناه في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شعبان المبارك، فيأخذ حظه من هذه البشارة الحسنة ويحمل الأصوات بها على الأدعية الصالحة مؤمنة. والله يمتع الشريعة بمساعيه المستحسنة بمنه وكرمه. كتب في التاريخ أعلاه.

ذيل مرآة الزمان لليونيني ج ٢ ٤٤٥ – ٤٤٧

١٦١ – رسالة الملك الظاهر بيبرس باسمه واسم ولده الملك السعيد إلى القاضي ابن خلكان يبشره بفتح حصن عكار سنة ٦٦٩ هـ من إنشاء محيي الدين بن عبد الظاهر

هذه المكاتبة إلى المجلس السامي القضائي، لازالت البركات مخيمة

بفنائه ، والتوفيق منوطاً بجمع آرائه ، وقــلوب الناس متفقة على محبته وولائه ، ولازالت البشائر إليه تتهادي وترد على محـله مثنى وفرادى ، تنضم ما منّ الله به علينا وعلى المسلمين من المواهب العظيمة الموقــع الجليلة المطلع ، وهو أنه لما كان بتاريــخ يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة تسع وستين وستمائــــه تسلمنا حصن عكار بعد أن رتبنا عليه المجانيق من كل جانب ، وأذقنا من فيه العذاب الواصب ، ولم يزل الجاليش بسهامه يرشقهم والمجـانيق تشدخهم والمنايا تتخطفهم ، فعندما شاهدوا مصارع بعضهم نزلوا من الحصن المذكور خاضعين ، وعفروا جباههم بالذل متضرعين . فعندما شاهدناهم على هذه الصورة رحمناهم وأمناهم على أنفسهم خاصة وتسلمنا الحصن المذكور بحواصله وجميــع ما فيه وانتظم في سلك ممالكنا ودخل في جملة حصوننا وقلاعنا . فليأخذ المجلس بحظه من هذه البشرى بـأوفر نصيب ، ويذيعها بين القضاة والعلماء والفضلاء بين كل بعيد وقريب ، فإنها من النعم التي يجب على كل مسلم شكرها ويتمين بثها بين الأنام وذكرها ، فيحيط علمه الكريم بذلك . والله يؤيده ويعضده ويحرسه في سائر التصرفات والمسالك إن شاء الله ، كتبت في التاريــخ المذكور أعلاه .

ذيل مرآة الزمان لليونيني ج٢ ٤٤٨ ـ ٤٤٩

١٦٣ ـ رسالة الملك الظاهر بيبرس الثانية إلى بوهيموند السادس صاحب طرابلس بعد فتحه عكار سنة ٦٦٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم . قد علم القومص بيمند ـ جمله الله ممن ينظر لنفسه ، ويفكر في عاقبة يومه من أمسه . نزولنا بعد حصن الأكراد على حصن عكار ، وكيف نقلنا المنجنيقات إليها في جبال تستصعبها الطيور

لاختيار الأوكار ، وكيف صبرنا في جرها في مناكدة الأوحال ومكابدة الأمطـــار ، وكيف نصبنا المنجنيقـــات على أمكنة يزلق عليها النمل إذا مشى ، وكيف هبطنا في تلك الأودية التي لو أن الشمس من الغيوم ترى بها مــا كان غير جبالها رشا ، وكيف صارت رجالك الذين ما قصرت في انتخابهم ، وحسّنت بهم استعانة نائبك الذي انتحى بهم .

وكتابنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر ، وأن صوت الناقوس صار عوضه الله أكبر ، ومن بقي من رجالك أطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح ، وسلموا ولكن من ندب السيوف إلى بـــكاء النوائح . وأطلقناهم ليحدثوا القومص بما جرى ، ويحذروا أهل طرابلس من أنهم يغترون بحديثك المفترى ، وليروهم الجراح أرأيناهم بها نفاذاً ، ولينذروهم لقاء يومهم هذا ، ويفهموكم أنه مابقي من حياتكم إلا القليل ، وأنهم ماتركونا إلا على رحيل ، فتعرف كنائسك وأسوارك أن المنجنيقات تسلم عليها إلى حين الاجتماع عن قريب ، وتعلم أجناد فرسانك أن السيوف تقول إنها عن الضيافة لاتغيب ، لأن أهل عكار جاسدوا لها جوعاً ولاقضت من ريها بدمائهم الوطر ، وما أطلقو إلا لما عاقب شرب دمائهم ، وكيف وثلاثة أرباع عكار عكر . يعلم القومص هذه الجملة المسرودة ويعمل بها . وإلا فيجهز مراكبـه ومـــراكب أصحابه ، وإلا فقد جهزنا قيودهم وقيوده .

كتاب السلوك للمقريزي جـ ١ ، ق٣ ٩٧٢ - ٩٧٣

٢ـ الملك المنصور قلاوون ٦٧٨-٦٨٩هـ ١٢٧٩ - ١٢٩٠م

١٦٣ - رسالة الملك المنصور قـلاوون إلى صاحب اليمن مبشراً بفتح صافيتا من إنشاء محي الدين بن عبد الظاهر

أعز الله تعالى نصرة المقام العالي المولوي السلطاني المظفري الشمسي ، وأشركه في كل بشرى تشد الرحال لاستماعها ، وتُحَلّ الحُبى لاستطلاعها ، وتتهافت التواريخ والسير على استرفادها .

وتتنافس الأقلام والسيوف على الأفهام بأجناسها وأنواعها . ولا خلا موقف جهاد من اسمه ، ولامصرف أجـــر من قسمه ولاغرض هناء من سهمه ، ولاافق ابتهاج من بزوغ شمسه وطلوع نجمه . سطر المملوك هـذه البشرى والسيفُ والقلم يستمدان : هذا من دم وهذا من نقْس ، ويمضيان : هذا في رأس وهذا في طرس ، ويتجاوبان : هذا بالصليل وهذا بالصرير ، ويتناوبان : هذا يستميل وهـــذا يستمير ، وكل منهما ينافس الآخر على المشافهة بخبر هذا الفتح الذي مـا سمت إليه همم الملوك الأوائل ، ولا وسَمَت به سيرهم التي بدت أجيادها من حِلاه عواطل ، ولادار في خلدٍ أن مثله يتهيأ في المدد الطويلة ، ولاتشكل في ذهن أنـــه سيدرك بحول ولا حيلة ، وهو النصر المرتب عل حركتنا التي طوى الله لركابنا فيها المراحل ، وألقى بدرر عساكرنا من بحر الحديد المالح إلى الساحل ، وهجومنا على البلاد الفرنجية وهي طرابلس وصافيتا وأنطرطوس ومرقية والمرقب ، كما يهجم الغيث ، ومصادمتنا صدورها كما يصدم الليث ، وسلوكنا منها حيث لم‌يبق‌حيث . وما جرى في هذه الوجهة من اغارات أحسنت متقلب الأعنة ، ومتعلق السيوف ومخترق الأسنة ، ومـــا تهيأ منها من فتوح صافيتا التي هي أم البلاد ومنتجع الحاضر والباد ، وكونها قدمت نفسها في جملة ما يقرى به الضيف ، وقالت : هذا فتوح حضر على هـــذا الفتوح لهذا السيف ، وتلطفت في مسح أطراف الأمان ، وطلبت شكراً ومنا شكران ، وأحضرت إلينا من أهلها الوقت ، وهـــدت السيوف في أعناقهم فتشبهت بها الأغلال . وأنفت‌ْ أيمان أهل الايمان من مصافحتهم

لأنهم أصحاب الشمال . فأطلقهم سيفنا وأمله يمتد إلى من هو أعز منهم مالاً وأكثر احتفالاً وأبزّ مالاً وأهزُّ سيوفاً قصاراً ورماحاً طـوالاً ، واستطار منها شرار نار الحرب الموقدة إلى غيرها من القلاع واستطال إلى سواها من الحصون منهم الباع ، فلا حصن إلا وافترت ثنيته عن نصر مسهل ، وفتح معجل ومؤجل .

فمن ذلك حصن الأكراد الذي تاه بعطفه على الممالك والحصون ، وشمخ بأنفه أن تمتد إلى مثله يد الحرب الزبون ، وغدا جاذبـاً بضبع الشام ، وآخذاً بمخانق بلاد الإسلام ، وشللاً في يد البلاد ، وشجاً في صدر العباد ، تنقض من عشه صدور الأعداء الكاسرة ، وترتاع مـن سطوتها قلوب الجيوش الطائرة ، وتربض بأرباضـــه آساد تحمي تلك الآجام ، وتفوق من قسيه سهام تصمي مفوقات السهام ، تعطيه الملوك الجزية عـن يد وهم صاغرون ، ويصطفى كرام أموالهم وهم صابرون لامصابرون ، كم شكت منه حماة تثني بنكرها قلة الإنصاف ، وكم خافته معرة ومامن معرة خاف . ومازالت أيدي الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جور جواره تلك الحصونُ الصياصي ، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وتاهيلك بمدمع العاصي . حتى نبـه الله إليه ألحاظ سيوف الإسلام من جفونها ، ووفى النصرة ما وجب من ديونها . وذلك بأنا قصدنا فسيح ربعه ، ونزلنا ونازلنا محمي صقعه وختمنا بنصالنا على قلبه وسمعه . وله مدن حوله خمس هو كالراحـة وهـي كالأنامل ، وتكاد بروجه تُرى كالمطايا المقطرة وهي منها بمنزلة الزوامل . ماخيمنا به حتى استبحنا محمّى تلك المدائن المكنى عنهـــا بالأرباض ، وأسحنا بساحاتها بحراً من الحديد ما اندفع حتى فاض ، وأخذنا النقوب في أسوار لاتنقض ولايُنقض بنيانها المرصوص . ولاتقرأ المعاول ماالخواتم

أبراجها من نقوش الفصوص ، ونصبنا عليها عدة مجانيق حملت شواهق الجبال على رؤوس الأبطال ، فغيظت السمهرية أن الذي تقوم به هذه تلك به لاتقوم ، وأن ما منها إلا وله من الأيدي والرؤوس مقـــام معلوم . وصار يرمي بها كل كمـــي مختلس ، وأروع منتهس ، وكل ليث غابة يحميها وتحميه . فشكراً لأسود حق غاباتها تفـترس ، إلى أن جثت أسوارها على الركب ، وكانت سهام مجانيقها تميل من العُجْب فصارت تميد من العَجَب . وكانت تطلب فصارت تهرب من الطلب . واشتد الأمر على الكفار فقاتلوا قتالاً أقض مضاجع الأسلحة ، وأطار حجارة مجانيقهم بغير أجنحة ، وأشجى بشجو النصال المترنحة على غصون السهام المترنحة . هذا وأهل الإيمان يتلقون ذلك كله بصبر يستطعمون منه شهداً ، وإقدام يتلقى صدى الحديد بأكباد مازالت إلى مـوارده قصداً ، يقتحمون نار الحرب التي كلما أوقدوها أطفأها الله وقال : يانار كوني برداً . وبلاد الفرنجية قد غضت منها الأبصـار وخشعت القلوب . واعتقد كل منها في نفسه أنه بعد هذا الحصن المطـلوب . فهذه تود لو أكنتها البحار تحت جناح أمواجها . وهذه لو أسبلت الرياح العواصف عليها ذيول عجاجها . وهذه لواجتثت من فوق الأرض مالها من قرار . وهذه لوخسف بها الثرى وعفت منها الآثار . وذلك لـما بلغهم وشاهدوه من ويل حل بأهل هذا الحصن المنيع ، ومن فتـك أحل ربعه المريع وضيق مجاله الوسيع ، وقراع أضجر الحديد من الحديد والأبطال لم تضجر ، ونضال أسهر كل جفن حتى جفون السيوف لأنا عودناها مثل جفوننا أن تسهر . فكم شكت النقوب من مناكبهـــم زحاماً ، والشرفات من ترقبهم التزاماً ، والرقاب من سيوفهم اقتساماً وكم حمدت التجارب من رأيهم شيخاً وحمد الإقدام من ثبوتهم غلاماً .

قد دوّخوا البلاد فلا موطن إلا لهم به معركة ، وأرملوا الحلائل فلا مشرك إلا وقد أرمل من مشركة ، وأزعجوا الكفر فلا قلب إلا بـه منهم خوف ، ولاسمع إلا لهم به حركة ، وملأوا الأرض كثرة وكيف لايكثر الله جمعاً للإسلام جعل الله فيه بركة .

وكتابنا هذا والمولى بحمد الله أحق من هُنّىء بهذا الفتـح الذي تثني على كتاب بشائره الحقائب ، وتجري إلى سماع أخباره الركائب ، وتتزاحم على المسير تحت البرد الواصلة به متون الصبا وظهور الجنائب، وإذا ذكرت ملاحمه قال كلٌّ : هذا كتاب أم كتيبـة تـلوح . وإذا شوهدت حمرة طرسه قيل : وهذا ماصنعته في المد المعلمة عليـه دم الكفر المسفوح ، وينعم ـ أعز الله نصره ـ بالإعلان بهذا النبأ الحسن الذي تستروح إليه الأسماع . وتسر بالإفهام به أخوات هذا الحصن من مدنه ومن قلاعه العظيمة الامتناع ، فإنه مابرح الأخ يفرح بأخيه . وإذا كان الهناء عظيماً اشترك فيه كل شيء فيه ، إن شاء الله تعالى .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧ ٣٥٣ ـ ٣٥٧

١٦٤ ـ نص الهدنة المعقودة بين الملك المنصور قلاوون وبين متملك طرابلس الشام سنة ٦٨٠ ﻫ .

... وتقررت الهدنة مع متملك طرابلس الشام بيمند بن بيمند ملك الفرنج لمدة عشر سنين كوامل متتاليات أولها السابع والعشرين [كذا بالأصل] من شهر ربيع الأول سنة ثمانين هذه السنة الموافق للخامس من شهر تموز سنة ألف وخمسماية واثنتين وتسعون للإسكندر اليوناني ، وذلك على بلاد الملك المنصور والملك الصالح ولده : قريبها وبعيدهـا سهلها وجبلها غورها ونجدها قديمها ومستجدها ، وماهو مجاور لطرابلس

ومحاددها من المملكة البعلبكية وجبالها وقراها الرحلية والجبلية وجبال الفينيين والمقيبين ، وما هـو من حقوق ذلك ، وعلى الفتوحات المستجدة وهي حصن الأكراد وانليس والقليعات وصافيتـا وميعـاز واطليعا وحصن عكار ومرقية ومدينتها وبلادها ومناصفاتها ، وهي بلاد الملكية وجميع بلاد هذه الجهات التي ذكرناها ومناصفات المرقب الـتي دخلت في الصلح مع بيت الأسبتار وبلده ومدينته ، وما هـو محسوب منها ومعروف بها من حصون وقرى وبـلادطنس وبلادها وقـرقص وبلادها ، وجبلة ولاذقية وأنطاكية والسويدية وبلادذلك وحصن بغراس وحصن ديركوش وصهيون وبرزية وحصون الدعوة وغير ذلك من ساير الممالك الإسلامية وما سيفتحه الله تعالى على يد الملك المنصور ويد ولده، وعلى الموانيء والسواحل والأبراج وغير ذلك . وعلى بلاد الإبرنس وعلى طرابلس وماهو داخل فيها وأنفة والبترون وجبيل وبلاد ذلك وعرقا وبلادها المعينة في الهدنة وعدتها إحدى وخمسون ناحية . وما هو للخيالة والكنائس وعدتها إحدى وعشرون بلداً ، وماهو للفارس روجـار ولا لولاى من قبلي طرابلس يكون مناصفة ، وعلى أن يستقر برج اللاذقية وميناؤها في استخراج الحقوق والجبايات والغلات وغيرها مناصفة ، ويستقر مقامهم باللاذقية على حكم شروط الهدنة الظاهرية الركنية ، وعلى أن يكون على جسر أرتوسية من غلمان السلطنة لحفظ الحقوق ستـة عشر نفراً وهم المشد والشاهد والكاتب وثلاث غلمان لهم وعشر رجـالة في خدمة المشد . ويكون لهم في الجسر بيوت يسكنوها ولا يحصل منهم أذية لرعية الابرنس وإنما يمنعـوا مايجب منعه من الممنوعات ، ولايمنعوا ما يكون من عرقا وبلادها من الغلات الصيفية والشتوية وغيرها لايعارضهم المشد فيه . وما عدا ذلك فما يعبر من بلاد السلطان يؤخذ عليه الحقوق

ولايدخل إلى طرابلس غلّة محمية للأبرنس ولاغيره إلا ويؤخذ الموجب عليها . وعلى أن البرنس لايستجد خارج ما وقعت الهدنة عليه بناء يدفع ولايمنع . وكذلك السلطان لايستجد بناء قلعة ينشئها من الأصل في البلاد التي وقعت الهدنة عليها . وعلى الشواني من الجهتين أن تكون آمنة كل طايفة من الأخرى ، ولاينقض ذلك بموت أحدهما ولابتغييره ، وأن لايحسن لأحد من أعداء السلطان ولايتفق عليه برمز ولاخط ولامراسلة ولا مكاتبة ولامشافهة وتقررت الحال على ذلك (١) ...

تاريخ ابن الفرات ج ٢ ٢٠٥ - ٢٠٦

١٦٥ - رسالة أرسلها الأشرف خليل بن السلطان الناصر قلاوون باسم والده وباسمه إلى الملك المظفر صاحب اليمن يبشره بفتح طرابلس الشام سنة ٦٨٨ هـ من إنشاء محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر .

أعز الله نصرة المقام وأوفد عليه كل بشرى أحسن من أختها ، وكل تهنئة لايجليها إلا هو لوقتها ، وكل مبهجة يعجز البيان والبنان عن ثبتها ونعتها ، وتتبلج فتود الدرر والدراري لوزفت هذه إلى تراقيها ، وسمت هذه إلى سمتها ، وصبحه منها بكل هاتف أسجع من هواتف الحمائم ، وبكل عارفة أسرع من عوارف الزهر عند عزائم النسائم ، وبكل عاطفة أعنة الإتحاف بالإيجاف الذي شكرت الصفاح منه أعظم قادر والصحائف أكرم قادم ، والغزو الذي لاتخص تهامة ببشراه بل جميع

(١) أورد المقريزي في كتابه « السلوك » ج ١ - ق ٣ / ٩٧٤-٩٧٧ نصاً مقارباً كل المقاربة لنصنا أعلاه ، مع اختلافات يسيرة . كما نحب أن ننوه أن الأخطاء النحوية والإملائية الموجودة في النص هي من الأصل .

النجود والتهائم ، وذوو الصوارم والصرائم ، وأولو القوى والقوائم ، وكل ثغر عن ابتهاج أهـل الإسلام باسم ؛ وكل بَرٍّ برٌّ بتوصيـــل ماترتب عليه من ملاحم ، وكل بحر عذب يمونٍ كل غازٍ لايحبس عن جهاد الكفار في عقر الدار الشكائم ، وكل بحر ملح كم تغيظ من مجاورة أخيه لأهل الشرك ومشاركتهم فيه فراح وموجه المتلاطم . المملوك يجدد خدمته يقتفي فيها أثر والده ، ويجري في تبليغها على أجمل عوائده ، ويستفتح فيها استفتاحاً تحف به من هنا ومن هنا تحف محامده ، ويصف ولاء قد جعله أجمل عقوده وأكمل عقائده ، ويشفعها بإخلاص قــد جعله ميله أحسن وسائله وقلبه أزين وسائده ، ويطلع العلم الكريم ان من سجايا المتعرضين إلى الإعلان بشكر الله في كل مايعرض المسلمين من نصر ، ويفرض لهم من أجر غزوكم قعد عنه ملك فيا مضى من عصر ، أن يقدروا تلك النعمة حق قدرها من التحدث بنعمتها والتنبيـه لسماع نغمتها ، وإرسال أعنة الأقلام إلى ميـادين الطروس ، وإدارة حرباء وصف خير حرب إلى مواجهة خير الشموس . ولما كانت غزوات مولانا السلطان ملك البسيطة الوالد ـ خلد الله سلطانه ـ وقد أصبحت ذكرى للبشر وموافقة للنصر ، فكم جاءت هي والقدر على قدر . وقد سارت سِيَرُها وسيرها هذه شدو الأسمار ، وهذه جادة يستطيب منهـا حسن الحدو السفارُ . فكم قاتلت من يليها من الكفــــار ، وكم جعلت من يواليها وهو منصورها ـ منصوراً بالمهـاجرين والأنصـار . ولما أذل الله ببأسها طوائف التتار في أقاصي بلاد العجم ، وجعل حظ قلوبهم الوجع من الخوف ونصيب وجوههم الوجم ، وأخلى الله من نسورهم الأوكار ، ومن أسودهم الأجم ، وقصرت بهم هممهم حتى صاروا يخافون الصبـح إذا هجم والظن إذا رجم . وصارت رؤية الدماء تفزعهم ، فلو احتاج

أحديم لتنقيص دم المريض لأحجم من خوفه وما احتجم . وأباد الله الأرمن فحل بالنّيل منهم الويل ، وما شمر أحد من الجنود الإسلامية عن ساعده إلا وشمر هو من الذل الذيل . ولا أثارت الجياد من الخيل عثيراً منعقداً إلا وظنوه مساءً قد أقبل أوليل . وانتهت نوبة القتل بهم والإسار إلى التكفور « ليفون » ملك الأرمن الذي كان يحمي سرحهم ويرد صرحهم ويستنطق هتف التتار ويسترجع صدحهم . وتعتز طرابلس الشام بأنه خال إبرنسها الكافر ولسان مشورته ووجه تدبيره السافر . وطالما غر وأغرى ، وجر وأجرى ، وضر وأضرى . فلما توكل مولانا السلطان وعزم وغرم فتوكل وتحقق أن البلاء به قد نزل ، وما تشكك أن ذلك في ذهن القدر قد تصور وتشكل ، وأن يومه في الفتك سيكون أعظم من أمسه ، وأعظم منها معاداة غده ، وأن نصر الله لن يخلفه صادق موعده ، أكل يده ندامة على ما فرط في جنب الله وساق الحتف لنفسه بيده فممر الله بروحه الخبيثة الدرك الأسفل من النار ، وسقاه الحتف كأساً بعد كأس لم يكن لها غير الهلك من خمار . وكانت طرابلس هي ضالة الإسلام الشريدة وإحدى آبقاته من الأعوام المديدة ، وكلما مرت شمخت بأنفها وتأنقت في تحسين منارة منازهها وتزيين ريحانها وعصفها ، ومرت وهي لاتنازل ملكاً بطرفها. وكلما تقادم عهدها تكاثرت بالأفواج والأمواج من بين يديها ومن خلفها إذ البحر لها جلباب والسحاب لها خمار وليس بها من البر إلا بمقدار ساحة الباب من الدار ، كأنها في سيف ذلك البحر جبل قد انحط أو ميل استواءه قد خرج عن خط ، ما قصد أحد شطها بنكاية إلا شط واشتط . قدر الله أن صرف مولانا السلطان إليها العنان ، وسبق جيشه إليها كل خبر وليس الخبر كالعيان ، وجاءها بنفسه النفيسة ، والسعادة قد حرسته

عيونها وتلك المخاوف كلهن أمان ، وقد اتخذ من إقدامه عليها خـــير حبائل ومن مفاجآته لها أمد عنان . وفي خدمته جنود لاتستبعد مفازة ، وكم راحت وغدت وفي نفوسها للأعداء حزازة ، فامشطوا بخيولهم من جبال لبنان تيجاناً لها صاغتها الثلوج ، ومعارج لاترافق بها غير الرياح الهوج . انحطت تلك الجيوش من تلك الجنادل انحطـــاط الأجادل ، واندفعوا في تلك الأوعار اندفاع الأوعال ، ولم يحفل أحد منهم بسرب لاصق ولايجبل شاهق فقال : هـــذا منخفض أوعال . وشرعوا في التحصيل لما يوهي ذلك التحصين وابتناء كل سور أمام أسوارها مـن التدبير الحسن والرأي الرصين ، فما لبثوا إلا بمقدار ما قيل لهم : دونكم والاحتطاب ونقل المجانيق على الخيل وعلى الرقاب ، حتى جروهـــا بأسرع من جر النفس ، وأجروها على الأرض سفائن . وكم قـالوا : السفينة لاتجري على يبس وفي الحال نقلت إليها فرأوا من مقوقلها من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع ووجهت سهامُها وجوهها إلى منافذها ،فما شوهدت منها عين إلا وكان قدامها منها أصبع ، وألقيت العداوة بين الحجارة من المجانيق وبين الحجارة من الأسوار، فكم نقبت ونقبت من فلذة كبدها عن أسرار. وأوقدت نيران المكايد ثمَّ فكم حولها من صافن وصافر . وكم رمتهم بشرر كالقصر ، فوقع الحافر كما يقال على الحافر . ومابرحت سوق أهل الإيمان في نفاق أهل النفـاق ، وأكابرهم تساق أرواحهـــم الخبيثة إلى السياق . وكان أهل عكاء قد أنجدوهم من البحر بكل بر ، ورموا الإسلام بـــكل شرور وكل شر ، فكان السهم الذي يخرج منها لايخرج إلا مقترناً بسهام ، وشرفات ذلك الثغر كالثنايا ، ولكنها لكثرة من بها لاتفتر عن ابتسام . وما زالت جنود الإسلام كذلك ومولانا السلطان لاترى جماعة مقدمة ولا متقدمة إلا وهو يرى بين أولئك . واستمر ذلك

من مستهل شهر ربيع الأول إلى يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر ، فزحف عليها في بكرة ذلك النهار زحفاً يقتحم كل هضبة ووهدة ، وكل صلبة وصلدة حتى أنجز الله وعده وفتحها المسلمون مجازاً ، وفي الحقيقة فتحها وحده . وطلعت سناجق الإسلام الصفر على أسوارها ، ودخلت عليهم من أقطارها ، وجاست الكآبة خلال ديارها . فاحتازها مولانا السلطان لنفسه ملكاً ، وماكان يكون له في فتحها شريك وقد نفى عنها شركاً . وكلما قيل : هذه طرابلس فتحت قال النصر بمن قتل فيها من النجد الواصلة وأكرم عكا وأهل عكا [1] . وأعاد الله قوة الكفر بها أنكاثاً ، وكان أخذها من مائة وثمانين سنة يوم ثلاثاء واستردت في يوم الثلاثاء . ولما عمت هذه البشائر [و] كل بها مولانا السلطان إلى كل من يستجلي حسان هذه العرائس ويستحلي نفيس هذه النفائس . وسير مولانا السلطان إلى مولانا بشرى فقعقع بها البريد ، لتتلى بأمر مولانا على كل من ألقى السمع وهو شهيد . وكما عم السرور بذلك كل قريب ، قصد أن يعم الهناء كل بعيد . وأصدر المملوك هذه الخدمة يتحجب بين يدي نجواها ، ويتوثب بعد هذه الفاتحة لكل سانحة يحسن لدى المولى مستقرها ومثواها . لابرح المقام يستبشر لكماة الإسلام بكل فضل وبكل نعمى ، ويفرح لصرح الكفر إذا انتهك ، ولسفح الملك إذا يحمى ولسمع الشرك إذا يصم ولقلبه إذا يصمى [2] .

نهاية الأرب للنويري ج ٥ ١٥٦ - ١٦٠

---

(١) كذا بالأصل والجملة قلقة مضطربة غير مفهومة المعنى .

(٢) أورد القلقشندي في « صبح الأعشى » ج ٧ / ٣٦٦-٣٧٠ نصاً لايختلف كبير اختلاف عن نصنا أعلاه ، على حين يورد كل من ابن تغري بردي في « النجوم الزاهرة » ج ٧ - ٣٢٣ والسيوطي في « تاريخ الخلفاء » ج ١ - ٤٨٢ نصاً موجزاً كل الإيجاز ومختلفاً كل الاختلاف عن النص أعلاه .

١٦٦ - رسالة الأمير بــدر الدين بيدرا إلى الأمير حسام الدين طرنطاي يبشره ويهنئه بفتح طرابلس الشام مــن إنشاء محيى الدين ابن عبد الظاهر .

المملوك يهنىء بهذا الفتح الذي كادت به هذه الغزوة تزهو على غيرها من الغزوات وتتيه ، وأشرقت الأرض بنور ربها ابتهاجاً بما أمضاه الله منه ومــا سيمضيه ، وبما سيعطيه حتى يرضيه ، وذلك أن فتح طرابلس التي طالما شمخت بأنفها على الملوك . وكم أبت على مستفتح فما قال لغيره اباؤها : لله أبوك . وأخر الله مدتها إلى خير الأزمان ، وفتحها على يــد سلطاننا الذي حقق الله به آمالاً لا تنفذ منه إلا بسلطان . فالحمد لله الذي عضد هذا الملك من مولانا بخير مــن دبّره ، وحماه منة بأقطع حسام جرده الله انتقض ما أمرّه . وما من فتوح ولا أمر ممنوح إلا ومولانا منضد عقوده ومجهز بريده ومطلع سعوده ورافع علمه ؛ وممضي سيفه ومرضي قلمه . فأمتع الله الأمة من مولانا السلطان بسلطان يسترد لهم الحقوق ويتقاضى الديون ، وأمتع الله سلطانها من مولانا بمن آراؤه أقفال الممالك وسيوفه مفاتيح الحصون .

نهاية الأرب للنويري ج ٥ - ١٦١

١٦٧ - نص الهدنة التي عقدت بين السلطان الملك المنصور قلاوون وولده وولي عهده السلطان الملك الصالح وبين مملكة عكا من إنشاء محيي الدين بن عبد الظاهر كاتب الإنشاء .

استقرت الهدنة بين مولانا السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين علي - خلد الله سلطانهما - وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعثليث وبلادها التي انعقدت عليها هذه الهدنة وهم : السنجال (١)

(١) السنجال Sénéchal من أصل لاتيني ومعناها النائب او الكفيل . والمقصود نائب المملكة في عكا في تلك الفترة أودو بوليشير Odo Poilechier .

أو دكفيل المملكة بعكا ، والمقدم أفرير كليام ديباجوك مقدم بيت الداوية والمقدم أفرير نيكول للورن[1] مقدم بيت الاسبتار والمرشان افرير كورات نائب بيت مقدم اسبتار الأمن لمدة عشر سنين كوامل وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات أولها يوم الخميس خامس شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة للهجرة النبوية ، الموافق الثالث من حزيران سنة ألف وخمسمائة وأربعة وتسعين لغلبة الإسكندر بن فيلبس اليوناني ، على جميع بلاد مولانا السلطان الملك المنصور وولده الملك الصالح علاء الدنيا والدين علي ، على جميع القلاع والحصون والبلاد والممالك والأعمال والمدن والقرى والمزارع والأراضي وهي مملكة الديار المصرية وما بها من الثغور والقلاع والحصون الإسلامية وثغر دمياط وثغر الإسكندرية ونستروة وسنترية وماينسب إلى ذلك من الموانى والسواحل والبرور ، وثغر فوة وثغر رشيد والبلاد الحجازية وثغر غزة المحروس وما معها من الموانىء والبلاد ، والمملكة الكركية والشوبكية وأعمالها والصلت وأعمالها وبصرى وأعمالها ، ومملكة الخليل - صلوات الله وسلامه عليه - ومملكة القدس الشريف وأعمالها ، والأردن وبيت لحم وأعماله ، وبلادها وجميع ما هو داخل فيها ومحسوب منها ، وبيت جبريل ومملكة نابلس وأعمالها ، ومملكة الأطرون وأعمالها ، وعسقلان وأعمالها وموانيها وسواحلها ومملكة يافا والرملة وميناها وأعمالها وأرسوف وأعمالها وميناها ، وقيسارية وميناها وسواحلها وأعمالها وقلعة قاقون وأعمالها وبلادها ، ولد وأعمالها وأعمال العوجاء وما معها من الملاحة وبلاد الفتوح السعيد وأعمالها ومزارعها ، وبيسان وأعمالها وبلادها ، والطور وأعماله واللجون وأعماله وجينين وأعمالها وعين جالوت وأعمالها والقيمون وأعماله ومايفسب إليه وطبرية وبحيراتها وأعمالها وما معها ، والمملكة الصفدية وما ينسب إليه ، وتبنين وهونين وما معها من البلاد والأعمال ، والشقيف المعروف بشقيف أرنون[2] وما معه

(١) Fr. Nicholes Le Lorgne .

(٢) من أعمال دمشق بينها وبين الساحل قرب بانياس .

من البلاد والأعمال وما هو منسوب إليه ، وبلاد القزن وما معه خارجاً عما عين في هذه المدنه ، ونصف مدينة اسكندرونة ، ونصف قرية مارن بقراها وكرومها وبساتينها وحقولها . وما عدا ذلك من أعمال اسكندرونة المذكورة ويكون جميعه بحدوده وبلاده لمولانا السلطان ولولده ، والنصف الآخر لمملكة عكا ، والبقاع العزيزي وأعماله ، ومشغرا وأعمالها ، وشقيف تيرون وأعماله ، والعامر جميعها في لايا وغيرها وبانياس وأعمالها ، وقلعة الصبيبة وما معها من البحيرات وأعمالها ، وكوكب وأعمالها ، وما معها ، وقلعة عجلون وأعمالها ، ودمشق والمملكة الدمشقية وما لها من القلاع والبلاد والممالك والأعمال ، وقلعة بعلبك وما معها وأعمالها ، ومملكة حمص وما لها من الأعمال والحدود ، ومملكة حماة ومدينتها وقلعتها وبلادها وحدودها ، وبلاطنس وأعمالها ، وصهيون وأعمالها ، وبرزية وأعمالها وفتوحات حصن الأكراد وأعماله ، وصافيتا وأعمالها ، وميعار وأعمالها ، والعريمة وأعمالها ، وقدفيا وأعمالها ، ومرقية وأعمالها ، وحلب وأعمالها ، وحصن عكار وأعماله وبلاده ، والقليعة وأعمالها ، وقلعة شيزر وأعمالها ، وأفامية وأعمالها ، وجبلة وأعمالها ، وأبو قبيس وأعماله ، والمملكة الحلبية وما هو مضاف اليها من القلاع والمدن والبلاد والحصون ، وأنطاكية وأعمالها ، وما دخل في الفتوحات المباركة ، وبغراس وأعمالها ، والدربساك وأعماله ، والراوندان وأعمالها ، والجازم [1] وأعمالها ، وعينتاب وأعمالها ، وتيزين وأعمالها ، وسبخ الحديد وأعماله ، وقلعة نجم وأعمالها ، وشقيف دير كوش وأعمالها ، والشغر وأعماله ، وبكاس وأعماله ، والسويداء وأعمالها ، والباب وبزاعا وأعمالها ، والبيرة وأعمالها ، والرجبة وأعمالها ، وسلمية وأعمالها ، وشميميس وأعمالها ، وتدمر

---

(١) لعل الصواب حارم ، وهي بلدة تقع الآن في شمال غربي سورية .

وأعمالها وما هو منسوب إلى جميع ذلك ما عين وما لم يعين [وعلى جميع العساكر وعلى جميع الرعايا من سائر الناس أجمعين على اختلافهم وتغاير أنفارهم وأجناسهم وأديانهم القاطنين فيها والمترددين إليهـا ومنها من سائر بلاد المسلمين وعلى جميع التجار والسفار والمترددين في الـبر والبحر والسهل والجبل في الليل والنهار يكونون آمنين مطمئنين في حالتي صدورهم وورودهم على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وحريمهم وبضائعهم وغلمانهم وأتباعهم ومواشيهم ودوابهم وعلى جميع ما يتعلق بهم ، وكل مـا تحوي أيديهم من سائر الأشياء على اختلافها][1] ، من الحكام بمملكة عكا وهم كفيل المملكة والمقدم أفرير كليام ديباجوك مقدم بيت الداوية ، والمقـدم افريرنيكول للورن مقـدم الاسبتار ، والمرشان فريركورات نائب مقدم بيت اسبتار الأمن ، ومن جميع الفرنج الأخوة والفرسان الداخلين في طاعتهم وتحويه مملكتهم الساحلية ، ومن جميع الفرنج على اختلافهم الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة من كل واصل إليها في بر وبحر على اختلاف أجناسهم أو أنفارهم لا ينال بلاد مولانا السلطان الملك المنصور وبلاد ولده السلطان الملك الصالح ولا حصونهـما ولا قلاعهـما ولا بلادهما ولا ضياعهـما ولاعساكرهما ولا جيوشها ولا عربها ولا تركمانها ولا أكرادهما ولا رعاياهما على اختلاف الأجناس والأنفار ، ولا ما تحـويه من المواشي والأموال والغـلال وسائر الأشياء منهـم ضرر ولا سوء ولا غـارة ولا تعرض ولا أذية أيديهـم . وكذلك كل ما يستفتحه مولانا السلطان الملك

---

(١) إن الزيادة الموجودة بين المعقوفين مأخوذة من « صبـح الأعشى » للقلقشندي ج ١٤ - ٥٣ .

المنصور وولده السلطان الملك الصالح على يدهما ويد عساكرهما ونوابهما من بلاد وحصون وقلاع وملك وولايات براً وبحراً ، سهلاً وجبلاً ، وكذلك جميع بلاد الفرنج التي استقرت عليها هذه الهدنة من البلاد الساحلية وهي : مدينة عكا وبساتينها وأراضيها وضواحيها وما يختص بها من كرومها وما لها من حقوق حولها وما تقرر لها من بلاد في هذه الهدنة ، وعدتها بما فيها من مزارع ثلاثة وسبعون ناحية خاصاً للفرنج ، وكذلك حيفا والكروم والبساتين ، والعدة بحيفا سبع نواحي وكذلك ما رسا بها بأرضها المعروفة بها تكون للفرنج ، وكذلك دير السياج ودير مارلياس يكون للفرنج . ويكون لمولانا السلطان من بلاد الكرمل خاصاً عفا والمنصورة وباقي بلاد الكرمل ، وهي ثلاث عشرة ناحية للفرنج ، وعثليث القلعة والمدينة ، والبساتين التي قطعت والكروم وفلاحتها وأراضيها تكون لها ، ويكون لها من البلاد ست عشرة ناحية وتكون خاصاً لمولانا السلطان ما يذكر ، وهو : قرية الهراميس بكاملها ، ومما لخاص عثليث يكون مناصفة وهي ثمان نواحي وفلاحة الاسبتار بعمل قيسارية يكون خاصاً للفرنج بما فيها . ونصف مدينة اسكندرونة ونصف قرية مارون بما فيها للفرنج ، وما عدا ذلك يكون خاصاً لمولانا السلطان . ومهما كان في اسكندرونة وقرية مارن من الحقوق والغلة يكون مناصفة . وصيدا القلعة والمدينة والكروم وضواحيها وجميع ماينسب إليها يكون خاصاً للفرنج ، ويكون لها من البلاد خاصاً خمس عشرة ناحية . وما في الوطاة من أنهار ومياه وعيون وبساتين وطواحين وقنى ومياه جارية وسكور لهم بها عادة قديمة تسقي أراضيهم يكون خاصاً بهم . وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها تكون لمولانا السلطان وولده بكمالها .

وتكون هذه البلاد العكاوية وما عين في هذه الهدنة آمنة من مولانا السلطان ومن ولده ومن عساكره وجيوشه [وتكون هذه البلاد المشروحة الداخلة في هذه الهدنة المباركة] ما هو خاص وما هو مناصفة آمنة مطمئنة ومن بها . وليس للفرنج أن يجددوا في غير عكا وعثليث وصيدا مما هو خارج عن الأسوار في هـــذه الجهات الثلاث سوراً ولا قلعة ولا برجاً ولا حصناً قـــديماً ولا مستجداً . وعلى أن شواني مولانا السلطان وشواني ولده متى عمرت وخرجت لاتتعرض لأذية البلاد الساحلية التي انعقدت الهدنة عليها .

وإذا قصدت الشواني المذكورة جهة غير هذه الجهات وكان صاحب تلك الجهة معاهداً للحكام بمملكة عكا ، فلا تدخل إلى البلاد التي انعقدت الهدنة عليها ولاتتزود فيها ، وإن لم يكن صـــاحب تلك الجهة التي تقصدها الشواني معاهداً للحكام بمملكة عكا فلها أن تدخل إلى بلادها وتتزود منها .

واذا انكسر شيء من هذه الشواني – والعياذ بالله – في ميناء من الموانى التي انعقدت الهدنة عليها وسواحلها ، فإن كانت قاصدة إلى من له مع مملكة عكا عهد أو مع مقدميها فيلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمي البيوت حفظها ويمكن رجالها من الزوادة وإصلاح ما انكسر فيها والعود إلى البلاد الإسلامية ، ويبطل حركة ما ينكسر فيها أو يرميه للبحر ، فإن لم يكن الذي تقصده الشواني معهم عهد وانكسرت ، فلها أن تتزود وتعمر رجالها من البلاد المنعقدة عليها الهدنة ، وتتوجه إلى الجهة المرسوم بقصدها ، ويعتمد هذا الفصل من الطرفين ، وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك البحر الفرنجية وغيرهم مـن جوا البحر لقصد الحضور لحضرة مولانا السلطان أو حضرة ولده في بلادهما المنعقدة عليها هـــذه الهدنة فليلتزم نائب المملكة والمقدمون بعكا تعريف مولانا السلطان بحـركتهم

قبل وصولهم إلى البلاد بمدة شهرين ، وإن وصلوا بعد انقضاء مـــدة شهرين فيكون كفيل المملكة بعكا والمقدمون برآء من عهدة اليمين في هذا الفصل . وإن تحرك عدو من جهة البر من التتار وغيرهم فأي من سبق إليه من الجهتين فيصرف الجهة الأخرى . وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية – والعياذ بالله – عدو من التتار وغيرهم في البر والحازت العساكر قدامهم ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هـــذه الهدنة وقصدوها بمضرة فلكفيل المملكة بعكا والمقدمين بها أن يداروا من نفوسهم ورعيتهم وبلادهم بما تصل قدرتهم إليه .

فإن حصل جفل – والعياذ بالله – من البلاد الإسلامية الى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة فيلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر ويكونون آمنين مطمئنين بما معهم ، وعلى أن نائب المملكة بعكا والمقدمين يوصون في سائر البلاد الساحلية الـــتي وقعت الهدنة عليهم أنهم لايملكون حرامية البحر من الزوادة من عندهم ولا من حمل ماء ، وإن ظفروا بأحـــد منهم يمسكوه ، وإن باعوا عندهم بضائع يمسكوا حتى يحضر صاحبها وتسلم إليه . وكذلك يعتمد مولانا السلطان في أمر الحرامية هذا الاعتماد ، وعلى أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب كبيرهم وصغيرهم على اختلاف أجناسهم وأنفارهم من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، ويصلي في الكنيسة الأقساء والرهبان وتكون البيوت لزوار كنيسة الناصرة خاصه ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة ، وإذا نقبت الحجارة التي بالكنيسة ترمـى براً ولا يحط منها حجر على حجر لأجل بناء ،

ولا يتعرض إلى الأقساء والرهبان في ذلـــك على وجـــه الهبة بغير حق ... (١)

كتاب تشريف الأنام والعصور لابن عبد الظاهر ٣٤ – ٤٢

١٦٩ – نص اليمين الذي أقسم بموجبه حكام عكا الفرنج من أجل احترام الهدنة التي عقدت بينهم وبين السلطان الملك المنصور قلاوون .

والله والله وبالله وبالله وتالله وتالله وتالله ، وحــق المسيح وحق المسيح وحق المسيح ، وحق الصليب وحق الصليب وحق الصليب ، وحق الأقانيم الثلاثة في جوهر واحد المكني بها عن الأب والابن والروح القدس إله واحد ، وحق اللاهوت المكرم الحال في الناسوت المعظم ، وحق الإنجيل المطهر ومـــا فيه ، وحق الأناجيل الأربعة التي نقلها متى ومرقس ولوقا ويحنا ، وحق صلواتهم وتقديساتهم ، وحق التلاميذ الاثني عشر والاثنين وسبعين والثلاثمائة وثمانية عشر المجتمعين بالبيعة ، وحق الصوت الذي نزل من السماء على نهر الأردن فزجره ، وحق الله منزل الإنجيل على عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، وحق الست مارية أم النور مارت مريم ويوحنا المعموديين ومرتمان ومرتماني وحق الصوم الكبير ، وحق ديني ومعبودي وما أعتقده من النصرانية ومـــا تلقيته من الآباء والأقساء المعمودية ! أنني من وقتي هذا وساعتي هذه قد أخلصت نيتي وأصفيت طويتي في الوفاء للسلطان المنصور ولولده الملك الصالح ولأولادهما بجميع

---

(١) ورد نص هذه الهدنة بشكل متقارب كل القرب مع النص اعلاه ، في كل من كتاب « السلوك » للمقريزي ج ١ ، ق ٣ / ٩٨٥ – ٩٩٧ و « صبح الأعشى » للقلقشندي ج ١٤ ٥١ – ٦٣ و « تاريخ ابن الفرات » ج ٧ / ٢٦٢ – ٢٧٠ .

ما تضمنته هذه الهدنة المباركة التي انعقد الصلح عليها على مملكة عـكا وصيدا وعثليث وبلادها الداخلة في هذه الهـدنة المسماة فيها التي مدتها عشرة سنين كوامل وعشرة أشهر وعشر أيام وعشرة ساعات ، أولها يوم الخميس ثالث حزيران سنة ألف وخمسمائة وأربعة وتسعين للإسكندر بن فيلبس اليوناني ، وأعمل بجميع شروطها شرطـاً شرطاً ، وألتزم الوفاء بكل فصل في هذه الهدنة المذكورة إلى انقضاء مدتها . وإني والله وحق المسيح وحق الصليب وحـق ديني لا أتعرض إلى بلاد السلطان وولده ولا إلى من حوته وتحويه من ساير الناس أجمعين ، ولا إلى من يتردد منها إلى البلاد الداخلة في هذه الهـدنة بأذية ولاضرر في نفس ولا في مـال ، وإنني والله وحق ديني ومعبودي أسلك في المعاهدة والمهادنة والمصافاة والمصادقة وحفظ الرعية الإسلامية والمترددين من البلاد السلطانية والصادرين منها وإليها طريق المعاهدين المتصادقين الملتزمين كـف الأذية والعدوان عن النفوس والأموال ، وألتزم الوفاء بجميـع شروط هذه الهدنة إلى انقضايها مادام الملك المنصور وافياً باليمين التي حلف بها على الهدنة ، ولا انقض هـذه اليمين ولا شيئاً منها ولا استثني فيها ولا في شيء منها طـلباً لنقضها ، ومتى خالفتها أو نقضتها فأكون بريا من ديني واعتقادي ومعبودي وأكون مخالفاً للكنيسة ويكون عليّ الحج إلى القدس الشريف ثلثين حجة حافياً حاسراً ، ويكون عليّ فك ألف أسير مسلمين من أسر الفرنج وإطلاقهم ، وأكون بريأ من اللاهوت الحال في الناسوت ، واليمين يميني وأنا فلان والنية فيها بأسرها نية السلطان الملك المنصور ونية ولده الملك الصالح ونية مستخلص لهما بها على الإنجيل المكرم لانية لي غيرها والله والمسيح على مانقول وكيل .

١٦٨ – نص اليمين التي حلف بها الملك المنصور قلاوون على الوفاء بالهدنة المعقودة بينه وبين حكام مملكة عكا الفرنج

أقول وأنا ... [١] والله والله والله ، وبالله وبالله وبالله ، وتالله وتالله وتالله ، والله العظيم الطالب الغالب الضار النافع ، المدرك المهلك ، عالم ما بدا وما خفا ، عالم السر والعلانية ، الرحمن الرحيم ، وحق القرآن ومن أنزله ومن أنزل عليه وهو محمد بن عبد الله ﷺ ، وما يقال فيه من سورة سورة وآية آية ، وحق شهر رمضان أنني أفي بحفظ هذه الهدنة المباركة التي استقرت بيني وبين مملكة عكا والمقدمين بها على عكا وعثليث وصيدا وبلادها التي تضمنتها هذه الهدنة التي مدتها عشرة سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشرة ساعات أولها يوم الخميس خامس شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستماية للهجرة من أولها إلى آخرها ، وأحفظها وألتزم بجميع شروطها المشروحه فيها ، وأجري الامور على أحكامها إلى انقضاء مدتها ، ولا أتأول فيها ولا في شيء منها ، ولا استفتي فيها طلباً لنقضها ما دام الحاكمون بمدينة عكا وصيدا وعثليث وهم : كافل المملكة لعكا ومقدم بيت الديوية ومقدم بيت الاسبتار ونائب مقدم بيت اسبتار الأمن الآن ومن يتولى بعدهم في كفالة مملكة أو تقدم بيت بهذه المملكة المذكورة وافين باليمين التي يحلفون بها لي ولولدي الملك الصالح ولأولادي على استقرار هذه الهدنة المحررة الآن عاملين بها وبشروطها المشروحة بها إلى انقضاء مدتها ملتزمين بأحكامها . وإن نكثت في هذه اليمين فيلزمني الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المشرفة حافياً حاسراً ثلاثين حجة ، ويلزمني صوم الدهر كله إلا الأيام المنهي عنها – ويذكر بقية شروط اليمين –

(١) بياض في الأصل .

والله على ما نقول وكيل[1] .

تاريخ ابن الفرات ج ٧ ٢٧٠ - ٢٧٢

١٧٠ - نص الهدنة التي عقدت بين الملك المنصور قلاوون وملكة صور سنة ٦٨٤ ه من إنشاء ابن عبد الظاهر .

بسم الله الرحمن الرحيم : استقرت الهدنة المباركة بين مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين ، قسيم أمير المؤمنين وولده وولي عهده المولى السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين عليّ خليل أمير المؤمنين ، وولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل - خلد الله سلطانهما وأدام في دولتهم - وبين الملكة الجليلة دام مراريت بنت سير هرى بن الأبرنس بيمند[2] .

مالكة صور حال استقرار هذه الهدنة ونائبها بمملكة صور وهو القومص الجليل سير ريمون يسكند[3] ، لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات أولها يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الأول سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية - صلوات الله على صاحبها وسلامه ، الموافق الثامن عشر تموز سنة ألف وخمسمائة وستة وتسعين للإسكندر بن فيلبيس اليوناني ، وآخرها الرابع عشر من جمادى الأول من سنة أربع وتسعين وستمائة الموافق للثامن عشر من تموز سنة ألف وستمائة وخمسة للاسكندر ، يتبع بعضها بعضاً على حكم ما استقر عليه الحال

---

(١) اورد كل من القلقشندي في « صبح الأعشى » ج ١٣ - ٣١٢ وابن عبد الظاهر في « تشريف الأثام والعصور » ٢١٣-٢١٥ نصاً مشابهاً للنص اعلاه .

(٢) هي: dame Marguerite fille de Air Henri, file du Princc Boemond

(٣) Le Comte illustre Air Raimond - Jaskend .

إلى آخر أيام الملك الظاهر - رحمه الله - متتاليـــات الساعات والأيام والشهور والسنين إلى آخرها على جميع البلاد الاسلامية الداخلة في ممالك بلاد مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي قسيم أمير المؤمنين ، وبلاده وقلاعه ومدنه وحصونه وما اشتملت عليه مملكة الديار المصرية وما فيها من الثغور والسواحل والقلاع والمــدن ، والمملكة الشامية وما اشتملت عليه من الثغور والقلاع والحصون والمدن، والثغور الساحلية وما اشتملت عليه من الحصون ومن برور ومن موانى ومن بـــلاد .

والبلاد البعلبكية والحمصية والحموية والفتوحات الشريفة بحصن الأكراد وحصن عكار وما يضاف إليها ودخل في جملتها من ثغور وبلاد معاهديه وحصون وبرور وسواحل . والمملكة الحلبية والفتوحات الأنطاكية ، وما هو مجاور لصور من المملكة الصفدية والشقيفية وغيرهــا من القــلاع والحصون والبلاد ، على كل ما هو داخل في مملكة مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين من ممالك وحصون وقلاع وثغور ومدن وقرى وسواحل وموانى وبرور قريبها وبعيدها ، سهلها وجبلها ، عامرها ودائرها ، غورها ونجدها ، شرقها وغربها ، يمنها وحجازهــا ، شاميها ومصريها ، وما تشتمل عليه من قرى ومزارع وأنهار وطواحين وأبراج وبساتين ، وعلى من حوته هذه الممالك وتحويــه من عساكر وجنــد ورعايا وعرب وتركمان وأكراد وفلاحين وسائر أجناس الناس أجمعين على اختلاف أجناسهم وتغاير أشكالهم وأديانهم ، وعلى أموالهم ومواشيــهم على تغاير أصوافها وأوبارها ، والأموال على تغاير أجناسها . تكــون هذه الممالك المذكورة وما اشتملت عليه ، ومن فيها من سائر النـــاس أجمعين الساكنين بها والقاطنين والمترددين إليها ، ومنها وفيها من التجار

والسفار آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم ومواشيهم ، في حالتي صدورهم وورودهم وسفرهم وإقامتهم ، وما لمعاهديه من البلاد والجهات ، وما سيفتحه الله على يد مولانا السلطان الملك المنصور ، وعلى يد أولاده ويد عساكرهم وجنودهم وجيوشهم من الحصون والبلاد والقلاع يجري عليها وعلى من فيها وما فيها حكم هذه الهدنة المباركة إلى آخر مدتها ، وعلى بلاد الملكة دام مراريت بنت سرهرى بن الأبرنس بيمند المعينة لها خاصاً ومناصفة في هذه الهدنة : وهي مدينة صور وما دارت عليه أسوارها وضواحيها خاصة ، ومافيها من الأراضي التي تزرع فيها البقول والأقصاب والمعاصر التي لادمنة لها وهي : المعوقة ورشمون ـ أراضي الزيتون ـ من الضواحي التي لادمنة لها ، وبستان العوجا الذي لادمنة له ، والحكورات والطواحين التي حول مدينة صور تكون هذه الضواحي المذكورة بما فيها من أراضي الأقصاب ومزارع البقول والمعاصر التي من جملة الضواحي خاصة لصور . وذلك بشرط أن تكون رشمون والمعوقة وبستان العوجا أراضي من ضواحي صور بغير دمن ولا قرى ، وعلى أن يكون لمولانا السلطان الملك المنصور ولأولاده السلطان الملك الصالح والملك الأشرف ـ نصرهم الله ـ خاصاً لهم الخمس الضياع من ضياع صور من أجودها وأكثرها متحصلاً من عين وغلة ، التي استقرت في الخاص الشريف السلطاني من الأيام الظاهرية وهي : قانا ومزرعتها ، القروية ، اصريفيا ومزرعتها ، حانا يخن وما بكمالها [1] ، المجادل بكمالها ، كفردبين بكمالها على ما استقر عليه الحال إلى آخر الأيام الظاهرية .

تكون هذه الخمس قرى خاصاً جميعها بأراضيها وحدودها وحقوقها وكل

---

(1) كذا بالأصل .

ما هو داخل فيها ومنسوب إليها ، لمولانا السلطان الملك المنصور ولأولاده من غير مشاركة لهم في ذلك . وتكون للملكة مراريت مالكة صور من ضياع صور عشر ضياع من قرايا مرج صور خاصاً لها على ما هـو مستقر في الهدنة الظاهرية ، إن هذه العشر ضياع تكون خاصاً لمملكة صور جسماً عينت بأسمائها فيها وهي : عين أبي عبد الله ، القاسمية ، سدس ، قحلب ، المرفوق ، الجارودية ، الجمادية ، مرفلة ، رأس العين ، برج الاسبتار . تكون هذه العشر ضياع المذكورة بحقوقها وحدودهـا وأراضيها وما هو داخل فيها خاصاً لملكة صور دام مراريت مالكـة صور ، وعلى أن تكون بقية بلاد صور جيمها بما فيها من مزارع وعدتها بما فيها من المزارع ثماني وسبعون ضيعة ومزرعة وهي : الطّالية ، درتية الدهرية ، الفنونية ، العثية ، وادي الحجاج ، العرتيـة ، البحتيـة ، المالكية ، دير عمران ، التعتبية ، الكبيية ، بابولية ، الحيسة ، دير قالون ، غرايفال ، الزيادات ، وحيوية ، ربعين ، بني دفنع ، مارنين ، عيا ، صديقي ، رسكيانية ، رفلبة ، عثليث ومزرعتها ، اللاحات ، السحنونية ، الفراخية ، طرقان، الدير ، المعلية ، الخيرا ، روتية ، بابوح ، فقعة ، البارورية ، كفر دهّال ، حوبا ومزرعتها ، سرفية ، مجدل ، بيت روح ، طرسا ، فسون ، التفاحية ، أمد ، ركنا ، مارون ، طرسنحات ، كفر ناي ، بني باقتة ، معولة ، طفلسة ، أشحور ، الرمر ، الفهرون ، دوردغيـا ، أبروخية ، هرين ، الصوافي ، حلوسية معروب ، بعليث ، درفانون ، طرديا ، بدياس ، النعمانية ، بدوث ، الحرانية ، طورا ، السرفيات ، بردسيل الجديدة ، العباسة ، الحنيثة ، السفلسة ، اشحور ، الفاه ، شادسة ، العجيلة، المصرية ؛ وذلك خـلا المعوقة ورشمون وبستـــان العوجا التي ذكرناها ليست بقراه . وأن

المعوقة اسم المعصرة وبستان العوجا ، غير قرية ، ورشمون غير قرية ، وإن كانت قرى كانت من جملة قرى المناصفات ، وإن لم تكن قرى كانت من جملة ضواحي المختصة بها .

وحدود هذه البلاد جميعها من جهة القبلة مرفلة وقرية دير عمران وبرج وادي الحجاج ، والعربية وريف وبارين ، ومن الشرق عنافة ، سكاسة ومجدل شرقية ، والسحنونية الداخل ذلك المناصفات وقانا ومحروما والمجادل وكفردبين الداخل في الخاص الشريف ، ومن الشمال اصريفيا الداخلة في الخاص الشريف ، ونهر القاسمية ، ومن الغرب البحر ، تكون هذه القرايا المذكورة في هذه الهدنة جميعها بمزارعها وحقوقها وأراضيها وطواحينها وأنهارها وبساتينها ودمنها ومتحصلات مغلاتها من وجوه العين والغلة مناصفة بين مولانا السلطان الملك المنصور وبين الملكة دام مراريت مالكة صور يقسم جميع المتحصل بها من وجوه العين والغلة وحقوق وزكاوات وعداد وحكورات وأجر وضمانات وخراجات وجبايات ومواريث وغير ذلك من سائر الحقوق قليلها وكثيرها نصفين بين الجهتين بالسوية .

ويستقر الحال في جميع الأشياء ، كما كانت إلى آخر الأيام الظاهرية وعلى أن يكون المباشر لهذه الضياع والمناصفات المذكورة والمستخرج لأموالها وغلالها نواب مولانا السلطان الملك المنصور ـ عز نصره ـ باتفاق مع نواب الملكة دام مراريت مالكة صور بحيث لاتنفرد جهة عن جهة باستخراج درهم ولاغيره ، وعلى أن يستمر الشخص بأرض الزهرية في المكان الذي جرت به عادته في الأيام الظاهرية ، وعلى أن تكون هذه البلاد المختصة بمالكة صور آمنة مطمئنة هي ومن فيها من عسكرها وخيالتها ورجالتها ورعيتها وتجارها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ومواشيهم في

حالتي صدورهم وورودهم وسفرهم وإقامتهم إلى آخر هذه المدنة : وعلى أن التجار والسفار والمترددين من الجهتين يترددون ويبيعون ويشترون ويوردون ويصدرون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم ، وعلى أنهم لايحدث عليهم شيء غير ما جرت العوائد به من الجهتين ، وان الممنوعات مستقر حالها في البيع على حالتها ، وعلى أن المراكب من الجهتين المترددة في البحر تكون كل فرقة من الفرقتين آمنة من الفرقة الأخرى مطمئنة في البحور والمراسي والدخول والخروج ، وتلتزم كل طائفة من الجهتين كف الأذية عن الجهة الأخرى . وعلى أنه متى انكسر مركب من الجهتين ، إن كان لمسلم تسلمه له إن كان موجوداً ، ولنواب مولانا السلطان إن كان مفقوداً . وإن كان لنصراني من بلاد مولانا السلطان – عز نصره – فالحكم فيه كحكم المسلم ، وإن كان من أهل صور ومن رعية الملكة مالكة صور يسلم له المال إن كان موجوداً ، ولديوانها إن كان مفقوداً . وإن مات أحد من الجهتين في الجهة الأخرى ، ولم يكن له وارث يجري عليه هذا الحكم من الجهتين ولا يخفى ماله . وعلى أنه متى قتل أحد من الجهتين ووجد القاتل ، فإن كان القاتل مسلماً يحكم فيه نواب مولانا السلطان الملك المنصور – نصره الله – بما تقتضيه سياسة السلطنة الشريفة المطهرة . وإن كان نصرانياً من أهل صور تحكم فيه الملكة دام مراريت مالكة صور ، كل جهة بحضور نائب من الجهة الأخرى يباشر الحكم فيه بما تقتضيه أحكام الجهتين . وذلك يكون الحكم في كل من تعدى وأسرف واختال ، يتولى ذلك نواب مولانا السلطان تأديب المسلم . وتأديب النصراني يتولاه نواب الملكة مالكة صور ، وإن خفي أمر القتيل كانت دية الفارس من الجهتين ألفاً ومائة درهم صورية ، والتركبلي مائتي درهم ، والفلاح مائة دينار ، والتاجر

تكون ديته على قدر جنسه وأصله ومقدرته ، يؤخذ ذلك من أهـل القرايا التي يقتل فيها ذلك الشخص جناية لهم وتأديباً جملة واحـدة ؛ يعتمد ذلك من الجهتين . وإن كان المقتول من المناصفات كان متحصل الجناية مناصفة . وعلى أنه متى أخذت أخيذة ترد بعينها إن كانت موجودة أو قيمتها إن كانت مفقودة . وإن خفي أمر القتيل أو أمر الأخيذة كانت المهلة في الكشف عن أمره أربعين يوماً ، وإن لم يظهر له خبر حلّف والي تلك الجهة وثلاثة أنفار ممن تختارهم الجهة الأخرى ، وإن امتنعوا عن اليمين لزمت الجناية المذكورة وقيمة الأخيذة . وعلى أنه متى هرب أحـد مـــن الجانبين يرد بما معه . ومتى هرب مملوك من أي جنس كان يرد بجميع مامعـــه ذكراً كان أو أنثى ، عبداً كان أو حراً . ويعتمـد ذلك من الجانبين وعلى أن الملكة دام مراريت مالكة صور لاتستجد بناء قلعة ولاتجديد سور ولا حفر خندق ولامايتحصن به مما يمنع أو يدفع .

وعلى أن مولانا السلطان لايفسح لأحد من عساكره ولامن جنوده ولامن أهل بلاده من التطرق لبلاد صور المعينة في هذه الهدنة بأذيـة ولاضرر ولاسرقة ولا عدوان ولاغدر لافي بر ولابحر ، ولايتعرض أحد من عساكر مولانا السلطان وجنوده ومعاهديه الملكة دام مراريت مالكة صور لافي نفسها ولافي خيالتها وأصحابها ، خلا الإسماعيلية الذين تحت حكم مولانا السلطان .

ولمولانا السلطان أن يجهز من شاء منهم إلى مـــالكة صور بالسوء والضرر متى أراد . وعلى أن الملكة دام مراريت مالـــكة صور تلتزم حفظ بلاد مولانا السلطان من جهتها من متجرم أو مفسد أو رجل غريبة وسائر الإفرنجية يتطرق من بلادها إلى بلاد مولانا السلطان بأذية أو إغارة أو فساد أو عدوان .

وعلى أن الملكة دام مراريت مالكة صور لاتوافق أحداً من سائر الفرنجية على أمـــر فيه أذية لبلاد مولانا السلطان أو ضرر على ممالكه أو رعاياه وسائر من فيها وما فيها ، ولا تساعد أحداً على ذلك برمز ولا كتابة ولا إشارة ولا رسالة إلى حين انقضاء الهدنة .

ولها من مولانا السلطان مثل ذلك ، وعلى أنه متى انقضت الهدنة أو وقع — والعياذ بالله — فسخ من أحد الجهتين كانت المهلة للتجار والسفار والمترددين أربعين يوماً حتى يعود كل أحد بماله إلى مأمنه ووطنه آمنين مطمئنين مخفرين من الجهتين .

تستقر هذه الهدنة بشروطها المحررة وقواعدها المقررة ، لاتنقض أحكامها ولاينفك نظامها بموت أحد من الجهتين ولابعزل والٍ ولاتولية غيره ، ولابوجل غريبة ولا ببيد غالبة ، بل تستمر مدتها وتوفى هدتها وهي : عشر سنين كوامل متتاليات أولها الرابع عشر من جمادى الأول سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية الموافق لليوم الثامـن عشر من شهر تموز من سنة ألف وخمسمائة ، وآخرها الرابع عشر من جمادى الأول من سنة أربع وتسعين وستمائة الموافق الثامن عشر من تموز من ألف وستمائة وخمسة للإسكندر بن فيليبس اليوناني .

يلتزم كل من الجهتين حفظها إلى آخرهـــا . ومن تولى بعد الآخر حفظها إلى آخرها . والخط الشريف أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى .

تشريف الأنام والعصور لابن عبد الظاهر ١٠٣ — ١١٠

١٧١ - رسالة الملك المنصور قلاوون إلى ابنه الملك الأشرف يخبره بفتحـــه حصن المرقب سنة ٦٨٤هـ وهي من إنشاء تاج الدين أحمد ابن الأثير .

أعز الله نصرة الجناب العالي الملكي الاشرفي الصلاحي ، ولازالت جيوشه تفتتح من الممالك حصونها وتبتذل مضمونها ، وتستثمر من العادة غصونها ، ويطوي لهم الأرض فلا يبعد عليهم مرمى ، يعملون العزائم المهمة ويصونها ، وتحدث ألسنة العالم بنعم الله التي يرونها في أيامه ويروونها ، ويقصون أجنحتها بالشكر ويقصونها ، تهدى له كل ساعة خبر عـــن جنوده وما ملكت ، وخيوله وما سلكت ، وسيوفه وما قتلت ، ومهابتها وما أخذت ، ومواهبها وما تركت . هذه البشرى تقص عليه من غزوتنا أحسن القصص ، وتمثل صورة الفتح التي انتهزنا فرصته ، وقلما تنتهز الفرص ، وتبدي لعلمه الكريم أن الهمم بها تنال الممالك ، وترتقى المسالك ، وتجتنى ثمرات النصر ، وتطفأ جمرات الغـدر ، وقلـــا ظفر بالمراد وأودع ، وكل أنف لايأنف . . . [1] فهو أحق الأعضاء أن تجـــدع . ولم نزل نمثل في أفكارنا الصورة التي أقدم عليها أهل حصن المرقب في مبدإ الأمر عند اضطراب النيات وضعف البنيات ، وغرور الآمال الكاذبة ، واشتالات الخيالات الجاذبة ، حتى نالوا من عسكرنا بحصن الأكراد مانالوه ، وتخيلوا أن عزمنا قد صرفوه عن قصدهم ، أو أمالوه بأخذ أمرهم في الظاهر بالرخصة دون العزيمة ، ويعمل على مالو تمثل لهم صورة لجروا منـــه ذيل الهزيمة ، ويفضون من نواميس المجاورة ، ويفضي ويمضون بما يبـدو منهم ، وتتزل المحاورة وتمضي ، ويستر ما يسدده إلى نحورهم من سهم ،

---

(١) بياض بالأصل .

ويريهم أنا ندفع في صدر الحقيقة بالوهم ، ونعرض عن مناقشتهم في الحساب ، ونمسك عنهم . وترى الجبال تحسبها ، وهي تمر مر السحاب . ومن لم يؤاخذ المسيء بفعله ، ويعرف مقدار حمله ، استدام طمعه واستقام طلقه ، وحركته دواعي الشره للشرة ، والخيل السلامة في كل مرة . فلم يزل يتربص لهم ريب المنون ، وينزل ماكان منهم في جنب ما يكون ، ويرتقب فيهم الوقت المنتظر ، ويدب لهم الضـراء وتمشي لهم الخمُر ، إلى أن آن مكان الفرصة ، جمعنا لهم بين الشرقة والغصة، فأبعدنا إليهم المُدْنى ، واعتدنا مسعانا في طاعة الله عما إذا كانت مساعي الملوك عزماً ، ووصلنا المسير بالسرى ، وطرقناهم كما يطرق الطيف الكرى ، وأوطأنا بهم حوافر الخيل ، وجئناهم مجيء السيل ، وظللنا عليهم ظلال الغم ، وغشيهم منا ما غشي فرعون وجنوده من اليم ، مع كون مكانهم قد جمع له منعة البر والبحر ، وحل منهم بين السحر والنحر . تحامت قصده الملوك ، وحمته الإعادة ، فلم تبق الأماني إليه طريق مسلوك ؛ ولم يظفر به ملك من الملوك في الإسلام ، ولاطرقته خيلهم في اليقظة ، ولاخيالهم في المنام ، يصد عنه الرياح الهوج مخافة ويرجع عنه الطرف حسيراً لبعد المسافة بأسرع من أن فاجأناه وحللنا بعرصته ، وهاجناه وأحاطت به رجال الحرب ، وشافهته بخطاب كالخطب ، وعسكرنا بحمد الله تعالى مثل البحر إذا طما ، والغيث إذا هما ، والطود إذا سما ، والليث إذا حمى ، قد ملأ الفجاج واستعذب الأجاج ، وقاسمهم الرتاج ، فأعطاهم الأسنة وأبقى له الزجاج . يتعرض أبطاله المنايا ولو كانت عرضاً ، ويقول كل منهم : وعجلت إليك رب لترضى . فلم يزل القتال ينوبهم ، وسهام المنون تصيبهم وسحابها يصوبهم والسيوف تغمد في الطلى ، والرماح توكف في الكلى ، والمجانيق تـدلك

سورتهم ، وتسلك فورتهم بنجومهـا ، وتصميهم برجومها ، وتقذفهـم من كل جانب دحوراً ، وتعيد كلاً منهم مذموماً مدحوراً ، وتشير إليهم أصابعها بالتسليم لا بالتسلم ، وبينانهم فما تذر من شيء أتت عليـه إلا جعلته كالرميم ، إلى أن فتحناها ، ولله الحمد عنوة . وحللنا مـكايدهم فيها عقدة عقدة ، ونقضنا عروة عروة . وسطرنا هذه البشرى وأعلام النصر قد خفقت بنودها ، وذلت لها علوج الكفر وكنودها . والسيف من دمائهم يقطر ، والصليب خزيان ينظر ، والأذان مـكان الناقوس والقراء موضع القسوس ، والكنيسة قد عادت محراباً ، والجنة قـد فتحت للمجاهدين فكانت أبواباً . وكنا نود أن الولد معنا في هـذه المشاهد ، وأن ينظرها بعين المشاهد . ونرجو أن يكون ممن يستكين المرقد ، وإن لم يحضر هذه الغزوة فيتأهب للأخرى ، فكان قذفـاً لهم تجعل ثمار النصر دانية القطوف . والسعيد من لايستظل إلا بسيفه ، فإن الجنة تحت ظلال السيوف .

١٧٢ ـ رسالة السلطان الملك المنصور قلاوون إلى الأمير علم الدين الشجاعي يخـبره بفتح حصن المرقب من إنشاء تاج الدين أحمد بن الأثير :

إن أمر الله يهاني المجلس العلمي ، وأحـل البشائر بساحته ، وسره باستيلائنا على كل ثغر واستباحته ، وأسمعه من أنبائنا الجميلة ما يعجز عن التعبير عنه لسان القلم على فصاحته ، ولا يزال مهنئاً بأيامنا التي تؤرخ بالفتوح وتنجد في مواقف الحرب بالملائكة والروح ، وتختص بالمـدح دون كل ممدوح ، وترى ما يطوى بجيوشنا من الأرض ولا يبعد عليها مكان به طروح . قـد علم المجلس حركتنا إلى الشام ، وإنا أنشأناها

عجالاً ، وجئنا بها على البديهة . فلو كانت قصيدة لأنشدناها ارتجالاً.
وكانت مباديها توجد بأطراف الأنامل ، ومناديها يعـود بجينة الآمل ؛
ومهامها متلقاة بالهمم القاصرة ، وعزائمنا فيهـــا كلما توقدت جمراتها ،
صادفت نيات ، إن لم تكن باردة فهي قارة . وإذا مر ذكرها بمن
له غرض أو في قلبه مرض ظن الظنون ، وخيل إليه أن أمرها لايتم
ومرعتها لا تكون . ونحن نوسع للجهال حلمنا ، ونزداد بعواقب التدبير
علماً . وكان الباعث عليها أمور مهمة ، ومرأى تستفرغ قوى الأفكار
المستجمة . وكل وقت نصعد النظر ونصوبه ، ونتصفح وجـه الرأي
ونقلبه ، ونرتاد جهات القصد التي كان منها منشأ المفاسد ، وبها لشياطين
النفاق نفاق ، وكل سوق كاسد . فلما أخذت الأناة مأخذها ، ونفذت
الآراء منها منافذها ، وتمخضت زبدة الحلب ، وأسفر وجه الطلب ، ولم
يبـــق إلا أن تزم الركائب وتسري الكتائب وتشرع الأسنة وتبدو
ضمائر النفوس المستكنة ، أخلصنا النية لله عز وجل في نصرة الإسلام ،
وتقاضينا ديونه على الأنام ، وجعلنا منهم مقدماً على ما عداه ، وصممنا
على جهاد من نازعه رداء ملكه وعاداه ، تركنا حظ النفس بمعزل .
وكان في عزمنا أن نرتاد منزلاً فعرجنا عن ذلك المنزل وقلنا : يا خيل
الله اركبي ، ويا ملائكة النصر اصحبي ، ويا أقـلام البشرى اكتبي .
وصلنا إلى الشام في جنود تقبل مثـل قطع الليـل ، وتندفع اندفاع
السيل ، وكلما مررنا بمملكة سالت بمجموعنا أوديتها ، وغصت بعساكرنا
أنديتها ، وانضم إلينـــا جنودها ، وخفقت علينا بنودها . ولم نزل
نطـوي المراحل ، ونتجاوز الخصب والماحل ، إلى أن نزلنا بعيون
القصب من عمل حمص ، فوافاها البشير بما كان من أمر بلاطنس التي
تقدمت بها البشرى ، وفنيت في عضد من كان بها قـد استطار شرر

طعمه واستشرى . ولم نزل نغذ السير ونود لو استعرنا أجنحة الطير ، إلى أن وافينا المرقب ، وهي المقصد ومناخ ركائب العزم الذي هو لها مرصد ، فكانت محط رحالنا وإليها مطارح آمالنا . وأصحابها الذين بدأوا بالسنان وقعقعوا لنا بالشنان ، وامتدت لهم الأيدي والألسنة ، وجعلوا السيئة مكان الحسنة ، وطمعوا بالبـلاد وارتجاعهـا ، وارتادوا موارد الحرب على بعد أشجاعها ، واستلانوا من عسكر حصن الأكراد جانباً ظنوا به القلب ، وفعلوا أمـــراً عادوا منه بسوء منقلب ، وصاروا يتكلمون من رؤوس ملأى من الجهل ، ويأخذون في الحزن إذا أخذتهم إلى السهل . ونحن نعمل على الأمـر الذى يلف العماء ، ويعيرهم أذناً سميعة لا أذناً صماء ، ونرتاد منهم أمكنة الفرص ، ونوحي لهم جبالة القنص . فلما رجمتهم الظنون وتمخضت لهم المنون ، وثبنـا لهم وثبة الليث المغضب ، وأوردناهم بأسيافنا [ماء] لا ينزح قليبه ولا ينضب . وما وردنا حتى قامت جيوش الجو على ساق ، وجاءت بعوث الغمائم من الآفاق ، ورشقت سهام السحائب ، وتغلغلت ريـح الصبا والجنائب ، ورجفت الرعود بجنودها ، وجردت البروق بيضهـــا من غمودها ، والقطر يرسل الحجارة إلا أنها من برد البحر إذا مرت به الريح صار كأنه درع موضونة الزرد ، فنزلناها ونازلناها ، وأمطنا حجب المهابة وأزلناها ، واحدقنا بها إحداق السوار وأحطنا بهـا كما يحيط باليد السوار . وكانوا يفترون بمنعهم ويعتزون بما يجري من سيل قلعتهم ، ويعتقدون أن المعتصم بمكانهم واثق بأن يمس السماء بكفه ، ويرى النجم دونه إذا لمحه بطرفه . فلم نزل نعاديهم الفتك ونراوحهم، ونماشيهم الحرب ونصابحهم ، ونرسل إليهم رسل المنايا ، ونوفر سهامهم إلا أنها من الحنايا ، ونرميهم بعذاب واصب ، ونكلهم إلى هم ناصب .

والمنجنيقات تفوق إليهم سهامها قسيها ، وتخيل لهم أنها تسعى إليهم حبالها وعصيها . وهي والحصون من ألد الخصوم ، وإذا أمت معصماً لكم أنه ليس بإمام معصوم ، ومتى افترى خلق في آلات الفتوح لم يكن فيها أحد من الممترين . وإذا نزلت بساحة قوم فساء صباح المنذرين . تدعى إلى الوغى فتكلم ، وما أقيمت صلاة حرب عند حصن إلا كان ذلك الحصن من يسجد لها ويسلم . إلى أن أقوت ربوعهم وصبت على مثل جمر الغضا ضلوعهم ، وأخذناهم أخذاً وبيلاً ، وأوردناهم مهاوي المهالك ، وساءت سبيلاً ، وخسرت صفقة غدوهم ورواحهم ، وتحللت عقد أجسامهم من أرواحهم ، ووجدوا من أنفسهم حداً كليلاً وجداً عثوراً . وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ، وملكناها بالأمان ، وهو في المعنى بالسيف ، وهجمناها هجوم الطيف. وكانت هي التي قد بقيت للأسبتار رحلة شتائهم وصيف فلم يبق لهم رحلة شتاء ولا صيف . وسطرنا هذه البشرى والحرب قد وضعت أوزارها ، والنفوس قد قضت منهم أوطارها ، والبلاء قد دهم بلادهم وأقطارها . والعلم يبنى على العلم ، والسيف يملي على القلم ، والثغر قد جدد على أيدينا إسلامه ، وأبدلنا به قطوبه ابتسامه والدهر لمن عادانا عادى ، ولمن والانا والى . وسيوفنا قد أصبحت مفاتح المعاقل ، فإذا ملكناها عادت لها أقفالاً ، والبشائر مخترقة الأمصار ، والعساكر التي هجرت أوطانها ونصرة الله قد كتبت من المهاجرين والأنصار .

١٧٣ – رسالة الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام إلى الملك الصالح علاء الدين علي ابن السلطان قلاوون يهنئه بفتح المرقب من إنشاء شهاب الدين محمود كاتب الدرج .

لا زالت آيات النصر تتلى على سمعه من صحف البشائر ، ونفائس الظفر تجلى على سره في أسعد طالع وأيمن طائر ، وفواتح الفتح تملى لديه بما تزهى به الأسرة وتزهو بنوره المنابر . ومحكمات التأييد تنهى إليه بما يجد مثل الدجى عليه سواد المحابر . وينهى أنه سطرها والنصر قد لمعت بوارقه ، ونصب بعد النصب على فرق الفرقد سرادقه . والظفر قد أسفر عن الفتح المبين صباحه ، والتأييد وقد طار به محلق البشائر ، فخفق في الخافقين جناحه ، والإسلام ، وقد وطىء هام الكفر بقدمه ، والدين ، وقد عز بفتكات سيفه فأنف أن يكون الشرك من خدمه والأفلاك ، وقد علم أنه لهذا الفتح افترقت كواكبها ، والأملاك ، وقد نزلت لتشهد أخت النصرة البدرية في صفوفها ومواكبها وحصن المرقب ، وقد ألقت عليه الملة الإسلامية أشعر سعدها ، وأنجزت الأقدار التي ذللته للإسلام أن تتطاول إليه يد الحوادث من بعدها ، وقد أحاطت العلوم الشريفة أن هذا الحصن طالما شحت الأحلام أن تخيل فتحه لمن سلف في المنام ، فما حدثت الملوك أنفسها بقصده إلا وتناهى الخجل ، ولا خطبته ببذل النفس والنفائس إلا وكانت من روعة الحرمان على وجل . وحوله من الجبال كل شامخ يتهيب عقاب الجو قطع عقابه ، وتقف الرياح حسرى دون التوقل في هضابه ، ومن الأولى به خنادق لا تعلم منها الشهور إلا بأنصافها ، ولا تعرف فيها الأهلة إلا بأوصافها . وهو مع ذلك قد تقرط بالنجوم وتقرطق بالغيوم ، وسما فرعه إلى السماء ورسا أصله في التخوم . وتخال الشمس إذا علت أنها تنتقل في أبراجه ، ويظن من سها إلى السها أنه ذبالة في سراجه . فكم ذي جيوش قد أمات بغضه ، وذي سطوات أعمل الحيل على رؤيته فلم يفز من نظره على البعيد بغرضه ، لا يعلوه من الطير

سوى نسر الفلك ومرزمه ، ولا يرمق متبرجات أبراجه غير عين شمسه والمقل التي تطرق من أنجمه . وقد نصبت عليه من المجانيق ما سهامه أقتل من سهام الجفون ، وخطراته أسرع من لحظات العيون ، لا يخاطب إلا بواسطة رسله الصم الصلاب ، ولا يرى لسان سهمه إلا كما يرى خطوات البرق إذا تألق في علو السحاب ، فنزلت عليه الجيوش المنصورة نزول القضاء ، وصدمته بهممها التي تستعير فيها الصوارم سرعة المضاء وروعة الانتضاء ، فنظرت منه حصناً قد رد عليه الجو جيب غمامه ، وافتر بعزة كلما حدر عليه البرق فاضل لثامه ، فذللت صعابه وسهلت عقابه وركزت الجنوبات في سفحه . وطالما رامت الطير أدناه فلم يقومها القوادم . وكم همت العواصف أن تتسنم رباه فأصبحت علقة تبكي عليها الغمائم ، فعاد مصفحاً صفاحها مشرقاً بما علا من أسنة رماحها ، وأرسلت إلى أرجائها ما أربى على الغمائم ، وزاد في لفحة على النسائم . وكان بها مثل الجنوب فأصبحت ، ومن جثث القتلى عليها تمائم . ونصبت أمامه المجانيق المنصورة فلم ترع حتى حبسها وسطت على نظرائها فأصبح غدها في التحامل أبعد من أمسها ، واستنهضها العدى ، وأعلمتهم أنها لاتطيق الدفاع عن غيرها ، بعد أن عجزت عن نفسها ، وبسطت أكفها أمارة على الإذعان ، ورفعت أصابعها ، إما إجابة إلى بذل التشهد ، وإما إنابة إلى طلب الأمان ، فخوفوا من ظهور هذا الاستظهار وعلموا أن المجانيق المنصورة فحول لاتثبت لها الإناث التي عريت من النفع بأيديهم ، واستعانوا عليهن مع الغرى بطول الحذار . فعند ذلك غدت تكمن كمون الأساود ، ووثبت وثبات الأسود ، وتبارى بها الحصن السماء ، فكلما قذفت هذه بكواكبها الزهر ، قذف هذا بكواكبه السود . ولم يكسر لهم منجنيق إلا نصبوا عشراً مكانه ، ولا قطعت

لاحداها أصبع إلا ومد الآخر بنانه ، فتطلب بتجارب مثل الكماة ، وتتحايـــل تحايل الرماة . حتى فتحت وفسحت الرحال مجالاً ، ونالت ونيل منها . وكذلك الحرب تكون سجالاً . هذا ، والنقوب قد دبت في بواطنه دبيب السقام ، وتمشت في مفاصله كما يتمشى في مفاصـل شاربها المدام . وحشيت أضالعه ناراً تشبه نار الهـوى تحرق الأحشاء ولايبدو لها ضرام ، فقد أحل من حلة الوجل ، وتحققـوا حـلول الأجل ، وأيقن الحصن بالانتظام في سلك ممالك الإسلام ، وكاد يرقصه بمن فيه فرط الجذل ، وزاد شوقه إلى التشريف بوسمها ، وما صبابـة مشتاق على أمل من اللقاء كمشتاق بلا أمل . لكنهم أظهروا الجلد ، واحفظوا إضرام نار الكمد . وكيف يخفى وقد انحـلوا في أشراك إشراكهم ، لعلمهم أنه لامناص من يد أهل التوحيد لأهل الأحد . وتدفقت إليهم الجيوش المنصورة فملأت الأفق ، وأحاطت بهم إحاطة الطوق بالعنق ، ونهضت إليهم مستمدة من عزمات سلطانها ، مستعدة لانتزاح أرواح العدى على يدها من أوطانها . فانقطعت بهم الظنون ، ودارت عليهم رحى المنون ، وأمطرت عليهم المجانيق أحجارها ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، لمن بها من اللهب تلك الأحجار [1] ، فهدمت العمائر والأعمار ، وأجرت في نواحيها أنهار الدماء ، فهلكوا بالسيف والسيل والنار . ولما ركب مولانا السلطان ـ خلد الله ملكه وسلطانه ـ لأول الزحف في جيوشه التي كاثرت البحر بأمواجه ، وسقت العدى على ريها بالخوف كؤوساً أمرّ من أجاجه ، تزلزل الحصن لشدة ركضه ، وتضعضع من خوف غضبه ، فلحقت سماؤه بأرضه ، وتحللت قواعد ما شيد من

(١) كذا في الأصل . والمعنى غير مفهوم تماماً وفيه شيء من الاضطراب .

أركانه ، فانحلت وانشقت سماؤه من الجزع ، فألقت الأرض ما فيها وتخلت ، ومشت النار من تحتهم وهم لايشعرون . ونفخ في الصور بل في السور فإذا هم قيام ينظرون . وما كان إلا أن قابل مولانا السلطان - خلد الله سلطانه - ماشمخ من أبراجه حتى أهوى يلثم بين يديه التراب ، وتأدب بآداب الطاعة حين نظرت إليه ، فخرّ راكعاً وأناب . فهاجمتهم الجيوش المنصورة مهاجمة الحتوف ، وأسرعت المصاف الانتضاء فلم يدر العدو أهم أم الذي في أيديهم السيوف (١) . فحل بهم الذل ونزل ، وخافوا فتكات تلك السيوف التي تسبق العذل . وثبت من لم يجد وراءه مجالاً وهو يقول : مكره أخوك لابطل فلجأوا إلى الأمان وتمسك ذل كفرهم بعد الإيمان ، تشبثوا بساحل العفو حين ظنوا أنهم أحيط بهم ، وجاءهم الموج من كل مكان ، فسألوا أن يكون عفو مولانا السلطان من بعض الصنائع ، وتضرعوا في أن يجعل أرواحهم لسيوفه من بعض الودائع ، فتصدق عليهم بنفوسهم كرماً ، وظلوا على معنى الخبر المأثور يرون الموت يقظة والحياة حلماً . وأطلقتهم اليد التي لايخيب لديها الأمل ، واعتقتهم اليمنى التي فجاج الأرض قبضتها ، فمتى يشاء تجمع عليهم الأنامل ، وخرجوا بنفوس قد تجردت حتى من الأجسام ومقل طلقت الكرى خوفاً من سيوفه التي تسلها عليهم الأحلام ، وسطرت والنصر قد تسنم أعلاها ، وشعار الإيمان قد جردها من وحشة لباس الكفر وأعراها ، والأعلام المنصورة قد سلكت إلى ذلك الترقب أعلى ترقي ، والسعادة قد بدلت بيعه مساجد ومحاريبه قبلة ، وكانت شرفاً فأصبح يرفل في حلل الإيمان ، وعاد سهماً مسدداً في كنانة

---

(١) كذا بالأصل ، والمعنى غير مفهوم تماماً وفيه شيء من الاضطراب .

الإسلام ، وذرأ منضداً في عقد المملكة فحسن به فتم النظام . لايسلك البحر طاغٍ إلا ويقذفه الموج إليه ، لايختلس أكبر باغٍ إلا وتوقعه ضيق مسالكه في يديه . فهو أحسن من إرَم ، وأوضح من علم ، وأنكى في الإصابة على البعد من السهم الذي أصاب وراميه بذي سلم . فيأخذ مولانا حظه من هذا النصر الذي هو إليه ، وإن بعد ، منسوب ، والفتح الذي إن عدت الفتوح على كثرتها فهو بجميعها محسوب .

١٧٤ ـ رسالة الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام إلى الأمير علم الدين الشجاعي يهنئه بفتح حصن المرقب من إنشاء كال الدين أحمد بن العطار :

نصر من الله وفتح قريب ، يسره الله بعزائم الجناب العالي ، لازالت عزائمه تسهل من النصر مراداً ، وهممه تفسح من الفتح مراداً ، وسطوته تستأصل من الأعداء مراداً ، ومسامعه الكريمة تستعذب معاداً من حديث البشائر إذا كان معاداً معاذاً . قد أحاط العلم الكريم بالحركة المباركة ، والنزول على المرقب الذي كم تحته من مرباً زاد علوه على علو الرصد . وماحل أحد بواديه ورام رؤية الهلال في مغربه ، والشمس في مشرقه إلا وصده عما قصد ، فماترى الهلال منه إلا بداراً ، ولاتشاهد الشمس المنيرة إلا ظهراً . ونازلنا منه القلعة التي سامت السماء ، فزاحمت البروج منها البروج ، وحلت الجوزاء لسوارها المحكمة حتى اتصلت بدناءتها بمنازل الكواكب ومالها من خروج . وإذا رام القطر سقي أهلها عرج عن قصد النزول ، وأخذ في تعاريج العروج . ولربما حاول منازلتها من تقدم من الملوك فصده عنها قسي الرعود ونبل الوبل وأسوار الثلوج . وأرخت الشمس غزالها على جيشه وحال بينها

الموج فكان من المغرقين ، والتفت عليه أشجارها فبات من المدبقين وأصبح من الموبقين . وعادة كل من قصد الصعود إليها يمشي على أربع بعد أن كان يمشي على رجلين ، وردته عقابه ناكصاً على عقبيه ، وكان يحجل في حجلين ، فاستدارت عليها جنوباتنا فشاهدنا منها منطقة البروج ، واستجنت بها الجيوش من سهام الجروح فأبقت كل سريع الولوج . وقامت الجانيق بسفراء من الحجارة عن السهام ، وأشارت إليها بأصابع كفوفها بالانتقال عن ذل الكفر إلى عز الإسلام . وفي أول الحال عجل منجنيق واحد كسر منجنيقتهم الثلاثة ، ونقلن من صورة الحال بسرعة نصر الواحد على من يدين بالثلاثة . ولم تزل مجانيقنا ترقى القلعة بحجارة تطيل محلقة نحوها كالطيور ، وتعلو نسور أحجارها طالبة قبة قلتها . والجبال الشاهقة ركون النسور ، فما رمت حجراً إلا أثرتها أثراً ، ولا راجعتها ضرباً إلا أسمع وأرى بظاهرها وباطنها ندباً ، لكنها على مراجعة الحرب ومعاودة الضرب ، كأنه يضرب من حجارة أسوارها في حديد بارد ، وهي ، وإن لم تكن حديداً ، فإنها حجارة حديدة لاتعمل فيها المعاول ولاتؤثر فيها المبارد ، إلا أن نوازلها مصيبة فيها نازلة . وما أشبه سهامها بسهام العيون تقضي بالمنون ولاتفارق الجفون ، أو بالنجوم في الرجوم تصيب وهي بمكانها المعلوم . ودامت ذمة حسناتها مطالبة المحاصرة بما في يدها للملة الإسلامية من الاغتصاب والفرض ، والنقابة تعمل من خوارجها في داخل بنيانها عمل الخلد في الأرض حتى أخلد الله الأرض ، ونقضت النقوب نظام أساساتها فانحلت ، وألقيت النار في أحشائها فألقت ما فيها وتخلت . هذا والمجانيق منا ومنهم تارة وتارة ، وأكفها ترمي من النفط أصابعها بشرر كالقصر ، وقودها الناس والحجارة إلى أن تمكن الهد من أحد ابراجها فهدم بناؤه المنظم ،

ولما أراد جداره [أن] ينقض ، سارع إلى تقبيل الأرض ، وبادر إلى الخدمة فسلم ، وزحفت عليها الجيوش المنصورة من جوانبها ، وأحاطت بها إحاطة الأغماد بقواضبها ، وضمتها ضم الأطواق للأعناق ، وأطبقت بها إطباق الجفون على الأحداق . إلا أن الله سبحانه وتعالى سهل أمرها ، وأول للإسلام كفرها ، وسلط المجانيق المسلمة على المجانيق الكافرة فكفى المؤمنين شرها ، فلم يزل كل منها يرميهم بأحجاره ، حتى استنزلهم على اختياره . وسألوا الإجارة من الحجارة ، وطلبوا الأمان من الإيمان ، وأذعنوا بالاستسلام إلى الإسلام . وكتابنا هذا وقد علت على قلعتها أعلام الإيمان ، وصرح بها إعلان الأذان ، ورمى بالخرس جرس الحرس . وأذهب طهر الإيمان منها رجس النجس ، وافترت عن فتحها ثغور الأيام . وغدت مغلفة بمسك المداد أصداغ الأقلام . فيأخذ حظه من هذه البشرى التي شرحت للاسلام صدراً ، وجددت لكل صباح من تباشيره بشراً ، وخلدت لأيام هذه الدولة فخراً ، يبدو في صبيحة كل نهار فجراً . وهذا الفتح المبين وإن [لم] يكن الجناب من حضار حصارها ، ولاتضمخ درعه بردعه ، ولاتمسك ذيله بعشاره ، فإنه مجهز جيش كتائبه التي فتح الله على يدها ، وأجراها من النصرة على جميل عوائدها . فله أجر الغازي وهو المقيم . والسهم إذا أصاب الغرض فراميه المصيب وهو بمكانه لايريم .

ذيل مرآة الزمان لليونيني ج ٤ ٢٤٣ – ٢٥٦

* * *

القسم الثاني

وثائق الغزو المغولي

٦٠٣ هـ - ٨٠٧ هـ
١٢٠٦ م - ١٤٠٤ م

١ ـ الفتره المنتهية بسقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م

١٧٥ ـ رسالة سلطان سمرقند خان خانان إلى خوارزم شاه

احتل الخطا بلاد تركستان وأبقوا حكمها تحت سلطتهم بيد سلطان سمرقند، وهو مسلم، ولذلك ضجر وأنف من تحكمهم في الإسلام وأهله، فأرسل إلى خوارزم شاه يقول:

إن الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدي الكفار، وتخلصهم مما يجري عليهم من التحكم في الأموال والأبشار. ونحن نتفق معك على محاربة الخطا، ونحمل إليك ما نحمله إليهم، ونذكر اسمك في الخطبة وعلى السكة.

فوافق على ذلك.

الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٢ ـ ٢٥٩

١٧٦ ـ رسالة خوارزم شاه إلى سلطان سمرقند

تحالف خوارزم شاه مع سلطان سمرقند وبخارى ضد الخطا وحاربوهم وكسروهم، وعاد ملك سمرقند إلى مكانه ومعه ممثل لخوارزم شاه، ثم بعد سنة غدر السلطان بالخوارزميين وقتلهم، فزحف إليه خوارزم شاه وحاصره وأرسل إليه يقول:

قد فعلت مالم يفعله مسلم، واستحللت من دماء المسلمين مالا يفعله عاقل لا مسلم ولا كافر، وقد عفا الله عما سلف فاخرج من البلاد وامض حيث شئت.

الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٦٨ ـ ٢٦٩

١٧٧ - رسالة ملك الخطا إلى خوارزم شاه لما هاجمه التتار

أما ما كان منك من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فعفو عنه ، وقد أتى من هـذا العدو من لاقبل لنا به . وأنهم إن انتصروا علينا وملكونا فلا دافع لهـم عنك ، والمصلحة أن تسير إلينا بعساكرك وتنصرنا على قتالهم . ونحن نحلف لك أننا إذا ظفرنا بهم لا نتعرض إلى ما أخذت من البلاد ونقنع بما بين أيدينا [١] .

١٧٨ - رسالة كشلي خان ملك التتار إلى خوارزم شاه يعرض عليه التحالف ضد الخطا :

إن هؤلاء الخطا أعداؤك وأعداء أبائك وأعداؤنا فساعدنا عليهم ، ونحلف أننا إذا انتصرنا عليهم لا نقرب بلادك ونقنع بالمواضع الـتي ينزلونها .

١٧٩ - جواب خوارزم شاه إلى كل واحد منهما نسخة واحدة .

انني معك ومعاضدك على خصمك .

الـكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٢ - ٢٧٠

١٨٠ - رسالة ملك التتار كشلي خان إلى خوارزم شاه

هُزم الخطا ومنَّ خوارزم شاه على ملك التتار أنه لولا مساعدته لما تمكن من القضاء على الخطا ولَـنهُزِم . وبعـد فترة أرسل ملك التتر إلى خوارزم شاه يقول :

كما أننا اتفقنا على إبادتهم يجب أن نقتسم بلادهم .

---

(١) أتى الذهبي في « العبر » ج ٥ - ١٦ بنص مشابه إلى حد كبير لنصنا هذا وإن يكن أقل منه تفصيلاً .

١٨١ – جواب خوارزم شاه :

ليس لك عندي غير السيف ، ولستم أقوى من الخطا شوكة ولا أعز ملكا ، فإن قنعت بالمساكنة وإلا سرت إليك وفعلت بك شراً مما فعلت بهم .

١٨٢ – رسالة ثانية من ملك التتار كشلي إلى خوارزم شاه .

أدرك خوارزم شاه أنه لايقف للتتار فكان يحارب أطرافهم إذا رآهم منفردين فأرسل إليه كشلي يقول :

ليس هذا فعل الملوك ، هذا فعل اللصوص . وإلا إن كنت سلطاناً كما تقول ، فيجب أن نلتقي : فإما أن تهزمني وتملك البلاد التي بيدي ، وإما أن أفعل انا بك ذلك .

الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ١٢ – ٢٧١

١٨٣ – رسالة لخوارزم شاه إلى غياث الدين .

احتلت جيوش غياث الدين وأخيه شهاب الدين الغوريين بلاد خوارزم شاه وغيرها ، فلما رحلت الجيوش عن البلد أرسل خوارزم شاه إلى غياث الدين يعاتبه ويقول :

كنت اعتقد ان تخلف عليّ بعد أبي ، وان تنصرني عن الخطا وتردهم عن بلادي ، فحيث لم تفعل فلا اقل من أن لاتؤذيني وتأخذ بلادي . والذي أريده أن تعيد ما آخذته مني إليّ ، وإلا استنصرت عليك بالخطا وغيرهم من الأتراك ، إن عجزت عن أخذ بلادي ، فإني إنما شغلني عن منعكم عنها الاشتغال بعزاء والدي وتقرير أمر بلادي ، وإلا فما أنا عاجز عنكم وعن أخذ بلادكم خراسان وغيرها .

الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ١٢ – ١٧٣

١٨٤ - رسالة جنكيز خان إلى خوارزم شاه .

أرسل جنكيز خان تجاراً إلى خراسان فقتلهم نائبها من قبل خوارزم شاه فأرسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه يستعلمه عن هـذا الأمر ، وكان مما قاله :

من المعهود من الملوك أن التجار لايقتلون لأنهم عمارة الأقاليم ، وهم الذين يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفيسة . ثم إن هؤلاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبك ، فإن كان أمراً أمـــرت به طلبنا بدمائهم ، وإلا فأنت تنكره وتقتص من نائبك .

ولكن خوارزم شاه قتل رسول جنكيز خان .

البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٣ - ١١٩

١٨٥ - رسالة جنكيز خان لخوارزم شاه لما بلغه ما فعل بالتجار والرسول :

تقتلون أصحابي وتجاري وتأخذون مالي منهم ، استعدوا للحرب فإني واصل إليكم بجمع لاقبل لكم به .

الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ١٢ - ٣٦٣

١٨٦ - مفتتح رسائل ابن جنكيز خان الذي كان يفتتح بـه رسائـله الموجهة لملوك الإسلام يدعوهم للطاعة :

من نائب رب السماء مـاسح وجه الأرض ملك الشرق والغـرب قان قان .

البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٣ - ١٥٦

١٨٧ ـ رسالة تاجر مجهول من الري إلى أصحابه بالموصل سنة ٦٢٧ ه يحدثهم عن اعمال المغول في الري وأذربيجان :

إن الكافر ـ لعنه الله ـ مانقدر أن نصفه ولانذكر جوعه حتى لاتنقطع قلوب المسلمين فإن الأمر عظيم . ولاتظنوا أن هذه الطائفة التي وصلت إلى نصيبين والخابور ، والطائفة الأخرى التي وصلت إلى إربل ودقوقا كان قصدهم النهب ، إنما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردهم أم لا ! فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع ، وأن البلاد خالية من ملك وعساكر فقوي طمعهم وهم في الربيع يقصدونكم ومايبقى عندكم مقام ، إلا إن كان في بلاد الغرب ، فإن عزمهم على قصد البلاد جميعها فانظروا لأنفسكم .

الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٢ ـ ٥٠٣

١٨٨ ـ كتاب بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى أهل دمشق يفرض عليهم ضريبة اسمها ضريبة التتر :

إني قررت على أهل الشام قطيعة التتر في كل سنة من الغني عشرة دراهم ، ومن المتوسط خمسة دراهم ومن الفقير درهم .

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٢ ـ ٣١٥

١٨٩ ـ وصية منكوقا آن لأخيه هولاكو لما سلمه قيادة الجيش الذي أرسله لفتح الغرب (غربي الصين) :

إنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لاحصر لها ، فينبغي أن تسير من توران إلى إيران :

سر من توران إلى إيران مظفراً

واعل باسمك إلى الشمس الساطعة

وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه ، في الكليات والجزئيات وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك ، في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر ، بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك ؛ أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل من يتعلق به . وابدأ بإقليم قهستان في خراسان ، فخرب القلاع والحصون :

اجعل كِرْدكوه وقلعة لنبه سر .[1]
بحيث يكون رأسهما إلى أسفل وجسدهما إلى أعلى
ولا تبق في الدنيا قلعة قط
ولا كومة واحدة من التراب

فإذا فرغت من هذه المهمة ، فتوجه إلى العراق ، وأزل من طريقك اللور والأكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها . وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقاً . أما إذا تكبر وعصى ، فألحقه بالآخرين من الهالكين . كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد ، وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً ، وأن تخفف على الرعية التكاليف والمؤن ، وأن ترفه عنهم . وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها في الحال . وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة . وشاور دوقوز خاتون في جميع القضايا والشؤون .

جامع التواريخ للهمذاني ، جـ ٢ ، ق ١ ٢٣٦ - ٢٣٧

---

(١) قلعتان مشهورتان من قلاع الملاحدة في ايران تأتيان مباشرة بعد قلعة ألموت الشهيرة في الحصانة والمنعة .

١٩٠ - بيان وجهه هولاكو الى حكام إيران سنة ٦٥١ هـ طالبـاً مساعدتهم في إخضاع قلاع الملاحدة كالموت وغيرها :

بناء على أمر القاآن فقد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وإزعاج تلك الطائفة . فإذا أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والعـــدد والآلات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم وستحمـد لكم مواقفكم . أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم ، فإننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة ، فإننا لانقبل عذركم ونتوجه إليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم .

جامع التواريخ للهمذاني جـ ٢ ، ق ١ - ٢٤٠

١٩١ - رسالة هولاكو إلى المستعصم بالله آخر خلفاء العباسيين يعاتبه ويهدده ويطلب منه الخضوع سنة ٦٥٥ هـ :

لقد أرسلنا إليك رسالة وقت فتح قلاع الملاحدة وطلبنا مـدداً من الجند ، ولكنك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجنـــد ، وكانت آية الطاعة والاتحاد أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة فلم ترسل إلينـا الجند والتمست العذر . ومهما تكن أسرتك عريقة وبيتك ذا مجد تليد

فـــإن لمعان القمر قد يبلغ درجة
يخفي معها نور الشمس الساطعـــة

ولابد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حل بالعـــالم والعالمين على يد الجيش المغولي منذ عهد جنكيزخان إلى اليوم ، والذل الذي حاق بأسر الخوارزميين والسلجوقية وملوك الديالمة والأتابكة وغيرهم ممن كانوا ذوي عظمة وشوكة ، وذلك بحول الله القـديم الدائم ، ولم يكن باب بغداد مغلقاً بوجه أية طائفة من تلك الطوائف ، واتخـذوا

منها قاعدة ملك لهم ، فكيف يغلق في وجهنا رغم مالنا من قـدرة وسلطان ؟! ولقد نصحناك من قبل . والآن نقول لك : احذر الحقد والخصام ، ولاتضرب الخصف بقبضة يدك ، ولا تلطخ الشمس بالوحل فتتعب . ومع هذا فقد مضى ما مضى ، فإذا أطاع الخليفة فليهـــدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه ويحضر لمقابلتنا . وإذا لم يرد الحضور فليرسل كلا من الوزير وسليما نشاه والدواتدار ليبلغـــوه رسالتنا دون زيادة أو نقص ، فإذا استجاب لأمرنا فلن يكون من واجبنا أن نكن له الحقد ، وسنبقي له على دولته وجيشه ورعيته . أما إذا لم يصغ إلى النصح وآثر الخلاف والجدل ، فليعبىء الجند وليعين ساعة القتال فإننا متأهبون لمحاربته وواقفون له على استعداد . وحينما أقود الجيش الى بغداد ، مندفعاً بسورة الغضب ، فإنك لوكنت مختفياً في السماء أو في الأرض .

فسوف أنزلك من الفـــلك الدوار

وسألقيك من عليائك الى أسفل كالأسد

ولن أدع حيشاً في مملكتـــك

وسأجعل مدينتك واقليمك وأراضيك طعمة للنار

فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحي بسمع العقل والذكاء ، والا فسأرى كيف تكون ارادة الله .

جامع التواريخ للهمذاني ج ٢ ، ق ١ - ٢٦٨

١٩٣ - رسالة الخليفة الجوابية حملها لهولاكو شفهيا شرف الدين ابن الجوزي وبدر الدين محمود وزنكي النخجواني :

أيها الشاب الحديث ! المتمني قصر العمر ، ومن ظن نفسه محيطاً ومتغلباً على جميع العالم مغتراً بيومين من الإقبال ، متوهماً أن أمره

قضاء مبرم وأمر محكم . لماذا تطلب منا شيئاً لم تجده :

كيف يمكن أن تتحكم في النجم وتقيده

بالـرأي والجـيش والسـلاح

ألا ليعـلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب ، ومن الملوك إلى الشحاذين ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين ، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي . إنني حينما أشير بجمع الشتات ، سابدأ بحسم الأمور في إيران ، ثم أتوجه منها الى بلاد توران ، وأضع كل شخص في موضعه ، وعندئذٍ سيصير وجه الأرض جميعه مملوءاً بالقلق والاضطراب ، غير أني لاأريد الحقد والخصـام ، ولا أن أشتري ضرر الناس وايذاءهم . كما أنني لا أبغي من وراء تردد الجيوش أن تلهـج ألسنة الرعية بالمدح أو القدح ، خصوصاً وأنني مع الخاقان وهولاكو خان قلب واحد ولسان واحد . وإذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم ، فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان، وان كنت تريد الحرب والقتال :

فلا تتـوان لحظـة ولا تعتذر

اذا استقر رأيـك على الحـرب

إن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة

وهـم متأهبـون للقتـال

وإنهم ليثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان

جامع التواريخ للهمذاني ج ٢ ، ق ١ ٢٦٩ - ٢٧٠

١٩٣ - رسالة جوابية من هولاكو إلى الخليفة المستعصم بالله وقد امتلأ غضباً للرسالة السابقة :

ان الله الأزلي رفع جنكيزخان ومنحنا وجه الأرض كله من الشرق

إلى الغرب ، فكل من سار معنا وأطاعنا واستقام قلبه ولسانه ، تبقى له أمواله ونساؤه وأبناؤه ، ومن يفكر في الخلاف والشقاق لا يستمتع بشيء من ذلك .

ثم عاتب الخليفة بشدة قائلاً :

لقد فتنك حب الجاه والمال والعجب والغرور بالدولة الفانية ، بحيث لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير . وإن في أذنيك وقراً فلا تسمع نصح المشفقين ، ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك ، وإذن فعليك أن تكون مستعداً للحرب والقتال ، فإني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد . ولو جرى سير الفلك على شاكلة أخرى فتلك مشيئة الله العظيم .

جامع التواريخ للهمذاني ج ٢ ، ق ١ - ٢٧١

١٩٤ – رسالة ثانية من الخليفة إلى هولاكو أرسلها له على يد بدر الدين قاضي بندنيجان :

لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطلعين على الأحوال ، إذ أن كل ملك – حتى هذا العهد – قصد أسرة بني العباس ودار السلام بغداد كانت عاقبته وخيمة . ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين ، فإن بناء هذا البيت محكم للغاية ، وسيبقى إلى يوم القيامة . وفي الأيام السالفة قصد يعقوب بن الليث الصفار الخليفة وتوجه بجيش لجب إلى بغداد فلم يبلغ أربه ، إذ مات بعلة الزحار ، والأمر كذلك مع أخيه عمرو ، إذ قبض عليه إسماعيل بن أحمد الساماني وكبله وأرسله إلى بغداد ، لكي يجري عليه الخليفة ما حكم به القضاء . وكذلك جاء البساسيري بجيش عظيم من مصر إلى بغداد

وقبض على الخليفة وسجنه في الحديثة [1] . وفي بغداد جعل الخطبة والسكة مدة عامين باسم المستنصر الذي كان خليفة الإسماعيلية في مصر . وفي النهاية علم طغرلبك بذلك فأسرع من خراسان وقصد البساسيري في جيش جرار وقبض عليه وقتله ، وأخرج الخليفة من السجن وأعاده إلى بغداد وأجلسه على عرش الخلافة . وكذلك قصد السلطان محمود السلجوقي بغداد فعاد منهزماً وهلك في الطريق . وجاء محمد خوارزمشاه بجيش عظيم قاصداً استئصال هذه الأسرة فابتلى في روابي استر آباد بالثلج والعواصف بسبب غضب الله عليه وهلك أكثر جنده ، وعاد خائباً خاسراً ثم لاقى ما لاقى من جدك جنكيز خان في جزيرة آبكسون . فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين ، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر

جامع التواريخ للهمذاني ج ٢ ، ١ ق ٢٧٥ ، ٢٧٦

١٩٥ - رسالة قائد طلائع الجيش المغولي الزاحف على بغداد سلطان جوق إلى قبجاق قراسنقر قائد طلائع جيش الخليفة ، وذلك لما زحف المغول على بغداد وتهيأ الطرفان للحرب الفعلية :

إنني وإياك من جنس واحد [ذلك أن الأثنين كانا من أصل خوارزمي] وبعد البحث والتدقيق التحقت بخدمة هولاكو بسبب الفقر والاضطرار ، ودخلت في طاعته ، وهو الآن يعاملني معاملة طيبة ،

---

(١) ورد في نص هذه الرسالة بعض الأخطاء التاريخية ومن الواجب تصحيحها : فالبساسيري لم يأت بجيش قط من مصر وإنما اعتاده على جيشه الخاص وحليفه الأمير البدوي قريش . كذلك التجأ الخليفة العباسي القائم إلى مدينة الحديثة وهناك استقر في إحدى قلاعها ولم يسجن وإنما لجأ إلى أمير بدوي اسمه مهارش بن مجلي فأجاره وحماه . كما ان البساسيري خطب في بغداد للخليفة الفاطمي مدة تقرب من السنة فقط .

فأنقذ أنت أيضاً حياتك وترفق بها ، واشفق على أولادك وقدم الطاعة حتى تأمن على دارك وأولادك ومالك وروحك من هؤلاء القوم .

١٩٦ - جواب قراسنقر على رسالة سلطان جوق السابقة :

من يكون هؤلاء المغول حتى يقصدوا أسرة العباسيين . لقد شاهدت هذه الأسرة الكثير من أمثال دولة جنكيز خان التي تترنح من كل ريح عاصف . ثم إن العباسيين قد استمروا حكاماً أكثر من خمسمائة سنة ، وكل مخلوق قصدهم بسوء قضى عليه الزمان . وإذن فليس من العقـل والكياسة أن تدعوني لأنضـم إلى جانب الغصن الغض لـدولة جنكيز خان . وكان الأولى بالود والمسالمة ألا يتجاوز هولاكو خان الري بعد فراغـه من فتح قلاع الملاحدة ، وأن يعود إلى خراسان وتركستان ، لأن قلب الخليفة متأثر وساخط بسبب زحف هولاكو بجيوشه . فإذا كان هولاكو نادماً حقاً على فعلتـــه فعليه أن يعيد الجيش إلى همدان ، لكي نجعـل الدواتدار شفيعاً فيتضرع بدوره إلى الخليفة علّه يزول ألمـه ويقبل الصلح فيغلق بذلك باب القتال والجدال .

جامع التواريخ للهمذاني ج ٢ ، ق ١ ٢٨٣ - ٢٨٤

١٩٧ - رسالة هولاكو للخليفة قبل الهجوم النهائي على بغداد مباشرة :

إذا كان الخليفة قد أطاع فليخرج ، وإلا فليتأهب للقتال . وليحضر إلينا قبل كل شيء الوزير وسليمانشاه والدواتدار ليسمعوا ما نقول :

جامع التواريخ للهمذاني ج ٢ ، ق ١ - ٢٨٤

١٩٨ - رسالة الخليفة النهائية لهولاكو وذلك بعد أن أيقن بالبوار بعد هزيمة جيشه وبدء بغداد بالسقوط في يـــد هولاكو ، فأرسل

الخليفة هذه الرسالة مع الجاثليق والوزير ليقولا لهولاكو ما يلي :

إن الملك قد أمر أن أبعث إليه بالوزير ، ها أنذا قد لبيت طلبه فينبغي أن يكون الملك عند كلمته .

١٩٩ ـ جواب هولاكو للخليفة عن الرسالة السابقة :

إن هذا الشرط قد طلبته وأنا على باب همدان . أما الآن فنحن على باب بغداد . وقد ثار بحر الاضطراب والفتنة ؛ فكيف أقنع بواحد ينبغي أن ترسل هؤلاء الثلاثة

يعني بالثلاثة الدواتدار وسليمانشاه والوزير .

جامع التواريخ للهمذاني جـ ٢ ، ق ١ ـ ٢٨٧

٢ ـ في العصر المملوكي بعد سقوط بغداد

٢٠٠ ـ رسالة هولاكو إلى الناصر الأيوبي صاحب حلب بعد سقوط بغداد وقبل زحفه على سورية وقد كتبها له بالعربية نصير الدين الطوسي :

أما بعد : فقد نزلنا بغداد سنة ست وخمسين وستمائة فساء صباح المنذرين ، فدعونا ملكها فأبى فحق عليه القول فأخذناه أخذاً وبيلا . وقد دعوناك إلى طاعتنا ، فإن أتيت فروح وريحان ، وإن أبيت فخزي وخسران ، فلا تكن كالباحث عن حتفه بظلفه والجادع مارن أنفه بكفه فتكون من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، فما ذلك على الله بعزيز والسلام على من اتبع الهدى .

جامع التواريخ للهمذاني جـ ٢ ، ق ١ ـ ٢٩٦

٢٠١ ـ رسالة أخرى من هولاكو إلى الناصر صاحب حلب ودمشق.

يعلم سلطان مصر ـ ناصر ـ طال بقاؤه ـ أنا لما توجهنا إلى العراق وخرج إلينا جنودهم فقتلناهم بسيف الله . ثم خرج إلينا رؤساء البلد ومقدموها فكان قصارى كلامهم سبباً لهلاك نفوس تستحق الإهلاك . وأما ماكان من صاحب البلد فإنه خرج إلى خدمتنا ودخل تحت عبوديتنا فسألناه عن أشياء كذبنا بها فاستحق الاعدام وكان كذبه ظاهراً ووجدوا ما عملوا حاضراً . أجب ملك البسيطة ولاتقولن قلاعي المانعات ورجالي المقاتلات . ولقد بلغنا أن شرذمة من العسكر التجأت إليك هاربة وإلى جنابك لائذة .

أين المفر ولا مفر لهارب ولنا البسيطان الثرى والماء

فساعة وقوفك على كتابنا تجعل قلاع الشام سماءها أرضها وطولها عرضها والسلام .

٢٠٢ ـ رسالة أخرى من هولاكو إلى الناصر :

خدمة ملك ناصر ـ أطال عمره ـ أما بعد : فإنا فتحنا بغداد واستأصلنا ملكها وملكها . وكان ظن ، وقد ضن بالأموال ولم ينافس الرجال ، أن ملكه يبقى على تلك الحال وقد علا ذكره ونما قدره فخسف في الكمال بدره .

إذا تم أمر بدا نقصه توقع زوالاً إذا قيل تم

ونحن في طلب الازدياد على مر الآباد ، فلاتكن كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم . وابد ما في نفسك أما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . أجب دعوة ملك البسيطة تأمن شره وتنل بره . واسع إليه برجالك وأموالك ولا تعوق رسولنا والسلام .

٢٠٣ - رسالة أخرى من هولاكو إلى الناصر :

أما بعد : فنحن جنود الله بنا ينتقم ممن عتا وتجبر وطغى وتكبر ، وبأمر الله ما ائتمر . إن عوتب تنمر ، وإن روجع استمر وتجبر . ونحن قد أهلكنا البلاد وأبدنا العباد وقتلنا النسوان والأولاد ، فأيها الباقون أنتم بمن مضى لاحقون . ويا أيها الغافلون أنتم إليه تساقون . ونحن جيوش الهلكة لاجيوش المملكة . مقصودنا الانتقام وملكنا لايرام ، ونزيلنا لايضام ، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر ، ومن سيوفنا أين المفر .

أين المفر ولامفر لهارب ولنا البسيطان الثرى والماء

ذلت لهيبتنا الأسود فأصبحت في قبضتي الأمراء والخلفاء

ونحن إليكم صائرون ولكم طالبون ، ولكم الهرب وعلينا الطلب .

ستعلم ليلى أي دين تداينت وأي غريم بالتقاضي غريمها

دمرنا البلاد وأيتمنا الأولاد وأهلكنا العباد وأذقناهم العذاب وجعلنا عظيمهم صغيراً ، وأميرهم أسيراً . أتحسبون أنكم منا ناجون أومتخلصون ؟ وعن قليل سوف تعلمون على ماتقدمون . وقد أعذر من أنذر . والسلام [1] .

شذرات الذهب للحنبلي ج ٥ ٢٧٢ - ٢٧٣

---

(١) أورد السيوطي في « تاريخ الخلفاء » ٤٧٣-٤٧٥ نصوصاً مشابهة كل المشابهة لنصوص هذه الرسائل الثلاث الواردة أعلاه . على حين يورد المقريزي في « السلوك » ج ١ ، ق ٢ / ٤١٥-٤١٦ نص رسالة واحدة أرسلها هولاكو إلى الناصر ، وكذلك يفعل ابن العبري في « تاريخ مختصر الدول » ٢٧٧-٢٧٨ . وهي ، وإن اختلفت في نصوصها إلا أنها كلها تهديد ووعيد وإخبار بما حل ببغداد ودعوة للملك الناصر أن يخضع لهولاكو . مع استشهاد بآيات قرآنية كثيرة .

٢٠٤ - رسالة هولاكو إلى أهل حلب لما اقترب منها قبيل احتلاله إياها.

نحن إنما جئنا لقتال الملك الناصر بدمشق ؛ فاجعلوا لنـــا عندكم شحنة ، فإن كانت النصرة لنا فالبلاد كلها في حكمنا ، وإن كانت علينا ، فإن شئتم قبلتم الشحنة وإن شئتم أطلقتموه .

٢٠٥ جواب أهل حلب لهولاكو عن الرسالة السابقة :

مالك عندنا إلا السيف .

البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ - ٢١٨

٢٠٦ - رسالة هولاكو إلى سلطـان مصر قطز بعد احتلاله دمشق وتهيئته للزحف بجيشه على مصر

من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم .

باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقلـــيم يتنعمون بأنعامه ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية ومـا حولهـا من الأعمال أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيركم واسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن مانرحم من بكى ولانرق لمن شكى . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب ، فأي أرض تأويـــكم وأي طريق تنجيكم ، وأي بلاد تنجيكم ؟ فما من سيوفنا خلاص ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبـال وعددنا

كالرمال . فالحصون لدينا لاتمنع ، والعساكر لقتالنا لاتنفع ، ودعاؤكم علينا لايسمع ، فإنكم أكلتم الحرام ، ولاتعفون عند كلام ، وخنتم العهود والأيمان ، وفشا فيكم العقوق والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهوان . فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم بشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلكم مالنا وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذر من أنذر . وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة . وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة . فكثيركم عندنا قليل وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغير الإهانة ما لملوككم عندنا سبيل . فلا تطيلوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها وترمي نحوكم شرارها ، فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً ، ولا كافياً ولا حرازاً ، وتدهون منا بأعظم داهية وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفناكم إذ راسلناكم وأيقظناكم إذ حذرناكم . فما بقي لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشي عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصرها "هلاوُن"[1] قد أتى بحد سيوف تنتضى وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة ويلحق أطفالاً لهم بالأكابر[2]

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٢ ٤٢٧ - ٤٢٩

---

(١) "هلاوُن" صيغة لاسم هولاكو ، وقد وردت كثيراً في كتب المؤرخين المعاصرين .

(٢) أورده القلقشندي في « صبح الأعشى » ج ٨ / ٦٣ - ٦٤ وكذلك الهمذاني في « جامع التواريخ » ج ٢ ، ق ١ - ٣١٠ نصوصاً تختلف بعض الاختلاف عن نصنا أعلاه ولكن نصنا أكمل وأشمل ، على حين أن نص القلقشندي أكثر اختصاراً . أما نص الهمذاني فموجز كل الإيجاز ويختلف في صياغته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٠٧ ـ محاورة السلطان قطز مع أمرائه وأرباب دولته لما وصلته رسالة هولاكو السابقة :

لما وصلت الرسالة السابقة التي أرسلها هولاكو إلى السلطان قطز صحبة جماعة من الرسل جمع السلطان أمراءه وأركان دولته واستشارهم في الأمر فقال :

لقد توجه هولاكو خان من توران إلى إيران بجيش جرار ، ولم يكن لأي مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته واستولى على جميع البلاد . ثم جاء إلى دمشق ، ولو لم يبلغه نعي أخيه لألحق مصر بالبلاد الأخرى . ومع هذا فقد ترك في هذه النواحي كيتوبوقا نويان الذي هو كالأسد المصور والتنين القوي في الكمين . وإذا قصد مصر فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته ، ويجب تدبر الأمر قبل فوات الفرصة .

فقال ناصر الدين قيمري :

إن هولاكوخان ، فضلاً عن أنه حفيد جنكيزخان وابن تولوي وأخو منككوقا آن ، فإن شهرته وهيبته في غنى عن الشرح والبيان . وإن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها في قبضته الآن ، وقد اختص بالتأييد السماوي . فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان فليس في ذلك عيب ولا عار . ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل . إنه ليس بالإنسان الذي يطمأن إليه ، فهو لايتورع عن احتزاز الرؤوس وهو لايفي بعهده وميثاقه ، فإنه قتل فجأة خورشاه والخليفة وحسام الدين عكه وصاحب إربل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق ، فإذا ماسرنا إليه فسيكون مصيرنا هذا السبيل .

فقال قطز :

والحالة هذه فإن كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع ، وأصبحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً يباباً ، وقضى على جميع ما فيها من حرث ونسل . فخليت من الأزواج والأبقار والبذور فلو أننا تقدمنا لقتالهم وقمنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خراباً تامـاً كغيرها من البلاد . وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحداً من ثلاثة ؛ الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن . أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ذلك لأنه لايمكن أن نجد لنا مفراً إلا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة .

فأجاب ناصر الدين قيمري :

وليس هناك مصلحة أيضاً إذ أنه لايوثق بعهودهم .

فقال بقية الأمراء :

ليس لنا طاقة ولاقدرة على مقاومتهم فمر بما يقتضيه رأيك :

عندئذ قال قطز :

إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال ، فإذا ظفرنا فهو المراد ، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق .

فاتفق الأمراء بعد ذلك . ثم اختلى قطز بالبندقدار [1] الذي كان أميراً للأمراء وشاوره في الأمر : إنني أرى أن نقتل الرسل ونقصـد كيتوبوقا متضامنين فإن انتصرنا أو هزمنا فسوف نكون في كلتـا الحالتين معذورين .

فاستصوب قطز هذا الكلام وأمر بصلب رسل المغول في الليل .

جامع التواريخ للهمذاني ج ٢ ، ق ١ ٣١١-٣١٣

---

(١) المقصود بالبندقدار القائد بيبرس الذي أصبح بعد فترة سلطاناً لسورية ومصر باسم الملك الظاهر بيبرس .

٢٠٨ ـ رسالة كيتوبوقا الشفهية والأخيرة لهولاكو لما هُزم جيشه في عين جالوت وقبل أن يُقتل :

حلت الهزيمة على جيش المغول أمام الجيش الإسلامي في عين جالوت وحرض بعض أتباع كيتوبوقا ، الذي كان قائد الجيش المغولي ، على الهرب لإنقاذ حياته فرفض وقال :

لا مفر من الموت هنا . فالموت مع العزة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان . وسيصل رجل واحد ، صغيراً أو كبيراً ، من أفراد هذا الجيش إلى حضرة الملك ويعرض عليه كلامي قائلاً . إن كيتوبوقا لم يشأ أن يتراجع وقد كلله الخجل فضحى بحياته الغالية في سبيل واجبه ، ينبغي ألا يشق على الخاطر المبارك نبأ فناء جيش المغول ، وليتصور الملك أن نساء جنوده لم يحملن عاماً واحداً ، وأن جياد قطعانه لم تلد المهور . فليدم إقبال الملك . وما دامت نفسه الشريفة آمنة وسالمة فإنها تكون عوضاً لكل مفقود ، إذ أن وجودنا وعدمنا نحن العبيد والأتباع أمر سهل يسير .

جامع التواريخ للهمذاني ج ٢ ، ق ١ – ٣١٤

٢٠٩ ـ رسالة الملك المظفر قطز إلى صاحب اليمن الملك المنصور يبشره بانتصاره العظيم على المغول في معركة عين جالوت ، وهي غالباً من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر .

أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري وأعلى مناره وضاعف اقتداره . نعلمه أنه لما كان النصف من شهر رجب الفرد فتح الله تعالى بنصر المسلمين على أعداء الدين .

من كل مَنْ لولا تسعّرُ بأسه   لاخضر جوداً في يديه الأسمر

فصدرت هذه التهنئة إليه راوية للصدق عن اليوم المحجل الأغر :

يوم غـدا بالنقـع فيه يهتدي   من ضـل فيه بأنجم المـران

ففي أذن الدهر من وقعه صمم ، وفي عرنين البدر من نقعه شَمَم .

يرفعه رواة الأسل عن الأسنة ، ويسنده مجر العوالي عن مجر الأعنـة

أما النصر الذي شهد الضربُ بصحته ، والطعن بنصيحته ، فهو أن التتر ـ خذلهم الله تعالى ـ استطالوا على الأيام ، وخاضوا بلاد الشام ، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام .

سعى الطمعُ المردي بهم بحتوفهم   ومن يُمْسِكَنْ ذيل المطامع يعطب

فاعتاضوا عن الصحة بالمرض ، وعن الجوهر بالعرض ، وقد أرخت الغفلة زمامهم ، وقاد الشيطان خطامهم ، وعاد كيدهم في نحورهم ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً . وكفى الله المؤمنـــين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً .

راموا الأمور فمذ لاحت عواقبها   بضد ما أملوا في الورد والصدر

ظلوا حيارى وكأس الموت دائرة   عليهم شرعاً في الورد والصدر

وأضعف الرعب أيديهم فطعنهم   بالسمهرية مثل الوخز بالإبر

لاجرم أنهم لسن الندم قارعون ، وعلى مقابلة إحساننا بالإساءة نادمون .

تدرعوا بدروع البغي سابغة   والمرء يحصد من دنياه ما زرعا

فأقلعت بهم طرائق الضلال ، وسارت مراكب أمانيهم في بحـــار الآمال ، فتلك آمال خائبة ومراكب للظنون عاطبة ، وأقلعـوا في البحر بمراكبه ، والبر بمواكبه ، وساروا وللشيطان فيهم وساوس ، تغرهم أمنية الظنون الحواس ، فما وسوس الشيطان كفراً إلا وأحرقه الإيمان بكوكب ... [1] هذا وعساكر المسلمين مستوطنة في مواطنها ، جاذية

---

(١) بياض بالأصل .

عقبانها في وكور ظباها ، رابضة آسادها في غيل إقناها ، مـا تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة ، ولاتثبت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة لها ناسخة ، ولا عقدت برجة ناقوس إلا وحلها الأذان . ولانطق كاتب إلا وأخرسه القرآن . ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل ، وصار اليوم كأمس ، ونسخت آية الليل بسورة الشمس ، واكتحلت الأعـين بمرود السبات ، وخاف كل من المسلمين إصدار البيات .

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى الأعادي فهو يقظان نائم

إلى أن تراءت العين بالعين ، واضطرم نار الحرب بين الطرفين ، فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق نضواً ، ويترك في بطن كل من المشركين شلواً ، حتى صارت المفاوز دلاصاً ، ومراتع الظبيا للظُبيا عـــراصاً ، واقتنصت أساد المسلمين المشركين اقتناصا . ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجـــدوا عنها مناصا . فلا روضة إلا درع ولا جدول إلا حسام ، ولا غمامة إلا نقع ، ولاوبل إلا سهام ، ولا مدام إلا دماء ، ولا نغم إلا صهيل ، ولا معربد إلا قاتل ، ولا سكران إلا قتيل حتى صار كافور الدين شقيقاً ، وتلون الحصباء من الدماء عقيقاً ، وضرب النقع في السماء طريقاً ، وازدحمت الجنائب في الفضاء فجعلته مضيقاً . وقتل من المشركين كل جبار عنيد ، ذلك بما قدمت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد .

صبح الأعشى للقلقشندي جـ ٧ ٣٦٠ - ٣٦٢

٢١٠ - رسالة أرسلها قـــواد جيش هولاكو وباسمه للملك السعيد ملك ماردين لمـا حاصروه في قلعته وقبل أن يبدأ القتال الفعلي بين الطرفين .

اهبط من القلعة وقدم الطاعة والولاء للملك العالم ليبقى لك رأسك ومالك

ونساؤك وأبناؤك.

مهما تكن قلعتك محكمة مرتفعة

فـلا تغتر بأبراجها وارتفاعها

ولو بلغت رأسك السماء فإنها ستصير تراباً تحت أقدام جيش المغول ، فإن كان الإقبال والسعادة حليفين لك ، فعليك أن تستمع لنصحي وتعمل بموجبه . أما إذا لم تستمع وخالفت أوامري ، فالله المتعـال أعلم بمـــا يحدث .

٢١١ – جواب الملك السعيد .

كنت قد عزمت على الطاعة والحضور إلى الملك ، ولكن حيث أنكم قد عاهدتم الآخرين ثم قتلتموهم بعد أن اطمأنوا إلى عهدكم ووفائـكم ، فإني الآن لا أثق بكم ، وإن القلعة – بحمد الله تعالى – مشحونة بالذخائر والأسلحة ومليئة برجال الترك وشجعان الكرد .

جامع التواريخ للهمذاني ج ٢ ، ق ١ ٣٢٤ – ٣٢٥

٢١٢ - رسالة جوابية أرسلها الملك الكامل ملك ميافارقين لأمير الجيش المغولي الذي أقبل إلى مدينته وحاصرها ، وقبل الحرب الفعلية بين الطرفين أرسل الأمير المغولي إلى الملك الـكامل رسالة يدعوه فيها إلى الاستسلام فأجابه بما يلي :

ينبغي ألا يضرب الأمير في حديد بارد ، ولايتوقع الشيء المستحيل ، إذ لايوثق بوعدكم . وإنني لن أخدع بكلامكم المعسول ولن أخشى جيش المغول ، وسأضرب بالسيف ما دمت حياً . إذ كيف أثق بابن رجل نكث العهد والميثاق مع خورشاه والخليفة وحسام الدين عكه وتاج الدين إربل ؟ وقد جاء الملك الناصر لدين الله خصيصاً بأمانـكم فرأى في نهاية الأمر

ما رأى ، وسوف أرى أنا أيضاً ما سبق أن رأوه .

جامع التواريخ للهمذاني ج ٢ ، ق ١ ــ ٣١٩

٢١٣ – رسالة بركة خان إلى الملك الظاهر بيبرس يطلب مساعدته ضد أخيه هولاكو :

وقع خلاف بين هولاكو وأخيه بركة خان فأراد بركة خان أن يستعين بالملك الظاهر بيبرس ضد أخيه هولاكو فأرسل إليه مع رسله يقول :

قد علمت محبتي للإسلام ، وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين . فاركب أنت من ناحية حتى آتيه أنا من ناحية حتى نصطلمه أو نخرجه من البلاد وأعطيك جميع ما كان بيده من البلاد .

فاستصوب ذلك الملك الظاهر .

البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ – ٢٣٨

٢١٢ – رسالة آباقا خان للظاهر بيبرس

غـــزا بيبرس بلاد الروم وانتصر انتصاراً عظيماً على المغول وقتل فرسانهم وقوادهم ، فغضب من ذلك كل الغضب آباقا خـــان الذي أصبح ملكاً على المغول بعد وفاة هولاكو وبركة وأرسل الى بيبرس يقول :

انكم تنقضون فجأة كاللصوص وتطاردون فرساننا وطلائعنا وتقتلون بعضهم . فإذا ما بلغتنا الأخبار وتحركنا لصدكم تفرون كاللصوص . فإذا كنتم تريدون لقاءنا وقتالنا فادخلوا الميدان كالرجال وثبتوا الأقدام :

تعال لكن ترى سناني
وتنظر إلى التواء عناني
فإن كنت جبلاً فستنهار من أساسك
وإن كنت حجراً فلن تستقر في مكانك

فأين شاهدت المقاتلين

يا من لم يسمع عواء الثعالب

وإن لم تأت فإن جيوشنا مستعدة لقتالك في طليعة الشتاء ، وإذا امتدت نار غضبنا إلى بلاد الشام فإنها بلا ريب سوف تأتي على كل مالكم من أخضر ويابس ، لأن الله الأزلي قد وهب جنكيزخان وذريته بلاد العالم ، وأدخل السراة المتمردين في ربقة طاعتنا . وكل من يخالف أهل الإقبال تكون مخالفته دليلا على الإدبار .

جامع التواريخ للهمذاني حـ ٢ ، ق ٢ ٦٣ - ٦٤

٢١٥ - رسالة تهديد وعرض بالصلح من أبغا ملك المغول بعد هولاكو إلى الظاهر بيبرس :

أنت مملوك بعت بسيواس فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض . واعلم أنك لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت مني ، فاعمل لنفسك على مصالحة السلطان أبغا[1] .

٢١٦ - جواب الملك الظاهر بيبرس على الرسالة السابقة :

اعلموا أني من ورائه بالمطالبة لا أزال حتى أنتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض .

البداية والنهاية لابن كثير حـ ١٣ - ٢٥٤

٢١٧ - رسالة قائد الجيش المصري في حماة إلى شمس الدين سنقر الأشقر :

---

(١) يذكر المقريزي في « السلوك » جـ١ ، ق٢ - ٥٧٤ وابن تغري بردي في « النجوم الزاهرة » جـ٧ - ١٤٥ نصين قريبين كل القرب من نصنا أعلاه .

دهم المغول بـــلاد الشام بأعـداد غفيرة سنة ٦٧٨ هـ زمن السلطان قلاوون فاجتمع الجيش الإسلامي في حمـاة ، وأرسل قائـده إلى شمس الدين سنقر الأشقر الذي كان مخالفاً للسلطان ومقيماً في صهيون الرسالة التالية يدعوه للانضمام إليه لمحاربة العدو :

قد دهمنا هذا العدو ، وما سببه إلا الخلف فيما بيننا . وما ينبغي أن نهلك المسلمين في الوسط ، والمصلحة أننا نجتمع على دفعه[1] .

تشريف الأنام والعصور لابن عبد الظاهر ٧٦

٢١٨ ـ رسالة الملك المنصور قلاوون إلى نائبه في دمشق يبشره بظفره العظيم على المغول في الوقعة التي جرت بين الطرفين ظاهر حمص سنة ٦٨٠ هـ .

نصر من الله وفتـح قريب وبشر المؤمنين . صدرت هذه المـكاتبة إلى المجلس . نعلمه أننا ضربنا مصافاً مع العـدو المخذول على ظاهر حمص في يوم الخميس رابع عشر رجب الفرد سنة ثمانين وستمائة . وكان العدو المخذول على ظاهر حمص في مائة ألف فارس أو يزيدون . والتحم القتال من ضحوة النهار إلى غروب الشمس ، ففتح الله ونصر ، وساعدنا بمساعفة القدر ، ونصرنا ، والحمـــد لله ، على أذل الأعداء وكسرهم ، وظفر المسلمون ونصرهم وكتابنا هذا والنصر قد ضربت بشائره وحلق طائره وامتلأت القلوب سروراً . وأولى الله الإسلام من تفضله علينـا وعليهم خيراً كثيراً . والمجلس فليأخذ حظه من هذه البشرى العظيمة ، ويتقلد عقودها النظيمة . والله تعـالى يخصه بنعمه العميمة إن شـــاء الله تعـــالى .

ذيل مرآة الزمان لليونيني ج٤ ٩٥-٩٦

---

(١) يذكر ابن تغري بردي في « النجوم الزاهرة » ج ٧ ـ نصاً مطابقاً للنص أعلاه .

٢١٩ - رسالة الملك الصالح بن الملك المنصور قلاوون وولي عهده أرسلها باسمه وباسم والده إلى الملك المظفر صاحب اليمن جواب رسالة تهنئة أرسلها لهما بمناسبة انتصار قلاوون العظيم سنة ٦٢٨ ﻫ على المغول . وهي من إنشاء محيي الدين بن عبد الظاهر .

أعز الله نصرة المقام العالي المظفري الشمسي ، ولا زالت البشائر تورد على سمعه وتوفد على ربعه ، وتهدى إلى ابتهاجه وتحدى إلى منهاجه وتجهز إلى منابر ممالكه المحروسة ، وتتجز لمحابر مؤرخي السير النفيسة ، فلا برح يجدد منها صحفاً مكرمة وينضد لها عقوداً منظمة ، ويخلد منها كل ذكرى تنسي الملاحم المتقدمة ، ويشد بها أركان الهدى التي لولا دعايم الرماح المقومه لكانت مهدمة . [المملوك] يخدم خدمة بسنة أبيه فيها يستن ، ويوالي محامد ما أخذ والده في فن منها إلا وأخذ المملوك في دراسة ذلك الفن ، ويصف ولاء قد أمسى كل منهما بسمته يكتني وبذروته يكتن . ويستفتح بذكر نعمى أصبح لطف الله بها على كل مؤمن في أقاصي الأرض يمتن . وهي النعمة التي عاد بها عمر الإسلام فتياً وكوكب سعده مضياً ويوم نصره بدرياً ، وأصبح بها أهل التهايم والنجود في هناء ، وملايكة السماء في شكر لسلطان الإسلام ودعاء . وكادت قبلها قلوب الجبال أن تتصدع ودموع السحايب أن تتشرع وأكباد البيد أن تتقطع ، وذلك بأن التتار المخذولين جمعوا كل من اعتقدوا في ظنهم أنه يهزم الجمع بمفرده ، وانتخبوا كل شجاع لا يألف غير ظهور الجياد من يوم مولده ، واحتفلوا احتفالاً استصحبوا فيه ما ادخروا وما صانوا ، وسمحوا بأعزة أكابرهم ومقدمي

التمانات [1] الذي ما سمع قط أنهم في معركة هابوا ولا هانوا . وبلغت مولانا السلطان أخبارهم ولمعت لاقتباسه نارهم ، وغيروا عاداتهم في المهاجمة ، وأتوا على تؤدة نووا بها المصادقة والمصادمة ، فملأوا الأقطار رعباً والبلاد سلباً ، وأتوا المنازل كما تأتي الزلازل ، وطلعوا على بلاد الإسلام طلوع القضاء النازل ، وامتدوا معتقدين أنهم مستحقون للممالك والأمصار ، مستخفون بالملوك والأنصار ، واثقون بأنهم لا ينجو منهم سكان البراري ولا القفار ، ولا المحتجبون بأسوار البحار . ومولانا السلطان وجنوده في غيلهم رابضون ، وعلى سيوفهم قابضون ، يستجرونهم ليقع شركهم من توسط البلاد الإسلامية في شرك ، ويستدرجونهم ليقعوا من أسفل نار الموت في درك . فلما قربوا من حماة المحروسة ، وبينوا بنيانها من قراها ، واستدنتهم حمص لقراها ، وثب لهم مولانا السلطان وثبة شيبت منهم الوليد ، وأقدم عليهم إقداماً كان مساوقه فيه مصنفه خالد بن الوليد ، وأردفته الملايكة بنجدها وكاثرته الملوك بعددها وعددها . وكان المسلمون في ساير البلاد في تلك الساعة قد طرقوا أبواب السماء وجردوا سلاح الأنبياء من الدعاء ، ولا مشهد ولا مسجد في تلك الساعة في القاهرة ومصر ودمشق والأقاليم إلا وصفوف المتهجدين في ذلك الوقت قايمة متزاحمة بالمناكب ، كما صفوف المجاهدين ثابتة متساقبة في تلك المواكب . فنظر الله تعالى إلى خلقه ببركة تلك الجباه الركع ، وبمن قدم إلى الله به التوسل من الأطفال الرضع فأرسل الله ملايكة النصر ترمي وجرد سيوف الظفر تحز الرقاب وتدمي . وثبت مولانا السلطان ثبوتاً ما سمع أن سلطاناً ثبته وأطلع

---

(١) لعل المقصود بالتمانات كلمة التومانات جمع تومان وهي الفرقة المؤلفة من عشرة آلاف جندي .

الله على ما نواه من نصر الدين فتقبله بقبـول حسن وأنبته . وكان العدو في مائة ألف مقابل مقاتل مناصل مناضل مصارم مصادم مكالب مكالم ، فصبروا على حـر العلاقم ، ورأوا أن المـوت خير لهم من الهزايم ، فلم يفلت منهم إلا من استمهل السيف ساعة من نهار . وفر بعضهم والموت يقول لهم : قل لن ينفعكم الفرار . وكان ذلك في يوم الخميس رابع عشر رجب . ولم يفلت منهـم إلا من تخطفته طيـور الخيول في كل معبر ومضيق ، ومن هوت به الريح في مكان سحيق . وغزا فيهم كل شيء حتى الغربان والنسور والعقبان ، وتبعتهم العساكر إلى شط الفرات وإلى رايات الرحبة وإلى در بندات سيس ، وخرج عليهم أهل البيرة بعساكر مستريحة ، وأهل الحصون كلها بجنود مستبيحه فوضعوا كل السيف على كل من كل ، وعقدوا حلق الإسار على من حل ، وقتلت ملوكهم من أولاد هولاكو وغيرهم ، فعجل الله بأرواحهم إلى النار ، وأبت الأرض أن تواري جسداً لهم فقذفتهم في المهامه والقفار . وانجلت هذه الملحمة عن لطف شامل ونصر كامـل وظفر ينشد أكابر المغل في بلاد ما وراء النهر .

فـإن كان أعجبكم عامكم فعودوا إلى حمص في قابل

وثنى مولانا السلطان العنان وملوك المغل الأسرى يساقون بين يديه سكارى وما هم بسكارى ، وقد أثمرت رؤوس الرماح بكل بطل كم كان يحسن رأساً . وجعل على اسم الله في قفول جنوده ما أجرى منهم ومـا أرسى مما رد بأساً وكفى يأساً . ووصلت الأخبار السارة بذلك فعمت بالتهـاني الوجود ، وضربت البشاير في كل صوب ، وحلقت الملايكة حتى الأفق خلق بالبرود ، والسماء ضربت فيها البشاير بالرعود . ولما تهيأ هذا النبأ العظيم الذي أهل الممالك عنه غافلون ، لم يغفل مولانا السلطان

عن إبهاج المولى بهذه التهاني التي لمثلها فليعمل العاملون ، وسير بها بريداً إلينا وعلى يده مبشرة كريمة إلى المولى . فأصدرناها على حالها ، وأصحبناها هذه الخدمة يتناوبان في شرح هذه الملاحم التي ولد بها الإسلام جديداً ، ولتقرب للسمع الشريف من هذه الوقايع بعيداً . وقد علم الله والمسلمون أن العيان في هذه الواقعة ليس كالخبر . ولعمر الله إن هذه النصرة ذكرى للبشر لأنها كفت الملة الإسلامية عظيماً ، وأخذ الله بها للأيمة والأمة ثأراً قديماً . ومولانا أحق بأن يسر بها سراير كل منبر ويتقدم بتحبيرها فإنها أشرف ما يحبر وأجل مابه يخبر . لابرح المولى يفرح للمؤمنين بنصر الله ويشكر مواقف سلطان ليس عن نصر دين الله بغافل ولالاه . والله الموفق

تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ٢٢٣ – ٢٢٥

٣ ـ المغول المسلمون

أ – السلطان أحمد المغولي أول من أسلم من ملوك المغول

٦٨٠ – ٦٨٣ هـ/١٢٨١ - ١٢٨٤ م

٢٢٠ – بيان أذيع في بغداد باسم السلطان أحمد بن هلاون يعلن اعتناقه وجلوسه على العرش :

بسم الله الرحمن الرحيم : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . وإنا جلسنا على كرسي الممالك ونحن مسلمون ، فيتلقون أهل بغداد هذه البشوى ، ويعتمدون في المدارس والوقوف وجميع وجوه البر ما كان يعتمد أيام الخلفاء العباسيين ، ويرجع كل ذي حق إلى حقه في أوقات المساجد والمدارس ، ولا يخرجون عن القواعد الاسلامية . وأنتم ، ياأهل بغداد ، مسلمون وسمعنا عن النبي ﷺ أنه قال : لاتبرح هذه العصابة الإسلامية

مستظهرة إلى يوم القيامة . وقد عرفنا أن هذا الخبر خبر صحيح ورسول صحيح ورب واحد أحد فرد صمد، فتطيبون قلوبكم وتكتبون إلى البلاد جميعها.
تشريف الأنام والعصور لابن عبد الظاهر – ٤

٢٢١ – رسالة أرسلها السلطان أحمد المغولي إلى السلطان الملك المنصور قلاوون مع مبعوثيه لما أشهر إسلامه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى ، بإقبال قاآن فرمان أحمد إلى سلطان مصر .

أما بعد : فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة بمحمد عليه أفضل الصلوات والسلام ، بصدق نبوته وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريته : فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام [1] . فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين إلى أن أفضى بعد ابينا الجيد وأخينا الكبير نوبة الملك إلينا ، فأفاض علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه ، وجلا هذه المملكة علينا وأهدى عقيلتها إلينا ، فاجتمع عندنا في قوريلتاي [2] المبارك – وهو الجمع الذي ينقدح فيه الآراء – جميع الاخوان والأولاد [3] ، والأمراء

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٥ .

(٢) هذا هو الاسم المغولي لمجلس السلطنة الذي يختار الحكام ويدرس المسائل العويصة التي لا يريد أن يفصل الحاكم فيها برأيه وحده .

(٣) الاخوان تعريب للتعبير المغولي أقاويني Aqawini اي الأخوة الكبار والصغار او امراء البيت المالك . وفي المغولية اقا Aqa الاخ الكبير او شيخ القبيلة او رأس الأسرة، و إني Ini الأخ الأصغر . اما الأولاد فتعريب للكلمة المغولية « ارغول » اي ولد . ويضيفها المغول إلى اسم الملك للدلالة على ان المسمى من الأسرة المالكة ، وبذلك يكون معناها هنا امراء البيت المالك

الكبار ومقدمو العساكر وزعماء البلاد ، واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير في إنفاذ الجم الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتها ، وامتلأت الأرض رعباً لعظيم صولتها ، وشديد بطشهم إلى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها شم الأطواد ، وعزمة تلين لها صم الصلاد . ففكرنا فيما تمخضت زبدة عزائمها عنه، واجتمعت أهواؤهم وآراؤهم عليه ، فوجدناه مخالفاً لما كان في ضميرنا من اقتناء الخير العام الذي هو عبارة عن تقوية شعائر الإسلام ، وألا يصدر عن أوامرنا – ما أمكننا – إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء ، وتجري به في الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان ، تعظيماً لأمر الله وشفقة على خلق الله ، فألهمنا الله – تعالى – إطفاء تلك النائرة وتسكين الفتن الثائرة ، وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا إليه : من تقديم ما يرجى به شفاء مزاج العالم من الأدواء[1] ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء. وإننا لانحب المسارعة إلى هز النصال للنضال إلا بعد إيضاح المحجة ، ولا نأذن لها إلا بعد تبيين الحق وتركيب الحجة ، وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح أذكار شيخ الاسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين ؛ فأصدرناه رحمة من الله لمن دعاه ، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه . وأنفذنا أقضى القضاة قطب الملة والدين ، والأتابك بهاء الدين اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ليعرفـاهم[2] طريقتنا ، وبتحقق مـــا تنطوي عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا ، وبينا لهم أننا من الله على

(١) يعني الحرب .
(٢) الخطاب هنا موجه لقلاوون بصيغة الغائب الجمع بدلاً من المخاطب الجمع أي ليعرفاكم.

بصيرة . وأن الإسلام يجب ما قبله ، وأنه تعالى ألقى في قلبنا أن نتبع الحق وأهله . ويشاهدون عظيم نعمة الله على الكافة بما دعانا إليه : من تقديم أسباب الإحسان ، ولايحرموها بالنظر إلى سالف الأحوال ، فكل يوم هو في شأن . فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل تستحكم بسببه دواعي الاعتماد ، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد ، فلينظروا إلى ماظهر من من مآثرنا ، مما اشتهر خبره وعم أثره . فإننا ابتدأنا ـ بتوفيق الله تعالى ـ باعلاء أعلام الدين وإظهاره ، في إيراد كل أمـــر وإصداره تقديماً ، وإقامة نواميس الشرع المحمدي على مقتضى قانون العـدل الأحمـدي ، إجلالاً وتعظيماً ، وأدخلنا السرور على قلب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئة أو اقترف ، وقابلناه بالصفح وقلنا : عفا الله عمـــا سلف . وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجـد والمشاهـد والمدارس ، وعمارة بقاع البر والربط الدوارس ، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القديمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها ، ومنعنا أن يلتمس شيء مما استحدث عليها ، وألا يغير أحد مما قرر أولاً فيها . وأمرنا بتعظيم أمر الحاج وتجهيز وفدها وتأمين سبلها وتيسير قوافلها . وانا أطلقنـــا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد ليسافروا بحسن اختيارهم على أحسن قواعدهم ، وحرمنا على العساكر والقراغول [1] والشحاني [2] في الأطراف التعرض بهم في مصادرهم ومواردهم . وقد كان صادف قراغولنا جاسوساً في زي الفقراء كان سبيل مثله أن يهلك ، فلم يهرق دمه لحرمة ماحرمه الله تعالى ، وأعدناه إليهم . ولايخفى عليهم ما كان في إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين ، فإن عساكرنا طالمـا رأوهم في زي الفقراء

---

(١) كلمة يطلقها المغول على حراس الطرق .

(٢) جمع شحنة .

والنساك وأهل الصلاح ، فساءت ظنونهم في تلك الطوائف فقتلوا منهم من قتلوا وفعلوا بها ما فعلوا . وارتفعت الحاجة ، بحمد الله تعالى ، الى ذلك بما صدر إذننا به من فتح الطريق وتردد التجار وغـيرهم . فإذا أمعنوا الفكر في هـــذه الأمور وأمثالها لايخفى عليهم أنها أخلاق جبلية طبيعية ، وعن شوائب التكلف والتصنـع عـرية . واذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي المضرة التي كانت موجبة المخالفة ، فإنها كانت بطريق الدين والذب عن حوزة المسلمين . فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين . وإن كانت لما سبق من الأسباب ، فمن تحرى الآن طريق الصواب ، فإن له عندنا لزلفى وحسن مآب . وقد رفعنا الحجاب وأتينا بفصل الخطاب ، وعرفناهم ما عزمنا عليـه بنية خالصة لله تعالى على استئنافها ، وحرمنا على جميع عساكرنا العمل بخلافها نرضي بها الله والرسول وتلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول . وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة ، وتنجلي بنور الائتلاف ظلمـة الاختلاف والغمة . فتسكن في سابغ ظلها البوادي والحواضر ، وتقر القلوب التي بلغت من الجهد الحناجر ، ويعفى عن سالف الهنات والجرائر . فإن وفق الله سلطان مصر لاختيار مافيه صلاح العالم وانتظام أمـور بني آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى وسلوك الطريقـــة المثلى بفتح أبواب الطاعة والاتحاد ، وبذل الإخلاص بحيث تنعمر تلك الممالك والبلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة وتغمد السيوف البـاترة وتحـل الكافة أرض الهوينى وروض الهدون (١) ، وتخلص رقاب المسلمين مـن أغلال الذل والهون . وان غلب سوء الظن بما تفضل به واجب الرحمة

---

(١) كناية عن السلم والطمأنينة .

ومنع عن معرفة قدر هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عذرنا ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً [1] .

والله الموفق للرشاد والسداد ، وهو المهيمن على البلاد والعباد ، وحسبنا الله وحده .

كتب في أواسط جمادى الأولى سنة احدى وثمانين وستمائة بمقام الإطاق[2] .

٢٢٢ ـ جواب السلطان الملك المنصور قلاوون للسلطان أحمد عن رسالته سالفة الذكر .

بسم الله الرحمن الرحيم . بقوة الله تعالى ، بإقبال دولة السلطان الملك المنصور

كلام قلاوون إلى السلطان أحمد :

أما بعد حمد الله الذي أوضح بنا ولنا للحق منهاجاً ، وجاء بنا فجاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذي فضله الله على كل نبي ، نجّى به أمته ، وعلى كل نبي ناجى ، صلاة تنير ما دجا وتنير من داجى ، فقد وصل الكتاب الكريم الملتقى بالتكريم ، المشتمل على هذا النبأ العظيم : من دخوله في الدين وخروجه عمن خلف من العشيرة والأقربين .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١٥ .

(٢) الإطاق كلمة تركية تعني غرفة او خيمة او مجموعة خيام او معسكر ، والمراد هنا معسكر السلطان المغولي .

ورد نص هذه الرسالة في كل من « كتاب السلوك » للمقريزي ج ١ ، ق٣ ، ٩٧٧ و « تاريخ مختصر الدول » لابن العبري ٢٨٩-٢٩٢ ، و « صبح الأعشى » للقلقشندي ج٨ ٦٥-٦٨ . وهناك اختلافات كبيرة بينها ولكن نصنا اكمل .

ولما فتح هذا الكتاب فاتح بهذا الخبر المعلم المعلم والحديث الذي صحح عند أهل الإسلام إسلامه ، وأصح الحديث ماروي عن مسلم ، وتوجهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه في أن يثبته على ذلك بالقول الثابت ، وأن ينبت حَب حُب هذا الدين في قلبه كما أنبت أحسن النبت من أخشن المنابت .

وحصل التأمل للفصل المبتدإ بذكره من حديث إخلاصه النية في أول العمر وعنفوان الصبا إلى الإقرار بالوحدانية ، ودخوله في الملة المحمدية بالقول والعمل والنية . فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام ، وألهمه شريف هذا الإلهام ، كحمدنا لله على أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المقال والمقام . وثبت أقدامنا في كل موقف اجتهاد وجهاد تتزلزل دونه الأقدام . وأما إفضاء النوبة في الملك وميراثه بعد والده وأخيه الكبير إليه ، وإفاضة جلابيب هذه المواقف العظيمة عليه ، وتوقله الأسيرة التي طهرها إيمانه وأظهرها سلطانه ، فلقد أورثها الله من اصطفاه من عباده وصدق المبشرات له من كرامة أولياء الله وعُبّاده .

وأما حكاية اجتماع الاخوان والأولاد والأمراء الكبار ومقدمي العساكر وزعماء البلاد في مجمع قوريلتاي الذي تنقدح فيه زبدة الآراء ، وأن كلمتهم قد اتفقت على ما سبقت به كلمة أخيه الكبير في إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب وأنه فكر فيما اجتمعت عليه آراؤهم وانتهت إليه أهواؤهم فوجده لما فى ضميره ، إذ قصده الصلاح ورأيه الإصلاح ، وأنه أطفأ تلك النائرة وسكن تلك الثائرة فهذا فعل الملك التقي المشفق من قومه على من بقي ، المفكر في العواقب بالرأي الثاقب . وإلا فلو تركوا وآراءهم حتى تحملهم العزة لكانت تكون هذه الكرة هي الكرة ، ولكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ،

ولم يوافق قول من ضل ، ولا فعل من عوى . وأما القول منه : إنـه لايجب المسارعة إلى المقارعة الا بعد ايضاح الحجة وتركيب الحجـة ، فبانتظامه في سلك الإيمان صارت حجتنا وحجته المتركبة على من غدت طواعيته عن سلوك هذه المحجة متنكبة ؛ فإن الله تعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا انما هو لنصرة هذه الملة ، وجهادنا واجتهادنا انما هو على الحقيقة لله . وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول فقد ذهبت الأحقاد وزالت الذحول . وبارتفاع المنافرة تحصل المضافرة ، فالإيمان كالبنيان يشد بعضه ببعض ، ومن أقام مناره فله أهل بأهـل في كل مكان ، وجيران بجيران في كل أرض . وأما ترتب هذا القواعد الجمة على أذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كال الدين عبد الرحمـن - أعاد الله من بركاته - فلم تُوَلّوني قبله كرامة كهذه الكرامة . والرجاء ببركته وبركة الصالحين أن تصبح كل دار الإسلام دار إقامة حتى تـتم شرائط الإيمان ويعود شمل الإسلام مجتمعاً كأحسن ماكان . ولاينكر لمن لكرامته ابتداء هذا التمكن في الوجود ، أن كل حق ببركته الى العناية يعود .

وأما انفاذ أقضى القضاة قطب الملة والدين والأتابك بهاء الدين الموثوق بنقلهما في ابلاغ رسائل هذه البلاغة فقد حضرا وأعادا كل قول حسن من حوالي[1] أحواله وخطرات خاطره ومنتظرات ناظره ، ومن كل مايشكر ويحمد ، ويعنعن حديثهما فيه عن مسند أحمد .

وأما الإشارة الى النفوس فإن كانت لها تطلع الى إقامة دليـــل تستحكم بسببه دواعي الود الجميل ، فلينُظر الى ما ظهـر من مـآثره في

(١) حوالي : جمع حالية اي نفائس احواله .

موارد الأمر ومصادره ، ومن العدل والإحسان بالقلب واللسان ، والتقدم بإصلاح الأوقاف والمساجد والربط وتسبيل السبيل للحج الى غير ذلك فهذه صفات من يريد الملكه الدوام، فلما ملك عدل ، ولم يمل إلى لؤم من عدا ولا لوم من عذل . على أنها وان كانت من الأفعال الحسنة والمثوبات التي تستنطق بالدعاء الألسنة ، فهي واجبات تؤدى وقربات بمثلها يُبتَدأُ ، وهو أكبر من أنه بإجراء أجر غيره يفتخر أو عليه يقتصر أو له يدخر ، بل تفخر الملوك الأكابر برد ممالك على ملوكها ، ونظمها على ماكانت عليه من سلوكها . وقد كان والده فعل شيئاً مع الملوك السلجوقية وغيرهم ، وماكان أحد منهم يدينه بدين ولادخل معه في دين ، وأقرهم في ملكهم وما زحزحهم عن ملكهم . ويجب عليه ألا يرى حقاً مغتصباً ويأبى الا رده ، ولا باعاً ممتداً بالظلم ويرضى الا صده ، حتى إن أسباب ملكه تقوى وأيامه تتزين بأفعال التقوى .

وأما تحريه على العساكر والقراغولات والشحاني بالأطراف التعرض الى أحد بالأذى وإصفاء موارد الواردين والصادرين من شوائب القذى ، فمن حين بلغنا تقدمه بمثل ذلك تقدمنا أيضاً بمثله الى سائر نوابنا بالرحبة والبيرة وعينتاب ، والى مقدمي العساكر بأطراف تلك الممالك . واذا اتحد الإيمان وانعقدت الأيمان تحتم هذا الإحكام ، وترتب عليه جميع الأحكام.

وأما الجاسوس الفقير الذي أمسك وأطلق ، وان بسبب من يتزيا من الجواسيس بزي الفقراء قتل جماعة من الفقراء الصلحاء رجماً بالظن . فهذا باب من تلقاء ذلك الجانب كان فتحه ، وزند من ذلك الطرف كان قدحه ، وكم من متزيٍّ بفقير من ذلك الجانب سيروه ، والى الاطلاع على الأمور سوروه ، وأظفر الله منهم بجماعة كبيرة فرفع عنهم السيف ، ولم يكشف ما غطوه بخرقة الفقر بلمَ ولاكيف . وأمـا الإشارة الى

أن باتفاق الكلمة تنجلي ظلم الاختلاف وتدر بها من الخيرات الأخلاف ويكون بها صلاح العالم وانتظام شمل بني آدم ، فلا راد لمن فتح أبواب الاتحاد وجنح الى السلم وما حاد وما حاد . ومن ثنى عنانه عن المكافحة كان كمن مد يد المصالحة للمصافحة . والصلح ، وان كان سيد الأحكام ، فلابد من أمور تبنى عليه قواعده ، ويعلم من مدلوله فوائده . فالأمور المسطورة في كتابه هي كليات لازمة يعمر بها كل مغنى ومعلم ، ان تهيأ صلح أو لم . وثم أمور لابد أن تحكم ، وفي سلكها عقود العهود تنظم ، قد تحملها بلسان المشافهة التي إذا أوردت أقبلت ، ان شاء الله ، عليها النفوس ، وأحرزتها صدور الرسائل كأحسن ماتحرزه سطور الطروس . وأما الإشارة الى الاستشهاد بقوله تعالى : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً [1] ، فما على هذا النسق من الود ينسج ولا على هذا السبيل ينهج ، بل لفضل المتقدم في الدين ونصره عهوداً ترعى وافادات تستدعى . وما برح الفضل للأولوية وان تناهى العدد للواحد الأول . ولو تأمل مورد هذه الآية في غير مكانها لتروى وتأمل .

وعندما انتهينا الى جواب مالعله يجب عنه الجواب من فصول الكتاب سمعنا المشافهة التي على لسان أقضى القضاة قطب الدين فكان منها ما يناسب ما في هذا الكتاب : من دخوله في الدين وانتظام عقده بسلك المؤمنين وما بسطه من معدلة واحسان ، مشكورة بلسان كل انسان . فالمنة لله عليه في ذلك فلا يشبها منه بامتنان ، وقد أنزل الله على رسوله في حق من امتن بإسلامه : قل لاتمنوا عليّ إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان [2] .

---

(1) سورة الإسراء : الآية ١٥ .

(2) سورة الحجرات : الآية ١٧ .

ومن المشافهة أن الله قد أعطاه من العطاء ما أغناه عن امتـداد الطرف إلى ما في يد غيره من أرض وماء ، فـإن حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فهو حاصل . فالجواب أن ثم أموراً متى حصلت عليها الموافقة ، ابتنى على ذلك حكم المصاحبة والمصادقة ، ورأى الله والناس كيف يكون تصافينا وإذلال عدونا وإعزاز مصافينا . فـكم من صاحب وُجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة . ما تم أمر هذا الدين واستحكم في صدر الإسلام إلا بمضافرة الصحابة . فـإن كانت له رغبة مصروفة إلى الاتحاد وحسن الوداد وجميل الاعتقاد وكبت الأعداء والأضداد ، والاستناد إلى من يشتد الأمر بـه عند الاستناد ، فالرأي إليه في ذلك .

ومن المشافهة أنه إن كانت الرغبة ممتدة الأمل إلى ما في يده من أرض وماء فلا حاجة إلى إنفاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود ، فالجواب عن ذلك أنه إذا كف كف العدوان ، وترك المسلمين وما لهم من ممالك سكنت الدهماء وحقنت الدماء ، ومـا أحقه بالا ينهى عنْ خلقٍ ويأتي مثله ، ولا يأمر ببر وينسى فعله . وقنغر طاي(۱) بالروم ، وهي بلاد في أيديكم وخراجها يجبى إليكم ، وقد سفك فيها وفتك وسبي وهتك وباع الأحرار وأبى إلا التمادي على الإضرار والإصرار .

ومن المشافهة أنـه ان حصل التصميم على ألا تبطل هـذه الغارات ولا تفتر عن هذه الإثارات فيعين مكاناً يكون فيه اللقاء ويعطي الله النصر لمن يشاء . فالجواب عن ذلك أن الأماكن التي اتفق فيها ملتقى الجمعين مرة ومرة ومرة قـد عاف مواردها من سلم من أولئك القوم

---

(۱) Kongortaï كونغورادای .

وخاف أن يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم . فوقت اللقاء علمه عند الله فلا يقدر . وما النصر إلا من عند الله لمن أقدر لا لمن قدّر ولا نحن ممن ينتظر فلتة ، ولا ممن له إلى غير ذلك لفتة ، وما أمر ساعة النصر إلا كالساعة لا تأتي إلا بغتة . والله الموفق لما فيه صلاح هذه الأمة والقادر على إتمام كل خير ونعمة [1] .

تشريف الأيام والعصور لابن عبد الظاهر ٦ - ١٦

٣٢٢ - رسالة ثانية أرسلها السلطان أحمد المغولي إلى السلطان منصور قلاوون المملوكي مع وفد برئاسة الشيخ عبد الرحمن ولكن الرسالة لم تصل إلا وكان السلطان أحمد قد قتل وقد وصل الوفد وقدم الرسالة وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم . بقوة الله تعالى بإقبال :

قا آن فرمان أحمد . إلى سلطان مصر . أما بعد : فالذي يجب على العاقل بذل الجهد وترك الإهمال والتواني واستنفاذ الوسع في اقتناء الذكر الباقي الذي هو العمر الثاني . وقد انحصر الثناء الجميل والثواب الجزيل في التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، واستعمال العدل والنصفة المندوب إليها . وأي عدل ونصفة أعظم قدراً وأعلى ذكراً في سائر الأصقاع والممالك من إنقاذ الأنفس بجُرَيْشَة الذقن من المهالك

---

(١) ورد نص هذين الخطابين في عدد من المصادر « كصبح الأعشى » للقلقشندي جـ ٧ ٢٣٧-٢٤٢ و جـ ٨ ، ٦٥-٦٨ و «كتاب السلوك» للمقريزي جـ١ ، ق ٣ ، ٩٧٧-٩٨٤ و « تاريخ مختصر الدول » لابن العبري ٢٨٩-٢٩٦ . وهناك خلافات يسيرة بين نصوصها لاتمس المعنى ، إلا نص ابن العبري ففيه خلافات كبيرة وكثيرة .

وإطفاء نائرة أكباد حرى وقلوب جرحى . ومن أحياها فكأنما أحياء
ولما لم يكن لنا بفضل الله العظيم وإحسانه الجسيم افتقار ولا بغية ، ولم
يبق في ضميرنا إرادة ولا أمنية ، سوى رفاهية العالم وطمأنينة بني آدم
خصوصاً الطائفة الإسلامية وأهل الملة الحنيفية ، انفذنا الألجية إلى
اخواننا نوقاي أقا وتودامنكو وغيرهما ، ونبهناهم على أن الملك العقيم
الذي ادخره لنا جدنا جنكيز خان وآباؤنا الكرام بعد الصبر على
المشقة في تحصيله والمقاساة ، وتحمل أعباء الشدائد والمعاناة ، بمجرد
النزاع والخصام وخلاف الوفاق واختلاف الكلام ، قد أشرف على
شحوب بهجته وبهائه . وتكدير رونق صفاء مائه . والآن آن أن
نستبدل وحشة النزاع بأنس الصلح ، ونتعوض عن غيهب ليلة النفار
والنقار تباشير الصبح ، وتغمد السيوف البواتر التي استلت من الأغماد،
ويطفى أثر الهرج والمرج ، ونعرض عن الأغراض والأحقاد ، ويتفق
الجميع على القيام بواجب كوج قان وخدمته . والالتزام بواجب طاعته
والاشتمال على ما ينوط بمصلحته ، وحيث تأملوا ذلك بعين البصيرة ،
ورأى من حنكة دوران الفلك والتجربة تبين لهم أن هذا الرأي محض
شور لا يشوبه غش ولا مداهنة ، وخالص تنبيه لا يغادره سوى زبدة
المناصحة فقالوا : إن الذي وقع من الخلاف كان بين من قضى نحبه
من الآباء والأسلاف ولم تجر بيننا مخاشنة ولا وقع خلف ولا مشاحنة
فعدنا إلى ما كان عليه آباؤنا القدماء الكرام من الاتفاق والائتلاف وحفظ
العهد والذمام . والتزمنا ألا ينحل عقد هذا النظام . والله الموفق
للرشاد والهادي إلى السداد . ولما يفرغ البال من إصلاح ذات البين
واستحكمت مرائر الائتلاف بين الجهتين ، أنفذنا الأيلجية [1] بعد النية

---

(١) الأيلجية كلمة أعجمية معناها السفراء .

الخالصة لله وللرسول تسكيناً للفتن الثائرة وإطفاء للهب تلك النائرة ، وحقناً لدماء المسلمين وسداً لثلمة الدين ، فكانت خلاصة جوابه وزبدة خطابه عند وقوفه على مـا كتب به إليه أنـه : لو أنفذ أبونا شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن لكنت أسكن إلى أمانته وأخلد إلى ديانته ، وأسمع منه مـا لم يحتمل إيداعه الكتب ، وأشافهه بما عنـدي من المصالح وأخاطبه بمـا ينطوي عليه ضميري للمسلمين مـن النصائح . هذا وغير خاف أنه يعز علينا بعاده ويوحشنا بينه وفراقه وربمـا اتصل بـه ما نستفيده من حسن معاشرته وجميل مصاحبته ، وحيث كان التماسه موجباً لإشاعة الخير العام وإذاعة شعار الإسلام ، رضينا بتوجيه إلى جهته ، إسعافاً لمقترحه ، وجعلناه في اتخـاذ العهد واليمين بدلاً عن شمالنا واليمين . ولم يكن بين كلامنا وكلامه بون ، إذ هو لنا في أمور الدين نعم العون ، والتزمنا بكل ما عساه يسنده إلينا وبما يرى ، ثقة بأنه الناصح الذي لا ينطق عن الهوى . وربمـا شرذمة من الجهال (من الجهتين) من أهل الشقاق والنفاق لا تجتمع كلمتهم على الوفاق ، تنافي طباعهم الصلح والاتفاق ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ، لاختلاف ملتهم ، وطمعاً في إدراك بغيتهم . فالواجب ألا تسمع أقوالهـم وتترك أفعالهم . أولئك الذين حبطت أعمالهـم . ومن المعلوم أن كل أمر يمكن اعتماده على الوجـه الجميل بحيث تنحسم فيه مواد القـال والقيل ، لا ينبغي أن تكون الحال فيه بالضد ، خصوصاً في الخطب الإد والأمر الجد .

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هـدانا الله .

وكتب في أوائل ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة بمقام تبريز .

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

تشريف الأنام والعصور لابن عبد الظاهر ٦٩ - ٧١

٢٢٤ ـ رسالة قلاوون إلى منكودمر أحد سلاطين المغــول من إنشاء فتح الدين بن عبد الظاهر :

أرسل السلطان قلاوون رسولين إلى السلطان منكودمر وهمــا شمس الدين سنقر وسيف الدين بلبان الخاص تركي ومعهما رسالة فيما يلي نصها :

أعــز الله نصرة الجناب الكريم العــالي السلطاني الملكي المسعودي العالمي العادلي الذخري المظفري المنصوري الغياثي ركن الإسلام والمسلمين. ...[1] شرف الملوك والسلاطين ، وأعلى قدره وقدرته وحقـق ظفره ونصرته وكبت أعداءه وحسدته ، وحتم على الأيام أن تنجز من التأييد عدته ، ولا برحت الأقدار تمـده بكل عون ، وتكلؤه بكل صون ، وتخصه من حسن العناية بمــا يستخدم لإسعافه الكون ، أصدرناها عـن سلام يتضمخ نفسها بطيبه ، وحمـد تتشنف الأسماع بترقيله وترتيبه . وولاء يجمع بين الحسنيين في نسبه ونسيبه ، واستطلاع لأخباره التي هي للعيون قرة وللقـلوب مسرة ، وتشكر من آثاره التي لها في قلوب الأولياء أثر جميل ، وفي قلوب الأعداء أثره ، وتفهمه أنه لما جهزنا الأميرين شمس الدين سنقر الفتمي وسيف الدين بلبان الخاص تركي رسلاً إلى خدمة القان الأعظم منكودمر ـ زيدت عظمته ، وكان لهم على جنابه مرور وبخدمة اقترابه سرور حملناهم من المشافهة والسلام مـا يعيدانه عليه ، وسيرنا على يدهما من الهدية ما يعرض لديه حتى لا يكون السلام خالياً من إتحاف المسلم ، ولا الحمد فارغاً من حلاوة منطق المشافه والمتكلم . والله لا يخلي من بقايه ويزيد من علايه وارتقايه .

تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ـ ١٧٩

---

(١) بياض بالأصل .

٢٢٥ - رسالة جوابية من السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون إلى ملك المغول كيختوا :

أرسل ملك المغول كيختوا إلى الملك الأشرف خليل رسالة يطلب فيها منه أن يعيد له حلب لأنها مما فتحه أبوه هولاكو وهو يريد الإقامة فيها ، وإن رفض السلطان ذلك أخذ منه الشام كله ، فأجابه السلطان بما يلي :

قد وافق القان ما كان في نفسي ، فإني كنت على عزم من أخذ بغداد وقتل رجاله ، فـــإني أرجو أن أردها دار إسلام كما كانت ، وسينظر أينا يسبق إلى بلاد صاحبه .

كتاب السلوك للمقريزي جـ ١ ، ق ٣ - ٧٨٦

ب - القان قازان. أو غازان كما يسمى أحيانا

٦٩٤ - ٧٠٣ هـ / ١٢٩٤ - ١٣٠٣ م

٢٢٦ - رسالة القـان قازان إلى السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٨ هـ وذلك قبل هجومه على بلاد الشام :

بسم الله الرحمن الرحيم . ونهي بعد السلام إليه أن الله عز وجل جعلنا وإياكم أهل ملة واحدة وشرفنا بـدين الإسلام وأيدنا ، وندبنـا لإقامة مناره وسددنا ، وكان بيننا وبينكم ما كان بقضاء الله وقدره ، وما كان ذلك إلا بما كسبت أيديكم ، وما الله بظلام للعبيد . وسبب ذلك أن بعض عساكركم أغاروا على ماردين وبلادها في شهر رمضان المعظم قدره ، الذي لم تزل الأمم يعظمونه في سائر الأقطار ، وفيـه تغل الشياطين ، وتغلق أبواب النيران ، فطرقوا البلاد على حين غفلة من

أهلها ، وقتلوا وسبوا وفسقوا وهتكوا محارم الله بسرعة من غير مهلة وأكلوا الحرام وارتكبوا الآثام وفعلوا ما لم تفعله عبــاد الأصنام . فأتونا أهــل ماردين صارخين مسارعين ، ملهوفين مستغيثين بالأطفال والحريم ، وقد استولى عليهم الشقاء بعد النعيم ؛ فلاذوا بجنابنا وتعلقوا بأسبابنا ، ووقفوا موقف المستجير الخائف ببابنا ، فهزتنا نخوة الكرام ، وحركتنا حمية الإسلام ، فركبنا على الفور بمن كان معنا . ولم يسعنا بعد هذا المقام ، ودخلنا البلاد وقدمنا النية ، وعاهدنا الله تعالى على ما يرضيه عند بلوغ الأمنية . وعلمنا أن الله تعـالى لا يرضى لعباده الكفر بأن يسعوا في الأرض فساداً ، والله لا يحب الفساد ، والله يغضب لهتك الحريم وسبي الأولاد . فما كان إلا أن لقيناكم بنية صادقة وقلوب على الحميـة للدين موافقة ، فمزقناكم كل ممزق . والذي ساقنـا إليكم هو الذي نصرنا عليكم ، وما كان مثلكم إلا كمثل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون [1] . فوليتم الأدبار ، واعتصمتم من سيوفنا بالفرار ، فعفونا عنكم بعد اقتدار ، ورفعنا عنكم حكم السيف البتار ، وتقدمنا إلى جيوشنا ألا يسعوا في الأرض كما سعيتم ، وأن ينشروا من العفو والعفاف ما طويتم . ولو قدرتم مـــا عفوتم ولا عففتم ، ولم نقلدكم منّةً بذلك ، بل حكم الإسلام في قتال البغاة كذلك وكان جميع ما جرى في سالف القدم ، ومن قبل كونه جرى بـه في اللوح القلم . ثم لمـا رأينا الرعية تضرروا بمقامنا في الشام ، لمشاركتنا لهم في الشراب والطعام ، ومـا حصل في قلوب الرعية من الرعب عند

---

(١) سورة النحل : الآية ١١٢ لم يكمل المؤلف الآية وإنما وصل بها إلى عند «مطمئنة» فأكملناها نحن الى آخرها .

مشاهدة جيوشنا التي هي كطبقات السحب ، فأردنا أن نسكن تخوفهم بعودتنا من أرضهم بالنصر والتأييد والعلو والمزيد ، فتركنا عندهم بعض جيوشنا بحيث تتونس بهم وتعود في أمرها إليهم ، ويحرسونهم من تعدي بعضهم على بعض ، بحيث أنكم ضاقت بكم الأرض إلى أن يستقر جأشكم وتبصروا رشدكم وتسيروا إلى الشام من يحفظه من أعدائكم المتقدمين وأكرادكم المتمردين ، وتقدمنا إلى مقدمي طوامين[1] جيوشنا انهم متى سمعوا بقدوم أحد منكم إلى الشام أن يعودوا إلينا بسلام . فعادوا إلينا بالنصر المبين . والحمد لله رب العالمين .

والآن فإنا وإياكم لم نزل على كلمة الإسلام مجتمعين ، وما بيننا ما يفرق كلمتنا ، إلا ما كان من فعلكم بأهل ماردين . وقد أخذنا منكم القصاص ، وهو جزاء كل عاص . فنرجع الآن في إصلاح الرعايا ونجتهد نحن وإياكم على العدل في سائر القضايا ، فقد انضرت بيننا وبينكم حال البلاد وسكانها ، ومنعها الخوف من القرار في أوطانها ، وتعذر سفر التجار وتوقف حال المعايش لانقطاع البضائع والأسفار . ونحن نعلم أننا نسأل عن ذلك ونحاسب عليه . وإن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وان جميع ما كان وما يكون في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . وأنت تعلم ، أيها الملك الجليل ، أنني وأنت مطالبون بالحقير والجليل ، وأننا مسؤولون عما جناه أقل من ولينا ، وأن مصيرنا إلى الله ، وأنا معتقدون الإسلام قولاً وعملاً ونية ، عاملون بفروضه في كل وصية ، وقد حملنا قاضي القضاة علامة الوقت حجة الإسلام بقية السلف كمال الدين

(١) طوامين جمع طومان او تومان وهي الفرقة العسكرية المؤلفة من عشرة آلاف جندي.

موسى بن محمد أبا عبد الله ، أعزه الله تعالى ، مشافهة يعيدها على سمع الملك ، والعمدة عليهـا . فإذا عاد من الملك الجواب فليسير لنا هدية الديار المصرية لنعلم بإرسالها أن قد حصل منكم في إجابتنا للصلح صدق النية ، ونهدي إليكم من بلادنا ما يليق أن نهديه إليكم . والسلام الطيب منا عليكم ، إن شاء الله تعالى [1] .

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي جـ ٨ ١٣٦ – ١٣٩

٢٢٧ ـ رسالة السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون الجوابية إلى قازان (اوغازان) سنة ٦٩٨ هـ :

بسم الله الرحمن الرحيم . علمنا ما أشار الملك إليه ، وعول في قوله وفعله عليه . فأما قول الملك : فقد جمعتنا وإياكم كلمة الإسلام ، وانه لم يطرق بلادنا ولا قصدها إلا لما سبق به القضاء المحتوم ، فهذا الأمر غير مجهول بل هـو عندنا معلوم ، وان السبب في ذلك غارة بعض جيوشنا على ماردين ، وانهم قتلوا وسبوا وهتكوا الحريم وفعلوا فعل من لا له دين . فالملك يعلم أن غارتنا ما برحت في بلادكم مستمره من عهد آبائكم وأجدادكم ، وأن من فعل ما فُعِل من الفساد لم يكن برأينـا ولا من أمرائنا والأجناد ، بعل من الأطراف الطامعة ممـن لا يؤبه له ، ولا يعول في فعل ولا قـول عليه . وان معظم جيشنا كان في تلك الغارة ، إذا لم يجدوا ما يشترونه للقوت صاموا لئلا يأكلوا ما فيه شبهة أو حرام ، وانهم أكثر ليلهم سجد ونهارهم صيام .

---

[1] ورد نص هذه الرسالة الشهيرة في عدد من المصادر كالقلقشندي في «صبح الاعشى» جـ ٨ ، ٦٩ – ٧١ والدواداري في « كنز الدرر » ٥٣–٥٦ والمقريزي في كتاب «السلوك» جـ ١ ، ق ٣ ، ١٠١٨–١٠٢٣ ، وهي تختلف عن النص الذي أثبتناه أعلاه اختلافاً كبيراً.

وأما قول الملك ابن الملك الذي هو من أعظم القان ، فيقول قولاً يقع عليه الرد من قريب ، ويزعم أن جميع ما هو عليه من علمنا ساعة واحدة يغيب ، ولا يعلم أنه لو تقلب في مضجعه من جانب إلى جانب أو خرج من منزله راجلاً أو راكباً ، كان عندنا علم من ذلك في الوقت القريب ، ويتحقق أن أقرب بطائنه إليه ، هو العين لنا عليه ، وإن كثر ذلك لديه . ونحن تحققنا أن الملك بقي عامين يجمع الجموع وينتصر بالتابع والمتبوع ، وحشد وجمع من كل بلد واعتضد بالنصارى والكرج والأرمن ، واستنجد بكل من ركب فرساً من فصيح وألكن، وطلب من المسوحات خيولاً وركاب ، وكثر سواداً وعدد أطلاب . ثم أنه لما رأى أنه ليس له بجيشنا قبل في المجال وعاد إلى قول الزور والمحال ، والخديعة والاحتيال ، وتظاهر بدين الإسلام ، واشتهر به في الخاص والعام ، والباطن بخلاف ذلك ، حتى ظن جيوشنا وأبطالنا أن الأمر كذلك . فلما التقينا معه كان معظم جيشنا يمتنع من قتاله ويبعد عن نزاله ويقول : لا يجوز قتال المسلمين ، ولا يحل قتل من يتظاهر بهذا الدين ، فلهذا حصل منهم الفشل ، وبتأخرهم عن قتالكم حصل ما حصل . وأنت تعلم أن الدائرة كانت عليك ، وليس يرى من أصحابك إلا من هو نادم أو باكي ، أو فاقد عزيز عنده أو شاكي . والحرب سجال يوم لك ويوم عليك . وليس ذلك مما تعاب به الجيوش ولا تقهر ، وهذا بقضاء الله وقدره المقدر .

وأما قول الملك أنه لما التقى بجيشنا مزقهم كل ممزق ، فمثل هذا القول ما كان يليق بالملك أن يقوله أو يتكلم به ، وهو يعلم ، وإن كان ما رأى ، بل يسأل كبراء دولته وأمراء عساكره عن وقائع جيوشنا ومراتع سيوفنا من رقاب آبائه وأجداده . وهي إلى الآن

تقطر من دمائهم . وان كنت نصرت مرة فقد كسرت آباؤك مراراً . وإن كان جيشك قد داس أرضنا مرة فبلادكم لغارتنا مقـام ولجيوشنا قرار . وكما تدين تدان .

وأما قول الملك : انه ومن معه اعتقدوا الإسلام قولاً وفعلا وعملا ونية ، فهذا الذي فعلته ما فعله من هو متوجه إلى هـــذه البنية ، أعني الكعبة المضية . فان الذي جـرى بظاهر دمشق وجبل الصالحية ليس يخفي عنك ولامكتوم . وليس هذا هو فعل المسلمين ولا من هو متمسك بهذا الدين . فأين وكيف ومـــا الحجة ؟ وحرم البيت المقدس تشرب فيه الخور ، وتهتك الستور ، وتفتض البكور ، ويقتل فيه المجاورون ويستأسر خطباؤه والمـــؤذنون ، ثم على رأس خليل الرحمن تعلق الصلبان وتهتك النسوان ، ويدخل فيه الكافر سكران ، فإن كان هذا عن علمك ورضاك ، فواخيبتك في دنياك وأخراك ، وياويلك في مبدئك ومعادك ، وعـــن قريب يؤذن بخراب عمرك وبلادك وهلاك جيشك وأجنادك ، وإن كنت لم تعلم بذلك فقد أعلمناك ، فاستدرك ما فات فليس مطـلوباً به سواك ، وإن كنت كما زعمت أنك على دين الإسلام ، وأنت في قولك صادق في الكلام ، وفي عقدك صحيح النظام فاقتل الطوامين الذين فعلوا هذه الفعال وأوقع بهم عظيم النكال ، ليُعلم أنك على بيضاء الحجة ، وكان قولـــك وفعلك أبلغ حجة . ولما وصلت جيوشنا إلى القاهرة المحروسة وتحققوا أنكم تظاهرتم بكلمة الإخلاص ، وخدعتم باليمين والأيمان ، وانتصرتم على قتالهم بعبدة الصلبان ، اجتمعوا وتأهبوا وخرجوا بعزمات محمدية وقلوب بدرية وهمم عليه ، عند الله مرضية ، وحدوا في البلاد ، ليتشفوا منكم غليل الصدور والأكباد ، فما وسع جيشكم إلا الفرار ، وما كان لهم على اللقاء صبر ولا قرار . فاندفعت عساكرنا المنصورة مثل أمواج البحر الزخار

إلى الشام يقصدون دخول بلادكم ليظفروا بنيل المرام فخشينا على رعيتكم تهلك ، وأنتم تهربون ولاتجدون إلى النجاة مسلك فأمرناهم بالمقام ولزوم الأهبة والاهتام ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

وأما ما تحمله قاضي القضاة من المشافهة فإنا سمعناه ووعيناه وتحققنا تضمنته مشافهة . ونحن نعلم علمه ونسكه ودينه وفضله المشهور وزهده في دار الغرور . ولكن قاضي القضاة غريب عنكم بعيد منكم ، لم يطلع على بواطن قضاياكم وأموركم ولايكاد يظهر له خفي مستوركم . فإن كنتم تريدون الصلح والإصلاح ، وبواطنكم كظواهركم متتابعة في الصلاح . وأنت أيها الملك طالب الصلح على التحقيق ، وليس في قولك مين ولا يشوبه تنميق ، فنحن نقلدك سيف البغي ومن سل سيف البغي قتل به ولايحيق المكر السيء إلا بأهله ، فيرسل إلينا من خـــواص دولتك رجل يكون منكم ممن إذا قطـــع بأمر وقفتم عنده ، او فصل حكماً انتهيتم إليه ، أو جزم امراً عوالتم عليه ، ويكون له في أول دولتكم حكم وتمكين ، وهو فيما يعول عليه ثقة أمين ، لنتكلم معه فيما فيه الصلاح لذات البين ، وإن لم يكن كذلك عاد بخفي حنين .

وأما ما طلبه الملك من الهدية من الديار المصرية فليس نبخل عليه ، ومقداره عندنا أجل مقدار ، وجميع مايهدى إليه دون قدره ، وإنما الواجب أن يُهدي أولاً من استهدى ، لتقابل هـــديته بأضعافها ، ونتحقق صدق نيته وإخلاص سريرته ، ونفعل ما يكون فيه رضا الله عز وجل ورضا رسوله في الدنيا والآخرة ، لعل صفقتنا رابحة في معادنا غير خاسرة ، والله تعالى الموفق للصواب [1] . انتهى . النجوم الزاهرة لابن تغري بردي جـ٨ ١٤٢-١٤٦

---

(١) ورد نص هذه الرسالة الجوابية الشهيرة في عدد من المصادر منها « صبح الأعشى » للقلقشندي جـ ٧ ، ٢٤٣-٢٥٠ و « السلوك » للمقريزي جـ ١ ، ق ٣ ، ١٠١٨-١٠٢٣ و « كنز الدرر » للدواداري ٦٦-٧٠ وهي تختلف عن النص المثبت أعلاه اختلافاً كبيراً . ولما كان لهاتين الرسالتين اهمية خاصة فقد أثبتناهما كما وردتا في القلقشندي ليطلع القارىء العزيز على النصين معاً .

٢٢٨ ــ نص ثان لرسالة غازان إلى السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون :

بسم الله الرحمن الرحيم . بقوة الله تعالى وميامين الملة المحمديه :
فرمان السلطان محمود غازان :

ليعلم السلطان الملك الناصر ، أنه في العام الماضي ، بعض عساكرهم المفسدة دخلوا أطراف بلادنا وأفسدوا فيها لعناد الله وعنادنا ، كاردين ونواحيها ، وجاهروا الله بالمعاصي فيمن ظفروا به من أهليها ، وأقدموا على أمور بديعة ، وارتكبوا آثاماً شنيعة ، من محاربة الله وخرق ناموس الشريعة . فأنفنا من تهجمهم ، وغرنا من تقحمهم ، وأخذتنا الحمية الإسلامية فجذبتنا الى دخول بلادهم ، ومقاتلتهم على فسادهم . فركبنا بمن كان لدينا من العساكر ، وتوجهنا بمن اتفق منهم أنه حاضر . وقبل وقوع الفعل منا ، واشتهار الفتك عنا ، سلكنا سنن سيد المرسلين ، واقتفينا آثار المتقدمين ، واقتدينا بقول الله : لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل [١] . وانفذنا صحبة يعقوب السكرجي جماعة من القضاة والأئمة الثقات ، وقلنا : هذا نذير من النذر الأولى . ازفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة، فقابلتم ذلك بالاصرار ، وحكتم عليكم وعلى المسلمين بالاضرار ، وخالفتم سنن الملوك في حسن السلوك . وصبرنا على تماديكم في غيكم ، وخلودكم إلى بغيكم ، إلى أن نصرنا الله ، وأراكم في أنفسكم قضاه ، أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله . وظننا أنهم حيث تحققوا كنه الحال ، وآل بهم الأمر إلى ما آل ، أنهم تداركوا الفارط من أمرهم،

---

(١) سورة النساء : الآية ١٦٥ .

ورتقوا ما فتقوا بغدرهم ، ووجه إلينا وجه عذرهم ، فإنهم ربما سيرو إلينا حال دخولهم إلى الديار المصرية رسلاً لإصلاح تلك القضية ، فبقينا بدمشق غير مشخصين ، وتثبطنا تثبط المتمكنين ، فصدهم عن السعي في صلاح حالهم التواني ، وعلقوا نفوسهم عن اليقين بالأماني . ثم بلغنا بعد عودنا إلى بلادنا أنهم ألقوا في قلوب العساكر والعوام ، وراموا جبر ما أوهنوا من الإسلام : أنهم فيما بعد يلقوننا على حلب والفراه ، وان عزمهم مصر على ذلك لا سواه . فجمعنا العساكر وتوجهنا للقاهم ، ووصلنا الفرات مرتقبين ثبوت دعواهم ، وقلنا لعل وعساهم . فما لمع لهم بارق ولا ذر شارق . فقدمنا إلى أطراف حلب ، وعجبنا من تبطيهم غاية العجب . وفكرنا في أنه متى تقدمنا بعساكرنا الباهرة وجموعنا العظيمة القاهرة ، ربما أخرب البلاد مرورها ، وباقامتهم فيها فسدت أمورها ، وعم الضرر العباد ، والخراب البلاد ، فعدنا بقيا عليها ، ونظرة لطف من الله إليها ، وها نحن الآن مهتمون بجمع العساكر المنصورة ، ومشحذون غرار عزائمنا المشهورة ، ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحصار ، وعازمون بعد الإنذار ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً . وقد سيرنا حاملي هذا الكتاب الأمير الكبير ناصر الدين علي خواجا ، والإمام العالم ملك القضاة جمال الدين موسى بن يوسف ، وقد حملناهما كلاماً شافهناهما به ، فلتثقوا بما تقدمنا به إليهما فإنهما من الأعيان ، المعتمد عليهما في الديوان ، كما قال الله تعالى : فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين[1] . فلتعدوا لنا الهدايا والتحف ، فما بعد الإنذار من عاذر . وإن لم تتداركوا الأرض

(١) سورة الانعام ، الآية ١٤٩ .

قدماء المسلمين وأموالهم مطلوله بتدبيرهم ومطلوبة عنـد الله في طـول تقصيرهم ، فليمعن السلطان لرعيته النظر في أمره . فقد قال ﷺ : من ولاه الله أمراً من أمور هذه الأمة فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم ، احتجب دون حاجته وخلته وفقره . وقـد أعذر من أنـذر وأنصف من حذر . والسلام على من اتبع الهدى . في العشر الأوسط مـن شهر رمضان سنة سبعمائة بجبال الأكراد . والحمـد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى وآله وصحبته وعترته الطاهرين .

صبح الأعشى للقلقشندي حـ ٨ ٦٩ – ٧١

٢٢٩ – جواب السلطان الملك الناصر محمد على الرسالة السابقة للسلطان غازان :

بسم الله الرحمن الرحيم . بقوة الله تعالى وميامين الملة المحمدية .

أما بعد حمداً لله الذي جعلنا من السابقين الأولين الهادين المهتدين ، التابعين لسنة سيد المرسلين ، بإحسان إلى يوم الدين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين فضل الله من سبق منهم إلى الإيمان في كتابه المكنون ، فقـال سبحانه وتعـالى : والسابقون السابقون أولئك المقربون (١) .

باقبال دولة السلطـان الملك

الناصر : كلام محمد بن قلاوون

فليعلم السلطان المعظم محمود غازان أن كتابه ورد ، فقابلناه بمـا يليق بمثلنا لمثله من الإكرام ، ورعينا له حـق القصد فتلقيناه منا بسلام ، وتأملناه تأمل المتفهم لدقائقه ، المستكشف عـن حقائقه ،

(١) سورة الواقعة : الآية ١٠ .

فألفيناه قد تضمن مؤاخذات بأمور هم بالمؤاخذة عليها أحرى ، معتذراً في التعدي بما جعله ذنوباً لبعض طالب بها ، والله تعالى يقول : ولا تزر وازرة وزر أخرى (١) .

أما حديث من أغار على ماردين من رجالة بلادنا المتطرفة وما نسبوه إليهم من الأمور البديعة والآثام الشنيعة ، وقولهم انهم أنفوا من تهجمهم وغاروا من تقحمهم ، واقتضت الحمية ركوبهم في مقابلة ذلك ، فقد تلمحنا هذه الصورة التي أقاموها عذراً في العدوان ، وجعلوها سبباً إلى ما ارتكبوه من طغيان . والجواب عن ذلك أن الغارات من الطرفين ، ولم يحصل من المهادنة والموادعة ما يكف يدنا الممتدة ، ولا يفتر هممها المستمدة . وقد كان آباؤكم وأجدادكم على ما علمتم من الكفر والشقاق ، وعدم المصافاة للاسلام والوفاق . ولم يزل ملك ماردين ورعيته منفذين ما يصدر من الأذى للبلاد والعباد عنهم متولين كبر نكرهم . والله تعالى يقول : ومن يتولهم منكم فإنه منهم (٢) . وحيث جعلتم هذا ذنباً للحمية الجاهلية وحاملاً على الانتصار الذي زعمتم أن همتكم به ملية ، فقد كان هذا القصد الذي ادعيتموه يتم بالانتقام من أهل تلك الأطراف التي أوجبت ذلك فعلها والاقتصار على أخذ الثأر ممن ثار ، اتباعاً لقوله تعالى : وجزاء سيئة سيئة مثلها (٣) . لا أن تقصدوا الإسلام بالجموع الملفقة على اختلاف الأديان ، وتطئوا البقاع الطاهرة بعبدة الصلبان ، وتنتهكوا حرمة البيت المقدس الذي هو ثاني بيت الله الحرام ، وشقيق مسجد

---

(١) سورة الانعام : الآية ١٦٤ .

(٢) سورة المائدة الآية ٥١ .

(٣) سورة الشورى الآية ٤٠ .

رسول الله عليه الصلاة والسلام . وان احتججتم بأن زمام تلك الغارة بيدنا ، وسبب تعديهم من سلتنا ، فقد أوضحنا الجواب عن ذلك ، وأن عدم الصلح والموادعة أوجب سلوك هذه المسالك .

وأما ما ادعوه من سلوك سنن المرسلين واقتفاء آثار المتقدمين ، في انفاذ الرسل أولاً ، فقد تلمحنا هذه الصورة ، وفهمنا ما أوردوه من الآيات المسطورة ، والجواب على ذلك أن هؤلاء الرسل ما وصلوا إلينا إلا وقد دنت الخيام من الخيام ، وناضلت السهام السهام ، وشارف القوم القوم ، ولم يبق للقاء إلا يوم أو بعض يوم ، وأشرعت الأسنة من الجانبين ، ورأى كلٌّ خصمه رأيَ العين . وما نحن ممن لاحت له رغبة راغب فتشاغل عنها ، ولا ممن يُسالم فيقابل ذلك بجفوة النفار ، والله تعالى يقول : وان جنحوا للسلم فاجنح لها (١) . وكيف والكتاب بعنوانه . وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : ما اضمر إنسان شيئاً إلا ظهر في صفحات وجهه وفلتات لسانه ، ولو كان حضور هؤلاء الرسل والسيوف وادعة في أغمادها ، والأسنة مستكنة في أعوادها ، والسهام غير مفوقة ، والأعنة غير مطلقة ، لسمعنا خطابهم وأعدنا جوابهم .

وأما ما أطلقوا به لسان قلمهم ، وأبدوه من غليظ كلمهم ، في قولهم : فصبرنا على تماديكم في غيكم ، وإخلادكم إلى بغيكم . فأي صبر ممن أرسل عنانه إلى المكافحة ، قبل إرسال رسل المصالحة ، وجاس خلال الديار قبل ما زعمه من الإعذار والإنذار ؟ وإذا فكروا في هذه الأسباب ! ونظروا ما صدر عنهم من خطاب ، علموا العذر

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦١ .

في تأخير الجواب ، وما يتذكر إلا أولو الألباب .

وأما ما تبجحوا به مما اعتقدوا من نُصْرَة ، وظنوه من أن الله جعل لهم على حزبه الغالب في كل كرة الكرة ، فلو تأملوا ما ظنوه ربحاً لوجدوه هو الخسران المبين . ولو انعموا النظر في ذلك لما كانوا به مفتخرين ، ولتحققوا أن الذي اتفق لهم كان غرماً لا غنماً ، وتدبروا معنى قوله تعالى : إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً[1] . فلم يخف عنهم ما نالته السيوف الإسلامية منهم ، وقد رأوا عزم من حضر من عساكرنا التي لو كانت مجتمعة عند اللقاء ما ظهر خبر عنهم ، فانا كنا في مفتتح ملكنا ومبتدأ أمرنا ، حللنا بالشام للنظر في أمور البلاد والعباد . فلما تحققنا خبركم ، وقفونا أثركم ، بادرنا نقد أديم الأرض سيراً ، وأسرعنا لندفع عن المسلمين ضرراً وضيراً ، ونؤدي من الجهاد السنة والفرض ، ونعمل بقوله تعالى : وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض[2] . فاتفق اللقاء بمن حضر من عساكرنا المنصورة وثوقاً بقوله تعالى : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة[3] . وإلا فأكابركم يعلمون وقائع الجيوش الإسلامية التي كم وطئت موطئاً يغيظ الكفار فكتب لها عمل صالح . وسارت في سبيل الله ففتح عليها أبواب المناجح . وتعددت أيام نصرتها التي لو دققتم الفكر فيها لأزالت ما حصل عندكم من لبس ، ولما قدرتم أن تنكروها ، وفي تعب من ينكر ضوء الشمس . وما زال الله نعم المولى ونعم النصير ، وإذا راجعتموهم قصوا عليكم نبأ الاستظهار ، ولا ينبئك مثل

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٨ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٣ .

(٣) سورة البقره الآية ٢٤٩ .

خبير . وما زالت تتفق الوقائع بين الملوك والحروب ، وتجري المواقف التي هي بتقدير الله فلا فخر فيها للغالب ولا عـار على المغلوب . وكم من ملك استظهر عليه ثم نصر ، وعاوده التأييد فجبر بعدما كُسر ، خصوصاً ملوك هذا الدين . فإن الله تعالى تكفل لهم بحسن العقبى فقال تعالى : والعاقبة للمتقين (١) .

وأمـا إقامتهم الحجة علينا ، ونسبتهم التفريط إلينا ، في كوننا لم نسير إليهم رسولاً عندما حلوا بدمشق ، فنحن عندما وصلنا إلى الديار المصرية ، لم نزد على أن اعتدينا وجمعنا جيوشنا من كل مكان ، وبذلنا في الاستمداد غاية الجهد والإمكان ، وأنفقنا جزيل الأموال في العساكر والجحافل ، ووثقنا بحسن الخلف لقوله تعالى : مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل (٢) . ولما خرجنا من الديار المصرية بلغنا خروج الملك من البلاد ، لأمر حال بينه وبين المراد . فتوقفنا عن المسير توقف من أغنى رعبه عـن حث الركاب ، وتثبتنا تثبت الراسيات ، وترى الجبـال تحسبها جامدة وهي تمـر مر السحاب . وبعثنا طائفة من العساكر لمقاتلة من أقام بالبلاد ، فـما لاح لنا منهم بارق ولا ظهر ، وتقدمت فتخطفت من حمله على التأخر الغرر ، ووصلت إلى الفرات فما وقفت للقوم على أثر .

وأما قولهم : إننا ألقينا في قلوب العساكر والعوام أنهم فيما بعد يتلقونا على حلب أو الفرات ، وأنهم جمعوا العساكر ورحلوا إلى الفرات وإلى حلب مرتقبين ، فالجواب عن ذلك أنهم من حين بلغنا حركتهم

---

(١) سورة القصص الآية ٨٣ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦١ .

جزمنا وعلى لقائهم عزمنا . وخرجنا وخرج أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ابن عم سيدنا رسول الله ﷺ الواجب الطاعــة على كل مسلم . المفترض المبايعة والمتابعة على كل منازع ومسلّم ، طائعين لله ولرسوله في أداء مفترض الجهاد ، باذلين في القيام بما أمرنا الله تعالى غاية الاجتهاد ، عالمين بأنه لا يتم أمر دين ولا دنيا إلا بمشايعته ، ومن والاه فقد حفظه الله تعالى وتولاه ، ومن عانده أو عاند من أقامه فقــد أذله الله ، فحين وصلنا إلى البلاد الشامية تقدمت عساكرنا تملأ السهل والجبل ، وتبلغ بقوة الله تعالى في النصر الرجاء والأمل ، ووصلت أوائلها إلى أطراف حماة وتلك النواحي فلم يقدم أحد منهم عليها ، ولا جسر أن يمد حق ولا الطرف إليها . فلم نزل مقيمين حتى بلغنا رجوع الملك إلى البلاد ، واخلافه موعد اللقاء ، والله لا يخلف الميعاد ، فعدنا لاستعداد جيوشنا الــتي لم تزل تندفع في طاعتنا اندفاع السيل ، عاملين بقوله تعالى : واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل[1] .

وأما ما جعلوه عذراً في الإقامة بأطراف البلاد وعدم الاقــدام عليها ، وانهــم لو فعلوا ذلك ودخلوا بجيوشهم ربمــا اخرب البلاد مرورها ، وبإقامتهم فسدت أمورها ، فقد فهم هذا المقصود ، ومـتى ألفت العباد والبلاد منهم هذا الاشفاق ؟ ومتى اتصفت جيوشهم بهـذه الأخلاق ؟ وهــا آثارهم موجودة على ملك آل سلجوق ومــا تعرضوا لدار ولا جار ، ولا عفّوا أثراً من الآثار ، ولا حصل لمسلم منهم ضرر ولا أذى في ورد ولا صدر . وكان أحــدهم يشتري قوتــه بدرهمه وديناره ، ويأبى أن تمتد الى أحد من المسلمين يد اضراره . هذه سنة

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

أهل الإسلام وفعل من يريد لملكه الدوام .

وأما ما أرعدو به وأبرقوا ، وأرسلوا به عنان قلمهم وأطلقوا ، وما أبدوا من الاهتمام بجمع عساكرهم وتهيئة المجانيق إلى غير ذلك مما ذكره في التهويل ، فالله تعالى يقول : الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل[1] .

وأما قولهم : وإلا فدماء المسلمين مطلولة ، فما كان أغنام عن هذا الخطاب ، وأولام بأن لا يصدر إليهم عن ذلك جواب . ومن قصد الصلح والإصلاح ، كيف يقول هذا القول الذي عليه فيه من جهة الله تعالى ومن جهة رسوله أي جناح ؟! وكيف يفسر هذه النية ويتبجح بهذه الطوية ؟ ولم يخف مواقع زلل هذا القول وخلله ؟ والنبي ﷺ يقول : نية المرء أبلغ من عمله ، وبأي طريق تهدر دماء المسلمين التي من تعرض إليها يكون الله له في الدنيا والآخرة مطالباً وغريماً ومؤاخذاً ، بقوله تعالى : ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً[2] وإذا كان الأمر كذلك فالبشرى لأهل الإسلام بما نحن عليه من الهمم المصروفة إلى الاستعداد ، وجمع العساكر التي تكون لها الملائكة الكرام ، إن شاء الله تعالى ، من الأنجاد ، والاستكثار من الجيوش الإسلامية المتوفرة العدد ، المتكاثرة المدد ، الموعودة بالنصر الذي يحفها في الظعن والإقامة ، الواثقة [به] من قوله ﷺ : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على عدوهم إلى يوم القيامة ، المبلغة في نصر دين الله آمالاً ،

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٣ .

(٢) سورة النساء الآية ٩٣ .

المستعدة لإجابة داعي الله إذ قال : انفروا خفافاً وثقالاً [1] .

وأما رسلهم فلان وفلان فقد وصلوا إلينا ووفدوا علينا ، وأكرمنا وفادتهم ، وعَزَّزْنا لأجل مرسلهم من الإقبال مادتهم ، وسمعنا خطابهم وأعدنا عليهم جوابهم . هذا مع كوننا لم يخف علينا انحطاط قدرهم ، ولا ضعف أمرهم ، وانهم ما دفعوا لأفواه الخطوب ، إلا لما ارتكبوه من ذنوب ، وما كان ينبغي أن يرسل مثـل هؤلاء لمثلنا من مثله ، ولا ينتدب لمثل هذا الأمر المهم إلا من يجمع على فصل خطابته وفضله .

وأما ما التمسوه من الهدايا والتحف ، فـلو قدموا من هداياهم حسنة لعوضناهم بأحسن منها ، ولو اتحفونا بتحفة لقابلناها بأجل عوض عنها . وقد كان عمهم الملك أحمد راسل والدنا الشهيد ، وناجى بالهدايا والتحف من مكان بعيد ، وتقرب إلى قلبه بحسن الخطاب ، فأحسن له الجواب . وأتى البيوت من أبوابهـا بحسن الأدب ، وتمسك من الملاطفة بأقوى سبب .

والآن فحيث انتهت الأجوبة إلى حدها ، وأدركت الأنفة من مقابلة ذلك الخطاب غاية مقصدها فنقول : إذا جنح الملك للسلم جنحنا لها ، وإذا دخل في الملة المحمدية ممتثلاً ما أمر الله تعالى به مجتنباً ما عنه نهى ، وانتظم في سلك الإيمان ، وتمسك بموجباته تمسك المتشرف بدخوله فيه لا المنَّان ، وتجنب التشبه بمـن قال الله تعالى في حقهم : قل لا تمنّوا عليَّ إسلامكم ، بل الله يمنُّ عليكم أن هـداكم للإيمان [2] ؛ وطابق فعله قوله ، ورفض الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم حوله ، وأرسل إلينا

(1) سورة التوبة الآية ٤١ .

(2) سورة الحجرات الآية ١٧ .

رسولاً من جهته يرتل آيات الصلح ترتيلا ، ويروق خطابه وجوابه حق يتلو كل أحد عند عوده : ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا [1] ، صارت حجتنا وحجته مركبة على من خالف ذلك ، وكلمتنا وكلمته قامعة أهل الشرك في سائر الممالك ومظافرتنا له تكسب الكافرين هوانا . والشاهد لمصافاتنا مفاد قوله تعالى : واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا [2] . وينتظم إن شاء الله تعالى شمل المصالـــح أحسن انتظام ، ويحصل التمسك من الموادعة والمظافرة بعروة لا انفصال لها ولا انفصام ، وتستقر قواعد الصلح على ما يرضي الله تعالى ورسوله عليه افضل الصلاة والسلام .

صبح الاعشى للقلقشندي جـ ٧ ٢٤٣ — ٢٥٠

٢٣٠ — نص الموسوم الذي أصدره غازان لما احتل دمشق سنة ٦٩٩ هـ وفيه يؤمن أهل دمشق . وقد قرىء في دمشق نفسها :

بقوة الله تعالى وإقبال دولة السلطان محمود عازان .

ليعلم أمراء التوامين [3] والآلاف والمئين من عموم العساكر المنصورة من المغل والأرمن والكرج وغيرهم ممن داخل تحت ربقة طاعتنا : ان الله لما نور قلوبنا بنور الإسلام ، وهدانا إلى ملة النبي عليه السلام : « أممن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله اولئك في ضلال مبين [4] » ، ولما أن سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين ، غير متمسكين بأحـــكام الإسلام ، ناقضون

---

(١) سورة الفرقان الآية ٢٧ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٣ .
(٣) كلمة تومان أو طومان تعني فرقة من الجيش عددها عشرة الاف جندي .
(٤) سورة الزمر الآيتان ٢٢ و ٢٣ .

لعهودهم ، حالفون بالأيمان الفاجرة . ليس لهم وفا ولا زمام ، ولا لأمورهم التيام ولا انتظام ، وكأن أحـــدهم إذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد[1] . وشاع شعارهم بالحيف على الرعية وأضاعوا الحقوق المرعية ، ومدوا أيديهم العادية إلى حريمهم وأموالهم وأولادهم وعيالهم ، والتخطي عن جادة العدل والإنصاف ، وارتكابهم الجور والاعتساف ، حملتنا الحمية الدينية والحفيظة الإسلامية على أن توجهنا إلى هذه البلاد لإزالة هذا العدوان وإماطة هذا العصيان ، مستصحبين الجم الغفير من العساكر التي ضاق بهم الفضاء ، ونسلطهم على العصاة لله من الله قضاء ، ونذرنا على أنفسنا إن وفقنا الله تعالى لفتح البلاد أزلنا الفساد عن العباد ، ممتثلين للأمر الإلهي : إن الله يأمر بالعدل والإحسان[2] . فلله علينا بذلك الامتنان ، وإجابة لما ندب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم أن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يــديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم .

وحيث كانت طويتنا مشتملة على هـــذه المقاصد الحميدة والنذور الأكيدة ، منّ الله علينا بتبلج تباشير النصر المبين والفتح المستبين ، وأتم علينا نعمه وأنزل علينا سكينته ، فهرنا العدو الطاغية والجيوش الباغية وفرقناهم أيدي سبأ ومزقناهم كل ممزق حق : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً[3] . فازدادت صدورنا انشراحـاً للإسلام وقويت نفوسنا بحقيقة الأحكام ، منخرطين في زمرة من حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وأولئك هم الراشدون ،

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٥ .

(٢) سورة النحل الآية ٩٠ .

(٣) سورة الاسراء الآية ٨١ .

فضلاً من الله ونعمة . فوجب علينا رعاية تلك العهود الموثقة والنذور المؤكدة .

فصدرت مراسلاتنا العالية ألا يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها وتباين أجناسها واختلاف لغاتها لدمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية الإسلامية وان يكفوا أظفار التعدي عن أنفسهم وأموالهم وحريمهم ، ولا يجولوا حول حماه بوجه من الوجوه حتى يشتغلوا بصدور مشروحة وآمال مفتوحة لعمارة البلاد وتطهير الفساد وتطمين العباد بما هو كل واحد بصدده من تجارة وزراعة وغير ذلك من كل صناعة .

وكان هذا الهيوج العظيم ، وكثرة هذه العساكر ، وتزاحم هذه العساكر فعرض بعض نفر يسير إلى نهب الرعايا وأسرهم فأمرنا بقتلهم كيف رموم بشرهم ، ليعتبر الباقون ويقطعوا أطماعهم عن النهب والأسر وغـــير ذلك من جميع الفساد ، وليعلموا أنّا لانسامح بعد هذا الأمر البليغ البتة في أذية أحد من العباد ، ولا يتعرضوا لأحد من أهل الأديان على اختلاف أديانهم من اليهود والنصارى والصابئة ، فكل منهم قد عاد منا في أمان ، فانهم إنما يؤدون الجزية ليكون لهم أمان في أموالهم ودمائهم . والسلاطين موصون على أهل الذمة كما هم موصون على المسلمين من أهل الأمـــة ، فانهم من جملة الرعايا . قال ﷺ : كلكم راعٍ وكل راع مسؤول عـن رعيته .

فسبيل القضاة والخطباء والمشايخ والعلماء والأكابر والشرفاء والمشاهير وعامة الرعايا الاستبشار بهذا النصر الهني والفتح السني ، وأخذ الحظ الوافر من السرور ، والنصيب الأكبر من البهجة والحبور .

مقبلين على الدعاء لهذه الدولة القاهرة والمملكة الظـاهرة آناء الليل وأطراف النهار .

وكتب خامس ربيع الأول سنة تسع وتسعين وست مایة [١] .

كنز الدرر للدواداري ٢٠ – ٢٢

٢٣١ – نص الدعاء الذي دعي به للسلطان غازان لما احتل دمشق سنة ٦٩٩ هـ

مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان .

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي جـ ٨ - ١٢٥

٢٣٢ – رسالة غازان لأهل دمشق لما احتلها ولم يتمكن من احتلال قلعتها :

احتل غازان دمشق ولكن القلعة ظلت ممتنعة عليه وصامدة في وجهه ، فتضايق من المكوث في دمشق فتركها ورجع إلى بلاده ، وقبل رحيله عن دمشق وجه إلى أهلها الرسالة التالية يقول فيها :

إنا قد تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل ، وفي عزمنا العود في زمن الخريف والدخول إلى البلاد المصرية وفتحها .

البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٤ – ٩

٢٣٣ – مرسوم أصدره غازان بتقليد الأمير قبجق بلاد الشام كلها وقد قرىء على منابر دمشق سنة ٦٩٩ هـ :

الحمد لله الذي جرد لنصر هذه الدولة القاهرة سيفاً ماضياً ، وانتضى لتأييدها من أوليائها قاضباً قاضياً ، وارتضى لها من أصفيائها

---

(١) اورد المقريزي في كتاب « السلوك » جـ ١ ، ق ٣ ، ١٠١١-١٠١٢ نصاً قريباً من النص أعلاه مع وجود بعض الخلافات اليسيرة .

من أصبح الملك عنه راضياً . نحمده ونشكره على نعمته التي أورثتنا الممالك ، وجمعت لنا ما بين النصر والفتح ومـا أشبه ذلك . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة تنيل النجاة وترفـع الدرجات ، ونشهد أن محمداً نبيه المرسل بالهدى والصدق ، والمبعوث بدين الحق ، صلى الله عليه صلاة تنيله الوسيلة والفضيلة ، وعلى آله خير آل وأشرف قبيلة .

وبعد : فـإن الله تعالى منّ علينا بالإيمان ، وهـدانا إلى أشرف الأديان ، حمـدناه وشكرناه على أنـه أضاف إلى ملكنا للدنيا ملكنا للآخرة ، وجلل علينا حلل الدين الفاخرة ، ونذرنا أن نعـم الرعية بعدلنا ونشمل البريه بفضلنا ، وألا نسمع بمظلوم إلا نصرناه ، ولا نطلع على مقهور إلا انقذناه .

فلما اتصل بنا ما بمصر من المظالم ، ومن فيها من غاصب وظالم ، هاجرنا لنصر الله تعالى ونصرة الدين ، وبادرنا لإنقاذ من فيها من المسلمين ، وراسلناهم وانذرناهم ، وكاتبناهم وزجرناهم ووعظناهم ، فلم تنفع فيهم العظة ، وأيقظناهم فلم تكن عندهم يقظة ، فلقيناهم بقوة الله تعالى فكسرناهم وقلعنا آثارهم ، وملكنا الله تعالى أرضهم وديارهم ، وتبعناهم إلى الرمل وحطمناهم كما حطم سليمان وجنوده وادي النمل . فلم ينج منهم إلا الفريد ، ولا سلم إلا البريد .

فلما استقر بملكنا البـلاد ، وجب علينا حسن النظر في أمـور العبـاد ، فأحضرنا الفكر فيمن نقلده الأمور ، وأنعمنا النظر فيمـن نفوض إليه مصالح الجمهور ، فاخترنا لهـا من يحفظ نظامها المستقيم ، ويقيم ما اناد من قوامها القويم ، يقول فيسمع مقاله ، ويفعل فتقتفى أفعاله ، يكون أمره من أمرنا ، وحكمـه من حكمنا ، وطاعته من طاعتنـا ، ومحبته هي الطريق إلى محبتنا ، فرأينا أن الجناب العالي الأوحدي المؤيـدي العضدي النصيري العـالمي العادلي الذخري الكفيلي

السيدي المهدي المجاهدي الأميري ، الهمامي النظامي السيفي سيف الدين ملك الأمراء في العالمين ، ظهير الملوك والسلاطين قفجق هـو المخصوص بهذه الصفات الجميلة ، والمحتوي على هـذه المناقب الجليلة ، وان لـه حرمة المهاجرة إلى أبوابنا ، ووسيلة القصد إلى ركابنا ، فعرفنا له هذه الحرمة وقابلناه بهذه النعمة ، ورأينا أنه لهذا المنصب حفيظ قمين ، وعلى ما استحفظ قوي أمين ، وأنه يبلغنا الغرض من حفظ الرعايا ، فأقمناه مقامنا في العدل والقضايا .

فلذلك رسمنا أن نفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الشامية والبعلبكية والحمصيـة والساحلية والجبلية والعجلانية والرحبيـة ، ومن العريش إلى سلمية ، نيابة تامة عامة كاملة شاملة ، يؤتمر فيها بأمره . ويزدجر فيها بزجره ، ويطاع في أوامره ونواهيه ، ولا يخرج أحـد عن حكمه ولا يعصيه . له الأمر التام ، والنظر العام ، وحسن التدبير ، وجميل التأثير ، والإحسان الشامل لأهل البلاد ، واستجلاب الغـزاة والقواد ، وتأمـين من يطلب الأمان والطاعة والامتنان ، متفقـاً في الاستخدام والتأمين مع ملك الأمراء ناصر الدين ، فـان اجتماع الآراء بركة ، والهمم تؤثر إذا كانت مشتركة ، وكل من أمناه ، فانـه أماننا أجريناه على قلمها ولسانها .

وقـد أنعم عليه بالسيف والسنجق الشريف والكوس والبايزة [1] الذهب برأس السبع ، رسمنا له بألف رجل من المغل يركبون لركوبه وينزلون لنزوله ، ليكونوا تحت حكمه ، رفعة لقدره ، وتنويهاً باسمه ، وسبيل الأمراء والمقدمين وأمراء العربان والتركمان والأكراد والدواوين ،

(١) البايزة : لفظ مغولي يطلق على لوح صغير من ذهب رسم على أحد وجهيه رأس أسد ، وكانت تمنح لكبار رجال الدولة عند المغول .

والصدور والأعيان والجمهور أن يتحققوا أنه نائبنا في السلطنة الشريفة ، وأن له هذه المنزلة المنيفة وليطيعوه طاعة تزلفهم لديه وتقربهم إليه ، ويحصل لهم بها رضاه عنهم وإقبال عليهم وقربهم منه . وليلزموا عنده الأدب في الخدمة كما يجب ، وليكونوا معه في الطاعة والموافقة على ما يجب .

وعلى ملك الأمراء سيف الدين بتقوى الله في أحكامه ، وخشيته في نقضه وإبرامه ، وتعظيم الشرع وحكامه ، وتنفيذ أقضية كل قاض على قول إمامه . وليعتمد الجلوس للعدل والإنصاف ، وأخذ حق المشروف من الأشراف ، وليقم الحدود والقصاص على كل من وجبت عليه . وليكف الكف العادية عن كل من يتعدى عليه ، وقد تقدم من الأمر بالآثار الجميلة في الشام المحروس ما تشوقت إليه الأعين وتاقت إليه النفوس . وقد رده الله سبحانه إليهم رداً جميلاً ، فليكن بمصالح الدولة ومصالح الرعية كفيلاً ، والله تعالى يجعل له إلى الخير سبيلاً ، ويوضح له إلى مراضي الله ومراضينا دليلاً بمنه وفضله إن شاء الله تعالى . وكتب في جمادى الأول سنة تسع وتسعين وستمائة [1] .

٢٣٤ ـ رسالة غازان إلى عز الدين ايبك الأفرم نائب الشام يرغبه في الدخول بطاعته سنة ٧٠٢ هـ :

بسم الله الرحمن الرحيم :

فرمان السلطان محمود غازان .

ليعلم الأمير أفرم وأكابر الأمراء ورعاء العساكر والأجناد والقضاة

(١) ورد نص هذه الرسالة في كل من كتاب « السلوك » للمقريزي ج ١ ، ق ٣ ١٠١٣-١٠١٥ وفي « كنز الدرر » للدواداري ٢٥-٢٧ . ولكن نص المقريزي الذي أثبتناه أعلاه أكمل من نص كنز الدرر الذي يختلف في بعض ألفاظه عن نصنا وإن يكن المعنى واحداً.

والسادات والأئمة والصدور والأكابر والمشاهير والرؤساء وعوام الرعايا من أهل دمشق ، أنه حيث خصنا الله تعالى بالعناية الأزلية والسعادة الأبدية ، وشرح صدورنا للإسلام ، ونور قلبنا للإيمان ، وأورثنا سلطنة الآباء والأجداد ؛ وأمدنا بالنصرة المتوافرة الإمداد ، تصدينا لإثابة الشكر على نعمائه بحسب الإمكان . فعاهدنا الله تعالى على ملازمة البر والإحسان ، ودفع الرزايا عن الرعايا ، وإيصال البر إلى البرايا ، سيا طوائف المسلمين وطبقات المؤمنين ، وألا نرخص في القتال ما لم يبدأنا به الجهال ، فكل لبيب يعلم أن البادي أظلم . والذي يحقق ذلك ما عرفه الداني والقاصي ، من طريقتنا المسلوكة مع المطيع والعاصي . وما ترتب بيننا وبين أنسابنا الأصاغر والأكابر ، وتركنا المقاتلة إلا مع بادٍ مكابر . وحيث كان أهل مصر والشام يحبون ويودون قوة الإسلام : كان الواجب عليهم إظهار السرور وإبداء الحبور بإسلام ذراري جنكز خان وعساكرهم التي لا غاية لأواخرهم ، وتؤمن غلبة المتسلطين في تلك البلاد ، وانفاذ الرسل الينا عن الوداد ؛ وارسال التحف والهدايا . والشكر لله ولنا على تلك المزايا . فما أبصرنا منهم في عموم الأوقات إلا ما لا يحسن من الحركات ، حتى إنهم عموا على ماردين وديار بكر طغياناً ، وأقدموا على القتل والنهب فيها عدواناً . فدعتنا الحمية على الإسلام إلى الفساد والانتقام ، وهممنا بأن نجر العساكر ونبيد البادي منهم والحاضر ، فصادفتهم المراحم العميمة التي لم تزل لنا خلقاً وشيمة ، فوقفنا مقتدين بقوله تعالى : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً [1] . فانفذنا الايلجية مع قضاة ثقات ، لعلهم في أمرهم يتفكرون ، وإلى الانابة يهتدون ، فأتوهم بصرائح النصائح ، وهدوهم

(١) سورة الاسراء الآية ١٥ .

إلى جـــدد المصالح ، فعصى سلطان مصر عتـواً ونفوراً ، وأودعهم السجن تجبراً وغروراً . فافضت حركاتهم الذميمة إلى أن مال عليهـم الجنود ، وحل بهم ما حل بعاد وثمود . ولولا رفقنا المجبول بنا . لأضحت الشام خالية الديار .

ولما ثنينا عنان العزيمة ، ترحماً على البرآء من الجريمة ، ثنينا لتركيب الحجة الرسالة . لعلهم ينتهون عن التمادي في الجهالة . فما سمعـوا من الرسول قيلاً وحبسوه زماناً طويلاً . وأما في الإعادة ، فقد خالفـوا الذاهبين في العادة ، لأنهم لم يصحبوه واحداً من رسلهم ، ليتداركوا ما فرط من زللهم . ويا ليت ما حملوه من الجواب كان متضمناً لوجه من الصواب . فإن كتابهم دل على فساد آرائهم ، وتعمقهـم في متابعـــة أهوائهم ، فقد ضمنوا متهذّين المقال مطواه [١] . وكتبوا اسم سلطانهم بالألقاب البليغة بالذهب أعلاه ، واسم الله تعالى واسم رسوله عليه الصلاة والسلام بالمداد ، واجمنا بعد عدة أسطر للعناد . فحملنا ذلك على عدم معرفتهم بالرسوم والآداب ، وقلة ممارستهم الخطاب والجواب .

وحيث أردنا ألا يتأذى بذلك المسلمون تلوناً : فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون [٢] . وعاودنا ايفاد الايلجية مع أكابر القضاة ، وحملنا إليهم الخلع والموهبات ، ليسلكوا مسالك الموافقات ، ويتجنبوا جوانب المخالفات . فوصل الخبر عقيب توجه الايلجية أن القوم قصـدوا ديار بكر ، وحلوا حلى الكيد والمكر . فأمرنا بركوب العساكر وإهـلاك الباغين بالسيوف البواتر . فانتهى خبر ذلك إليهم ، وفزعوا من سطوتنا عليهم ؛ فأخذوا عن ديار بكر جانباً ، وأصبح صحيح أملهم كاذباً ،

---

(١) كذا بالأصل والمعنى غير واضح .

(٢) سورة الزخرف الآية ٨٩ .

لكنهم عموا على خرتبرت وملطية وسيس ، وخربوا أطرافها وحواليها بالحيلة والتلبيس . ولا شبهة لأحد أن خرتبرت وملطية من ولايتنا ، وصاحب سيس من الداخلين في شريعة طاعتنا . وقد كانوا أظهروا للايليجية الألية [1] ، واستلزم إقدامهم على ذلك كذب القضية . وأيضاً كاتبوا الأكراد والروم بخطاب الأخ مراراً ، ودعوهم إلى إثارة الشر والفتن سراً وجهاراً ، وما علموا أن صحارى بلادنا مملوءة من أمثال أولئك. ولا التفات لأحد إلى ذلك . وكتبوا أيضاً إلى ملك الكرج تارين داود ، وأثبتوا البر والعبودية مع أنه سبى أزواجهم وبناتهم ، ونقطع أشجارهم [2] ونقتل صغارهم وكبارهم ونحرق مساكنهم وأماكنهم ، ونتبع مخامنهم ومكامنهم ، ونجعل أطلالهم ممحوة بالطمس ، وأجسادهم كأن لم تغن بالأمس .

وإن لاح لهم الاحتراز فليستدركوا فارطهم ، وليرحموا أنفسهم وأزواجهم وأولادهم وأموالهم ، وليبادروا إلى ما هو السبب للخلاص ويدخلوا في طاعتنا عن صدق وإخلاص . وليتحققوا أننا لانريد منهم خزائن ولا أموالاً ، فإن الله تعالى قد آتانا من المال ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة . وأغنانا بما أعطانا عما هو في أيدي سوانا . وفيما منحنا من المملكة العريضة والسلطنة المستفيضة ، والعساكر والجيوش غير المحصورة ، والألوية والأعلام المنصورة متسع وكفاية ، بل يخطبون باسمنا ، ويضربون الدينار بسكتنا حتى نقرر الجمهور على أمورهم ، من أميرهم ومأمورهم زائدين في الإقطاعات والمشاهرات والمرتبات والإقرارات . ولايخفى عليهم أن الشام كان في الأعوام الماضية والأيام الخالية ،

---

(١) كذا بالأصل والألية جمع الألى بمعنى النعمة .
(٢) كذا بالأصل .

تارة مع الروم وأخرى مع العراق ، وعن مصر لازال منقطع العلاق ، إلى زمان تغلب طائفة من أهل الخروج والفتن . فكما كانوا يتصورون أن الثغر هو العراق وديار بكر ، فليتصوروا بعد اليوم أنه غـزة وحدود الرمل . وكما كانوا يستمدون منهم علينا ، ويستمدون منها عليهم ولا يعتمدون على القلاع ، فإنهم بالمحاصرة يعجزون ، ومن الاضطراب يسلمون ، ومهما تركوا الوساوس والخيالات ، وأطاعونا بصدق النيات فإنهم في أمان الله الملك العلام ، وأمان الرسول عليه السلام ، وأماننا في النفس والأهل والمال ، ولاتصيبهم من عساكرنا أذية في عموم الأحوال .

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٣ ١٠٢٤-١٠٢٧

٢٣٥ ـ رسالة سيف الدين سلار نائب السلطان الملك النـاصر بن قلاوون إلى نائب السلطان بقلعة الجبل يبشره بكسر التتار في معركة مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ ، وهي من إنشاء شهاب الدين محمـود الحلبي . وكان ذلك في رمضان من تلك السنة .

... ونبشره بالفتح الذي أعاد الله به الأمة خلقاً جديداً ، والنصر الذي أنزل الله فيه من الملائكة أنصاراً للملة وجنوداً ، والظفـر الذي أطفأ الله به من نار الكفر ما لم يكن يرهب خموداً ، والغزوة الـتي زلزل الله بها جبال أهـل الشرك ، وقد تدفقت على الأرض أمثال البحار عدداً وعديداً . المملوك يقبل اليد العالية التي لها من هذه النصرة وإن لم تبلغها ، أجر الرامي المسدد سهمه ، المعجل في التهاني غنمـه ، الموفر من المحامد الجزيلة قسمه ، ويهنىء المولى بهذا الفتح الذي مدّ الله به على الأمة جناح رحمته وفضله ، ومنّ على أيامنا الزاهرة فيه بالشام وأهله ، وبرز فيه الإسلام كله للشرك كله ، ولله الحمد الذي أعز دينه

ونصره ، وحصد بسيوف الإسلام عدو دينه بعـــد أن حصره ، وأباد جيوش الشرك وهم مائة ألف أو يزيدون ، وأفنى أحزاب أهل الكفر وكانوا أمثال الرمال لايعدون . ويُنهى أن علمه الكريم قد أحاط بـما كان من أمر هذا العدو المخذول ودخوله إلى البـلاد المحروسة بجيوشه وكتائبه ، وجموعه وجنوده من أشياع أهل الكفر وأحزاب الشرك . ولما تواصلت الأخبار بقربه ، واستمداده بجزبه ، ومهاجمته البـلاد ، وإيقاع الرعب في قلوب أهلها بالتنوع في الفساد ، ساق الركاب الشريف في طلبه يطوي المراحل ويقطع في كل يوم منزلتين بل منازل . ولـما حل الركاب الشريف بمرج الصفر على مرحلة من دمشق المحروسة في يوم السبت مستهل شهر رمضان المعظم زينت العساكر المنصورة للقاء حـال وصولها ، واستعدت للحرب دون تشاغل بأسباب نزولها . فوافى العدو المخذول في مائة ألف من جيوش تسيل كالرمال وتعلو الجبال بأشد من الجبال. وحين وصلوا حملوا على الميمنة بجملتهم ، وقصدوا إزاحتها عن موقفها بجملتهم فتلقتهم الجيوش المنصورة بنفوس قد بايعت الله على لقاء عدو الله وعدوها ووثقت بما أعد الله لها من الجزاء في رواحها في سبيله وغدوها . وصدمتهم صدمة كسرت حدهم وأوهنت شدتهم وشدهم ، وأزالت طمعهم وأبانت ظلمهم . وسالت عليهم الجيوش المنصورة من كل جانب . وحميت الحرب بين الكتائب الإسلامية وبين تلك الكتائب . ودخل الليل ونار الحرب تشتعل ، والجياد من الحاجر تحفى وبالجماجم تنتعل . فـآووا إلى جبـال اعتصموا بهضابها ، واحتموا بتوعر مسالكها وضيق عقابها ، وأحاطت بهم الجيوش المنصورة لحوسهم [1] لا لحفظهم ، وتضم أطرافهم لا لحبهـم

---

(١) الحوس : القتل .

بل لبغضهم . فكانوا ـ بعد كثرة من قتل منهم في المعركـــة الأولى أوفر من أول الليل ـ جمعاً يناهز الأربعين ألف فارس . فأصبحوا يعاودون القتال وينزلون إلى أطراف الجبال للنزال .. والجيوش المنصورة تلزهم من كل جانب ، وتحكم في أبطالهم القنا والقواضب . ومرت في أثناء ذلك حملات ظهر في كل منها خسارهم ، وشهد عندهم بما يكابدون قتلهم وإسارهم. وبعد ذلك نزلوا من جانب واحد يطلبون الفرار ، ويتوقعون القتل ان تعذر الإسار . فساقت خلفهم الجيوش المنصورة تتخطفهم رماحها وتتلقفهم صفاحها . وتقاذفت بهن نجا الفلوات وغرقتهم أحواب السراب قبـــل أمواج الفرات . فأخذوا قبضاً باليد من بطون الأودية ورؤوس الشعاب ولم يحصل أحد منهم على الغنيمة بالإياب . وقتل أكثر مقدمـي التمانات وفر كبيرهم ، وأنّى له الفرار وبين يديه مفاوز ان سلك منها تناولته بأرماح من العطش القفار . فليأخذ المولى حظه من هذه البشرى الـتي تنبىء عن الفتح العظيم والفضل العميم ، والنصرة التي حفظ الله بهـــا على الإسلام البلاد والثغور والأموال والحريم ، ويكتب إلى البلاد بمضمونها ويسر قلوب أهل الثغر بمكنونها ، ويستنهض المولى الأمة تشكـر الله عليهـــا ، ومن ذا الذي يقوم بشكر ذلك ؟! ويعرفهم مواقـــع هـــذه النصرة التي أنجد الله فيها الإسلام بالملائك ، ويتقدم أمره بضرب البشائر في كل مكان ، ويشهر في جميع الثغور أن عـــدو الله وعدو الإسلام دخل في خبر كان ، وأن الله تعالى كسر جيوش التتار كسراً لايجبر صدعه ، ولايتأتى ، إن شاء الله تعالى ، جمعه . والله تعالى يسمعه من التهاني كل ما يسر الإسلام وأهله ، ويشكر قوله في مصالح الإسلام وفعله ، إن شاء الله تعالى .

نهاية الأرب للنويري جـ ٥ ١٦١ ـ ١٦٤

٢٣٦ ـ رسالة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية إلى غازان وذلك بعد وقعة شقحب الثانية وانتصاره العظيم على جيوش غازان وهزيمته إياه هزيمة مريعة وذلك سنة ٧٠٣ هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ماجدد لنا من النعمة التامة ، وسمح به من الكرامة العامة حين أعاد البدر إلى كماله ، والسرور إلى أتم أحواله ، فاشتاقت النفوس إلى عوايدها ، وارتاحت القلوب إلى ملايذها ، وأضاءت شموس المعالي ، وطلعت بدورها بالسعد المتوالي ، وارتاحت القلوب إلى معجز برهانها التالي . وكانت غلطة من الدهر فاستدركها ، وسقطة خطب عظمته فما ملكها . فقرت تلك العيون ، وتحققت من بلوغ الآمال الظنون فلله الحمد الجزيل ما لاح في الجو بارق ، وعرا في الليل طارق .

وبعد : فليعلم الملك محمود غازان جامع الوفود وحاشد الجنود أنه قد كان ما جرى وقدّر في القدم ؛ فلا راد لما قضى وأبرم وحكم . فحملنا ذلك أنه كان من ربنا تقدير ، وأن ليس لأحد فيما أراد الله تعالى تدبير . فما لبثت إلا اليسير من المدة حتى أرسلت رسلك إلينا مجدّة تطلب الصلح وتحث عليه ، وتذكر السلم وتندب إليه ، بعدما اعتمدت الفساد في الأرضين . وكان من الواجب علينا وعليك إصلاح ذات البين ؛ فأكرمنا رسلك إكراماً يليق بجمال فعالنا ، وجاوبناهم بمقتضى حالهم لا حالنا ، وأعدناهم إليك ، وقلدناك من البغي ما عاد وباله عليك . فعدت وأرسلت تطلب منا رسلاً تسمع كلامك ، وقد

فهمنا مقصدك ومرامك فأرسلنا إليك ما طلبت ، وركبناك فرس البغي فيابئس ما ركبت .

فما كان إلا عند وصول رسلنا جهزت عساكرك ، وأظهرت الغدر لنا وحرضتهم بما عاد وباله عليهم ، وماوأوه حاضراً لديهم . ثم شيعتهم من هناك ، ورجعت طالباً للسلامة من الهلاك ، فما كان إلا أن دخلوا البلاد ، وفعلوا ما أمرتهم به من الفساد ، ونزلوا بالقرب من حلب ، وشنوا الغارة وجدوا في الطلب ، وسيرت من جيشك جماعة إلى القريتين ، فشاهدهم يزكنا المنصور مرأى العين ؛ فوجدوهم وقد أخذوا أغنام التركمان ، فتلقوهم يزكنا بأضيق مكان . فلم يلبث الباغون إلا ساعة من نهار ، وطلبوا الهزيمة والفرار ، فلم يمهلوا حتى عجل الله بأرواحهم إلى النار وبقي أجسادهم ملقاة بأرض تعرض إلى يوم العرض . ثم سارت عساكرك طالبين الغوطة ، ولم يعلموا أن بها أسوداً مربوطة ، وعساكرنا تتأخر عنهم قليلاً قليلاً ، واعيننا ترقبها بكرة وأصيلاً . فلما عاينوا دمشق ظنوا أنهم يدخلونها ولأهلها يأسرون . وما علموا أنهم في تجارتهم يخسرون ؛ فإن سجية الغدر الهلاك ، ومصرع البغي ليس منه فكاك ، فلم تغرب الشمس حتى فرقناهم على أديم الأرض ، وشتتنا بعضهم عن بعض .

والتجأ من بقي منهم إلى الجبل ، وباتوا وهم من سيوفنا على وجل ، واقاموا عليه ليلة الأحد ، وظنوا أن ليس مقابلهم أحد . فلما دقت نصف الليل كوساتنا المنصورة ، تحققوا أنهم الفية الباغية المكسورة . فعندما أصبحوا نظروا إلى الأرض وقد سالت عليهم خيلاً ورجلاً حتى ضاقت بهم عن المجال ؛ فعندها ندموا حيث لاينفعهم الندم ، وأيقنوا بعد السلامة

بالعدم . فنادى لسان حالهم ـ وقد قصروا في أعمالهم ـ اعتقنا أيها الملك الرحيم ، واعف عنا فإنك حليم ، فأمرنا جيوشنا أن تفتح لهم طريقاً منها يخرجون ، وتركناهم من أمرنا يعجبون . ففروا فرار الشاة من الأسد ، ولم يلتفت منهم الوالد على الولد .

فلو رأيت ، أيها الملك، عساكرك : إما ذليلا أسيراً ، أو جريحاً عفيراً ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً (١) . يومٌ تضاعف فيه المقتول والمأسور ، وتصاحب فيه الذباب والنسور ، وعادوا أصحابك طعاماً للذباب ، لعضيت على يدك وقلت : ياليتني كنت ترابا (٢) . فبادر ، أيها الملك ، إلى حمد الله العادل الذي لم ير عينيك هذه المحافل ، ومرورهـا على سمعك أهون من العيان . ونظرك إلى عورات أصحابك يغنيك عن البيان ، فانه كان يوماً مشهوداً ، وكان الملايكة فيه شهوداً . ولقد نصحتك فما ارعويت ، وبذلت لك القول فما وعيت ، وركبت فرس البغي احمر كميت . فمن أجل ذلك عاد كل حي من جيشك ميت ، وقلنا لك : من جرد سيف البغي فهو به مقتول ، فلا تعبأ بالقول ولاتفهم ما نقول . فاستحببت الكفر على الإيمان ، فبئس ما سول لك الشيطان . ماشيت ان تقف معنا على الكتاب المبين ، ولاتعثوا في الأرض مفسدين (٣) ، فنخرج أنا وأنت عن بغداد والعراق ، ونتركها لخليفة رسول الله إلى يوم التلاق . وإن سولت لك نفسك بخلاف ذلك ، فأنت لامحالة هالك وعما قليل يخلو منك العراق والعجم ، وتندم حيث لاينفعك الندم . وقد أوضحنا لك الحق فلا تميل ، وهديناك إلى أقـوم سبيل . وتتقدم بارسال رسلنا المـرسولة إليك ، ولا تعوقهم يكون وبالاً

---

(١) سورة الفرقان الآية ٢٦ .

(٢) سورة النبأ الآية ٤٠ .

(٣) سورة البقرة الآية ٦٠ .

عليك . وكأن خيلت لك نفسك أن جيوشك تعبر الديار المصرية ، صدقت ولكن على غير حالة مرضية ، أما الخيول فعلى أيدي عساكرنا مجنوبة ، والطبول في أعناقهم مقلوبة وأما الرجال ففي أعناقهم الحبال والسلاسل والأغلال ، فعادت مُغْلُك كالكلاب في أيـــدي أسود الغاب . فاختر لنفسك إما الدخول الى خراسان سريعاً ، وإما الخروج عن الروم وخراسان سريعاً .

وفي آخر هذه الرسالة هذان البيتان :

وإن كان أعجبكم عامكم فعودوا إلى الشام في قابل

فإن السيوف التي ورخت مواقعها في يـــد القاتل

كنز الدرر للدوادري ١١٩ ـ ١٢٢

٢٣٨ ـ رسالة السلطان الملك الناصر بن قلاوون إلى السلطان أبي سعيد بهادر خان آخر ملوك بني هولاكو في ايران مـــن إنشاء المقر الشهابي ابن فضل الله :

الحمد لله الذي جعلنا بنعمته إخواناً ، وجمعنا على طاعته أصولاً لا تتفرق أغصاناً ، نحمده على مـــا أولانا ونشكره على ما ولانا . ونرغب إليه في مزيد ألطافه التي شملت أقصانا وأدنانا . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة كالشمس لاقـــدح في الأرض مكاناً ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي شيد بنا لشريعته أركاناً ، وشد بعضنا ببعض لنكون كما شبهنا به بناناً أو بنياناً ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة لاتتوانى ، ورضي الله عن أصحابه والتابعين لهم بإحسان ، وزادهم إحساناً ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد : فإن من أعظم المبهجات لدينا ، المنهجات لطريق السرور إلينا ،

الملهجات بوصف أكرم وارد علينا ، هو الكتاب الشريف ، بل السحاب المطيف ، بل البحر الذي يقذف درراً ، ويقص عن السحاب أثراً ، ويرفع سمراً ويطلع قمراً ، ويطول أوضاحاً وغرراً ، ويحدث عن العجائب خبراً ، بل ينشر الروض حبراً ، ويهب الرياح سحراً ، ويبرق ذهبه المموه آصالاً وبكراً ؛ الصادر عن الحضرة الشريفة العالية السلطانية الأعظمية العالية العادلية الشاهنشاهية الأخوية القانية ، زادها الله شرفاً ، وأدام بها تحفاً ، وصاغ بها لكل سمع شنفاً ، وأيدها بزائد مزيده حتى تقول : حسبي وكفى . فإنه وصل صحبة المجلس السامي الأمير الكبير المقرب المجتبى المرتضى المختار شرف الدين مجد الإسلام ، زين الأنام جمال المقربين ، مرتضى الملوك والسلاطين ، الحاج أحمد الأشقر ، والشوق إليه شديد ، والتطلع إليه كمثل العيد . فقربناه إلينا نجياً ، وتلقينا منه مهدياً . وكأن السماء ألقت منه حلياً ، أو أقلت كوكباً درياً ، أو مدت من المجرة درجاً ، وعطفت من مهندات البروق خلجاً ، وقدت من سواد القلوب شطر كل سطر فيها ، وأغارت مقلة كل ريم قام بسواد ناظره يفديها . وسرّحنا منه الحدق في حدائق ، ونفحنا به للحقائب حقائق ، واستطلعنا به شموس الاعتقاد ، واطلعنا منه على نفوس نفائس الوداد . وصادف منا قلباً صادياً إلى مايروق من أخباره ، وشوقاً إلى ما يهب من نسيم دياره ، وتطلعنا إلى من يرد من رسله الكرام ويقص علينا ما لايستقصى من مواقع الغمام . وعلمنا منه ، ومماذكره المقرب الحاج شرف الدين أحمد ما للحضرة الشريفة عليه من نعمة يلتحف بملابسها ، ويقتطف من مغارسها ، وتجري في السيف رونقاً ، وتزين بالكواكب أفقاً ، وتجر على الكثبان من الشموس رداءً مخلقاً . واحضرنا الحاج شرف الدين أحمد بين أيدينا الشريفة ، وشملناه بحسن ملاحظتنا

التي زادت تشريفه . وكان حضوره وركابنا الشريف بهيجان الصيد المحمود ، ونحن نلهج بذكره عند انتهاز كل فرصة في الصيود . وما حصلنا فيه على لذة ظفر إلا وتمنينا أن يكون له فيها مشاركة شهود ، أو أن يكون حاضراً يرى كيف يسهل الله لنا بلوغ كل مقصود ، وخرج معنا إلى المصايد ، وتفرج على الصائد ، ورأى ما حف بموكبنا المنصور من ذوات الوبر والجناح ، وما سخر لنا من جياد الخيول من الرياح ، فشاهد ما أوتينا من الملك السليماني في سرعة السير ، واختلاف ما جمع لنا من الأنس والوحش والطير . واستغرقت أوقاتنا الشريفة في السؤال عن مزاجه الكريم ؛ وما هو عليه من السرور المستديم ، والتأييد الذي انقلب به أولياؤه بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله . والله ذو فضل عظيم . وتجددت المسرات بهذه البشائر المسرات ، واضفنا هذه النعمة إلى ما نحمد الله عليه مما أيدنا به من النصر والظفر والتأييد ، والنعم التي توالت إلينا ونحن نرجو المزيد . ويضاعف الحمد والشكر لله على هذه المواهب التي أطافت بنا بطاقاتها الثمينة ، وأنارت في آفاقنا أقمارها المبينة ، وشملت ملوك الإسلام نعمتها من كل جانب ، وأشرقت شموسها حتى ملأت بأنوارها المشارق والمغارب .

وأما ما اتحفت به من البلكات الشريفة فقد وصلت وتقبلت وقبلت ، وأكرمت لأن مهديها كريم ، وأعظمت لأنها تحفة من عظيم ، واثنينا عليه بما طاب ، وشكر بحرنا الزاخر جود أخيه السحاب .

وأما الإشارة العالية إلى تقاضي تجهيزه من الملاكمين والسوقات فقد رسمنا بالانتهاء إليه ، لأنه لا فرق بيننا وبين أخينا فيما يخص مراسمنا جميعاً عليه . وقد جهز من الملاكمين والطين المختوم ما أمكن الآن . ومنه ما كنا رسمنا باستعماله من البلكات باسمه الشريف وتأخر . فلما

فرغ جهز معه . وبعد هذا نجهز من يتوجه إلى حضرته العالية ليجدد عهداً ، ويؤدي إليه وداً ، وما يتأخر إلا ريثما تتجلى السحب المتوالية ويمكن التوصل سالماً إلى حضرته العالية .

وأما غير هذا ، فهو أن الحاج أحمد أحضر إلينا ورقة كريمة ، بل درة يتيمة بخط يد الحضرة الشريفة ، فأعجبنا بها ، ووجدناها في غاية الحسن التي لا يعد زهر الرياض لها شبهاً . وما رأينا مثل ما كتب فيها ، كأن السماء قد نظمت في سطورها النجوم الزهرة في دراريها . فأكرم بيد كتبت سطوراً اعترف بهـا الرمح للقلم ، واستمد السحاب من طروسها الكرم ، وجرت بجامد ذهب وسائل دم ، وتنافست على إثباتها صحائفة وأقلامه ودويه والجو والبروق والديم ، وطلعت منها تباشير النجاح ، وتحاسد عليها مسك الليل وكافور الصباح ، واتفقت على معنى واحد ، وقد تنوعت قسماً ، وأشرقت فتمنت السماء أن تكون لها صحيفة والبرق قلماً ، فأرحضت قـــدر ياقوت في التقليب ، وحسنت بمحاسنها هجران حبيب ، لقد أوتيت من الخط غاية الكمال ، وبسطت يد ابنُ هلال فيه عن فم ابن هلال . فأما الولي فإنه من أوليائها ، وانواؤه مما فاض من إنائها ، طالما حدق إليه أبو علي فاختطف برقـه أباه مقلة ، وفطن ابن أسد أنه لو أدركه أبوه لنسي شبله ، فسبحان من صرف في يمينه القلم بل الأقاليم ، ووهبه من أفضل كل شيء . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العميم .

وقد أعيد المقرب شرف الدين أحمـــد ، وحمل من المشافهات الشريفة ما تفض على أخينا عقوده ، وتفاض بروده ، والحضرة الشريفة لا تقطع أخبارها عنا التي تسر بانبائه ، وتسير بنجوم سمائه . لا زالت مناقبـه مسموعة ، والقلوب على ما يجمع كلمة الإيمان مجموعة ، إن شاء الله تعـالى .   صبح الأعشي للقلقشندي جـ ٧ ٢٥٣ – ٢٥٦

تيمورلنك ٧٧١-٨٠٧هـ / ١٣٦٩-١٤٠٤م

٢٣٨- رسالة أرسلها تيمورلنك إلى الملك الظاهر برقوق، وذلك قبل أن يبدأ غزوه لبلاد الشام سنة ٧٩٢هـ أو سنة ٧٩٦هـ :

قل اللهم مالكَ الملكِ، فاطرَ السمواتِ والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون (١) .

اعلموا أننا جند الله، مخلوقون من سخطه، ومسلطون على من حل عليه غضبه، لا نرق لشاك ولا نرحم عبرة باكٍ. قد نزع الله الرحمة من قلوبنا. فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا قد خربنا البلاد، وأيتمنا الأولاد، وأظهرنا في الأرض الفساد، وذلت لنا أعزتها وملكنا بالشوكة أزمتها. فإن خيل ذلك على السامع وأشكل وقال: إن فيه عليه مشكلاً، فقل: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة (٢) . وذلك لكثرة عددنا وشدة بأسنا. فخيولنا سوابق، ورماحنا خوارق، وأسنتها بوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وجيوشنا كعدد الرمال، ونحن أبطال وأقيال. وملكنا لا يرام، وجارنا لا يضام، وعزنا لسؤدد منقام، فمن سالمنا سلم، ومن حاربنا ندم، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جهل. وانتم، إن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم وعلى بغيكم تماديتم فلا تلوموا إلا أنفسكم. فالحصون منا، مع تشييدها لا تمنع، والمدائن، بشدتها، لقتالنا لا ترد ولا تنفع.

---

(١) سورة الزمر الآية ٤٦ .

(٢) سورة النمل الآية ٣٤

ودعاؤكم علينا لا يستجاب فينا فلا يسمع ، فكيف يسمع الله دعاءكم وقد أكلتم الحرام وظلمتم جميع الأنام ، وأخذتم أموال الأيتام وقبلتم الرشوة من الحكام، وأعددتم لكم النار وبئس المصير ، إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً[1] . فبما فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم موارد المهالك . وقد قتلتم العلماء وعصيتم رب الأرض والسماء ، وأرقتم دم الأشراف . وهذا والله هو البغي والإسراف ، فأنتم بذلك في النار خالدون ، وفي غد ينادى عليكم : فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون[2] . فأبشروا بالمذلة والهوان يا أهل البغي والعدوان . وقد غلب عندكم أننا كفرة ، وثبت عندنا والله أنكم الكفرة الفجرة ، وقد سلطنا عليكم الإله ، له أمور مقدرة وأحكام محررة ، فعزيزكم عندنا ذليل ، وكثيركم لدينا قليل ، لأننا ملكنا الأرض شرقاً وغرباً ، وأخذنا منكم كل سفينة غصباً . وقد أوضحنا لكم الخطاب فأسرعوا برد الجواب ، قبل أن ينكشف الغطاء وتضرم الحرب نارها ، وتضع أوزارها وتصير كل عين عليكم باكية ، وينادي منادي الفراق : فهل ترى لهم من باقية[3] . وقد انصفناكم إذ راسلناكم ، فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين ، فتخالفوا كعادتكم سنن الماضين وتعصوا رب العالمين ، فما على الرسول إلا البلاغ المبين . وقد أوضحنا لكم ، فأرسلوا برد الجواب ، والسلام (٤) . النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ١٢ ٤٩ — ٥٠

(١) سورة النساء الآية ١٠ .
(٢) سورة الأحقاف الآية ٢٠ ،
(٣) سورة الحاقة الآية ٨ .
(٤) ورد نص هذه الرسالة في كل من « نزهة النفوس » الصيرفي ج ١ ، ٣٧٩-٣٨١ و « الدرة المضية في الدولة الظاهرية » لابن صصري ١٤٧ و « تاريخ ابن الفرات » ج ٩ ٣٧١-٣٧٣ و « السلوك » للمقريزي ج ٣ ، ٨٠٣-٨٠٧ مع وجود خلافات طفيفة فيها .

٢٣٩ ـ رسالة برقوق الجوابية لتيمورلنك :

بسم الله الرحمن الرحيم

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء[١] . وحصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية ، ونزغاتكم الشيطانية ، وكتابكم يخبرنا عن الحضرة الخانية وسيرة الكفرة الملائكية ، وانكم مخلوقون من سخط الله ، ومسلطون على من حل عليه غضب الله ، وانكم لا ترقون لشاك ولا ترحمون عبرة باك ، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم ، فذاك أكبر عيوبكم وهذه من صفات الشياطين لا من شيم السلاطين . وتكفيكم هذه الشهادة الكافية ، وبما وصفتم به أنفسكم ناهية ، قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين[٢] . ففي كل كتاب لعنتم ، وعلى لسان كل مرسل نعتم وبكل قبيح وصفتم . وعندنا خبركم وحين خرجتم . إنكم كفرة ألا لعنة الله على الكافرين . من تمسك بالأصول فلا يبالي بالفروع . ونحن المؤمنون حقاً ، لايدخل علينا عيب ولايضرنا ريب . القرآن علينا نزل ، وهو سبحانه رحيم لم يزل ، فتحققنا نزوله ، وعلمنا ببركته تأويله ، فالنار لكم خلقت ولجلودكم أضرمت . إذا السماء انفطرت[٣] . ومن أعجب العجب تهديد الرتوت[٤] بالتوت ، والسباع

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢٦ .

(٢) سورة الكافرون الآيات ١-٦ .

(٣) سورة الانفطار الآية ١ .

(٤) الرتوت جمع رت وهم علية القوم وسادتهم :

بالضبلع ، والكماة بالكراع . نحن خيولنا برقية ، وسهامنا عربيـة ، وسيوفنا يمانية ، ولبوسنا مصرية ، وأكفنا شديدة المضارب ، وصفتنـا مذكورة في المشارق والمغارب . إن قتلناكم فنعم البضاعة ، وإن قتـل منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة : ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بمـا آتاهم الله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولاهم يحـــزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع أجر المؤمنين [1] . وأما قولكم : قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال فالقصاب لايبالي بكثرة الغنم ، وكثير الحطب يفنيه الضرم ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين [2] .

الفار الفار من الرزايا وطول البلايا . واعلموا أن هجوم المنية عندنا غاية الأمنية ، إن عشنا عشنا سعداء ، وإن قتلنا قتلنا شهداء . ألا إن حزب الله هم المفلحون [3] . أبعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين تطلبون منا طاعة . لاسمع لكم ولا طاعة . وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبـل أن ينكشف الغطاء ، ففي نظمه تركيك ، وفي سلكة تلبيك . لو كشف الغطاء لبان القصد بعد بيان أكفرتم بعد إيمان ، أم اتخذتم إلهاً ثان . وطلبتم من معلوم رأيكم أن نتبع دينـكم : لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً [4] . قل لكاتبك الذي وضع رسالته ووصف مقالته : وصل كتابك كضرب رباب أو كطنين

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٩ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٤٩ .
(٣) سورة المجادلة الآية ٢٢ .
(٤) سورة مريم الآية ٢٠ .

ذباب . كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً ونرثه مايقول [1].
إن شاء الله لقد لبكتم [2] في الذي أرسلتم والسلام [3] .

النجوم الزاهرة لابن تغري بردى ج ١٢ ٥١ – ٥٢

٢٤٠ ـ رسالة ثانية من السلطان الملك الظاهر برقوق جواباً لرسالة أرسلها له تيمورلنك .

طويل حياة المرء كاليوم في العد ... فخبرته أن لا يزيد عن الحد
فلا بد من نقص لكل زيادة ... لأن شديد البطش يقتص للعبد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي الشأن العظيم السلطان العميم الإحسان ، العليم بما كان وما يكون في كل زمان ومكان ، تاهت في ميادين فلوات معرفته سوابق جياد الأفهام ، وتدكدكت لهيبة جلاله جبال العقول والأوهام . وصلى الله على سيدنا محمد حبيب الرحمن وسيد الاكوان وصاحب المعجزات والبرهان ، المبعوث إلى الخلق أجمعين من الأنس والجان ، والمنعوت بالفضل العميم والخلق العظيم ، في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، وعلى آله وصحبه الغر الكرام الحسان ، وعلى التابعين لهم بإحسان وسلم تسليماً كثيراً ما تعاقب الحدثان .

وبعد : فقد وصل إلى أبوابنا الشريفة العاليه كل ما جهزته أولاً

---

(١) سورة مريم الآية ٧٩ .

(٢) خلطتم .

(٣) وردت نصوص مشابهة في كل من « نزهة النفوس والأبدان » لابن الصيرفي ج ١ ٣٨١-٣٨٢ و « كتاب الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية » لابن صصري ١٤٧-١٤٨ و « تاريخ ابن الفرات » ج ٩ ٣٧٣-٣٧٤ .

وآخراً يا أمير تيمور من كتاب ؛ وأحاطت علومنا الشريفة بما فيهـا من كلام وخطاب ، وقصد وعتاب ، وإرعاد وإرغاب وإرهاب ، فأمـــا ما ذكرته في أول كتبك من ألقابنا الشريفة بالتعظيم والتبجيل والتفخيم فقد علمناه وعرفناه ، ولكن وجدنا الكلمتين اللتين في الطمغات آخـر الكتب وهما راسق رسق منافيتين لذلك التعظيم ، وهذا غـير مستقيم لأنه متناقض غير متناسب ، فعجبنا من هذا التناقض الواضح والتخالف الفاضح وفي المثل السـائر : أصلح وقابل وأفسد وقابل .

وأما إرسالك السيف والتركاش لنا فقد تعجبنا منه إلى الغـاية ، وأنكرناه إلى النهاية ، لأنك لم تزل في كتبك كلها تستشهد بتاريـــخ جنكيزخان وأخباره وأحواله ، وتقتدي به في أقواله وأفعاله . وما سمعنا في التواريخ ولا اتفق قط من جنكيزخان ، ولا ممن تقدمه وتأخره من ملوك مملكته في زمن من الأزمان أنه أهدى إلى خادم الحرمين الشريفين سيفاً ولاتركاشاً ، ما اختلف في ذلك اثنان . فإرسالهما منك إلينا هل هو من باب المحبة أولاً ، وإن كان تخويفاً فنحن ماانخاف من سيفك وتركاشك بعناية الله العظيم الأعلى .

السيف والرمح والنشاب قد علمت ... منا الحروب فسلها فهي تنبيـــكا
إذا التقينا تجد هذا مشاهـــدة ... في الحرب فاثبت فأمر الله آتيكا
بخدمـــة الحرمـــين الله شرفنــــــا ... فضلاً وملكنا الأمصـــار تمليكا
وبالجميل وحـــلو النصر عـودنا ... خذ التواريخ واقرأها تلبيـــكا
والأنبياء لنا الركن الشديد فكم ... بجاههم من عدو راح مفـلوكا
ومن يكن ربه الفتـــاح ناصره ... ممن يخاف ؟ وهذا القول يكفيكا

وقد أجبناك عن السيف والتركاش فيما مضى قبل هذا الوقت وتقدم فاعرف ذلك واعلم .

وأما ما ذكرته من قولك : إنك فتحت معنا باب المحبة والوداد والصحبة والاتحاد ، لاباب المخاصمة والمشاورة والعناد ، فقد علمنا ذلك وفهمناه . والذي نعرفك به ان الذي وقع منك بخلاف ما قلت ، لأنك لوكنت صادقاً في قولك ، كنت لما حضر إليك شكر أحمد وأرغون السلامي اللذان هما من بعض مماليكنا ومن جملة رعايانا أمسكتهما وجهزتهما إلينا بعد أن قيدتهما ، فما فعلت ذلك بل عملت بالضد منه لأنك آويتهما وحميتهما وعظمتهما وأكرمتهما وجعلتهما من خواصك وأحبابك وأوليائك وأصحابك . وأيضاً توجه إليك صوّلة بن حيار الذي هو قطعة هجان من هجانتنا فأكرمته وألبسته التاج وعظمته وبعثت معه خلعة إلى نُعَيْر المذكور وإلى غيره من عربانه ، ووعدته بالتقدمة والإمارة ، بالتصريح العظيم لا بالتلويح والإشارة ، وكتبت إليه كتاباً ما تركت فيه ولاخليت وأظهرت كل ما كان عندك وما أبقيت فجهزه إلينا وقرىء على مسامعنا الشريفة كلمة كلمة ، وعرفنا واضح قصده ومبهمه . وها نحن نشرحه لك لتعلم وتتحقق أنه وصل إلينا واطلعنا عليه وما خفي أمره علينا . وهذا نصه .

دام دولته :

الأمير الكبير المعظم أمير نُعَيْر : أدام الله دولته شمساً . نعرض لعلو علومه المحروسة أنه قد اتصل بنا طردك عن الشام ومعاملتهم معك غير الواجب . حال وقوفك على هذا المثال تسرع في الوصول إلينا بحيث نعطيك ما أعطى المرحوم عمك أمير سليمان طاب ثراه ، ونجعلك مقدم العساكر المنصورة . وبهذا برز الحكم المطاع من الحضرة العالية . ففي عزم العساكر والجيوش المعظمة الوصول إلى أطراف البلاد شرقاً

وغرباً وروميأ من سائر النواحي والأمصار والبلاد والأقطار . وإن أبطأ ركابك عن الوصول فنحن واصلون إليكم في طريقنا إلى مصر وغيره ولايبقى لطاعتك مزية ولامنة ، فيكون ذلك على الخاطر المبارك . فينبغي أن لايكون جواب الكتاب إلا قدوم الركاب ، ففيه لكم الفوائد العظيمة والعطايا الجسيمة ، مع ذلك إصابة الرأي منكم تغني عن تأكيد الوصية إليكم . ومهما عُرض من المهام يُقضى حسب المراد ومنهج السداد والله الموفق .

وبحاشية الكتاب المذكور نصه :

وقد كتبنا إلى السلطان أحمد أن يصل إلينا ، فانظر كيف كان عاقبة أمره فينبغي أن تتوجه أو يتوجه بعض أولادك إلينا لأجل مصالحك كافة .

فيا أمير تيمور لوكنت صادقاً ، وكلامك بالحق ناطقاً ، ما وقع منك مثل هذا ولا صدر ولا اتفق بل ولا ببالك خطر ، ولكن كل ما يكون في خاطر الإنسان يظهر من الكلام الذي يخرج من فيه . وكل وعاء لاينضح إلا بما فيه .

يافاعلاً بالضد من قوله   فعل الفتى دال على باطنه

والمرء مجزي بأعماله   إذ أظهرت ما كان في مكمنه

وأما طلبك منا السلطان أحمد الجلايري غير مرة ، فقد علمناه ، ولكن عرفنا يا أمير تيمور ايش عمل بك ؟ حتى حلفت له عدة مرار بأيمان الله تعالى العظيمة ، وأعطيته العهود والمواثيق بأنك ما تتعرض إليه ولا إلى مملكته ولا توافيه ولاتشوش عليه ، حتى اطمأن بأيمانك وركن إليك وأحسن ظنه فيك ووثق بك ، واعتمد عليك فخنته وغدرته ، وأتيته

بغتة على حين غفلة وبدرته ، وأخذت مملكته وبلاده وأمواله وأولاده ، واعظم من ذلك أنك اخذت أيضاً حريمه وهن في عقد نكاحه وعصمته وأعطيتهن لغيره . وقد نطق الكتاب والسنة بتحريم ذلك وعظم ذنب فاعله وقبح جرمه ، ففي أي مذهب من المذاهب يحل لك أخذ حريم المسلمين وإعطاؤهن لغير أزواجهن من المفسدين الظالمين ، وهن في عصمة أزواجهن وعقد نكاحهن ؟ إن هذا لهو البلاء المبين ، وكيف تدعي أنك مسلم وتفعل هذه الفعال ؟ عرفنا في أي مذهب لك هذا حلال ؟ فأعمالك هذه كلها منافية لدعواك ، بل منافية لدين الإسلام وشرع سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام . قال الله تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون [١] . وقال : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون [٢] . وقال : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون [٣] . وقال عز وجل : ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه [٤] . وقد بين لنا الخير والشر والحلال والحرام واهلها فقال : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي [٥] ، وقال تعالى : ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا [٦] . وقال تعالى : قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم

(١) سورة المائدة الآية ٤٤ .
(٢) سورة المائدة الآية ٤٥ .
(٣) سورة المائدة الآية ٤٧ .
(٤) سورة الطلاق الآية ١ .
(٥) سورة النحل الآية ٩٠ .
(٦) سورة النساء الآية ٢٢ .

أو ما ملكت ايمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (١) . وقال رسول الله ﷺ . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه . وقال عليه السلام : المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه ، ففي أي مذهب من دين الإسلام تستحل هذه المحرمات العظيمة ، والمنكرات القبيحة الشنيعة الجسيمة التي يهتز لها العرش ويغضب الله عز وجل لها ورسله والملائكة والناس أجمعون ؟ وما كفى ما فعلت من القان أحمد المشار إليه حتى تطلبه منا ؟ ! إعلم أن القان أحمد المشار إليه قد استجار بنا وقصدنا وصار ضيفنا ، وقد ورد : من قصدنا وجب حقه علينا . وقال تعالى لسيد الخلق أجمعين في حق الكفار الذين هم أنجس الناس : وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه (٢) . فكيف بالمسلمين اذا استجاروا بالمسلمين ، وكيف بالملوك أبناء ملوك المسلمين ، الذين لأسلافهم الكرام معنا ومع ملوك الإسلام خدام الحرمين الشريفين صحبة ومحبة وأخوة في الله تعالى ؟ ولو لم يكن ذلك كيف يجوز في شرع المروءة والنخوة والوفاء أن نسلم ضيفنا ونزيلنا والمستجير بنا ؟ خصوصاً وجنسنا جركس جنس ملوك الإسلام السالفين خدام الحرمين الشريفين الذين اتفق لهم مع التتار ما تشهد به التواريخ ، ومن عادتنا وشأننا وطباع جنسنا أننا لانسلم ضيفنا ولا نزيلنا ولا من استجار بنا لأحد ، وإن كنت لاتصدق ذلك فعندك من هم من جنسنا سلهم يعرفوك ، فنحن لا يضام لنا نزيل ، نقري الضيف ونعامله بالجميل ، وهذه جبلتنا الغريزية وعادة أصلنا الأصيل ، فإرسال القان أحمد اليك أمر مستحيل :

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ١ - ٧ .

(٢) سورة التوبة الآية ٦ .

إنّا ذوو الفضل العزيز الوارف	أبوابنا هي ملجأ للخائف
تقري الضيوف ولا يضام نزيلنا	شيمٌ ورثنا فضلها عن سالف
وكليمة تكفي الذي هو عاقل	والرمز تصريحاً غدا للعارف

وقولك : إن العادة كانت جارية بين من سلف من ملوك الإسلام وملوك التتار، أنه من هرب من جهة إلى جهة أخرى يمسكه الملك الذي يهرب إليه ويقيده ويجهزه إلى الملك الذي هرب من عنده ، وأن دمرداش بن جوبان لما هرب في الزمن الماضي من ملكه وجاء إلى سلطان مملكتنا المعظمة المشرفة أمسكه وقيده وأرسله إليه فقد علماه . وليس هذا الذي قلته وحكيته بصحيح ، لأن الذي وقع واتفق بخلافه . وهو أن أميراً من أمراء السلطان الملك الناصر كان يسمى قراسنقر هرب من عنده وراح إلى أبي سعيد فقطع رأسه وجهزه إلى الملك الناصر . وأما دمرداش المذكور ، فالملك الناصر ما أرسله إلى أبي سعيد مثل ما قلت ، وما مات دمرداش المذكور إلا في مصر المحروسة ، فليكن ذلك في علمك ثابتاً . وعلى كل حال فكلامك حجة عليك لا لك ، لأنك آويت شكر أحمد وأرغون السلامي وأكرمتها وقربتهما ، وكذلك كل من حضر إليك من مماليكنا ورعايانا وخدمنا من أهل مملكتنا ، فلو أمسكتهم وقيدتهم وجهزتهم إلينا كنت تكون صادقاً في دعواك ، وكنت إذا طلبت منا أحداً ما تلام على طلبه ، فكيف وأنت البادي والمعتدي ؟ ! فهذا كلام كله شاهد عليك لا لك .

وأما قولك : إن صاحب تكريت كان حرامياً قاطع طريق ففعلت معه ما فعلت مقابلة له على نحسه وحرامه وقطعه الطرقات ، فقد علمناه وسلمنا لك هذا الأمر بيض الله وجهك وما قصرت فيه ، فحبذا

ما عملت ونعم ما فعلت في حقه من إعطائه جزاءه . أفأهـل بغداد كانوا حرامية قطاع طرق حتى فعلت بهـم ما فعلت ؟! وقتلت منهم من التجار خاصة ثمانمائة نفس في المصادرة بالعقوبة والعذاب . ففي أي مذهب يجوز هذا ؟ وهل يحل لمن يدعي الإسلام أن يعمل بخلق الله تعالى الذين أمر بالشفقة عليهم والإحسان إليهم ونشر العدل فيهم هذه الفعال ؟ وقـد تعجبنا منك ، يا أمير تيمور إلى الغـاية : كيف تدعي أنك عادل وتعمل بأهـل بغداد المسلمين الموحدين وبغيرهم من المسلمين هـذه الفعائل ؟ أما تعلم أن الشفقة على خلق الله تعظيم لأمر الله ، وأن الله رحيم يحب من عباده الرحماء ، وأن الظلم حرام في جميع الملل ؟ قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى يقول : يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . وقال عليه السلام : لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . وورد : إن فاتني ظلم ظالم فأنا الظالم ، وحسب الظالمين رب العالمين الذي قـال في حقهم « ألا لعنة الله على الظالمين[1] . وقال : إنـه لا يفلح الظالمون[2] . والباغي له مصرع . ولما جاء هولاكو ومنكوتمر وغازان وقصدوا ملوك الإسلام خدام الحرمين الشريفين . الذين هم من جنسنا كما ذكرنا لك أعلاه ، اتفق لهم ما اتفق ممـا هو مشروح في التواريخ ومعلوم عند الناس . فمهما أخذه أولئك تأخذه إذا جئت . وأما قولك في كتبك : إنه إن لم نجهز إليك السلطان أحمد الجلايري مقيداً ، نجيء في أول فصل الربيع إذا نزلت الشمس برج الحمـل ، أو لما تنزل الميزان ، وإن جهزناه إليك مقيداً تتأكد المحبـة والصحبة بيننا

---

(١) سورة هود الآية ١٨ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٢١ .

وبينك ، فقد علمناه ، والذي نعرفك بـه هو أننا كنا نتوقع أنك تجيء قبل هذا الوقت ، فقـد أبطأت كثيراً ، وملوك الإسلام خدام الحرمين الشريفين الذين كانوا قبلنا ما تصالحوا مع مثل هولاكو وغيره إلا حتى تزاوروا وتقابلوا واجتمعوا . ونحن أيضاً كذلك ما نصطلح إلا بعـد أن نتزاور ونتقابل ونجتمع . وأنت طلبت أحمد الجلايري ، وها نحن واصلون إليك به ، نطلب منك أن تشفعنا به ، وتهبنا ذنبه الذي صدر عنه ، وندخل عليك بسببه ، ونسأل إحسانك أن تعين لنا موضعاً نلتقي معك فيه ، حتى نأتيك بأحمد الجلايري المذكور فيه ، ونشفع فيه عندك . فعين لنا الوضع المذكور على حسب ما تختار ، إما من ذاك الجانب من الفرات أو من هذا الجانب ، وأي موضع عينته وسميته لنا جئناك بالمشار إليه فيه ، وندخل عليك في أمره ونستوهب ذنبه منك .

وأما ما ذكرته من أمر الرسول فقد علمناه . والذي نعرفك بـه هـو أن الرسول المذكور كان يكتب المنازل منزلة منزلة إلى بـلادنا المحروسة ، واطلع عليه في ذلك جماعة من جهتنا . ولما وصل إلى الرحبة المحروسة قال للنائب بها : بس الأرض للأمير تيمور وأقـرأ الخطبة باسمه ، فلو كان رسولاً مصلحاً ما كان كتب المنازل ولا أكثر فضوله ، وتحدث بما لا ينبغي له ، وتكلم فيما لا يعنيه ، وتعدى طوره ، لأنه لا ينبغي للرسول أن يكون إلا أعمى أخرس غـزير العقل ، ثقيـل الرأس ، كما قال بعضهم :

إذا قصدت الملوك فالبس مـن التقى والعفاف ملبس
ادخل إذا ما دخلت أعمى واخرج إذا ما خرجت أخرس

وكيف يمكن نائبنا الذي هو من جملة مماليكنا ، وجبل لحمه ودمه

على انعمنا وصدقاتنا ، وغذي وربي بلبان فضلنا وجودنا [أن] يبوس الأرض لغـيرنا ، أو يخطب باسم غيرنا ؟ وكيف يـترك اسم خادم الحرمين الشريفين أستاذه ، ويـذكر اسم غيره ؟ فقد تكررت منك الفعال القبيحة ، الموجبة لما يقدره الله تعالى . ونحن نقسم بالله تعالى لولا قلتَ لتَمُتَيْر : تعال حتى أعملك مقدم العساكر ، وتمشي على الشام ومصر ، وقربتَ ممالكنا وآويتهم ، وبدأت بهذا كله وحصل منـك التعدي ، ما كان يتفق لرسلك ما اتفق . ولكن الجزاء من جنس العمل . والخير بالخير والبادي أكرم . والشر بالشر والبادي أظلم .

وأيضاً كل وقت تسأل عن ممالكنا المصونة وكثرة عساكرنا المنصورة من قلتها . فلو كنت طالباً المحبة والصحبة والمصادقة ما وقع منك هذا .

وأما قولك : إن هولاكو أخذ من كل مائة رجل رجلين وجـاء بهم ، وأنت قد جئت بالرجلين وبالمائة . واعتمادك على كثرة عسكرك على قولك فقد علمناه . وإن كان اعتمادك على كثرة عساكرك فاعـتمادنا نحن على الله تعالى ، واستمدادنا من الحرمين الشريفين ، ومددُنا مـن بهما من الانبيـاء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ والصحابـة والصالحين ، رضي الله عنهم . فإذا تلاقينا يكون ما قدره الله تعـالى ويعطي الله النصر لمن يشاء ، وتعلم ذلك الوقت لمن العاقبة ، ويظهـر فعل الله الرب القادر تعالى ، وعوائده الجميلة بنا التي لاشك عندنا فيها ولاريب . وقطُّ ملوك التتار ما انتصروا على ملوك الإسلام ، بـل ملوك الإسلام خدام الحرمين الشريفين هم المؤيدون المنصورون المظفرون بعون الله تعالى ، وببركة سيدنا محمد ﷺ ، معوَّدون من الله الكريم بالفضل والإحسان والغنائم والفتوحات ؛ لأنهم أهل الكتاب والسنة والعدل

والخير والخوف من الله تعالى ، لايقعون في محارمه ، ولا يقدمون على ارتكاب ماينهى عنه . فهم المؤمنون المتقون . وقال الله تعالى : وكان حقاً علينا نصر المؤمنين[1] . وقال تعالى : إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا [2] . وقال : والعاقبة للتقوى[3] . وقال تعالى : ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون [4] . وسوف ينجز الله تعالى وعده ، لأنه لايخلف الميعاد .

وأما ما ذكرته من أمر قرا يوسف وبيرحسن وغيرهم ، وان في معاشهم زغلاً ، وأنهم مفسدون ، وجعلك لكل واحد منهم ذنباً ، وأنك أنت العادل الخير المفلح ، والناس كلهم مناحيس وأنت الصالح ، والله يعلم المفسد من المصلح ، فقد علمناه . والذي نعرفك به هو أن النور لايجتمع مع الظلام ، ولا اليقظة والمنام ، ولا الخير والشر في حيز واحد ، لأنها متضادة ليس بينها اتفاق ولا التئام . وفعل المرء دال على نيته وطويته . قال الله تعالى : قل كل يعمل على شاكلته [5] . وقال : وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوي الأحياء والأموات [6] . وقال : إن أكرمكم عند الله أتقاكم [7] . وشتان مابين أهل الخير والفساد ، وأهل العدل وأهل البغي والعناد . فالخير هو المتقي ، ومن يرتكب ما حرم الله ويعتقد

---

(١) سورة الروم الآية ٤٧ .
(٢) سورة غافر الآية ٥٤ .
(٣) سورة طه الآية ١٣٢ .
(٤) سورة الأنبياء الآية ١٠٥ .
(٥) سورة الاسراء الاية ٨٤ .
(٦) سورة فاطر الاية ٢١-٢٢ .
(٧) سورة الحجرات الاية ١٣ .

أنه على الحق فهو الشقي .

إذا المرء لم يعرف قبيح خطيئته ولا الذنب منه مع عظيم بليته
فذلك عين الجهل منه مع الخطا وسوف يرى عقباه عند منيته
وليس يجازى المرء إلا بفعله ولايرجع الصياد إلا بنيتـــه

وأما قولك : نعَيْر العرب أرسل بالخفية يطلب السلطان أحمد ، وإننا نرسم لنوابنا أن يحترزوا من توجهه إليه ولا يمكنوه من ذلك ، فإنــه إن اتفق توجهه إليه يكون ذلك سبباً لخراب الديار ، فقد علمناه . والذي نعرفك به هو أننا نتحقق أن ما يحصل خرابُ الديار والدمار ومحو الآثار إلا لمن يسعى ويتكلم بخراب الديار ، ولايحيق المكر السيء إلا بأهله (١) . وستعلم ديار من تخرب ، وعمر من يذهب ؛ وعلى مـن تكون دائرة السوء دائرة ، وسطوات المنايا قاهرة : وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون (٢) . وها نحن واصلون بجيوش وجنود وعساكر مؤيدة ، من السباع أسبع . لاتروى أسلحتهم من دماء البغاة ولاتشبع . والجواب ماترى لا ما تسمع .

قل للذي في الورى أضحى يعادينا احذر فأمرك رب العرش يكفينا
مازال يمنحنا فضلاً ويكلــؤنا وفي العدا بعظيم النصر يشفينـا
أقامنا رحمة للنــاس أجمعـــم ولم يزل من جزيل الجود يعطينـا
بالعــز والنصر والتأييــد عودنا وزادنا في مديد الأرض تمكينا
وللجميل وفعل الخـير وفقنـــا شكراً له ستره الأعلى يغطينـــا
قد أسكن الرحمة الحسنى التي أمنت بها الأنام بأقصى ملكنا فينـــا

---

(١) سورة فاطر الاية ٤٣ .
(٢) سورة الشعراء الاية ٢٢٧ .

فكلما بالدعاء المرتضى نطقــت　　لنا الرعايا أجاب الكون آمينـا

الله حـافظنــا ، الله ناصرنا　　من ذا يعاندنا ؟ من ذا يقاوينا ؟

والله الموفق بفضله العميم ، والهادي إلى الصراط المستقيم ، بمنه وكرمه وجوده ونعمه ، إن شاء الله تعالى .

كتب في ...... [1] من جمادى الأولى سنة ست وتسعين وسبعمائة .

صبح الأعشى للقلقشندي جـ ٧ ٣٠٨ - ٣١٩

٢٤١ - رسالة من برقوق إلى تيمورلنك سنة ٧٩٩ هـ حول طلب تيمورلنك من برقوق أن يعيد إليه أحد أقربائه واسمه أطلمش الذي التجأ إلى مصر هرباً من تيمور .

إنك إذا أطلقت الذين عندك من جهتي أطلقت من عندي مـــن جهتك ، والسلام .

شذرات الذهب لابن العماد جـ ٦ - ٣٥٦

٢٤٢ - رسالة ابن خلدون إلى صاحب المغرب [2] يخبره بما دار بينه وبين تيمورلنك عندما قابله أثناء حصاره لدمشق واجتياحه إياها .

فصـــل :

وإن تفضلتم بالسؤال عن حال المملوك فهي بخير والحمد لله . وكنت في العام الفارط توجهت صحبة الركاب السلطاني إلى الشام عندما زحف

---

(١) بياض بالأصل . ذكر ناشر ومحرر صبح الأعشى جـ ٧ - ٣٠٧ أن هذه الرسالة التي ابتدأت ص ٣٠٧ وانتهت ص ٣١٩ من الجزء السابع إنما أضيفت إلى الأصل وكتبت بخط مغاير لخط المخطوط الأصلي الذي اعتمده الناشر لتحقيق المخطوط .

(٢) هو السلطان المريني أبو سعيد عثمان الثاني ابن أحمد الذي ملك بين سنتي ٨٠١ و ٨٣١ .

الططر إليه من بلاد الروم ، مع ملكهم تِمرُ ، واستولى على حلب وحماة وحمص وبعلبك ، وخربها جميعاً . وعاثت عساكره فيها بما لم يسمع أشنع منه . ونهض السلطان في عساكره لاستنقاذها وسبق إلى دمشق ، وأقام في مقابلته نحواً من شهر . ثم قفل راجعاً إلى مصر ، وتخلف الكثير من أمرائه وقضاته . وكنت في المخلفين . وسمعت أن سلطانهم تِمرُ سأل عني فلم يسع إلا لقاؤه ، فخرجت إليه من دمشق وحضرت مجلسه وقابلني بخير ، واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق ، وأقمت عنده خمساً وثلاثين يوماً ، أباكره وأراوحه ، ثم صرفني وودعني على أحسن حال ، ورجعت إلى مصر . وكان طلب مني بغلة كنت أركبها فأعطيته إياها ، وسألني البيع فتأففت منه ، لما كان يعامل به من الجميل . فبعد انصرافي إلى مصر . بعث إليّ بثمنها مع رسول كان من جهة السلطان هنالك ، وحمدت الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا.

وهؤلاء الططر هم الذين خرجوا من المفازة وراء النهر ، بينه وبين الصين ، أعوام عشرين وستمائة مع ملكهم الشهير جنكيزخان ، وملك المشرق كله من أيدي السلجوقية ومواليهم إلى عراق العرب . وقسم الملك بين ثلاثة من بنيه وهم جقطاي ، وطولي ، ودوشي خان .

فجقطاي كبيرهم وكان في قسمته تركستان وكاشغر والصاغون والشاش وفرغانة وسائر ما وراء النهر من بلاد .

وطولي كان في قسمته أعمال خراسان وعراق العجم والري إلى عراق العرب وبلاد فارس وسجستان والسند ، وكان أبناؤه قبلاي وهولاكو .

ودوشي خان كان في قسمته بلاد قبجق ، ومنها صراي ، وبلاد الترك إلى خوارزم . وكان لهم أخ رابع يسمى أوكداي كبيرهم ويسمونه

الخان ، ومعناه صاحب التخت ؛ وهو بمثابة الخليفة في ملك الإسلام وانقرض عقبه ، وانتقلت الخانية إلى قبلاي ، ثم إلى بني دوشي خان أصحاب صراي .

واستمر ملك الططر في هذه الدول الثلاث . وملك هولاكو بغداد وعراق العرب إلى ديار بكر ونهر الفرات . ثم زحف إلى الشام وملكها ، ورجع عنها . وزحف إليها بنوه مراراً . وملوك مصر من الترك يدافعونهم عنها ، إلى أن انقرض ملك بني هولاكو أعوام أربعين وسبعمائة . وملك بعدهم الشيخ حسن النوين وبنوه ، وافترق ملكهم في طوائف من أهل دولتهم ، وارتفعت نقمتهم عن ملوك الشام ومصر . ثم في أعوام السبعين أو الثمانين وسبعمائة ، ظهر في بني جقطاي وراء النهر أمير اسمه تيمور وشهرته عند الناس تِمُرْ . وهو كافل لصبي متصل النسب معه إلى جقطاي في آباء كلهم ملوك . وهذا تِمُرْ بن طرغاي هو ابن عمهم ، كفل صاحب التخت منهم اسمه محمود وتزوج أمه صرغتمش ، ومد يده إلى ممالك التتر كلها ، فاستولى عليها إلى ديار بكر ، ثم جال في بلاد الروم والهند ، وعاثت عساكره في نواحيها وخرب حصونها ومدنها ، في أخبار يطول شرحها . ثم زحف بعد ذلك على الشام ففعل بها مافعل . والله غالب على أمره . ثم رجع آخراً إلى بلاده . والأخبار تتصل بأنه قصد سمرقند وهي كرسيه .

والقوم في عدد لايسعه الإحصاء ، إن قدرت الف الف فغير كثير ، ولا تقول أنقص ، وان خيموا في الارض ملأوا الساح . وإن سارت كتائبهم في الأرض العريضه ضاق بهم الفضاء . وهم في الغارة والنهب والفتك بأهل العمران ، وابتلائهم بأنواع العذاب ، على ما يحصلونه من

فثاتهم آية عجب ، وعلى عادة بوادي الأعراب .

وهذا الملك تمرٌ من زعماء الملوك وفراعنتهم ، والناس ينسبونه إلى العلم ، وآخرون إلى اعتقاد الرفض ، لما يرونه من تفضيله لأهـــل البيت ، وآخرون إلى انتحال السحر . وليس من ذلك كله في شيء : وانما هـو شديد الفطنة والذكاء ، كثير البحث واللجاج بما يعلم وبما لايعلم . عمره بين الستين والسبعين . وركبته اليمنى عاطلة من سهم أصـابه في الغارة أيام صباه على مـــا أخبرني ، فيجرها في قريب المشي . ويتناوله الرجال على الأيدي عند طول المسافة ، وهو مصنوع له . والملك لله يؤتيه مـــن يشاء من عباده .

كتاب العبر لابن خلدون جـ ٧ ١٢١٩ - ١٢٢٢

٢٤٣ - رسالة أرسلها فرج بن برقوق سلطان مصر وبلاد الشام إلى تيمورلنك جواب رسالة كان تيمورلنك أرسلها له بعد غـــزوه بلاد الشام وتخريبه دمشق يطلب منه فيها أن يعيد له أحد قـــواده واسمه اطلمش الذي كان لجأ إلى والده السلطان برقوق سابقاً .

المقام الشريف العالي الكبيري العالمي العادلي المؤيدي المظفري الملجئي الملاذي الوالدي القطبي ، نصرة الدين ، ملجأ القاصدين ، مـلاذ العائذين ، قطب الإسلام والمسلمين ، دامت معدلته تيمور كوركان .

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الله الذي جعل الأرواح أجناداً مجندة ، ووصل أسباب الرشد والفلاح بمن افتتح باب الإصلاح ولم يخلف موعده ، وكفل لـــمن توكل عليه في أمور النجاح يومه وغده ، والشهادة له بأنه الله القاهر فوق عباده بقدرته المؤيدة . والصلاة والسلام على أشرف نبيٍّ طيب الله عنصـره ومحتده ، وأصلـــح ببعض نسله الشريف بين فئتين عظيمتين

بلغ كل منهما من الخير مقصده ، وعلى آله الطاهرين وذريته الظاهرين بالمصالح المرشدة ، وأصحابه الذين كانت غالب قضاياهم صلحاً بين الناس ، ورسلهم بالاتفاق مرددة ، ومن عدم الشقاق غير مترددة ، صلاة وسلاماً نصل بهما حبل البنوة بالأبوة المتجددة ، ونخمد بها نار الحرب المتوقدة .

فقد أصدرنا هذه المفاوضة إلى المقام الشريف العالي الكبيري العالمي العادلي المؤيدي المظفري الملجئي الملاذي الوالدي القطبي نصرة الدين ملجأ القاصدين ملاذ العالمين ، قطب الإسلام والمسلمين ، تيموركوركان دامت معدلته ، تهدى إليه سلاماً تتلى سوره وآياته ، وثناء تتوالى غدواته وروحاته ولا تتناهى غاياته ، وتبدى لشريف علمه أن مفاوضاته العالية التي أوردت أولاً وآخراً تضمنت رموزها باطناً وظاهراً تجهيز الأمير اطلمش لزم المقام الشريف إلى حضرته العلية ، لتنحسم مادة الحركات وتسكن القلوب والخواطر في سائر الجهات ، وتتحد المملكتان في الصداقة والوفاء والمحبة والصفاء على الصورة التي شرحها وبيَّن مناهجها ووضحها . خصوصاً ما اشار اليه من أن لجواب الكتاب حقاً لايضيع . فوقفنا عليه وقوف إجلال ، وفهمنا ما تضمنته على التفصيل والإجمال .

والذي نبديه إلى علومه الشريفة أن سبب تأخير اطلمش أنه لما قدم المقام الشريف إلى حدود الممالك الشامية ، وتوجهنا من الديار المصرية ، عرض لنا ما أوجب العود اليها سريعاً ، وكان الحزم فيما فعلناه بمشيئة الله تعالى ، ثم تحققنا من المفاوضة الواردة على يد سودون (؟)والنمر ، والحاج بيسق أحد أمراء أخورية ، فَسَمَّهُ بالله الطالب الغالب المدرك المهلك الحي الذي لاينام ولا يموت ، إنه ان جُهز إليه اطلمش المشار إليه ، رجع المقام الشريف إلى بلاده ، وانه متوقع حضوره إليه بقارة أو سلمية أو حمص أو حماة ، فأخذنا في تجهيزه إلى حضرته الشريفة على أجمل ما يكون .

فبينا نحن على ذلك اذ وردت علينا الأخبار بما اتفق لدمشق وأهلها من أنواع العذاب وتخريب قلعتها وديارها ، واحراق جامعها الذي هـــو الجامع الفرد في الممالك الإسلامية ، وغيره من المساجد والمدارس والمعاهد والمعابد ، فلما تواترت هذه الأخبار ، وتحققت هذه المضار ، لمنا من عدم ترحلكم عن دمشق وهي عامرة نقض ماتقرر ، وعدم التفاتكم إلى الأمير اطلمش المذكور وتجهيزه . فلما وردت مفاوضاته الشريفة المجهزة إلى صاحب ماردين أرسلها إلينا [وهي] الواصلة على يد المجلس السامي الشيخي ، الكبيري العالمي الناسكي ، الحسيبي النسيبي الشرفي ، عبد المؤمن شيـخ الجبال ، ابن ولي الله إمام العارفين عبد القادر الكيلاني ، أعاد الله تعالى من بركاته ، والصدر الأجل فخر الدين التاجر السّفار ؛ المؤرخة بثاني عشر ذي القعدة الحرام من سنة أربع وثمانمائه ، المتضمنة وصـــول المقام الشريف إلى أرزنكان وكماخ قاصداً للبلاد الروميه . والقصد فيها تجهيز الأمير اطلمش وان يُفتح باب المصالحه ، ويسلك طريق المصادقة ، رعاية لصلاح المملكتين ، ونظراً إلى إصلاح ذات البين . وأنه لا مطمع إلا في صحبة المودة ، وإرسال اطلمش صحبة شخص من مقربي حضرتنا الشريفـة ، لينظر ما يصدر بعد وصولها من تمهيد قواعد المجاملة ، وتشييد مباني المحبة . وان المقام الشريف - زيدت عظمته - أقسم بالله الذي هو في السماء إله وفي الأرض إله ، أن يكون في هذه الحياة محباً لمن يحبنا ومبغضاً لمن يبغضنا ، وانا نتلفظ بحضور الأمـير اطلمش كما تلفظتم . فعنـد ذلك اجتمعنا مـــع مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله - أدام الله تعالى أيامــه ، والشيخ الإمــام الفرد شيخ الإسلام سراج الملة والدين عمر البلقيني - أعاد الله تعالى من بركته - وقضاة القضاة ومشايخ العلم والصلاح ، وأركان الدولة الشريفة ، وقرئت المفاوضة بحضورهم . فلما

سمعوا ما تضمنته من عظم القسم والحلف بباريء النسم ، علموا أن جل القصد فيها تطلع المقام الشريف إلى تجهيز الأمير اطلمش المذكور. فاجتمعت الآراء على إرساله إلى حضرته الشريفة صحبة من اقتضته الآراء الشريفة . ثم وردت بعد ذلك المفاوضة من المقام الشريف - زيدت عظمته - على يد شخص من أهل إزمير ، مؤرخة بثاني عشر شهر صفر المبارك سنة تاريخه ، متضمنة ما حصل من النصر على ابن عثمان ، والظفر به والاستيلاء على غالب قلاعه ، وزبدة الكلام فيها الإسراع بتجهيز اطلمش المذكور ، ليجتمع شمله بأولاده بالحضرة الشريفة . ثم بعد ذلك وردت علينا مفارضة شريفة على يد المجلس السامي الشيخي الكبيري الأوحدي العارفي السالكي المقربي مسعود الكججاني ، رسول المقام الشريف ، وصحبته المجلس السامي الشيخ الكبيري العالمي العاملي الامامي القدوي الشمسي ، شيخ القراء إمام أئمة الكبراء محمد بن الجزري ، أدام الله النفع به ، مؤرخة بغرة ربيع الأول سنة تاريخه متضمنة معنى الكتابين المجهزين من ماردين وازمير ، وجل القصد فيها تجهيز الأمير اطلمش لتحصل طمأنينة قلوب العالمين ، وإخماد نار الفتن ، وإن العمدة على المشافهة التي تحملها الخواجا نظام الدين مسعود المشار إليه ، وإن قوله قول المقام الشريف . ومهما عقد الصلح عليه والتزم به ، كان من رأي المقام الشريف وشوره ، لايخرج عنه ولايميل إلى غيره بقول ولا فعل . فلما احضرناه وأصغينا إلى ماتحمله من المشافهة ، فإذا هي مشتملة على خالص المحبة ، وأن يكون المقام الشريف والدنا عوضاً عمن قدس الله تربه ، وأن نجهز الأمير اطلمش إليه ، وتكون عمدتنا بعد الله عز وجل عليه . فقابلنا ذلك بالقبول والاستبشار ، ومحونا آية ليل الجفاء ، وأثبتنا آية نهار الوفاء ، في الإعلان والإسرار .

وقبلنا أبوته الكريمة على مدى الأزمان وتوالي الاعصار ، وشاهد الخواجا مسعود حال اطلمش وعلم اهتمامنا بتجهيزه قبل وصوله بمدة اعتماداً على أليته السابقة ، ووثوقاً بما صرح به من الاتحاد والمصادقة . وعقدنا الصلح مع الشيخ نظام الدين مسعود المذكور بطريق الوكالة الشرعية عن المقام الشريف ، وحلفنا نظير ما حلف عليه بموافقة مولانا أمير المؤمنين – أدام الله أيامه – على ذلك بمحضر من شيخ الاسلام وقضاة القضاة ومشايخ العلم والصلاح ، وأركان الدولة الكبار ، مع حضور الأمير اطلمش لزم المقام الشريف وشهادة من يضع خطه على نسخ الصلح التي كتبت . وجهزنا منها نسختين مثبوتتين إلى حضرته الشريفة قرين هذا الجواب الشريف ، لتحيط العلوم الشريفة بمضمونها ، وبأحدهما خطنا الشريف لتخلد بخزائنه الشريفة ، والأخرى يشملها بخطه الشريف ، وتعاد إلينا صحبة رسولنا المجلس العالي الأميري الكبيري الجاهدي المؤيدي المقربي الأعزي الأخصي الأصيلي الشهابي أحمد بن أغلبك الناصري مقربنا ومقرب والدنا الشهيد – أدام الله تعالى نعمته – وجهزنا صحبته المجلس السامي الأمير الأجل الكبير المقرب المرتضى الأخص الأكمل سيف الدين قاني باي الخاصكي الناصري ، أدام الله سعادته ، المتوجهين بهذا الجواب الشريف ، المجهزين صحبة الأمير اطلمش وبقية قصاد المقام الشريف ورسله .

ومما نبديه لعلومه الشريفة أنه مما تتضمنه الملخص الشريف ، المجهز عطف الكتاب الواصل على يد الشيخ مسعود الكججاني مضاعفة الوصية بأولاد الشيخ شمس الدين الجزري ورعاية أحوالهم وتعلقاتهم ، وقد قابلنا ذلك بالإقبال والقبول وقررنا لهم بالأبواب الشريفة . ونحن بشهادة الله – وكفى به شهيداً – قد أخلصنا النية للمقام الشريف ، وعاهدنا الله عز وجل على التعاضد والتناصر والاجتهاد ، في عمل المصالح للعباد

والبلاد ، وعدم التقاصر والعمل بما فيه بياض الوجه عند الله في الدنيا والآخرة . وإجراء الأمور على السداد ، بتوفيق الله عز وجل وطلباً لرحمته الباطنة والظاهرة .

ثم استقبل لسان الحال ينشدنا :

يا أول الصفو هـــذا آخر الكدر

فيكون ذلك في علومه الشريفة . والله تعالى يديم عوارفه الوريفة بمنه وكرمه والمستند « حسب المرسوم الشريف » .

صبح الأعشى للقلقشندي جـ٧ ٣١٩ - ٣٢٤

٢٤٤ - نص الصلح الذي تم عقده بين السلطان الملك الناصر فرج ابن برقوق وبين تيمورلنـــك سنة ٨٠٥ هـ مـن إنشاء الشيـخ زين الدين طاهر :

في طرته ماصورته :

مرقوم شريف جليل عظيم مبجل مكرم جميل نظيم ، مشتمل على عقد صلح افتتحه المقام الشريف العالي القطبي نصرة الدين تيمور كوركان - زيدت عظمته - يكون بينه وبين المقام الشريف السلطان المالك الملـك الناصر أبي السعادات فرج بن السلطان الشهيد الملك الظاهر أبي سعيـد برقوق خادم الحرمين الشريفين - خلد الله تعالى ملكه - انعقد بمباشرة السفير عن المقام الشريف القطبي المشار إليه ووكيله في ذلك الخواجا نظام الدين مسعود الكججاني ، بشهادة من حضر صحبته من العـدول بالتوكيل المذكور على حكم إشارة مرسله إليه ومضمون مكاتبته . وقصده تجهيز الأمير اطلمش لزمه ، وحلف المقام القطبي على الموافاة والمصافاة واتحاد المملكتين وإجراء الأمور على السداد وعمل مصالح العباد والبلاد .

الله أمـــلي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل الصلح خير ما انعقدت عليه المصالح ، والإصلاح بين الناس أولى ما اتصلت به أسباب المناجح ، وأحق ما نطقت بـه ألسن المحامد ، وأثنت عليه أفواه المدائح . نحمده على نعمـه التي جمعت أشتات القلوب الطوائح ، وأضافت إلى ضياء الشمس نور القمر فاهتدى بهما كل غادٍ ورائح . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، شهادة تبلغ قائلها أهنى المنائح ، وتتعطر مجالس الذكر بعـرف روائحها الروائح ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل من آخى بين المتحاكمين فنصح لله ورأى الصلح من أعظم النصائح ، وأكمـل رسول انقادت لأخلاقه الرضية وصفاته المرضية جوانح النفوس الجوانح ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد : فإن أولى ما اجتمعت عليه آراء أولي الألباب ، وركنـت إليه قلوب ذوي المعرفة من أهل المودة والأحباب ، ائتلاف القـلوب بعد اختلافها ، واتصافها بالتلبس بأحسن أوصافها ، والعمل على الصلح الذي هو أصلح للناس ، وأربح متاجر الدنيا والآخرة وأدفع لليـأس والبأس ، إذ هو مفتاح أبواب الخيرات الشاملة ، ومصباح مناهج الفكر الصحيحة الكاملة ، والداعي إلى كل فعل جميل ، والساعي بكل قول هو شفاء صدى الغليل ، ونجاة من داء العليل .

ولما كان المقام الشريف العالي الكبيري العالمي العاملي المؤيـدي المظفري الملجئي الملاذي الوالدي القطبي نصرة الدين ملجأ القاصدين ملاذ العابدين ، قطب الإسلام والمسلمين تيمور كوركان ـ زيدت عظمتـه ـ هو البادي بإحياء هذه السنة الحسنة ، والحادي إلى العمل بمقتضى مفاوضته الشريفة التي هي لذلك متضمنة ، الواردة إلى حضرة عبد الله ووليـه

السلطان المالك الملك الناصر زين الدنيا والدين أبي السعادات فرج بن السلطان الشهيد الملك الظاهر أبي سعيد برقوق خادم الحرمين الشريفين ـ خلد الله تعالى ملكه ـ على يد سفير حضرته المجلس السامي الشيخي النظامي مسعود الكججاني المؤرخة بمستهل شهر ربيع الأول سنة تاريخه .

وجل مضمونها وسر مكنونها قصد إيقاع الصلح الشريف بين المشار إليهما ، ونسج المودة والمحبة والمصادقة بينهما ، وإسبال رداء محاسنهما عليهما ، بمقتضى تفويض المقام الشريف القطبي المشار إليه الأمر في الصلح المذكور إلى الشيخ نظام الدين مسعود المذكور ، وتوكيله إياه فيه ، وإقامته مقام نفسه الشريفة وجعل قوله قوله من قوله . وإنه ـ عظم الله تعالى شأنه ـ أشهد الله العظيم عليه بذلك ، وأشهد عليه من يضع خطه من جماعته المجهزين صحبة الشيخ نظام الدين مسعود المذكور ، وهما الشيخ بدر الدين أحمد بن الشيخ الإمام العالم شمس الدين محمد بن الجزري الشافعي ، والصدر الأجل كال الدين كال آغا ، وإن ذلك صدر عن المقام الشريف القطبي المشار إليه لموافقته على الصلح الشريف ، وإجابة القصد فيه بإطلاق الأمير اطلمش لزم المقام القطبي المشار إليه ، وتجهيزه إلى حضرته العالية ، وإنه عاهد الله عز وجل بحضور جم غفير من أمراء دولته وأكابرها ، ومن حضر مجلسه باليمين الشرعية الجامعة لأشتات الحلف : بالله الذي لا إله إلا هورب البرية بارىء النسم على ذلك جميعه وعلى أنه لايدخل إلى البلاد الداخلة في مملكة مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه ، وإنه مهما عاهد وصالح وعاقد عليه الشيخ نظام الدين مسعود الوكيل المذكور يقضي به المقام القطبي المشار إليه ويمضيه ويرتضيه . وانفصل الأمر على ذلك .

فعندما وقف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه ـ خلد الله

تعالى ملكه - على المكاتبة الشريفة المشار إليها وتفهم مضمونها، ورأى أن المصلحة في الصلح تبركاً بما ورد في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ، استخار الله عز وجل ، وأمر بتجهيز الأمير اطلمش المذكور وتسليمه للشيخ نظام الدين مسعود المذكور . وأذن لهما في التوجه إلى حضرة المقام الشريف القطبي المشار إليه ، بموافقة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله - أدام الله تعالى أيامه - على ذلك ، وحضور الشيخ الإمام الفرد الأوحد شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني - أعاد الله تعالى على المسلمين من بركاته - وقضاة القضاة الحكام - أعز الله تعالى أحكامهم - ومشايخ العلم الشريف والصلاح وأركان الدولة الشريفة ، ومن يضع خطه في هذا الصلح الشريف بالشهادة المضمونة .

وعُقِدَ الصلح الشريف بين مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - وبين الشيخ نظام الدين مسعود الوكيل المذكور عن المقام القطبي المشار إليه - زيدت عظمته - على حكم مضمون مفاوضته الشريفة المقدم ذكرها ، وما قامت به البينة الشرعية ، بشهادة العدلين المذكورين الواصلين صحبة الوكيل المذكور بالتوكيل المشروح فيه ؛ فكان صلحاً صحيحاً شرعياً تاماً كاملاً معتبراً مرضياً ، على أحسن الأمور وأجملها ، وأفضل الأحوال وأكملها .

وحلف مولانا السلطان الملك الناصر إلى المشار إليه - خلد الله ملكه - وعاهد الله عز وجل نظير ما حلف وعاهد عليه المقام الشريف القطبي المشار إليه من القول والعمل . واستقرت بمشيئة الله تعالى الخواطر ، وسرت القلوب وقرت النواظر ، لما في ذلك من حفظ ذمام العهود الشريفة ، وإقامة منار الشرع الشريف وامتداد ظلال أعلامه الوريفة ، واجراء كلمة الصدق على لسان أهل الحق ، وصون أمانة الله تعالى وشعار

دينه بين الخلق . فلايتغير عقد هذا الصلح الشريف على مدى الليالي والأيام ، ولاينقضي حكمه ولا ينحل ابرامه على توالي السنين والأعوام .

هذا : على أن لايدخل أحد من عساكرهما وجندهما ومماليكهما الى حدود مملكة الآخر ، ولايتعرض الى ما يتعلق به من ممالك وقلاع ، وحصون وسواحل ومواني وغير ذلـك من سائر الأنواع ، ورعاياهما من جميع الطوائف والاجناس ، وما هو مختص ببلاد كل منهما ومعروف به بين الناس ، حاضرها وباديها وقاصيها ودانيها وعامرها وباطنها وظاهرها ولا إلى من فيها من الرعية والتجار والمسافرين وسائر الغـادين والرائحـين في السبل والطرق متفرقين ومجتمعين .

هذا على أن يكون كل من المقامين الشريفين المشار إليهما مع الآخر على أكمل ما يكون في السراء والضراء من حسن الوفاء وجميل المـودة والصفاء ، ويكونا في الاتحاد كالوالد والولد ، وعلى المبالغة في الامتزاج والاختلاط كروحين في جسد ، مع ما يضاف إلى ذلك من مصادقـة الأصدقاء ، ومعاداة الأعداء ، ومسالمة المسالمين ، ومحاربة المحاربين ، في السر والإعلان والظهور والكتمان . وبالله التوفيق ، وهو العالم بما تبدي الأعين وماتخفي الصدور . وعليه التكلان في كل الأمور في الغيبة والحضور والورود والصدور .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٤ ١٠٣ - ١٠٧

٢٤٥ ـ رسالة أرسلها السلطان الناصر فرج بن برقوق رداً عـلى رسالة أرسلها له تيمورلنك بعد وصول اطلمش عند تيمور .

المقام الشريف العالي الكبيري العالمي العادي المؤيدي المظفري الملجئي الملاذي الوالدي القطبي ، نصرة الدين ملجأ القاصدين ملاذ العـائذين ،

قطب الإسلام والمسلمين تيمور كوركان ـ زيدت عظمته .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي شيد قواعد الإصلاح ، ومهد مواطن الرشد والنجاح ، وجعل أذان المؤمن يجيب داعي الفلاح ، نحمده على أن ألف بين القلوب بلطيف الارتياح ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله زم نفوس المؤمنين بحبل التقوى من حمية الجماح ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي وضح من نور رسالته فجر الإيمان ولاح ، ونفح من نور معجزاته زهرُ الدين الحنيفي وفاح ، وصلى الله عليه وعلى آله الذين شدوا ظهور كلمهم من الصدق بأتقن وشاح ، وعلى صحابته الذين بينوا من عهودهم بفقههم في الدين الواجبَ والمحظور والمباح ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فقد صدرت هذه المفاوضة إلى المقام الشريف العالي الكبيري العالمي العادلي المؤيدي المظفري الملجئي الملاذي الوالدي القطبي ، نصرة الدين ملجأ القاصدين ملاذ العائذين ، قطب الإسلام والمسلمين .

ملك يفوق الخلق طرّاً هيبة   فيه نهاية غاية التأميل

تيمور كوركان ـ زيدت عظمته ودامت معدلته ولا زالت رايات نصره خافقة البنود ، وآيات فضله متلوة في التهائم والنجود ، وسحب فضائله هامية بالكرم والجود ، ومهابة سطوته تملأ الوجود ـ نهدي إليه من السلام ما حلا في حالتي الصدور والورود ـ ومن الإخلاص ما صفا وضفت منه البرود .

ونبدي لعلمه الشريف أن مفاوضته الشريفة وردت علينا جواباً عما كتبناه إلى حضرته الشريفة على يد المجلس العالي الاميري الشهابي

احمد بن غلبك وسيف الدين فاني بيه الناصري الجهزين صحبة المجلس العالي الأميري الجلالي اطلمش لزم المقام الشريف بوصول الأمير جلال الدين اطلمش إلى حضرته الشريفة طيباً مبدياً بين يديه ما حملناه من رسائل الأشواق ، مبيناً ما هو اللائق بخلاله الحسنة عن حضرتنا ما دبّج به الأوراق ، شاكراً لإنعاماتنا التي هي في الحقيقة من شيم فضلكم الخفاق ، مثبتاً منه ومن فحوى الخطاب في نظم الكتاب صدق المقال وصحة العهد ورسوخ الميثاق . وانه قد ثبت بما بث من غرائب المعاني حصول الأماني ، وسرى بعدُ مايكون من هدايا التهاني ، وان الذي اتفق الآن هو المطلوب ، والمكتوب به إلى والدنا الشهيد الطاهر أولاً هو المرغوب ، وخلافه كان موجباً لنقل الحركات الشريفة إلى جهة البلاد وما اتفق فيه للعباد ، ولكن كلٌ بقضاء وقدر .

ولما حصل قبول الإشارة بتجهيز الرسل والأمير أطلمش ، صارت القلوب متفقة ، والعيون قارّة ، وصفت موارد الصفاء ، وضفت برود الوفاء ، وقطعت حبال المنافاة والجفاء . وان المقام الشريف كان أقسم في كتبه قسماً وأعاده ، ثم فصل مجمله وأفاده : وهو ـ والله الطالب الغالب ، المدرك المهلك الحي الذي لاينام ولايموت ـ من يومه هذا لايخالف ما صدر من عقد الصلح المسطور ، ولايرجع عن حكمه للعهد المزبور ، ويحب من يحبنا ، ويبغض من يبغضنا ، ويكون سلماً لمسالمينا وحرباً لمحاربينا ، ومتى استنصرنا به على أحد من مخالفينا أمدنا بما شئنا من العساكر ، وانه امرٌ ما ناله أحد من الناس غيرنا وانه لو كان القسم على الوجه الذي ذكره مصرحاً مذكوراً في لفظ الكتاب وعبارة الخطاب لكان أوضح ، والتبيين أملح . وانه حيث كان بأطراف ممالكه المجاورة لممالكنا أحد من المفسدين يجهزه إلينا مقيداً ، وحيث كان أحد من

المفسدين بممالكنا المجاورة لممالكه يعرفنا به لنجهزه إليه : لا تفاق الكلمتين ، واتحاد المملكتين ، وطمأنينة لقلوب الرعايا والسالكين من الجهتين ، وما تفضل به من سؤال المقام الشريف لله عز وجـــل زيادة أسباب دولتنا ونمو ايالتنا ، وان الهلال اذا رأيت نموه أيقنت أن سيصير بـدراً كاملاً ، وإنا سنرى ما يصنعه المقام الشريف من الفضل المنيف ومن تلافي الأمور ما يظهر للخاصة والجمهور ، مما يزيد بدرنا نمواً ، وقدرنا بين المــلوك سمواً ، لأنـــه لنا أكفى كفيل واشفق من الوالد والصاحب والخليل ، وإن من علامة الصفا إظهار ما خفى ، وهو أن في أطراف ممالكنا الآن بلاداً كانت داخلة في ممـــالكه وهي : ابلستين وملطية وكركر وكختا وقلعة الروم والبيرة ، وانه كان حُمِل معناها على لسان المجلس السامي النظامي مسعود الكججاني أولاً ، المجهز الآن صحبة الأمـــير شهاب الدين بن غلبك وسيف الدين قاني بيه ، فإن القصد أن نأمر من بها من النواب أن تسلمها لنوابه ، والمعول في انتظام الأمور على ما تحمــله المشار إليه وعول عليه ، وأنه شاكر لمرافقنا ، موافق لمواقفنا ، وأنـه يصغي إلى ما نبديه ، ونتحف به ونهديه على الصورة التي أبداها ، والتحية التي بكريم الشيم أهداها ، فقد علمنا ذلك جملة وتفصيلاً ، وشكرنا حسن صنيعه إقامة ورحيلاً ، وتضاعف سرورنا بوصول الأمير أطلمش إلى الحضرة الشريفة . ووصل إلينا الأمير شهاب الدين بن غلبك وسيف الدين قاني بيه مرتلين من ذكر محاسنكم ترتيلا . وعرضنا ماتفضلتم به في حقنا إكراماً وتوقيراً وتبجيلاً وأنهيا بين أيدينا ما عوملا به من الفضل الذي ماعليه من مزيد ، والبر الذي تعجز الفصحاء أن تبدىء بعض محاسنه أو تعيد ؛ وانهما كانا كل يوم من توفر الفضل في يوم عيد ، وحصل لهما من الإقبال ما لايحصى بالحصر والتحـديد ؛ فحمدنا المقام الشريف الوالدي حسن هذا الفضل العام ، وشكرنا جميل تفضّله

الذي أخجل الغمام ، وتزايد شوقنا وحبنا حيث زَمْزَمَتْ ألفاظ المفاوضة الشريفة إلى ذلك المقام

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وهذا هو اللائق بالخلال الشريفة ، والمؤمل في جلال صفاته المنيفة. ووصل الخواجا نظام الدين صحبتها مبدياً عن جنابكم من رسائل المحبة والصفاء والمودة والوفاء ، ما يعجز عن وصفه الناظم والناثر ، مظهراً من حسن المودة وغزير المعرفة ما يفخر به الموالي والمؤاثر ، سالكاً من تأكيد أسباب الصلح ما تتجمل به مفارق المفاخر ، معتذراً عما تقدم فما قدّر بما يكون سبباً لإصلاح الآخر ، متكفلاً عن صفاء طويتكم لنا بما يسر السرائر ، فضاعفنا إكرامه ورادفنا إنعامه ، ووفرنا من العز أقسامه ، وأنزلناه منزلاً يليق به ، ووصلنا كل خير بسببه . وماهو إلا مستحق لكل ما يراد به من فيض فضل وفضل .

وأما ما أشار إليه من إعادة القسم تأكيداً للصلح وتوضيحاً للنجح . ولو كان القسم الذي أقسمنا به مصرحاً لكان أولى . فقد علمنا ذلك . وكتبنا ألفاظ القسم في كتاب الصلح مصرحة ، وأعدناه إلى حضرته ليُقرأ على مسامعه الشريفة ، ويشمله الخط الشريف ويعاد إلينـا . ونحن نكرر القسم بباريء النسم الذي لا إله إلا هو الطالب الغالب ، المدرك المهلك ، الحي الذي لاينام ولايموت ، أننّا من يومنا هذا لانخالف ما انتظم من عقد الصلح المسطور إلى يوم البعث والنشور ، ولانحل عراه الوثيقة المشار إليها ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ونكون حرباً لمن حاربه وسلماً لمن سالمه ، ومبغضين لمبغضيه ومحبين لمحبيه ، ومن أشار بإشاره ، أوشن على أحد من رعاياه غارة ، رادفنا إسعافه ، وضاعفنا استظهاره ، وأخلصنا القول والعمل في مصافاة المقام الشريف

لأن الصلح بحمد الله قد تم وكمل فيكون ذلك في شريف علمه .

وأما ما أشار إليه من أمر القرى التي قصد تسليمها لنوابه ، وأنها داخلة في حدود مملكته كأبلستين وملطية وكركر وكختا وقلعة الروم والبيرة فقد علمنا ذلك . ونحن نبدي إلى علومه الشريفة أن هذه البلاد لايحصل لنا منها خراج ، ولاينال ملكنا ونوابنا منهـا في كل وقت إلا الانزعاج ، وإذا جهزنا إليها أحداً من النواب نتكفل له غالباً بالخيل والرجل والركاب ، وبضواحيها من سراق التركمان وقطاع الطرق مـن العربان ما لايخفى عن مقامه ، ولوكانت دمشق أو حلب أو أكـبر من ذلك مماله (؟) عن الطلب ما توقفنا فيها عن قبول إشارته لتأكيد المحبة واتحاد الكلمتين من الجانبين في أعلى رتبة . غير أن لتسليمها من الوهن لمملكتنا منافاة لما تفضل به المقام الشريف من سؤال الله تعالى في زيادة سلطنتنا ، خصوصاً وقد وعد المقام الشريف الوالدي بما سنرى ، وسوف تظهر نتيجته مما يتفضل به بين الورى . وإن الذي سمح لنـا به من الاستظهار مانالـه أحد من الناس . وما حصل لنا بما أبداه الخواجـا مسعود بين أمراء دولتنا من المشافهة عن مقامه الشريف من قوة الجأش والإيناس . ونحن نترقب بيمن حركاته وسديد إشاراته ، زيادة الخير في النفس والملك والمال ، ونتوقع من جميل كفالته السعادة الأبدية في الحال والمآل ، فيكون ذلك في شريف علمه .

وقد جهزنا بهذه المفاوضة المجلس العالي الأميري الكبيري الأعزي الأخصي المقربي المؤتمني الاوحدي النصيري مجـد الإسلام والمسلمـين ، شرف الامراء الخواص في العالمين ، منتخب الملوك والسلاطين ، منكلي بغا الناصري أمير حاجب ، أدام الله تعالى سعده وأنجح قصده ، وعلى يده من الهدية المصرية ماتهيأ تجهيزه بمقتضي القائمة الملصقة بذيلها . واعدنا

المجلس العالي النظامي مسعوداً ، ومن معه إلى المقام الشريف متحملين من رسائل الاشواق والاتحاد ما لايقع عليه الحصر والتعداد . وما اخرنا الخواجا نظام الدين مسعوداً هذه المدة بالباب الشريف إلا لأمر عرض من قضية السلطان أحمد بن أويس وهربه من بغـــداد إلى حلب . وجهزنا من الباب الشريف من يحضره إلى دمشق ليحصل منه الأرب. ثم بعد ذلك بأيام ورد الخبر من كافل الشام المحروس بوصول قـرا يوسف بن قرا محمد إلى دمشق في نفر قليل ، فجهزنا أحد الأمراء إلى كافل الشام بمثال شريف يتضمن القبض على السلطان أحمد بن أويس وقرا يوسف المذكورين وإيداعهما الاعتقال بقلعة دمشق المحروسة ، وفاء للعهد وتأكيداً ، وحملنا الأمير سيف الدين منكلي بغا المذكور مشافهة في معناهما . والقصد من جميل محبته وجزيل أبوته قبول المجهز من ذلك وبسط العذر فيه إذا وصل إلى حضرته هنالك : لأن الديار المصرية وأعمالها حل بها من المحل لعدم طلوع النيل في هـــذه السنة مالا يحصر ولا يحصى ولاسمع بمثله . وشمول نسخة الصلح المعادة بالخط الشريف ومضاعفة إكرام حاملها الأمير منكلي بغا بالبر الوريف والاصغاء إلى ماتحمله من المشافهة في معنى أحمد بن أويس وقـرا يوسف . والله تعالى يشيد بتمهيده قواعد الدين الحنيف بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى .

صبح الاعشى للقلقشندي ج ٧ ص ٣٢٥ – ٣٣١

٢٤٦ – رسالة إلى السلطان فرج بن برقوق من صاحب فاس السلطان أبي سعيد عثمان المريني ابن أبي عباس يتعرض لغزوة تيمورلنك لبلاد الشام سنة ٨٠٤ هـ .

من عبد الله ووليه عثمان أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين

سلطان الإسلام والمسلمين ، ناشر بساط العدل في العالمين ، المقتدي بآثار آبائه الكرام ، المقتفي سننهم الحميدة في نصرة الإسلام ، المعمل نفسه العزيزة في التهمم بما قلده الله من أمور عباده وحياطة ثغوره وبلاده ، سيف الله المسلول على أعدائه ، المنتشر عدله على أقطاره المعمور وأنحائه، ظل الله تعالى في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ، عماد الدنيا والدين ، علم الأئمة المهتدين ، ابن مولانا السلطان المظفر القان الخليفة الإمام ، ملك ملوك الأعلام ، فاتح البلدان والأقطار ، ممهد الأقاليم والأمصار جامع أشتات المحامد ، ملجأ الصادر والوارد ، الملك الجواد ، الذي حلت محبته في الصدور محل الأرواح في الأجساد ، أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي العباس ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي سالم ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، وصل الله تعالى أسباب تأييده وعضده ، وقضى باتصال عرف تجديد سعده ، وأناله من جميل صنعه ما يتكفل بتيسير أمره وبلوغ قصده .

إلى أخينا الذي نؤثر حق إخائه الكريم ، ونثني على سلطانه السعيد ثناء المولى الحميم ، ونشكر ماله فينا من الحب السليم والود الثابت المقيم ، السلطان الجليل الماجد الأصيل الأعز الخطير المثيل ، الشهير الأمجد الأرفع ، الهمام الأمنع ، السري ، الأرضى ، المجاهد الأمضى الأوحد الأسنى المكين الأحمى ، خديم الحرمين الشريفين ، حائز الفخرين المنيفين ، ناصر الدنيا والدين ، محيي العدل في العالمين ، الأجد الاود المكين الأخلص الأفضل الأكمل أبي السعادات فرج ابن السلطان الجليل الأعز المثيل الخطير الأصيل الأرفع الأمجد ، الشهير الهمام الأوحد ،

الأسمى الأسرى الارضى المجاهد الامضى خديم الحرمين الشريفين حائز الفخرين المنيفين ، الافضل الاكمل المبرور المقدم ، المرحوم أبي سعيد برقوق بن أنص ، وصل الله تعالى لسلطانه المؤيد جداً لايعجم عوده وعزاً لايميل عموده ، ونصراً يملأ قطره بما يغص به حسوده ، وعضداً يأخذ بزمام أمله السني فيسوقه ويقوده .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله على سبوغ نعمائه وترادف لطفه وآلائه ، الذي عرفنا من ولائكم الكريم ماسرنا من اطراد اعتنائه ، وأبهج النفوس والأسماع من صفاء ولائه ومواصلة صفائه . والصلاة والسلام الأكملين على سيدنا ومولانا محمد خاتم رسله وأنبيائه ، ومبلغ رسالاته وأنبائه ، صاحب المقام المحمود والحوض المورود واللواء المعقود ، فأكرم بمقامه وحوضه ولوائه ، والرضا عن آله وصحبه وأوليائه ، الذين هم لـلدين بدور اهتدائه ونجوم اقتدائه ، وصلة الدعاء لمقامكم الكريم بدوام عزه واعتلائه ، واقتبال النصر المبالغ في احتفاله واحتفائه ، وحياطة أنحائه وأرجائه ، وتأييد عزماته وآرائه .

فإنا كتبنا إليكم - كتب الله لكم سعداً سافراً وعزماً ظافراً - من حضرتنا العلية بالمدينة البيضاء - كلأها الله تعالى وحرسها - ونعم الله سبحانه لدينا واكفة السجال ، وولاؤه ، جل جلاله ، سابغ الأذيال ، وخلافتكم التي نرعى بعين البر جوانبها ، ونقتفي في كل منقبة كريمة سيرها الحميدة ومذاهبها . وإلى هذا وصل الله سعدكم ووالى عضدكم ، وكتابنا هذا يقرر لكم من ودادنا ما شاع وذاع . ويؤكد من إخلاصنا إليكم ما تتحدث به السماء فتوعيه جميع الأسماع . وقد كان انتهى إلينا حركة عدو الله وعدو الإسلام ، الباغي بالاجتراء على

عباده وسبحانه بالبؤس والانتقام ، الآخـــذ فيهم بالعيث والفساد ، الساعي جهده في تهديم الحصون وتخريب البلاد ، وتعرفنا أنه كان يعلق أمله الخائب بالوصول إلى أطراف بلادكم المصرية ، وانتهاز الفرصة على حين غفلة من خلافتكم العلية . والحمد لله الذي كفى بفضله شره ودفع نقمته وضره ، وانصرف ناكصاً على عقبـه ، خائباً من نيل أربـه ، وقـــد كنا حين سمعنا بسوء رأيه الذي غلبه الله عليه ، وما أضمر لخلق الله من الشر الذي يجـده في أخراه ظله الذي يسعى بين يديه ، عزمنا على أن نمدكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه الفضاء ، ونجهز لجهتكم من أساطيلنا المنصورة ما يحمد في امداد المناصرة ويرتضى ، فالحمد لله الذي كفى المؤمنين القتال وأذهب عنهم الأوجال ويسر لهم الأعمال ، وهيأ لخلافتكم السنية والمسلمين هناء يتضمن السلامة لكم ولهم على تعاقب الأعوام والسنين . وبحسب ما لنـا فيكم من الود الذي أسست المصافاة بنيانه ، والحب الذى أوضح الإخلاص برهانه ، وقع تخيرنا فيمن يتوجه من بابنا الكريم لتفصيل مجمـــله ، وتقرير ما لدينا فيه على أتم وجه الاعتقاد وأكمله ، على الشيخ الأجل الشريف المبارك الأصيل الأسنى الأحظى الأعـز الحاج المبرور الأمـين الأحفل الأفضل الأكمـــل أبي عبد الله محمد ابن الشيخ الأجل الأعـز الأسنى الأوجه الأفوه الأرفع الأمجـد الآثر ، الأزهى الشريف الأصيل المعظم المثيل ، الأشهر الأخطر الأمثل الأجل الأفضل الأكمل المرضي المقدس المرحوم أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم بن نفيس الحسني العراقي ، وصل الله سعادته وأحمد على حضرتكم السنية وفادته ـ حسب ما يفي بشرح ما حملناه نقـله ، ويكمل بإيضاحه لديكم يقظته ونبله ، إن

شاء الله تعالى ، وهو سبحانه وتعـــالى يديم سعادتـــكم ويحفظ حادثكم ، ويسنى من كل خير إرادتكم . والسلام عليكم ورحمـة الله وبركاته .

صبح الأعشي للقلقشندي ج ٨ ١٠٣ - ١٠٦

٢٤٧ - رسالة السلطان فرج بــــن برقوق الجوابية إلى السلطان أبي سعيد المريني سلطان مراكش يشرح له فيها واقعة تيمورلنك من إنشاء القلقشندي نفسه :

عن عبد الله ووليه السلطان الأعظم - إلى آخر ألقاب سلطاننا - أجرى الله تعالى الأقدار برفعة قدره ، وأدار الأفلاك بتأييده ونصره وأذل رقاب الأعداء بسطوته وقهـره ، وشحن الأقطار بسمعته ومـلأ الآفاق بذكره ، يخص المقام العالي - إلى آخر الألقاب - رفع الله له في ملكه الشامخ منـاراً ، وجعل النصر والظفر له شعاراً ، وأحسن بحسن مواتاته إلا لأهل الكفر جواراً ، بسلام يفــوق العبير عبيقه ، ويزري بفتيق المسك الدراري فتيقه ، ويخجل الروض المنمنم إذا تزين بالبهار خلوقه ، وثناء تكل الألسنة البليغة عن وصفه ، ويعجز بنـاة المجد الأثيل عن حسن رصفه ، وتعترف الأزاهر بالقصور عن طيب أرجه ومسك عرفه ، وشكر يوالي الورد فيه الصدر ، ويحقق الخـبر فيه الخبر ، ويشيع في الآفاق ذكره فتتخذه السمار حديث سمر .

أما بعد حمد الله واصل أسباب المودة وحافظ نظامها ، ومؤكـد علائق المحبة بشدة التئامها ، ورابط جأش المعاضدة باتحاد كلمتها وتناسب مرامها ، ومجدد مسرات القلوب بتوالي أخبارها المبهجة عـن عالي مقامها ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل نـبي رعى الذمام على

البعاد ، واكرم رسول قرن صدق الإخاء منـه بصحة الوداد ، صلاة تبلغ من رتبة الشرف منتهاها ، وتنطوي الشقة البعيدة دون بلوغ مداها ، فانه ورد علينا على يـد رسولكم فلان كتاب كريم طاب وروده وتهللت بالبشر سعوده ، وشهد بصدق المحبـة الصادقة شهوده ، وطلع مـن الجانب الغربي هلاله ، فلاحت بالمشرق بحسن التلقي سعوده ، فقرّ منه برؤيته الناظر ، وابتهج بموافاته الخاطر ، ولاحت من جوانبه لوائح البشر ، فأحسن تلقيه سلطاننا الناصر .

وقابلناه من القبول بمـا كاد باطنه لكمال الموافاة يكون عنواناً للظاهر ، وفضضنا ختامه المصون عن بديع كلام مخترع ، وبنات فكر قبله لم تفترع ، وفصاحة مـن أحسن اللسن مبانيها ، وبلاغة تناسبت ألفاظها فكانت قوالب لمعانيها ، وبراعة قـد أحسنت البديهة ترتيبها فجاءت وتواليها تتبع هواديها . وفهمنا ما أظهره من كوامن المحبة التي بلغت من القلب الشغاف ، وبوارح الشوق الذي عندنا من مثله أضعاف وانتهينا إلى ما أشار المقام العالي من التلويح إلى ما طرق أطراف ممالكنا الشريفة من طارق الاعتدا ، وما كان من الواقعة التي كاد خبرها لفظاعته يكون كالمبتدا. ونحن نبدي لعلم المقام العالي ما يوضح له أن ما وقع من هذه القصة لم يكن من سوء تدبير ، ونورد عليه من بيان السبب ما يحقق عنده أن ذلك لم يكن لعجز ولا تقصير ، بل لأمر قدر في الأزل ، ومقدور الله تعالى لا يدفع بالحيل .

وذلك أنه لما اتصل بمسامعنا الشريفة قصد العدو إلى جهتنا ، وتجاوزه حد بلاده إلى أطراف مملكتنا ، بادرنا الحركة إليه في عسكر لجب ، وجيوش يضيق عن وسعها الفضاء الرحب ، من كل بطل عركته الحروب ، وثقفته الخطوب ، وحنكته التجارب ، وعجم عوده بكثرة المنازلات

قراع الكتائب ، قد امتطى طرفاً عربي الأصل كريم الحسب خالص العتق صريح النسب ، يفوت الطرف مدى باعـــه المديد ، ويسبق حافره موقـــع بصره الحديد . ولبس درعاً قد أحكم سردها وأبرم شدها ، وبالغت في السبوغ فاتصفت بصفات الكرام ، وضاقت عينها فمنعت شبحاً حتى ذباب السهام . ووضع على رأسه بيضة يخطف الأبصار وميض برقها ، وتزلق السهام الراشقة صلابة طرقها ، وترفعه الأبطال على الرؤوس فلا ترى أنهـا قامت ببعض حقها ، تقلد سيفاً يمضي على الرقاب نافذ حكمه ، ويقضي بانقضاء الأجـل انقضاض نجمـه ، لا ينبو عن ضريبة فيرد ، ولا يقف حده في القطع عند حد . واعتقل رمحاً يجري الدماء سنانه بأنابيبه ، ويمد إلى الفارس باعـــه الطويل فيأخذ بتلابيبه ، وتتمسك المنايا بأسبابه فتتعلق منه بالأذيال ، وتضرس الحرب بزرق أنيابه كأنها أنياب أغوال . وتنكب قوساً موعز الآجال هلال هلالها ، ومورد المنون إرسال نبالها ، ومدرك الثـــأر رنة وترها ، وموقد نار الحرب قدح شررها ، قـد اقترن بها سهام تسابق الريـح في سرعتها وتعاجل المـــوت بصرعتها ، وتختطف العيون في ممرها ، وتختلس النفوس من مقرها ، تدخل هجماً كل محتجب ، وتأتي الحذر من حيث لا يحتسب . وتناول عموداً يهجم على الأضالع بأضلاعه فيفدعها ، ويصافح الرؤوس بكفه الملتحمة الأصابع فيدمغها ، يقرب من الأجل كل بعيد ، ويخلق من العمر كل جديد ، ولا يقاومه في الدفاع بيضة ، وأنى تقاوم البيضة زبرة من حديد .

وتحركنا من الديار المصرية في جيوش لا يأخذها حصر ، ولا يلحقها حصر ، ولا يظن بها على كثرة الأعداد كسر ، ولم نزل نحث السير ونسرع الحركة للقاء العدو إسراع الطير ، حتى وافينا دمشق المحروسة فنزلنـا

بظاهرها ، مستمطرين النصر في أوائـل حركتنا وأواخرهـا . وانضم إلينا من عساكر الشام وعربانها وتركانها الزائدة على العـد وعشرانها ، ما لم ينقطع له مدد ولا يدخل تحت حصر ولا عدد . وأقبل القوم في لفيف كالجراد المنتشر وأمواج البحر الـتي لا تنحصر من أجناس مختلفة وجمـوع على تباين الأنواع مؤتلفة ، وتراءى الجمعان في أفسح مكان ، ورأى كل قبيل الآخر رأي العين وليس الخبر كالعيان . واعتمد الفريقان للنزال ، واحتفروا خنادق للاحتراس ، وتبوأنا مقاعد للقتال ، ولم يبق إلا المبارزة والتقاء الصفوف والمناجزة ، إذ ورد وارد مـن جهتهم يطلب الصلح والموادعة والجنوح إلى السلم وقطـع المنازعـة ، فأجبناهم بالإجابة ، ورأينا أن حقن الدماء من الجانبين من أتم مواقع الرأي إصابة ، وكتبنا إليهم في ضمن الجواب :

لمـا أتانا منكم قاصد ... يسأل في الصلح وكف القتال
قلنـا له نِعمَ الذي قلتـه ... والصلح خير وأجبنا السؤال

فبينا نحن على ذلك واقفون من المواعدة على الموادعة على ما هنالك ، إذ بلغنا أن طائفة من الخونة الذين ضل سعيهم ، وعاد عليهم بالوبال ، ولله الحمد ، بغيهم ، توجهوا إلى الديار المصرية للاستيلاء على تخت ملكنا الشريف في الغيبة ، آملين ما لم يحصلوا منه إلا على الخيبة . فلم يسع الا الاسراع في طلبهم ، للقبض عليهم وايقاع النكال بهم ، وجازيناهم بما يجازي به الملوك من رام مرامهم . وظن العدو أن قصدنا الديار المصرية إنما كان لخوف أو فشل ، فأخذ في خداع أهل البلد حتى سلموه إليه وفعل فعلته التي فعل ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

ثم لم نزل ندأب في تحصين البلاد وترويج أعمالهـا وترتيب أمورها وتعديل أحوالها ، حائطين أقطارها المتسعة بجيوش لا يكل حدها ،

ولا يعقب بالجزر مدها ، ليكونوا للبلاد أسواراً ، وللدولة القاهرة إن شاء الله تعالى أعواناً وأنصاراً . وأعـــاد الله تعالى المملكة إلى حالها المعروف وترتيبها المألوف ، فاستقرت بعـد الاضطراب وتوطنت بعـد الاغتراب .

وفي خلال ذلك ترددت الرسل إلينا في عقد الصلح وإمضائه ، ودفن ما كان بين الفريقين من المباينة وإخفائه ، فـلم يسعنا التلكؤ عـــن المصالحة ، بل سعينا سعيها ، والله تعالى يقول : وإن جنحوا للسلم فاجنح لها [1] ، فعقدنا لهـم عقد الصلح وأمضيناه ، وأحكمنا قواعده توكلاً على الله تعالى وأبرمناه ، وجهزنا إليهم نسخة منه طمغت بطمغة قانهم عليها ، وأعيدت إلينا بعد ذلك ليكون المرجع عند الاختلاف ، والعياذ بالله تعالى ، إليها . فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً [2] .

والله تعالى يجنب إخاءكم الكريم مواقـــع الغير ، ويقرن مودته الصادقة بصفاء لا يشوبه على مر الزمان كدر ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

صبح الأعشى للقلقشندي حـ ٧ ٤٠٧ – ٤١١

(١) سورة الأنفال الاية ٦١ .
(٢) سورة الفتح الاية ١٠ .

فهرس الوثائق[1]

---

(١) يدل الرقم الموضوع أمام اسم الوثيقة على رقم الوثيقة لا رقم الصفحة .

١٩ ـ رسالة شاور إلى شيركوه اثناء حصاره له في بلبيس
٢٠ ـ « شيركوه إلى شاور لما قدم مصر ثاني مرة .
٢١ ـ « شاور إلى ملك القدس مري .
٢٢ ـ « مري إلى شاور .
٢٣ ـ جواب شاور إلى مري .
٢٤ ـ « مري إلى شاور .
٢٥ ـ رسالة مري إلى شاور لما احتل بلبيس .
٢٦ ـ « حاكم حارم الصليبي إلى الصليبيين .
٢٧ ـ « القاضي الفاضل إلى أهل مدينة قوص يصف احدى غزوات صلاح الدين .
٢٨ ـ رسالة من صلاح الدين إلى نور الدين حول غزوة الكرك والشوبك .
٢٩ ـ « شمس الدين بن المقدم إلى الفرنج .
٣٠ ـ « صلاح الدين إلى ابن ابي عصرون حول اتفاق أهل دمشق مع الفرنج .
٣١ ـ نص آخر لكتاب صلاح الدين إلى ابن أبي عصرون حول نفس الموضوع .
٣٢ ـ رسالة صلاح الدين إلى بعض انصاره عن وفاة ملك القدس مري .
٣٣ ـ « « « ملك القدس الجديد بردويل .
٣٤ ـ « « « « الملك العادل عن تحالف الحلبيين مع الفرنج ضده .
٣٥ ـ رسالة صلاح الدين إلى خليفة بغداد عن قدوم نجدة إلى الفرنج .
٣٦ ـ « « « أخيه تورانشاه عن معركة الرملة .
٣٧ ـ فصول من رسالة القاضي الفاضل إلى صلاح الدين بعد معركة الرملة .

٧٤ ـ فصل من رسالة صلاح الدين للخليفة يشرح حالة الجيش الإسلامي المتعبة حول عكا .

٧٥ ـ رسالة صلاح الدين للخليفة عن تدفق الإمدادات على الفرنج حول عكا .

٧٦ ـ « ثانية منه « « « « « « « «

٧٧ ـ « ثالثة منه « « « « « « « «

٧٦ مكرر ـ فقرات من رسالة صلاح الدين للخليفة حول احراق الأبراج الثلاثة حول عكا .

٧٧ مكرر ـ رسالة صلاح الدين الى العادل حول انتصار الاسطول الاسلامي في البحر الأحمر .

٧٨ ـ قطعة من رسالة صلاح الدين الى العادل يأمره بقتل أسرى الغزوة السابقة .

٧٩ ـ قطعة من رسالة صلاح الدين الى العادل يأمره بقتل أسرى الغزوه السابقة .

٨٠ ـ قطعة من رسالة صلاح الدين الى الخليفة عن غزوة البحر الأحمر السابقة .

٨١ ـ قطعة من رسالة صلاح الدين الى الخليفة عن غزوة البحر الأحمر السابقة .

٨٢ ـ قطعة من رسالة صلاح الدين الى الخليفة عن انتصار اسطوله في البحر المتوسط .

٨٣ ـ رسالة صلاح الدين الى ملك الموصل يشكره لإرسال ولده على رأس مدد .

٨٤ ـ رسالة صلاح الدين الى ملك اربل يشرح الوضع الصعب حول عكا.

٨٥ ـ « « « « أخيه في اليمن « « « « وداخلها .

٨٦ ـ رسالة أهل عكا المحصورين الى صلاح الدين لما ضاق بهم الأمر .

١١٠ ـ جواب صلاح الدين .
١١١ ـ رسالة ملك الانكليز لصلاح الدين عن الصلح والقدس .
١١٢ ـ جواب صلاح الدين لملك الانكليز عن الرسالة السابقة .
١١٣ ـ رسالة أخرى من ملك الانكليز الى صلاح الدين عن الصلح .
١١٤ ـ جواب صلاح الدين .
١١٥ ـ جواب ملك الانكليز .
١١٦ ـ رسالة أخرى من ملك الانكليز لصلاح الدين عن الصلح .
١١٧ ـ جواب صلاح الدين .
١١٨ ـ « ملك الانكليز .
١١٩ ـ جواب صلاح الدين .
١٢٠ ـ « ملك الانكليز .
١٢١ ـ « صلاح الدين .
١٢٢ ـ « ملك الانكليز .
١٢٣ ـ رسالة ملك الانكليز للعادل عن الصلح .
١٢٤ ـ رسالة صلاح الدين للعادل حول عرض ملك الانكليز الأخير
١٢٥ ـ « حاكم صور الصليبي لملك لانكليز .
١٢٦ ـ « كندهري لصلاح الدين .
١٢٧ ـ « صلاح الدين للخليفة يشرح أحواله بعد استرجاعه يافا .
١٢٨ ـ « « « « ثانية يشرح الهدنة العامة .
١٢٩ ـ « الملك العادل إلى الملك المنصور صاحب حماة .
١٣٠ ـ « « « « « « « « ثانية .
١٣١ ـ « « « « « « « « لما تحارب مع الفرنج وكسرهم .
١٣٢ ـ رسالة الملك العادل إلى الملك المنصور صاحب حماة ثانية .

١٣٣ – رسالة القاضي الفاضل إلى العادل يحثه على الجهاد .
١٣٤ – « « « « « « « « ثانية .
١٣٥ – « فريدريك الثاني إلى الكامل لما وصل إلى سورية .
١٣٦ – « « « « « « ثانية .
١٣٧ – « أرسلها إلى الملك الكامل مندوبه الذي تفاوض مع فريدريك
١٣٨ – « فرنج دمياط للكامل حول رد صواري أخذها منهم قائده .
١٣٩ – جواب قائد الكامل له حول موضوع الصواري .
١٤٠ – رسالة الملك المعظم عيسى إلى نائبه في دمشق لاعلان الجهاد .
١٤١ – « لويس التاسع إلى الملك الصالح .
١٤٢ – جواب الملك الصالح للويس التاسع .
١٤٣ – رسالة الملك المعظم تورانشاه إلى نائبه في دمشق يبشره بظفر المنصورة .
١٤٤ – رسالة صاحب طرابلس الفرنجي للظاهر بيبرس .
١٤٥ – جواب بيبرس .
١٤٦ – رسالة بيبرس لفرنج عكا .
١٤٧ – رسالة شارل ملك صقلية لبيبرس .
١٤٨ – « بيبرس لملك قبرص .
١٤٩ – « جوابية من بيبرس إلى مقدم الاسبتارية .
١٥٠ – « بيبرس إلى فرنج عكا من أجل ملكة بيروت .
١٥١ – « « لابن خلكان بأخذه قيسارية .
١٥٢ – « « « « « صفد .
١٥٣ – نص الهدنة المعقودة بين بيبرس واسبتارية حصن الأكراد .
١٥٤ – رسالة بيبرس لابن خلكان بأخذه حصن الشقيف .
١٥٥ – « « « « « يافا .
١٥٦ – « « « « « أنطاكية .

بيان أذاعه السلطان أحمد المغولي في بغداد يعلن اسلامه .

٢٢١ - رسالة أحمد المغولي الى قلاون .

٢٢٢ - جواب قلاون .

٢٢٣ - رسالة أخرى أرسلها أحمد المغولي لقلاون .

٢٢٤ - رسالة قلاون الى منكودمر المغولي .

٢٢٥ - رسالة جوابية من الملك الاشرف الى كيختوا ملك المغول .

٢٢٦ - « القان قازان الى الناصر محمد المملوكي .

٢٢٧ - جواب الناصر محمد عن الرسالة السابقة .

٢٢٨ - نص ثان لرسالة غازان للناصر محمد .

٢٢٩ - جواب الناصر محمد عن الرسالة السابقة .

٢٣٠ - نص مرسوم غازان لما احتل دمشق سنة ٦٩٩ ﻫ .

٢٣١ - نص الدعاء الذي دعي به في دمشق لغازان .

٢٣٢ - رسالة غازان لأهل دمشق لما احتلها .

٢٣٣ - مرسوم غازان بتقليد قبجق ولاية الشام .

٢٣٤ - رسالة غازان إلى الافرم المملوكي يعرض عليه الدخول في خدمته

٢٣٥ - رسالة نائب السلطان محمد له يبشره بكسر المغول في مرج الصفر.

٢٣٦ - رسالة محمد إلى غازان بعد كسره جيوشه في معركة شقحب .

٢٣٧ - « « إلى أبي سعيد بهادر آخر ملوك المغول من نسل هولاكو.

٢٣٨ - رسالة تيمورلنك إلى برقوق .

٢٣٩ - « برقوق الجوابية إلى تيمورلنك .

٢٤٠ - رسالة جوابية من برقوق إلى تيمورلنك .

٢٤١ - رسالة برقوق الجوابية إلى تيمورلنك حول طلب الأخير تسليمه أحد اللاجئين .

❋ ❋ ❋

مصادر الكتاب

١ ـ ابن الاثير ، ابو الحسن عز الدين علي . التاريخ الباهر في تاريخ أتابكة الموصل .

٢ ـ ابن الاثير ، ابو الحسن عز الدين علي . الكامل في التاريخ . القاهرة ، دار الطباعة المنيرية ، ١٣٥٦ هـ

٣ ـ ابن تغري بردي . النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩ م .

٤ ـ ابن خلدون ، عبد الرحمن. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . . بيروت ، مؤسسة الأعظمي للمطبوعات ، ١٩٧١ .

٥ ـ ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ م .

٦ ـ ابن شاكر الكتبي ، محمد بن أحمد . فوات الوفيات . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ م .

٨ ـ ابن شداد ، بهاء الدين . الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة . تحقيق سامي الدهان . دمشق ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٥٦ م .

٨ ـ ابن شداد ، بهاء الدين . كتاب سيرة صلاح الايوبي المساة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيه . تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة .

٩ - ابن صصري ، محمد بن محمد . كتاب الدرة المضية في الدولة الظاهرية . تحقيق وليم . م . بريز . بركلي ، كاليفورنيا ، ١٩٦٣ م .

١٠ - ابن عبد الظاهر ، محيي الدين . تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور . تحقيق مراد كامل . القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦٩ م .

١١ - ابن العبري ، أبو الفرج . تاريخ مختصر الدول . تحقيق أنطون صالحاني اليسوعي . بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٨٩٠ م .

١٢ - ابن العديم ، كمال الدين عمر بن أحمد . زبدة الحلب من تاريخ حلب . تحقيق سامي الدهان . دمشق ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٥١-١٩٦٨ م .

١٤ - ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي . شذرات الذهب في أخبار من ذهب . القاهرة ، مكتبة القدسي ، ١٣٥١ هـ .

١٤ - ابن الفرات ، ناصر الدين محمد . تاريخ ابن الفرات . تحقيق الشماع . البصرة .

١٥ - ابن الفرات ، ناصر الدين محمد . تاريخ ابن الفرات . تحقيق اسد رستم وقسطنطين زريق ونجلاء عز الدين . بيروت ، المطبعة الامريكية ، ١٩٤٢ م .

١٦ - ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة . ذيل تاريخ دمشق يتلوه نخب من تواريخ أبن الازرق الفارقي وسبط أبن الجوزي والحافظ الذهبي . تحقيق امدروز . بيروت ، مطبعة الاباء اليسوعيين ، ١٩٠٨ م .

١٧ - ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل . البداية والنهاية . القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٥١ هـ .

١٨ - ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم . مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي .

١٩ ـ أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل . كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية . تحقيق محمـــد حلمي محمد أحمد . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٦ .

٢٠ ـ أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية . القاهرة ، بولاق .

٢١ ـ الدواداري ، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك . كنز الدرر وجامـع الغرر وهو الدر الفاخر في سيرة الملك الظـــاهر . تحقيق هانس روبرت رويمر . القاهرة ، ١٩٦٠م .

٢٢ ـ ديورانت ، ول . قصة الحضارة . تعريب محمد بدران . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥ .

٢٣ ـ أبو الفداء ، عماد الدين إسمـــاعيل ، المختصر في أخبار البشر . القاهرة .

٢٤ ـ الذهبي ، محمد بن أحمد . كتاب العبر في خبر من عبر . تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد . الكويت ، دائرة المطبوعات والنشر ، ١٩٦٠ .

٢٥ ـ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن . تاريخ الخلفاء . الطبعة الثانية . تحقيق محمد محي الدين عبـــد الحميد . القاهـــرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٦٩ م .

٢٦ ـ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن . حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة .

٢٧ ـ الصيرفي ، الخطيب الجوهري علي بن داود . نزهة النفوس والأبدان . تحقيق حسن حبشي . القاهرة . مركز تحقيق التراث ، ١٩٧٠ م

٢٨ ـ العماد الاصفهاني ، محمد بن محمد . الفتح القسي في الفتح القدسي . تحقيق محمد محمود صبيح . القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر .

٢٩ ـ القلقشندي ، أبو العباس أحمد . كتـــاب صبح الأعشي في صناعة الإنشا . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩١٤ – ١٩١٩ م .
٣٠ ـ محمد بن تقي الدين عمـــر شاهنشاه الأيوبي . مضمار الحقائق وسر الخلائق . تحقيق حسن حبشي . القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٦٨ م .
٣١ ـ المقريزي ، تقي الدين احمد بـــن علي . الخطط المقريزيه . الشياح ، لبنان ، مكتبة إحياء العلوم .
٣٢ ـ المقريزي ، تقي الدين أحمـــد بن علي . كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٤ .
٣٣ ـ النويري ، شهاب الدين أحمد . نهاية الأرب في فنون الأدب . الطبعة الثانية . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩ م .
٣٤ ـ الهمذاني ، رشيد الدين بن فضل الله . جامع التواريخ في تاريخ المغول . تعريب محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد . القاهرة ، الادارة العامة للثقافة ، ١٩٦٠ م .
٣٥ ـ يوسف ، جوزيف نسيم . العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى الطبعة الثانية . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٧ م .
٣٦ ـ اليونيني ، قطب الدين ، أبو الفتح موسى بن محمد . ذيل مرآة الزمان . حيدر آباد الدكن ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٤ م .

* * *

الفهرس العام

ـ أ ـ

- ر -

- س -

- ش -

- ص -

- ط -

- ظ -

- ع -

- م -

- ن -

- ه -

- ي -

قائمة المحتويات

صفحة

تطلب جميع منشوراتنا من
الشركة المتحدة للتوزيع
بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٢٩٥٥٠١ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوفران